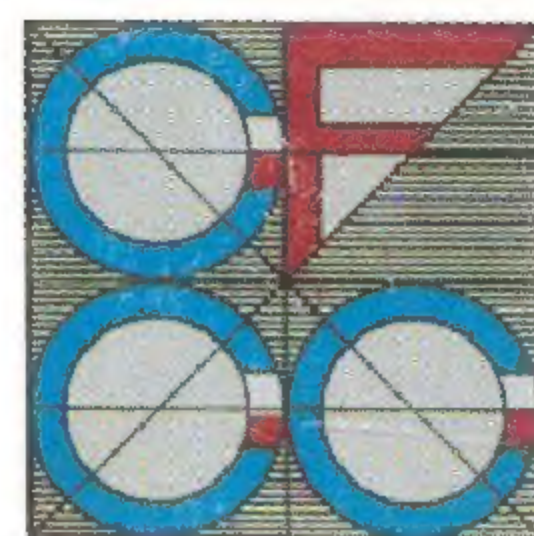




مارسيل ديتيين
جان بيير قرنان



جيل الذكاء

دهاء الإغريق المينيس

ترجمة: دكتور مصطفى ماهر



مارسيل ديتين
و جان پيير ثرنان

حيل الذكاء

دهاء الإغريق المتيقن

ترجمة
دكتور مصطفى ماهر

الطبعة الأولى
٢٠٠٠م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIH FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع المركز الفرنسي للثقافة
والتعاون (قسم الترجمة) التابع لسفارة فرنسا بالقاهرة

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Les Ruses de L'intelligence, la Mètis des Grecs

Marcel Detienne & Jean - Pierre Vernant

Flammarion 1989

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . علي السعيد علي

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم - رمز بريدي ١٢٥٦٧

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Alharan - A.R.E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharan P. C 12567

مقدمة المترجم

يرجع اهتمامي بالثقافة الإغريقية، سواء بمعناها الضيق أو معناها الواسع إلى وقت بعيد يصعب عليّ الآن تحديده بدقة. ولكنني أذكر أنني اهتمت بأطراف منها صبياً عندما درسنا تاريخ مصر القديم في التعليم الثانوي، أي منذ نحو نصف قرن من الزمان، فقد شد انتباهي أن فترات من تاريخ مصر القديم ارتبطت بالإغريق ارتباطاً شديداً. ثم مرت سنوات، وقمنا برحلات ثقافية إلى مواقع أثرية في الصعيد والدلتا وساحل البحر المتوسط والصحراء، فإذا الآثار الباقية - ومن بينها مدرجات المسرح - تشهد على مشاركة مصرية واسعة وعميقة في الثقافة الإغريقية بعد غزو الاسكندر الأكبر. وإذا كانت الثقافة الإغريقية قد اغترفت منذ بداياتها من المعين المصري، فقد تطورت الأمور فأصبح للمصريين عطاؤهم بالإغريقية. فنحن أمام ظاهرة من التداخل الثقافي الجديرة بالاهتمام الخاص والدرس الخاص أيضاً. ولنبحث عن هؤلاء الفلاسفة المصريين الذين كتبوا بالإغريقية، وهؤلاء الشعراء المصريين الذين كتبوا الشعر والملاحم بالإغريقية، وغير هؤلاء وأولئك في التخصصات المختلفة. ولنضع الحرب والشقاق والجدل جانبا. ونلقي الضوء على البناء والعمران.

فمصر لم تصنع الحضارة الأولى على غير مثال سابق فحسب، ولم تبتدع مفهوم الثقافة العالمية فقط بل أقامت صرحاً من الثقافات المتتابعة بعضها فوق بعض، وأقامت مناهج التبادل والتداخل والتفاعل المثمر لصالح البشر جميعاً. وقد انتقلت هذه المناهج إلى ربوع العالم المختلفة، واتسمت شيئاً فشيئاً بسمات العالمية، وعرف من عرف ضرورة التلاقح الثقافي وأثره على الحضارة. حتى إذا عكفتُ على دراسة تطور الحضارة العربية بعد الإسلام وجدتها حريصة على النظر إلى بعيد، وعدم الاكتفاء بالأفق الواحد، بل الانفتاح على الآفاق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. وهل ننسى ما شهدته حواضر الثقافة العربية الإسلامية من نقل نعم ثقافة الإغريق - وغيرها من الثقافات القديمة الهامة - إلى العربية، وإساعتها، وإبداع ثقافة جديدة غنية مؤثرة لعبت دوراً جوهرياً في تاريخ الإنسانية، فأنشأت بناءً شامخاً على أساس متين.

وهكذا استمر كلفني بالثقافة الإغريقية، وتدرج معي في مدارج التعليم العالي الذي انفتح أمامي فيه إبان دراستي آداب الغرب أفق الثقافة الأنتيكية، أي الإغريقية اللاتينية. فأثني

لطالب آداب الغرب - فرنسا، ألمانيا، إنجلترا، إيطاليا، إسبانيا وبلاد اسكاندينافيا- أن يفهم منها شيئاً فهماً صحيحاً، إلا بالرجوع إلى التراث القديم، لمعرفة أسس التحول الثقافي الأوروبي، ولم يعد من الممكن فهم وتذوق أدب وفكر أوروبا إلا بالنظر المتأمل في هذه المصادر الإغريقية واللاتينية.

وإذا كان المصريون قد حفظوا فيما يقولون ويكتبون كثيراً من مفردات الإغريقية ترجع إلى العصور الأولى، فقد تكرر الاعتراف اللغوي مرة أخرى على يد المترجمين الأول في أيام الأمويين والعباسيين، ودخلت في لغتنا كلمات مثل فلسفة وموسيقا، بل نلتقي بكلمات معربة أصبحت غريبة علينا اليوم مثل قاطيفوريا وهيولي واسطقس. وما عدنا إلى الترجمة منذ عصر محمد علي حتى عادت الكلمات اليونانية في ثوب فرنسي أو إيطالي أو إنجليزي تدخل العربية: دراما، كوميديا، تراجيديا، استراتيجية، طبوغرافيا، ديموقراطية، أرستقراطية، ناهيك عن بيولوجيا، فسيولوجيا، ميكروب، ميكروسكوب، تيليسكوب، فوتوغرافيا الخ هذه القائمة الطويلة. وعندما قام رفاعة الطهطاوي بترجمة كتاب فينيلون «تليماك» (تيليامخوس) وأسماء «مواقع الأفلاك في وقائع تيلياماك»، فقد كان على بينة من أنه ينقل إلى القارئ المصري والعربي كتاباً فريداً، ثرياً أعظم الثراء، قوامه التراث الإغريقي. وعندما نقل تلميذه محمد عثمان جلال حكايات الشاعر الفرنسي لافونتين «العيون اليواظظ في الأمثال والمواعظ»، نوه في مقدمته بإيسوب «أيسوبوس» Aisopos، هذا الشاعر الإغريقي الأسطوري الذي أسس أو قيل إنه أسس هذا النوع من الأدب التعليمي الجميل. وفعل عبد الله حسين نفس الشيء عندما ترجم عن الفرنسية كتاباً عن فلاسفة الإغريق.

أعاد المصريون اكتشاف الثقافة الإغريقية، وتزايد اهتمامهم بها تزايداً ملحوظاً، جديراً بالتقدير. حتى إذا قامت الجامعة المصرية الحديثة وجدناها توسع دائرة الدراسة لتشمل الفلسفة الإغريقية أولاً ثم الآداب الإغريقية والفنون الإغريقية والتاريخ الإغريقي، وظهرت ترجمات مجددة وجديدة، وكان لطف حسين في ذلك دور الريادة: منظراً ومؤلفاً ومترجماً. وقد استقرت دراسات الإغريقية واللاتينية في جامعاتنا، وبلغت درجات عالية في مجالات البحث والتعليم الأكاديمي والتعريف العام لجواهر القراء طلاب الثقافة الرفيعة. وهانحن أولاء نقترّب من افتتاح «مكتبة الإسكندرية» لتدخل بها عصراً جديداً من إحياء تراث رقيق، ونؤكد مفهوم التواصل.

ولم يكن اشتغالي بترجمة كتاب ألان دي ليبيرا «فلسفة العصر الوسيط» Alain de Libera, La philosophie médiévale era, فرصة لتجديد تناول هذه الفلسفة من منظور متكامل فحسب، بل لإعادة النظر في الفلسفة الإغريقية من البداية إلى العصر الوسيط أيضاً. وقد أحسن ألان دي ليبيرا تصوير دخول الفلسفة الإغريقية ثقافة العالم الإسلامي أولاً، ودخولها العالم الأوروبي الغربي بعد ذلك. قدّم روم الشرق، البيزنطيون، إلى المسلمين المتعطشين إلى العلم ما قدموا من تراث الفلاسفة وبخاصة أرسطوطاليس، ولم يسعوا هم إلى متابعة النظر فيما وصل إليه هذا التراث بين ظهرايتي المسلمين، فظل أهل أوروبا الشرقية على حالهم، يتكلمون لغاتهم، ويدينون بمذهبهم المسيحي الشرقي، وينشغلون بمشكلاتهم الخاصة. أما روم الغرب، أهل غرب أوروبا، الذين ظلوا يتكلمون لغاتهم ويضمون إليها اللاتينية وثقافتها، فلم ينقلوا الفلسفة الإغريقية في البداية عن البيزنطيين، فقد باعد بينهم الشقاق، والشقاق الديني خاصة، بل نقلوا عن المسلمين. ويقول ألان دي ليبيرا بوضوح إن المسلمين بما فعلوه بالفلسفة الإغريقية، وبما أبدعوه من فلسفة إسلامية هم الذين أعطوا أوروبا الغربية قاعدة ثقافتها المختلفة عن ثقافة أوروبا الشرقية، وإنهم هم الذين صنعوا أوروبا الغربية بطابعها المميز.

وكان من الخير أنني تعلمت في سنوات الصبا طرفاً من الإغريقية واللاتينية، حثنا على ذلك طه حسين وتلاميذه العظام الذين تعلمنا عليهم. فلما نزلت معترك الترجمة والتأليف، وبدأت أشارك في «الألف كتاب» (الأولى)، وغيرها من سلاسل النشر التي أخذت الدولة تشجعها، كان من أوائل الكتب التي ترجمتها إلى العربية كتاب في تاريخ الأدب الإغريقي. فبعد أن فرغت من «مدخل إلى الأدب» من تأليف إميل فاجيه (وهو عرض للأدب في العالم، منذ البداية إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. وفيه بطبيعة الحال فصل عن الأدب الإغريقي)، و«مبادئ علم الجمال» لشارل لالو ومسرحية «إيفيجيني» لراسين (بمادتها الإغريقية المشهورة)، نقلت إلى العربية كتاب پتيمانجان في تاريخ الأدب اللاتيني مع مقدمة وافية ضافية عن الأدب الإغريقي. ولعلي فرغت من ترجمة كتاب پتيمانجان هذا في عام ١٩٥٦ أو ١٩٥٧ وقدمته إلى طه حسين في المجلس الأعلى للثقافة فأحاله إلى الدكتور صقر خفاجة لمراجعته، ولكنني لم أتابع المراجعة لسفري إلى ألمانيا في عام ١٩٥٨، وبقائي في الخارج حتى عام ١٩٦٢. وشغلتنني أمور كثيرة عن هذا الكتاب، فلم أبحث، بعد عودتي، بحثاً جدياً عن مخطوطي، ولا عن الأصل الفرنسي الذي ترجمت عنه، ثم توفي الدكتور صقر خفاجة، رحمه الله، فجاء قبل أن التقى به وأحدثه من جديد عن هذا المشروع القديم. وأبدلت الحديث الشفهي الذي كنت أتهياً لتبادلته مع صقر خفاجة بدراسة تكريماً له

ضمها «كتاب صقر خفاجة التذكاري» الذي نشره الزميل العلامة الدكتور أحمد عثمان، وتناولت فيها دور الترجمات من الألمانية إلى العربية في نقل الثقافة الإغريقية، فلم تكن الثقافة الإغريقية تنتقل إلى القارئ العربي إلا بطرق غير مباشرة في أغلب الأحيان.

وليس من شك في أنني لو عثرت في أوراقى القديمة على مسودات ترجمتى كتاب يتيمانجان- إذا عاد عصر المعجزات - فسأجدها محتاجة إلى صياغة جديدة، بل ربما فضلت الانصراف عن المحاولة القديمة، واستئناف المسيرة على مستويات أخرى بلغها العمل العلمي البحثي والتعليمي في هذه التخصصات على يد الرواد والزملاء.

وهذا هو كتاب «حيل الذكاء.. دهاء الإغريق المبتيسى» Les ruses Dde l'intelligence. La mètis des Grecs من تأليف: مارسيل ديتيين Marcel Detienne و جان پيير ثرنان Jean-Pierre Vernant ينقلني إلى عالم التراث الإغريقي المتشعب والمثير على نحو عام، وإلى عصور الميثاث على نحو خاص، والميثاث هي الكلمة الإغريقية المعربة التي تدل على هذا اللون الخاص من الأساطير الإغريقية الأولانية. شغلني هذا الكتاب «الصعب» الذي يتناول بالدرس المدقق إلى أبعد حدود التدقيق موضوعاً محدداً، أو موضوعات محددة من الثقافة الإغريقية القديمة. فهو يلقي الضوء على غمط معين من الذكاء، ليس هو الذكاء المؤلف، ولكنه أقرب ما يكون إلى المكر والخبث والمخاتلة، وقد ارتبط في التراث الإغريقي بالربة «ميتيس» حتى أصبح اسم ميتيس mètis كلمة دالة عليه، ودخلت اللغة الفرنسية وبعض اللغات الأخرى بهذا المعنى.

لم نترجم كلمة mètis بكلمة «ميتيس» معربة عن الإغريقية إلا إذا كانت الاسم العلم الذي تعرف به الربة ميتيس، ولم نترجمها بالدهاء فقط إلا استثناءً في بعض المواضع بقصد التخفيف، وآثرنا أن نترجمها بـ«الدهاء المبتيسى» فنكون حافظنا على اللفظة العربية «الدهاء» وحافظنا على التحديد الدلالي الإضافي الذي يقصده المؤلف، فهو ينطلق من أن الدهاء عند الإغريق شيء قائم بذاته، وأنه يرتبط بأسطورة ميتيس. ولهذا لم يستخدم في هذه الحالة كلمة ruse، بل استخدم الكلمة الإغريقية.

ولقد اتبعنا طريقة المؤلفين في كتابة الكلمات الإغريقية بحروف لاتينية حتى يسهل على جمهور القراء متابعتها. وسيجد فيها المتخصص خيراً كثيراً، وسيجد فيها القارئ الذي لم يتخصص في الإغريقية فائدة أيضاً في استجلاء تكوين الكلمات، ومقارنة بعضها ببعض. كذلك لم نكتب الأسماء الإغريقية بحسب التحوير الفرنسي، بل رددناها إلى أصولها، فكتبنا

هومبروس لا هومير، وأبوللودوروس لا أبوللودور، ونسبنا إلى هومبروس هومبروس لا هوميري . ومعروف أن اللغات الأوروبية (الفرنسية، الإيطالية، الإنجليزية، الألمانية على سبيل المثال) لديها قوائم كاملة وثابتة لكيفية كتابة الأسماء الإغريقية، وهي تختلف عادة في الكتابة والنطق من لغة إلى لغة، ولهذا تمسكنا بقاعدة كتابة الاسم الأجنبي أقرب ما يكون إلى لغته الأصلية. وربما نجد أنفسنا مضطرين في حدود ضيقة إلى الأخذ ببعض التحويرات المعربة الشائعة. ونحن على كل حال بحاجة إلى قاموس أسماء معتمد وملزم، يرد الأسماء إلى لغاتها الأصلية إلى أبعد الحدود الممكنة. فليس هناك معنى لاتباع لغات ثالثة محور وتحذف وتضيف بحسبها منظومتها الصوتية والإملائية. وقد بذلت جهوداً في هذا الاتجاه في كتاب «فلسفة العصر الوسيط»، ومن قبل في كتابة الأسماء الألمانية والفرنسية بحسب أصولها وإمكانات العربية. وسلاحظ القارئ أننا استخدمنا كلمات إغريق - وإغريقي - وإغريقية على الرغم من شيوع كلمات يونان- ويوناني- ويونانية - في العربية منذ قرون، وكلمات : يونان - ويوناني - ويونانية، لها مدلولاتها المحددة التي بحسن الالتزام بها.

وليس من شك في أن قارئ كتابنا هذا يحتاج إلى أن يتهيأ له بقراءات تحضيرية في الثقافة الإغريقية القديمة والعتيقة، وبخاصة في الأساطير والأدب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ وعلم الآثار الإغريقية، حتى يخرج بخير فائدة من هذه الدراسات الرصينة المتعمقة التي يضمها الكتاب. وقد أثرنا ترك عناوين الكتب في الملحوظات الهامشية على حالها، حتى يستطيع القارئ المطلعة الرجوع إليها، فقد رجع المؤلفان في كثير من الأحيان إلى الترجمات الفرنسية، لا إلى النصوص الأصلية. وجمعنا الملحوظات الهامشية كلها معاً في آخر الكتاب. ولم نتدخل بشروح من عندنا إلا في أضيق الحدود حتى لا ندس أنفسنا في العلاقة بين مؤلف الكتاب العلمي وقارئه. وسيعجب القارئ المدقق بمنهج البحث والاستقصاء والمناقشة النقدية التي هي من أساسيات تناول العلوم تناولاً حديثاً، وبخاصة تلك التي تحتمل الافتراضات والتخمينات إلى جانب التثبت الوضعي والالتزام الموضوعي.

ومن المفيد أن أنهى بما عرف بالحيل في التراث العربي، سواء في مجال الحيوان، الطب، السلوك، السياسة، الدين. وسوف يجد الباحثون المتخصصون في المقارنة بها مادة ثرية لمزيد من البحوث، وبخاصة عند توسيع مجال المؤثرات ليشمل المؤثرات الفارسية والهندية وغيرها من المؤثرات التي تشير إليها دلائل صريحة .

وأذكر على سبيل المثال الكتب التالية:

- بنو موسى، ابن شاکر، کتاب الحیل، تحقیق أحمد یوسف الحسن، جامعة حلب ١٩٨١.
- الجزري، أبو العز (بن اسماعیل بن الرزاز)، کتاب الجامع بین العلم والعمل النافع فی صناعة الحیل، تحقیق أحمد یوسف الحسن، جامعة حلب ١٩٧٩.
- الخصاف، أبو بکر (أحمد بن عمرو بن مهیر)، کتاب الحیل والمخارج، تحقیق یوزف شاخت، هانوفر ١٩٢٣.
- الشیبانی، محمد بن الحسن، کتاب المخارج فی الحیل، تحقیق یوسف شاخت، لايبتزج ١٩٣٠.
- القزويني، أبو حاتم (محمود بن الحسن بن محمد بن یوسف بن الحسن بن محمد بن عکرمه بن أنس ابن مالک الأنصاري)، کتاب الحیل فی الفقه، تحقیق یوسف شاخت، هانوفر ١٩٢٤.
- (مجهول)، السياسة والحيلة عند العرب، تحقیق رنيه خوام، لندن ١٩٨٨.
- الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر فی أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقیق رضوان السيد، بیروت ١٩٨٧.
- المرادي، أبو بکر (محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني)، کتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقیق رضوان السيد، بیروت ١٩٨١.
- الطرطوشي، سراج الملوك، تحقیق جعفر البیاتي، لندن ١٩٩٠.
- الرهاوي، أدب الطیب، نشر فؤاد سزگین، فرانکفورت ١٩٨٥.
- الجاحظ، کتاب الحيوان، تحقیق عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٦٩.
- الدميري، حياة الحيوان الكبرى،

والله ولي التوفيق

مصطفى ماهر

مصر الجديدة أغسطس ١٩٩٩

مقدمة

كما يخلص العائد من رحلة إلى نفسه في نهاية المطاف ليستعيد في مخيلته المسار الذي قطعه، كذلك المؤلف عندما يفرغ من كتاب يستطيع، على سبيل التقديم له، أن يستعيد في فكره العمل الذي أنجزه، وأن يحاول تحديد ما فعله. ففي الوقت الذي يكون فيه البحث جارياً على قدم وساق يجد الباحث نفسه في خضم يدفعه إلى هذه الناحية تارة، وإلى تلك تارة أخرى، ولا يكاد يحقق بالضبط الطريق الذي يسوقه البحث إليه ولا الهدف الذي يسيره نحوه. ولقد استمرت بحوثنا في «الدهاء الميتيسي» *la mètis* عند الإغريق نحو عشر سنوات، تخللتها بعض التوقفات ^(١). ولقد جرت علينا بحوثنا هذه مفاجئات ومفاجئات لم يكن أقلها أننا رأينا أفق الدرس الذي تجشمناه يزيد اتساعاً كلما تقدمنا إلى الأمام. كنا، كلما اعتقدنا أننا أوشكنا على بلوغ الهدف، نجد حدود المنطقة التي تهيأنا لاكتشافها تتباعد فلا نصل إليها. وإذا جاز لنا أن نقرر شيئاً نراه اليوم مؤكداً، فهو أن الأرض التي سعينا إلى اكتشافها والتي كان علماء الهيلينية حتي ذلك الحين يجهلون لها لأنهم لم يسألوا أنفسهم عن موضع الدهاء الميتيسي *la mètis* في الحضارة الإغريقية ^(٢) - هذه الأرض تضم مناطق شاسعة بكرة تستحق أن يتناولها الباحثون بالدرس مستقبلاً. وهذا يعني أن كتابنا هذا لا يغطي مجال الدهاء الميتيسي *la mètis* كله، وأنتى له ذلك. ومن هنا كان من الضروري أن يقوم الباحثون من بعدنا بدراسات تهدف إلى التوسع والاستكمال، ونكتفي هنا بالإشارة على سبيل المثال إلى دراستين من هذا القبيل، أولهما تلك التي تنصب على مجمل المهارات الحرفية التي يعتبر دايدالوس *Daidalos* «بالفرنسية *Dédale*» سيدها الأسطوري، وثانيها تلك التي تتناول أشكال الذكاء المحتال التي تختص بها بعض القوى الإلهية، ونكتفي بذكر الكتاب الذي خصت به فرانسواز فرونتيزي *Françoise Frontisi* دايدالوس ^(٣) وبالتنويه بالبحوث التي تناولت بها لورانس ليوتار كان *Laurence Lyotard-Kahn* شخصية هيرميس *Hermès*.

ومن حق القاريء أن يوجه إلينا عدة أسئلة، من قبيل: ما هو هذا المجال البحثي الذي نتحدث عنه حديثنا عن أرض بكر، وأين موقعه من المجتمع الإغريقي ومن الثقافة الإغريقية،

وما هي الطرق التي توصل إليه، باختصار ما هو على وجه الدقة موضوع كتابنا، وما هي العلوم التي تنتسب إليها بحوثنا؟ والإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن لأسباب مختلفة المستويات أن تكون سهلة ولا بسيطة.

ونقول باديء ذي بدء إن الواقع الذي نجتهد في الإحاطة به يفتش العديد من المستويات المتباينة التي يتمايز بعضها عن البعض الآخر كما تتمايز الثيوجونية (= قصة أنساب الآلهة) أو ميثوس السيادة، أو تحورات ربة مائية، معارف أثينة وهيفايستوس، معارف هيرميس، معارف أفروديتي، معارف زيوس وپروميثيوس، فخ القنص، شبكة الصيد، فن السلال، فن النسيج، فن النجار، براعة الملاح، لمحة السياسي، نظرة الطبيب الخبير، أحابيل شخص مكر مثل أوليسيس، مخاتلة الثعلب، تشكّل الاضطبوط، لعبة الألفاز والتنوّات، الخداع البلاغي لدى السفستائيين. هكذا يجتاز بحثنا عالم الإغريق الثقافي على سعته كلها، ابتداءً من وسائله التقنية القديمة المتوارثة، وانتهاءً بتنظيم مجمع أربابه الپانثيون. ويخطو بحثنا خطاه على كل مستويات العالم الثقافي الإغريقي، ويسلك سبله بمختلف أبعادها، ويتنقل دون هوادة من قطاع إلى قطاع، لكي يستخرج من وثائق يبدو عليها التباين كل التباين، توجهاً عقلياً واحداً، ونموذجاً واحداً لطريقة الإغريق في تصور نمط معين للذكاء يتغلغل في الحياة العملية، ويتصدي لعوائق يكون عليه أن يسيطر عليها متوسلاً بالحيلة من أجل بلوغ النجاح في مجالات العمل المتباينة كل التباين.

ولقد تحتم علينا بحسب الحالات واللحظات أن ننوع مناهجنا في التناول، وأن نؤلف بين المنطلقات ووجهات النظر المختلفة. ومن هنا جاء عملنا في بعض أوجهه دراسة مفردات، وتحليلاً للحقل الدلالي للدهاء الميטיسي *la mètis* وقماسكه، واستقراره المدهش على مدى الهيلينيستة *hellenisme* كلها. وهو يمس نقطاً أخرى من تاريخ التقنيات والذكاء التطبيقي على نحو ما يظهر في مهارات العامل الحرفي؛ كذلك يتضمن فصلاً كاملاً قوامها التحليل الميثولوجي وحل شفرات بنيات مجمع الأرباب الپانثيون. وهو في نهاية المطاف ينتمي إلى علم النفس التاريخي حيث إنه يسعى - على كل طبقات الثقافة الإغريقية وفي كل أنماط الأعمال التي شغلت بها - سعياً دوماً إلى التوصل إلى مقولة عقلية كبيرة ترتبط بظروف المكان والزمان، وإلى تحديد دقيق لأسلوبها في التنظيم والعمل، ولسلسلة الإجراءات التي تعمل طبقاً لها، والقواعد المنطقية الضمنية التي تخضع لها. نقول: مقولة عقلية، ولا نقول: فكرة. فنحن

لا نكتب تاريخاً للأفكار، وما كانت لدينا القدرة على التصدي لكتابته. فأشكال الذكاء المتحایل، والمكر الموائم الفعّال التي استخدمها الإغريق في قطاعات واسعة من حياتهم الاجتماعية والروحية، وقدرّوها تقديراً في منظومتهم الدينية، وحاولنا نحن على طريقة علماء الآثار أن نجمع شتات صورها، لم تكن قط في يوم من الأيام واضحة للعيان في تعبير صريح، ولا موضوع تحليل مفهوم مكتوب بمفردات، ولا ماثلة في نص متصل من قبيل النصوص النظرية. ليست هناك كتب تدور حول الدهاء الميتيسي *la mètis* من قبيل الكتب التي تدور حول المنطق، وليست هناك منظومات فلسفية تأسست على مبادئ الذكاء المتحایل. أي أننا نستطيع كشف الغطاء عن الدهاء الميتيسي *la mètis* في قلب عالم الإغريق الفكري الموجود في لعبة الممارسات الاجتماعية والفكرية حيث تظهر سيطرته على نحو يصل إلى حد التحكم أحياناً، ولكننا لن نجد حديثاً متصلاً عن الدهاء الميتيسي *la mètis* في نص يبين لنا من الوهلة الأولى أساسياته ومجالاته.

ونصل إلى المستوى الثاني من الأسباب التي جعلت مهمتنا صعبة، وجعلت لها، في رأينا، مغزاها. فعلى الرغم من سعة المجال الذي تتم فيه ممارسة الدهاء الميتيسي *la mètis*، وعلى الرغم من أهمية موقعه في منظومة القيم، فإنه لا يظهر صريحاً كما هو، ولا يتبدى سافراً في نور الفكر الساطع، في وضوح يتمثل في نص عليم يستهدف تعريفه. إنه يظهر دائماً منزوياً في «الحنايا»، زاد هذا الانزواء أو قل، غارقاً في تدبير ما يستخدمه دون أن يحفل في أية لحظة بإظهار طبيعته أو بتبرير مسلكه. ولهذا فإن علماء الهيلينية المحدثين، وهم ينكرون دور الدهاء الميتيسي *la mètis* وينكرون أثره بل ينكرون حتى وجوده، يتشبهون مخلصين بصورة معينة اصطنعها الفكر الإغريقي لنفسه يتخذ فيها الدهاء الميتيسي *la mètis* على نحو عجيب هيئة الغائب. والدهاء شكل من الذكاء والفكر، وأسلوب معرفة، وهو عبارة عن مجموعة مركبة، ولكنها مترابطة أشد الترابط، من التوجهات العقلية، والسلوك الفكري، تجمع: الحس - الفطنة - التنبؤ - الملائنة - المخادعة - المكر - النباهة - البديهة - المهارات المختلفة - الحنكة. وهو ينصب على وقائع خاطفة مائعة محيرة ومختلطة، لا تخضع للقياس الدقيق، ولا للحساب المحدد ولا للتدبير المنطقي الصارم. ولكننا إذ ننظر في جدول الفكر والمعرفة الذي وضعه المختصون بالذكاء، وهم الفلاسفة، نجد أن كل الصفات العقلية التي يتكون منها الدهاء الميتيسي *la mètis*، وكل ألعيبه، ومهاراته، وتدابيره، تُنحى جانباً

ويُلْقَى بها في أكثر الأحيان إلى الظلام، وتمحى من مجال المعرفة الحقيقية، وتُرد، بحسب الحالات، إلى مستوى التمرس أو الإلهام المفاجئ أو الرأي المتقلب أو إلى مجرد النصب. فمن سعى إلى البحث عن الذكاء الإغريقي في مدونات جعل الذكاء الإغريقي من نفسه فيها موضوعاً وتحدث عن طبيعته حديث العالم العليم، عليه أن يوقن مقدماً من خيبة رجائه، ومن أنه لن يكتشف فيها الدهاء الميتيسي الإغريقي *la mètis*. إنما يكتشف الدهاء الميتيسي الإغريقي *la mètis* من يتتبعه في غير هذا الضرب من المدونات، أي يتتبعه في تلك القطاعات التي عهدنا الفيلسوف يحوطها بالصمت أو لا يتحدث عنها إلا حديث السخرية، أو المجادلة، حتى يوضح على سبيل المقابلة طريقة التفكير العقلي والفهم وهي الطريقة التي تقوم عليها حرفته أساساً.

وليس من شك في أن هذه الأحكام التي نسوقها تحتل فروقاً يجب علينا أن نبينها. فليس موقف أرسطوطاليس من هذه المسألة مطابقاً لموقف أفلاطون. فالرأي عند فيلسوف الأكاديمية - أفلاطون - أن الإحاطة *euchéreia*، والنظرة الصائبة *eustochia*، والألمعية *agchinoia* التي تعمل عملها في المهام التي يحاول فيها الدهاء الميتيسي *la mètis* بالتحسس والظن بلوغ الهدف المأمول، تنتمي إلى وجه من المعرفة خارج إطار العلم *epistêmê*، غريباً على الحقيقة. أما أرسطوطاليس فإن «الحرص» عنده على الأقل تكتسي بتوجهها وتدابيرها كثيراً من سمات الدهاء الميتيسي *la mètis*. بل إننا نستطيع أن نتساءل: أما كان أفلاطون نفسه يتبع في مجال الدهاء الميتيسي *la mètis* طريقة التشريع إلى شرائع، فيستخلص من المهارات الحرفية كل ما يمكن استخلاصه عن طريق استخدام آلات القياس فيتيح له أن ينضم إلى معرفة من النمط الرياضي وأن يقدم إلى الفيلسوف نموذج إبداع خلاق «دميورجي» ينتج عملاً فعلياً، مستقراً ومنظماً على قدر الإمكان في إطار الصيرورة انطلاقاً من «الأشكال».

وينبغي علينا في النهاية وعلى نحو خاص أن نعود مرة أخرى، من المنظور الذي نبسطه، إلى دراسة الإضافة التي قدمها السفسطائيون، فهم يحتلون موقعاً حاسماً عند المرفق الذي يلتقي فيه الدهاء الميتيسي *la mètis* التقليدي والذكاء الجديد الذي تكلم عنه الفلاسفة. ولكننا مع ذلك، نقرر حقيقة تشمل الجوهر، وهي أن مدونات وتعاليم الفلاسفة كما اتصلت حلقاتها في القرن الرابع قمثل قطيعة قطعت الأسباب بينها وبين نمط من الذكاء، صحيح أنه ظل مستمراً في قطاعات شاسعة هي: السياسة والفن العسكري والطب والمهارات الحرفية، ولكنه انزاح عن المركز، وفقد قيمته بالقياس إلى ما سيعتبر منذ ذلك الحين بؤرة العلم الهيليني.

العالم العقلي في عرف الفيلسوف الإغريقي، على عكس ما هو في عرف المفكرين الصينيين أو الهنود، يفترض انفصلاً أساسياً بين الوجود والضرورة، بين المعقول وبين المحسوس. هذا العالم العقلي لا يكتفي فقط بطرح سلسلة من التعارضات بين حدود متضادة. هذه المفاهيم المتضادة وقد جمعت في ثنائيات متعارضة تتوأم بعضها مع البعض الآخر لتكون منظومة كاملة من الأضداد التي تحدد مستويين من الواقع يستبعد أحدهما الآخر: أولهما مستوى الوجود، وهو المجال الذي يضم الواحد والدائم والمحدد والمعرفة الحقة الثابتة؛ وثانيهما مستوى الضرورة وهو المجال الذي يضم المتعدد والمتحول وغير المحدد والرأي المتلوي والعائم. في هذا الإطار الفكري لم يعد من الممكن أن يجد الدهاء لنفسه مكاناً؛ فالسمة الفارقة التي تميزه هي أنه يعمل بلعبة أرجوحية مستمرة، تروح وتجيء بين قطبين متضادين. والدهاء يقلب رأساً على عقب تلك الحدود التي لم تتحدد بعد على شكل مفاهيم مستقرة ومحددة، وممانعة لما سواها، بل تلوح كقوى اتخذت موقف مواجهة، وتجد نفسها بحسب اتجاه المنازلة التي تتناضل فيها، تارة قاهرة في موقف، وتارة مقهورة في الموقف المضاد. وإذا كان على الريات نفسها، المهيمنات على القيود، أن تظل متنبهة حريصة حتى لا تكبلها القيود بدورها، كذلك الفرد الذي وهب الدهاء الميتيسي، سواء كان رباً أو إنساناً، عندما يواجه واقعاً متشابكاً، متغيراً ذا قوة لامحدودة في التحور تحورات عديدة تجعل الإحاطة به أقرب إلى المحال، هذا الفرد لا يستطيع السيطرة على هذا الواقع، أي لا يستطيع أن يحصره في إطار صورة واحدة ثابتة يكون له عليها سلطان، إلا بأن يبدو هو نفسه أكثر مرونة وتعدداً، أكثر حركة، أكثر تنوعاً في القيم من غريمه. وهنا ينبغي على الفرد أن يصطنع الطريقة نفسها، من أجل الوصول مباشرة إلى هدفه، ومن أجل متابعة طريقه دون انحراف خلال عالم متميع، مهزوز لا يكف عن التراجع إلى هذا الجانب وإلى ذاك، أي ينبغي على الفرد أن يتلوى، وأن يصطنع لنفسه ذكاء متلواً ومرناً، لكي يتلوى في كل اتجاه، وأن يجعل مسلكه «معرجاً» حتى يفتح نحو كل الاتجاهات في وقت واحد؛ وإذا شئنا استخدام اللفظ الإغريقي قلنا إن الأجلوميتيس agkulomêtês أي الذي يملك ناصية دهاء ميتيسي ملئو la mêtis عليه أن يجمع إلى أكبر قدر من الاستقامة قدرة على سلوك الطريق الذي ينتهي إلى التحقيق الفعلي لما نعقدت عليه النية.

هذه الطائفة المتنوعة من العمليات التي يستخدمها الذكاء لكي يدخل في علاقة مع موضوعه، تطرح نفسها حياله على هيئة علاقة تنافس تأتلف من الاتفاق والمعارضة في وقت

واحد، هي التي حاولنا الإحاطة بها على كل المستويات وفي كل الأشكال التي رأينا أننا يمكن أن نلقاها فيها.

وفي بحثنا هذا عن حيل الذكاء اعتمدنا الوقائع الإغريقية وحدها دون سواها. ولقد كان من الطبيعي ونحن نتناول مقولة عقلية متأصلة بمثل هذا العمق في الفكر الديني أن نكرس الجزء الأكبر من تحليلاتنا للإحاطة بمكان ووظائف ووسائل عمل الدهاء الميتيسي *la mètis* في الميثوس «الأسطورة» ولاستجلاء التوزيع الدقيق للصلاحيات المتعددة بين القوى الإلهية المختلفة. والدهاء الميتيسي *la mètis* يتيح للباحث أن يطرح مشكلات عامة معينة خاصة بنظام مجمع الآلهة الپانشيون، فنحن نجد هناك آلهة ذات دهاء ميتيسي *la mètis* وآلهة بلا دهاء. فما هو وجه التضاد بين هؤلاء وأولئك، وإذا نحن جمعنا الآلهة الأول في مجموعة واحدة، ففيم تتمايز بعضها عن البعض الآخر؟ ما هذا الذي يجعل دهاء كرونوس أو التيتان پروميشيوس مضاداً لدهاء زيوس الأوليمبي رب الكون؟ أين هو الخط الفاصل بين دهاء *la mètis* «الربة» أثينة وبين دهاء قريب منه هو دهاء هيفاستيوس «رب النار والمعادن» أو دهاء هيرميس أو أفروديتي؟ لماذا كان علم الكهانة الذي علمته ثيميس *Thémis* وأپوللون *Apollon*، مثله مثل سحر ديونيسوس *Dionysos* خارج مجال الدهاء الميتيسي *la mètis*؟ ولقد أجرينا الجزء الجوهري من أبحاثنا في هذا الكتاب انطلاقاً من الربة أثينة ابنة الربة «ميتيس» «ربة الدهاء»، حيث إن أثينة تمثل الدهاء بما هو قوة ربانية في عالم الآلهة الأوليمبية المنظم. وما دامت أبحاثنا قد اتخذت هذا التوجه فلم يكن من الممكن أن تنأى عن التعرض لمشكلات تخرج عن المجال الإغريقي، وتخرج بالتالي عن الإطار الذي كنا قد حددناه لأنفسنا. فشخصية الربة ميتيس ودورها في ميثاث «أساطير» السيادة وما تواتر لدي الأورفيوسيين في ميثاث نشأة الكون، الميثاث الكوسموجينية، يستدعيان إجراء مقارنة بالموروثات الأسطورية في الشرق الأدنى، وبخاصة تلك القصص التي يظهر فيها الإله السومري إنكي - إيا *Enki-Ea* نفسه سيداً يهيمن على المياه، مخترعاً يبتدع التقنيات، علماً تمتلئ معرفته بالمكر. والدهاء الإغريقي على نحو أكثر عمومية يطرح مشكلة الموقع الذي تشغله في التدابير الواردة في ميثاثس عدد كبير من الشعوب شخصية من نمط «المحتال»، الشخصية التي يتفق علماء الأنثروبولوجيا الأنجلو ساكسون على تسميتها *trickster* المخادع. وكتابنا، دون أن يتناول صراحة هذه المسائل، يقدم على هذا المستوى إلى ملف الدراسات

المقارنة مادة توثيقية جديدة جُلِّها لم ينشر من قبل. ولعلنا، عندما لم نقصر بحثنا على موقع الدهاء الميتيسي في الميثوس والدور الذي أنيط به، وعندما تساءلنا عن صورة الذكاء الخاصة التي يمثلها، وعن الوسائل العملية التي يتوصل بها، وعن التدابير التي يستخدمها من أجل تحقيق غاياته، لعلنا نكون قد أسهمنا أيضاً في توجيه دراسات المقارنة وجهة جديدة. والبرنامج البحثي الذي قد نجد في ختام عملنا هذا ما يغرنا باقتراحه على الباحثين هو إجراء مقارنة تقابلية بين نماذج تفعيلية تهيمن في الفكر الديني على منطق الذكاء المحتال، وتبين على المستوى الميثي ضروب لمجاهد، وهي نماذج لاح لنا في حالة المعطيات الإغريقية أنها ترجمت إلى: الانقلاب والقيء والحلقة^(٤).

القسم الأول

ألعاب الدهاء

الباب الأول

سباق أنطيلوخوس

على المستوى اللفظي تعني كلمة ميتيس *mètis* من حيث هي اسم عام شكلاً خاصاً من الذكاء ، من الحرص الأريب. ومن حيث هي اسم علم فهي تطلق على ربة أنثى، هي ابنة أوقيانوس. والربة ميتيس شخصية ربما نظنها هزأة تافهة، وربما تبدو لنا كأنها قضي عليها أن تقوم بأدوار كومبارس. ونحن نعرف أنها كانت زوجة زيوس الأولى، وزيوس هو ملك الآلهة، فما كادت تحمل منه في أحشائها أثينة حتى قام بابتلاعها ودسّها في غيابات بطنه. وكان هذا يعني أن ملك الآلهة قضى في عنف وقسوة على حياتها الميثولوجية. إلا أننا نجد ميتيس في قصص أنساب الآلهة المنسوبة إلى أورفيوس تحتل مكان الصدارة وتبدو في أصل العالم ربة كبيرة أساسية.

أما فيما يتعلق بالاسم من حيث هو اسم عام، فقد لاح الأمر حيناً كأنما حكم عالم فقه اللغة الألماني فيلاموفيتس Wilamowitz الحكم الفصل عندما سجل في هامش أحد كتبه^(١) أن ميتيس بعد أن عرفت خطأ محدوداً في حد ذاته في الملحمة الهوميروسية لم تعش بعد ذلك إلا في صورة أثر تذكاري شعري. وكان هنري جانمير Henri Jeanmaire هو الذي أعاد المجادلة وفتح باب التقصي بمزيد من المثابرة. ويمكننا أن نستخلص من دراسته المعنونة « La naissance d'Athéna et la royauté magique de Zeus » = مولد أثينة ومملكة زيوس السحرية^(٢) نتيجتين، أولاهما أن قدرة الذكاء التي تشير إليها لفظة ميتيس الدهاء تعمل عملها على مستويات متنوعة كل التنوع ولكنها تشترك كلها في التشديد على الفعالية العملية وعلى السعي إلى تحقيق النجاح في المجال العملي، وتضم : العديد من وسائل التصرف المحنك المفيدة في الحياة العملية، وبراعة الحرفي في حرفته، والحيل السحرية، واستخدام منقوعات وأعشاب، وحيل الحرب، وأساليب الخداع، والاحتيايل، ومختلف أنواع

التصرف. وثانيتها أن لفظة ميتيس - الدهاء الميتيسي - تدخل شريكاً في طائفة من الكلمات تكون في مجموعها حقلاً دلالياً واسعاً إلى حد كبير، ومحدداً ومفصلاً على نحو جيد (٣).

ولننظر إلى تاريخ الدهاء الميتيسي الطويل الذي يمتد إلى أكثر من عشرة قرون ، ونبدأ بالبحث في شواهد يقدمها إلينا شاهدنا الأول: هوميروس.

وخير نصوص هوميروس كشفاً عن طبيعة الدهاء الميتيسي ورد في النشيد الثالث والعشرين من «الإلياذة» وهو الفصل الذي يدور حول الألعاب. نقرأ فيه أن الاستعدادات لسباق العربات بلغت منتهاها، وأن نيسطور، وكان شيخاً هرمياً يمثل نموذج الحكيم والناصح الخبير بالدهاء الميتيسي (٤)، أخذ يقدق على ابنه أنطليوخوس وصاياه (٥). كان أنطليوخوس لا يزال في ميعة الصبا، ولكن «زيوس» و«پوسابدون» Poseidôn علماء «كل أساليب البراعة في سياسة الخيول» (٦). لم تكن خيوله لسوء الحظ شديدة السرعة؛ وكان منافسوه أفضل حظاً. وبدت الدلائل كأنها تشير إلى أن الشاب مقبل على هزيمة. فكيف يظهر على غرمائه الذين أوتوا خيولاً أشد سرعة، بينما لم يؤت هو إلا الأقل سرعة؟ (٧).

هذا هو السياق الذي دار فيه الحديث حول الدهاء الميتيسي. كان أنطليوخوس بالنظر إلى خيوله دون مستوى منافسيه، ولكنه وهو ابن أبيه حقاً (٨) كانت لديه في جعبته من حيل الدهاء الميتيسي أكثر مما كان يمكن أن يدور بخلد منافسيه. قال له نيسطور: « عليك يا صغيري إذن أن تضع في رأسك دهاءً متعدد السبل metin pantoien حتى لا تضيع الجائزة». وتأتي بعد هذه الكلمات الفقرة التي تتغنى بمدح الدهاء الميتيسي والثناء عليه:

« الدهاء الميتيسي - أكثر من القوة - هو الذي يصنع الخطاب الجيد. بالدهاء الميتيس يقود الملاح القابض على الدفة سفينة السباق برغم الريح على صفحة البحر الثمل. بالدهاء الميتيسي يسبق قائد العربة منافسه (٩). وهذا هو أنطليوخوس أوحى إليه الدهاء الميتيسي بحيلة تنطوي على قدر من الخداع، كبير أو صغر، مكنته من أن يقلب الوضع غير المواتي ومن أن ينتصر على من هو أقوى منه - وهذا هو ما عبر عنه نيسطور بقوله: «إن من يعرف الحيل kerdê ، حتى إذا كان يسوق خيولاً ضعيفة، يكسب (١٠). فماذا كانت هذه الحيل؟ اتبع الشاب نصائح أبيه فاستغل ضيقاً مفاجئاً في الطريق ناجماً عن تحريف أحدثته مياه عاصفة مطيرة، لكي يدفع عربته بميل أمام عربة مينيلائوس على نحو يحمل مخاطر حدوث الصدام؛

وفاجأت المناورة الغريم الذي كان عليه أن يرد خيوله؛ وانتهاز أنطليوخوس ارتبأكه فحقق التقدم الذي يلزمه للسبق في الأشواط الأخيرة (١١).

١- قد تبدو هذه الفقرة عادية إلا أنها تكشف عن بعض السمات الجوهرية للدهاء الميتيسي. فهي تكشف أولاً عن التعارض بين استخدام القوة، والالتجاء إلى الدهاء الميتيسي في كل موقف من مواقف المواجهة أو المنافسة - سواء كانت تتعرض لإنسان أو حيوان أو قوة طبيعية - وعن أنه يمكن تحقيق النجاح بطريقتين. إما بالتفوق في «القوة» في المجال الذي تجري فيه المنازلة، فيفوز الأقوى. وإما باستخدام وسائل من نوع آخر تؤدي تحديداً إلى تزيف نتائج المباراة وإلى جعل النصر من نصيب هذا الذي كان في مقدورنا بقينا أن نعتبره الخاسر. هكذا يكتسب النجاح الذي يجلبه الدهاء الميتيسي معنى مختلطاً: تتعارض حياله ردود الفعل بحسب السياق. فأحياناً يعتبر النجاح ثمرة خدعة، لعدم احترام قواعد اللعبة. وفي أحيان أخرى يشير من الإعجاب بقدر ما يزيد في المفاجأة، عندما يجد الأضعف في نفسه، خلافاً لكل توقع، ما يكفي من إمكانيات لوضع الأقوى تحت رحمته. والدهاء من بعض جوانبه ينحو ناحية الاحتيال الخائن، والكذب المخاتل، والغدر، وهي أسلحة مقيتة تلجأ إليها النساء والجبناء (١٢). ويلوح من بعض جوانبه الأخرى أعلى قيمة من القوة؛ إنه على نحو ما السلاح المطلق، السلاح الوحيد الذي له القدرة في كل الظروف ومهما كانت شروط الكفاح على تحقيق النصر والهيمنة على الغير. ومهما كان الرجل أو الإله من القوة، فثمة لحظة تأتي دائماً يجد فيها من هو أقوى منه؛ فالتفوق في الدهاء الميتيسي هو وحده الذي يضيف على الرفعة تلك السمة المزدوجة من الدوام والعموم التي تجعلها بحق سلطة فائقة. وإذا كان زيوس ملك الآلهة، وإذا كان يفوق في القوة كل الأرباب الآخرين حتي إذا تكاتفوا ضده، فإنما يرجع ذلك إلى أنه إله الدهاء الميتيسي بامتياز (١٣). والميثاث الإغريقية التي تحكي عن استيلاء زيوس الكرونيدي «ابن كرونوس» على السلطة وإقامته حكماً مطمئناً نهائياً تشدد على أن النصر في معركة السيادة لم يكن ليؤخذ بالقوة بل بالمكر (١٤) ويفضل الدهاء الميتيسي. وما كان كراتوس Krátos وببيه Biê - وهما الغلبة والقوة الغاشمة - ليحيطا بعرش زيوس الأولمبي، خادمين خاضعين مقيدين بخطاه، إلا بقدر ما تتجاوز سلطته القوة البسيطة وتفلت من نوائب الزمان. فزيوس لم يقنع بالاقتران في زواجه الأول بميتيس «ربة الدهاء»، بل ابتلعها، فجعل نفسه كله دهاء ميتيسياً. كانت تلك حيلة حكيمة اتقى بها ما كان يمكن أن يحدث له «من ضياع»: فلو لم يفعل زيوس

هذا، ولدت له ميتيس بعد أن حملت أثينة، ابناً أقوى منه، كان سيخلعه عن العرش، كما خلع هو من قبل أباه. بعد أن ابتلع زيوس ميتيس الدهاء لم يعد هناك من دهاء يمكن أن يحدث في العالم خارجاً عنه أو ضده. لم يعد من الممكن أن تنتسج خيوط دهاء في العالم دون أن تمر في البداية من خلال عقله هو. ولم تعد الفترة التي يبسط الإله المهيمن في غضون سلطته تنضوي على نوازل مفاجئة تنزل من القدر. لم يعد هناك شيء يمكن أن يباغته، أو يخدع بقطته أو يتصدى لنواياه. كان زيوس يتلقى تحذيراً من الدهاء الميتيسي الذي بداخله يكشف له كل ما يدبر له من خير أو شر، وهكذا لم يعد زيوس يعمل حساب المسافة بين النية والتنفيذ، تلك المسافة التي تبرز منها فجأة، في حياة الآلهة الآخرين وحياة الكائنات الفانية، كمائن الغيب.

٢- والسمة الثانية التي توضحها هذه الفقرة من «الإلياذة» تتصل بالآفاق الزمني للدهاء الميتيسي. إن عمل الدهاء الميتيسي يجري على أرضية مائعة، في موقف يعوزه اليقين والوضوح: حيث تتواجه قوتان متعارضتان؛ وفي كل لحظة يمكن أن تتقلب الأمور وتسير إما في هذا الاتجاه أو في اتجاه آخر. الدهاء الميتيسي يتيح لصاحبه سيطرة على هذا الوقت المصاب المائع الذي تجري فيه المنازلة، سيطرة ما كان المنازل بدونها إلا ضائعاً عديم الحيلة: في أثناء المنازلة agôn يبدو الإنسان صاحب الدهاء، بالقياس إلى غريمه، وفي وقت واحد: أكثر تركزاً في حاضر لا يفلت منه شيء، أكثر توجهاً إلى مستقبل سبق إلى تدبير بعض جوانبه، أكثر ثراءً بخبرة تراكمية من الماضي. هذه الحالة من التأمل المسبق الحذر، ومن الحضور المستمر في الأحداث الجارية، يعبر عنه الإغريقي مستخدماً صورة التريص والرصد عندما يقوم الرجل الحذر برصد غريمه ليسدد ضربته في اللحظة المختارة. ولنستمع إلى نيسطور وهو يحذر أنطيلوخوس من الأخطار التي تحديق بمن يبالغ في الثقة في قوته فيكف عن الحذر: «هذا يثق في عربته وجياده ويسلك في حمق المنعطف الواسع الفسيح، فيميل إلى هذه الناحية تارة، وإلى تلك تارة أخرى . . . وذاك يسوق خيولاً أقل سرعة، ولكنه على عكس الآخر يعرف أكثر من وسيلة، ولا يغفل عن الحد، ويسلك المنعطف القصير المختصر، ولا ينسى أن يمسك خيوله بلجام من الجلد، وهو يقودها دون حيد وعينه ترصد dokeúei من أمامه (١٥)». والفعل dokeúein - يرصد - مصطلح فني من مصطلحات صيد السمك وصيد الحيوان والحرب. ومؤلف قصيدة «الدرع» بالفرنسية Le Bouclier، والمقصود: درع هرقل المنسوبة إلى هيسودوس يستخدم هذا

المصطلح في حديثه عن صياد سمك قابع في مكانه يرصد السمك، وقد تهباً ليرمي على السمك شرك شبكته العريضة ^(١٦). وتتحدث «الإلياذة» عن كلب الصيد الذي يطارد الخنزير البري وتصوره قيد خطى الوحش «ضاماً أبطليه وعجزه، راصداً محاولاته» ^(١٧). أما أنطيلوخوس نفسه فهو في أثناء المعركة يعرف كيف يرصد العدو. وفي غمرة الحشد الذي حمل إليه هيكتور Hektôr الرعب والموت، ينتحي الإغريقي الشاب جانباً ليرصد العدو: «إنه يرصد ثوون Thoon، فما يكاد هذا يدور نصف دورة، حتى يقفز إليه ويصيبه» ^(١٨).

الرجل صاحب الدهاء الميتيسي متأهب دائماً للقفز؛ وهو يتصرف بسرعة خاطفة في زمن مقداره البرق. ولا يعني هذا أنه ينصاع - كما يفعل عادة أبطال هوميروس - لحاطر عفوي مفاجئ. بل العكس هو الصحيح، فالدهاء الميتيسي يعرف كيف ينتظر في صبر حتى تسنح الفرصة المأمولة. حتى إذا عمل الدهاء الميتيسي عمله استجابة لدافع مفاجيء، فإنه يعمل على عكس العفوية. الدهاء الميتيسي سريع، خاطف كالفرصة التي يكون عليه أن يمسكها وهي طائرة دون أن يتركها تعبر. ولكن الدهاء الميتيسي يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون خفيفاً lepté : فهو يحمل ثقل الخبرة المكتسبة، إنه فكرة مكثفة، ملبدة، محبوكة pukiné ^(١٩)؛ وهو بدلاً من أن يطفو هنا وهناك على هوى الظروف، يلقي مرساة العقل عميقاً في قلب المشروع الذي دبره من قبل، وهو يفعل هذا بفضل قدرته على تجاوز الحاضر والتنبؤ بشريحة سميكة نسبياً من المستقبل.

ويحتوي نص «الإلياذة» من هذه الناحية على مؤشرات موحية. فهذا هو أنطيلوخوس في اللحظة الحاسمة من السباق يقول لخيوله : «أسرعي ما وسعتك السرعة، وسأتكفل أنا بالتماس الوسيلة واهتبال الفرصة، إذا ضاق الطريق، لكي أنزلق أمام أتريوس Atreus» ^(٢٠) بالفرنسية أتريد Atride وهو أبو أجائمنون ومينيلوس، دون أن أضيع اللحظة السانحة ^(٢١). وقد استشهدنا هنا بالترجمة الفرنسية لپول مازون Paul Mazon التي وردت فيها لفظة «الفرصة». وكلمة kairós التي تعني الفرصة لم ترد بحرفها في النص الإغريقي؛ ولكن فكرتها حاضرة تماماً في صورة ينبغي أن نحدد بدقة والنص يشدد عليها بإلحاح: الفرصة المقصودة هي فرصة أبعد ما تكون عن أن تباغت أنطيلوخوس، بل هي على العكس تتبع له الوسيلة لتحقيق الخطة التي اختطها منذ البداية. الدهاء الميتيسي يسبق الفرصة مهما كانت من السرعة، ولهذا فالدهاء الميتيسي هو الذي يلعب تجاه الفرصة دور المباغته؛ إنه يستطيع أن

«يمسك» بالفرصة حيث إنه، وإن لم يكن «خفيفاً»، يعرف كيف يتنبأ بالأحداث التالية وكيف يستعد لها عن بعد كبير. هذا التحكم في الفرصة سمة من السمات التي تحدد فن قائد العربة. وعندما يقرظ بينداروس مهارة قائد العربة نيقوماخوس المعروف بمهارته في قيادة العربة، فإنه يلهج بالثناء عليه لأنه عرف «كيف يرخي اللجام كله للخيل في الفرصة المناسبة katà kairón»^(٢١). والحصانان الإلهيان اللذان يجران عربة أدراستوس المنبعة يحمل أحدهما اسم أرايون Areiôn الذي يدل على امتياز، ويحمل الآخر اسم كايروس Kairós «الفرصة»^(٢٢)؛ لا يكفي أن تكون لديك أسرع الخيول، بل عليك أن تعرف كيف تدفعها في اللحظة الحاسمة.

وفي نهاية السباق الذي ربح فيه دهاء أنطيلوخوس، أدرك أن دهاء لم يكتسب بعد كل الثقل وكل التماسك المطلوبين، فما زال ينقصه العمر. فهذا هو مينيلالوس يكيل له اللوم والتوبيخ لناوراته غير الآمنة، ولما اسماء dólōs أي الاحتيال^(٢٣)؛ ويدعو الآلهة أن تكون شهوده على السوء الذي حل به؛ ويطلب من أنطيلوخوس أن يحلف اليمين وأن يعترف. ويرى الشاب نفسه مضطراً للإقرار علناً بذنبه، فيعترف بأخطائه ويبررها بطيش الشباب، وبالاندفاع الذي يجعل دهاء الصبي متوثباً: «ألا تعرف طيش الشاب؟ الخاطر لديه سريع، والدهاء الميتيسي عنده خفيف مندفع»^(٢٤). كان أنطيلوخوس، في شوقه إلى الانتصار، يفتقر إلى الثقل الذي يُكتسب بالخبرة على مر سنوات العمر. فقد شغل بالحيلة التي عكف على تدبيرها فلم يتبين النتائج التي ستنتج بعد الفوز عن الخدعة. لم يعرف خبثه، وهو الشاب الغرير، كيف ينظر إلى بعيد فيرى أبعد من طرف أنفه كما يقولون. أما خبرة الشيخ المسن فإنها تعطي الإنسان رؤية أوسع، لأن عقله يكون قد ثقل بكل المعرفة التي اجتمعت له وتراكت على مدى السنين، فهو لهذا يستطيع أن يكتشف مقدماً طرق المستقبل العديدة، وأن يوازن الإيجابيات والسلبيات، وأن يتخذ قراره عن علم بالقضية. في النشيد الثالث من «الإلياذة»، عندما نصل إلى المنعطف الذي قد نظن فيه أن العقل سينتصر وأن اتفاقاً سيضع نهاية للحرب، يطلب مينيلالوس باسم الإغريق، قبل أن يعقد العقد، أن يؤتى إلى جانب أبنائه الشباب بالشيخ الهرم پرياموس: «عقل الشباب يحلق متقلباً مع كل ربح تهب êeréthontai؛ فإذا صاحبهم شيخ هرم عرف، بتقريب المستقبل من الماضي háma próssô kai opissô leússei، كيف يمكن ترتيب كل شيء على خير وجه بالنسبة إلى الطرفين»^(٢٥).

أما تقريب المستقبل من الماضي فهي تلك الموهبة التي كان من نكد الدنيا على الأخيين Akhaioi أن ملكهم لم يؤتها. أخذ الغضب بأجامنون كل مأخذ فلم يكن «قادراً بتقريب

المستقبل من الماضي على أن يرى أن الأخيّن يمكنهم أن يحاربوا دون خسارة فهم على مقربة من سفنهم^(٢٦). ولم يكن الطرواديون أسعد حظاً. ولقد أغدق بوليдамاس عليهم، بما جبل عليه من حرص^(٢٧)، ما شاء أن يغدق من نصائح حكيمة، وتوسل إليهم أن يفحصوا الأمور من كل الأوجه، بل تنبأ أمامهم «بما سيحدث». فلم يسمعوا له، وبقي وحده القادر على أن «يرى الماضي والمستقبل معاً»^(٢٨). وأخذ الطرواديون جميعاً برأي هيكتور الذي دعاهم إلى أن يحاربوا خارج الأسوار. وكان رأياً وخيم العاقبة. هكذا نسي هيكتور العظيم الماضي، وعَمَى عن المستقبل، واستسلم كل الاستسلام للكراهية والنزال، فأصبح رأساً خفيفاً استسلم كله إلى صروف الأحداث. ضللت العاطفة الملكين كليهما، فضاق مجال رؤيتهما، وتصرفا، كل في معسكره، تصرف شابن طائشين، فشابهتا النسوة اللاتي قالت عنهن سايفو إنهن «طائشات الروح، لا يفكرن لخفتن إلا في الحاضر»^(٢٩). ثم إن الأفق الزمني حتى بالنسبة إلى الرجل الذي بلغ سن النضج وأوتي فكراً راکزاً، أفق محدود: المستقبل بالنسبة إلى أبناء الفانية معتم كالليل. وهذا هو ديوميديس وقد عرض أن يخرج في دائرية ليلية بين خطوط العدو يطلب أن يصاحبه رفيق: «عندما يسير رجلان معاً فإذا لم ير أحدهما الميزة kerdos التي ينبغي الإمساك بها، رآها الآخر. والإنسان يرى أيضاً، إذا كان وحده، ولكنه رؤيته تكون عندئذ أقصر، ودهاؤه الميتيسي أخف»^(٣٠) لابد أن يكون الإنسان مسناً يحمل كل الخبرة من قبيل ما أتبع لنيسطور، أو يكون أوتي دهاءً ميتيسياً خارقاً مثل أوليسيس، حتى يكون قادراً - بحسب العبارة التي بصور بها ثوقيديدس Thoukydides الحس السياسي لثيميستوقليس - «على أن يكون لنفسه بالنسبة إلى المستقبل أصوب رأي عن أبعد احتمالات المستقبل وعلى أن يتنبأ على خير وجه بالمنافع والمعاذير التي يخفيها الغيب»^(٣١).

وينبغي أن نضيف هنا أن هذا التنبؤ الذي يفوق المألوف prométheia أو pronoia - حرفياً = هذه الرؤية المسبقة - لا يسير عند البشر في اتجاهه دون أن يكون هناك ما يأتي من الاتجاه المضاد. فيروميثيوس Prométheus - معنى الاسم حرفياً: الذي يفكر مسبقاً - له أخ توأم هو قرينه وضده واسمه إبيميثيوس Epimétheus أي الذي يفكر سلفاً. وپروميثيوس يضع في خدمة البشر - الذين أمدهم مع النار بكل الحيل الفنية - ذكاءً يظن أنه يستطيع الاحتيال على زيوس وخداعه. ولكن الدهاء الميتيسي الذي يتوسل به التيتان پروميثيوس ينتهي دائماً بالانقلاب ضده، فيقع في الفخ الذي صنعه. پروميثيوس وإبيميثيوس هما إذن

وجها شخص واحد، كما أن التفكير المسبق prométheia عند الإنسان ليس إلا الوجه الآخر لجهله الكامل بالمستقبل^(٣٢).

٣- وثمة سمة أخيرة يخلعها هوميروس على الدهاء الميטיسي، فالدهاء الميטיسي عنده ليس واحداً، وليس على شكل واحد، بل هو متعدد ومتنوع. فنيستور يوصف بتعدد الفطنة، بتعدد الدهاء، بأنه pantoîê^(٣٣). وأوليسيس البطل يوصف بصفات تحمل معنى تعدد الدهاء، وتعدد المعرفة، وتعدد الحيلة، فهو polúmêtis و polútropos و poluméchanos ، إنه خبير في ألوان الدهاء المختلفة pantoious dólous^(٣٤) وهو poluméchanos بمعنى أنه لا تعوزه أحبولة أبداً، ولا تعوزه وسيلة póroi يخرج بها من كل مأزق aporia. والفنان الذي تعلم على يد أثينة وهيفايستوس اللتين تملكان ناصبة الدهاء الميטיسي، يحتكم أيضاً على صنعة متنوعة الطرق téchné pantoîé^(٣٥)، يحتكم على فن للتنوع، على علم يمكنه من فعل كل شيء. وصاحب الدهاء الواسع المتنوع polúmêtis يحمل أيضاً اسم poikilómêtis^(٣٦) و aiolómêtis^(٣٧). ولفظة poikilos (=مزرکش، مبرقش، مشعشع، أرقط الخ) تدل على الرسم المبرقش على النسيج^(٣٨)، وتدل على شعشة سلاح لامع^(٣٩) وعلى جلد حيوان الخشف المبرقع^(٤٠) وظهر الحية اللامع الأرقط^(٤١). هذه الزركشة في الألوان والتشاعب في الأشكال يحدثان أثراً من الشعشة والتموج وتراقص الانعكاسات يرى فيها الإغريقي ما يشبهذبذبة نور دائمة. ومن هنا فإن لفظة poikilos التي تعني المزرکش المبرقش، قريبة من كلمة aiólos التي تعني الحركة السريعة المختلجة^(٤٢). ومن هنا فإن سطح الكبد المتغير، تارة بالسعد، وتارة بالنحس^(٤٣)، يوصف بأنه مثل السعادة التي لا تدوم على حال بل تتحرك وتتقلب^(٤٤)، مثل الربة التي تقلب وتقلب مصائر البشر، بلا انقطاع، تارة من هذه الناحية، ومن تلك تارة أخرى^(٤٥) وأفلاطون يقرن المبرقش المزرکش poikilos بما لا يبقى أبداً شبيهاً بذاته^(٤٦) ويرى في مواضع أخرى أنه ضد البسيط haploûs^(٤٧).

وهكذا فإن الزركشة والتشابك ينتميان انتماءً حميماً إلى طبيعة الدهاء الميטיسي، حتى إن لفظة poikilos المبرقش المزرکش إذا وصف بها فرد، كانت كافية للدلالة على أنه مراوغ، ماكر ذو قدرة خصيبة على الابتكار وعلى حيل الدهاء من كل نوع. وهيسيودوس يصف پروميثيوس بأنه poikilos مبرقش مزرکش وبأنه في الوقت نفسه aiolómetis^(٤٨) داهية في سرعة الحركة. وأيسوبوس Aisôpos => يلاحظ في إحدى «حكاياته» أن الفهد إذا كان مبرقش

المجلد، فإن الشعب مزركش الفكر^(٤٩). وأريسطوفانيس في مسرحية «الفرسان» يحذر أحد المحاربين من عدو على جانب كبير من الخطورة: «الرجل مزركش poikilos مكار؛ وما أسهل ما يجد الوسائل للخروج من المآزق ek tòn améchánon pórous euméchanos po-rizein^(٥٠)» .

قلنا من قبل إن كلمة aiólos كلمة قريبة من poikilos . وقد ألحقها بينثينيست E.Benveniste اشتقاقاً بالجذر aión (skrt áyu) : وهو يعني أولاً قوة حياة تتحقق في الوجود الإنساني، ثم استمرار الحياة، ثم مدة الحياة، ثم مدة من الزمن^(٥١). وبناءً على التحليل اللغوي فإن المعنى الأساسي لكلمة aiólos هو: سريع، متحرك، متوثب، متقلب. والرأي عند L. Parmentier پارمينتييه هو أن لفظة aiólos كان معناها في الملحمة مزركش (versicolor) أي الملون بألوان مركبة بعضها فوق البعض كالشرائح^(٥٢). ولكن إذا صح أن لفظة aiólos عندما استخدمت على سبيل المثال لوصف حصان أخيل وهو كميته على ساقه بطع بيضاء^(٥٣) تدل على لون جلده، فإنه من الصحيح أيضاً في نظر علماء المعاجم وعلماء تأويل النصوص الذين فسروها^(٥٤) أن اللفظة تروحي أولاً بصورة حركة جياشة وتغير دائم. اللفظة تدل في مجال الأشياء على الدروع التي تدور محدثة شعشة^(٥٥)؛ وفي مجال الحيوانات على دود^(٥٦)، ذباب الخيل^(٥٧)، زنابير، قفير من النحل^(٥٨)، أي على كل صنف الحيوانات التي لا تكف جماعاتها الجياشة عن الحركة أبداً؛ وتدل في مجال البشر على أولئك الذين تعرف قريحتهم المخاتلة كيف تراوغ في كل اتجاه. وهنداروس يصف أوليسيس بأنه aiólos يقصد ماكر مراوغ^(٥٩). ولفظنا aiolómetis, aiolóoulos تقابلان لفظي poikilómetis, poikilóoulos . والشخص الذي يجعله مكره قادراً على فعل كل شيء والذي يبدو على درجة من الدهاء تمكنه من أن يكتشف عند كل فخ سبيل النجاة، يصفه أوستائس بأنه aiólos = موج أي مراوغ و poikilos = مزركش أي واسع الحيلة^(٦٠).

لماذا يبدو الدهاء الميبيسي متشعباً متعدد الأوجه pantoie متلوناً، متعدد الألوان والسبيل poikilê مائجاً، متموجاً كثير المراوغة aiólê؛ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في أن مجال تطبيقه هو عالم المتحرك، المتشعب، المتداخل المعاني. الدهاء الميبيسي ينصب على وقائع مائعة لا تكف أبداً عن التحور وهي تجمع في ذاتها، في كل لحظة، أوجهاً متضادة، وقوى متعارضة. وعليه لكي يمسك الفرصة kairós العابرة سريعاً أن يكون أسرع

منها. عليه لكي يسيطر على موقف متغير ومتناقض أن يجعل نفسه أكثر مرونة، أكثر تموجاً، أكثر تعدداً في الأشكال من انسياب الزمن: عليه بلا انقطاع أن يتكيف مع تتابع الأحداث، أن ينحني أمام المباغت من الظروف لكي يحقق على نحو أفضل المشروع الذي دبره: هكذا الريان القابض على دفة السفينة يتصرف بدهاء مع الريح حتى يقود المركبة بالرغم من الريح إلى بر الأمان. والإغريقي يرى أن الشبيه وحده هو الذي يؤثر على الشبيه. النصر على واقعة مائجة متموجة مراوغة تجعلها تحوراتها المستمرة شبه منيعة هدف لا يمكن تحقيقه إلا بمزيد من الحركة، وبمقدرة أكبر على التحور.

هذه السمة التي تسم الشخص صاحب الدهاء المبتيسي، وهي سمة أكدها أبوللودوروس، وكان من المحتمل أن نظنها ثانوية أو إضافية، تتخذ هكذا قيمتها الكاملة. كانت زوجة زيوس ذات موهبة تتمثل في القدرة على التحور. كانت، مثل آلهة بحرية أخرى (هي كذلك كائنات «أساسية»): نيربوس وپروتبوس وثيرتيس، تستطيع أن تتخذ أشكالاً بالغة التنوع، فتحور نفسها على التوالي إلى أسد وثور وذبابة وسمكة وطيّار ولهب أو إلى ماء يتسرب. وقيل لنا إن ميتيس في كفاحها من أجل الإفلات من تطويق زيوس - كما كافحت پروتبوس من أجل الإفلات من تطويق پيليوس - «تحورت إلى أشكال من كل نوع» (١٦).

وببدو الأرباب من هذا النمط تقريباً دائماً في الحكايات الميثولوجية، عندما يتعرضون لمحنة فرضت على بطل، إما على نحو بشري أو إلهي. والبطل في لحظة حاسمة من حياته عليه أن يواجه أحابيل إله شديد الدهاء يحيط بسر نجاحه. والإله لديه قدرة على التحور تجعل منه في أثناء المعركة نوعاً من الوحش المتحور، المنيع، المرعب. وعلى غريمه لكي يهزمه أن يباغته بدهاء أو تخف أو كمين - كما فعل مينيلاروس مع پروتبوس العجوز - أن يضع يده عليه على غرة فلا يرفعها عنه بعد ذلك مهما حدث. وعندما يتجرد الإله المتحور من سحره نتيجة للقيّد الذي يطبق عليه، فإنه يعود إلى هيئته الأولى ويستسلم للغالب. فإذا كان المغلوب ربة، فإنها ترضى بالاقتران بالغالب، ويكون هذا الزواج تنويجاً لحياة البطل؛ أما إذا كان المغلوب ربة - مثل نيربوس أو پروتبوس فيكون عليه أن يكشف أسرار علمه العرافي. تدور الأحداث في كل الحالات حول كائن حذر، سريع الحركة، منيع، باغته غريمه وأمسك به، وجسه في قيد لا يفض.

ولقد أخضع زيوس ميتيس بأن قلب عليها أسلحتها التي تسلحت بها من حيث هي ربة، وهي: التدبير بالتأمل المسبق، الخداع، الأخذ على غرة، القبض المباغت. ومن ناحيتها قامت

ميتيس في نضالها لفك تطويق الإله بتشكيل نفسها على شكل موجودات هاربة تحير عقل البشر بتحوراتها التي لا تنقطع، فتفلت من القبضة التي دبروها لها، وتنزلق هاربة من بين أيديهم.

وتشير زركشة الدهاء الميتيسي وشعشعته إلى قرابته بالعالم المتشعب، المنقسم، المتموج الذي يغوص فيه ليعمل عمله. هذا التواطؤ مع الواقع هو الذي بضمن له الفعالية. وتحقق له مرونته وقابليته للتشكل النصر في المجالات التي لا تكون فيها قواعد قائمة ووصفات ثابتة، بل تتطلب فيها كل محنة اختراع تصد جديد، واكتشاف مخرج خفي póros. ومن الناحية الأخرى نجد أن الوقائع المتداخلة، المتناثرة، المتحركة التي يجتهد الإنسان في تأكيد قبضته بناء عليها، يمكن أن تتخذ في الأسطورة شكل الوحوش المتحورة، أي شكل القوى التحويرية التي يحلو لدهائها أن يخيب كل تنبؤ ويضل دون توقف عقل البشر.

٤- والدهاء الميتيسي هو نفسه قوة دهاء وخداع. وهو يعمل عن طريق التخفي. وهو لكي يخدع ضحيته يستعير شكلاً يتشكل فيه ويستخدمه كالقناع، بدلاً من أن يكشف عن كيانه الحقيقي. في الدهاء يفترق الظاهر والواقع، ويتعارضان كشكلين متضادين ويحدثان تأثير الإيهام الذي يجر الغريم إلى الخطأ ويدعه حبال هزيمته مبهوراً apáté كما لو كان يواجه أعمال ساحر. ولعبة أنطيلوخوس كما وصفتها الإلياذة بأنها «خدعة» dólōs (٦٢) من هذا النوع. فقد دبر الشاب مؤامراته الماكرة بعناية؛ فاختر الأَرْض، وتبين الموضع الذي يضيق فيه الطريق. وبينما عكف على تدبير مكيدته، بدا - على النحو الذي دعاه أبوه ليكون عليه - حريصاً phronéon (٦٣)، حويطاً pephulagménos (٦٤)، متنبهاً إلى ألا يتصرف على نحو طائش aphradéos (٦٥) مثل قائد العربة الذي يعوزه الدهاء الميتيسي. وتطلبت مناورته من ناحية أخرى أن يكون متمكناً من قيادة خيله، وألا يترك شيئاً للحظ، في اللحظة التي يغير فيها الخيل وجهته لينقض على العربة المجاورة، وأن يضمن في كل لحظة سيطرته الكاملة على خيله. ولا بد للمناورة، لكي تكون فاعلة، أن تضلل مينيلائوس، وأن تتخفى وراء عكس مسعاها. فعندما رأى مينيلائوس - ملك اسبرطة - عربة أنطيلوخوس تنحرف نحو عربته ظن أن الشاب فقد السيطرة على خيله لانعدام خبرته، فصاح فيه: «يا أنطيلوخوس، إنك تقود كالمجنون aphradéos (٦٦)». وهذه اللفظة هي التي استخدمها نيسطور في وصف القائد الذي يعوزه الدهاء الميتيسي، وبدلاً من أن يمسك زمام خيوله، ويلزمها وجهته، ينقاد لها، مثل

الملاح الخائب بين الأمواج والرياح، فإذا العربة تنحرف هنا وهناك، على هوى الخيول، من جانب الطريق إلى الجانب الآخر^(٦٧). تظاهر دهاء أنطيلوخوس الحريص بعكس حقيقته لكي يختل مينيلوس فلعب لعبة الطيش. فهذا هو الشاب وقد قدر ضررته بحساب دقيق، يسوق جواده إلى الأمام على الخط المختار، ويتظاهر بالطيش والعجز، كما يتظاهر بأنه لم يسمع مينيلوس عندما صاح فيه أن يأخذ حذره *hôs ouk aionti eoikós*^(٦٨). هذه السمات التي اتسم بها مسلك أنطيلوخوس تبرز في كامل صورتها عندما نقرها من مسلك أوليسيس صاحب الدهاء الواسع المتنوع *polúmetis*، أو الذي هو الدهاء في صورة إنسان. لتتنظر إلى أكثر أساتذة الإغريق ذكاءً وأعظمهم خطراً، وهو يتهياً أمام الطرواديين مجتمعين لينسج خيوط خطابه المتعرج البراق: هاهوذا يلزم مكانه، ويقف وقفة خرقاء، مثبتاً عينيه على الأرض، لا يرفع رأسه؛ ويمسك الصولجان جامداً لا يحركه، كأنه لا يعرف كيف يستخدمه؛ حتى ليظن الناظر إليه أنه يرى شخصاً أحرق تجعد في حمقه أو شخصاً فقد عقله *áphrona*. وهذا هو أستاذ المخاتلة، وساحر الكلمات في اللحظة التي ينبغي عليه فيها أن يتكلم، يتظاهر بالعجز عن فتح فمه، جهلاً بمباديء فن الخطابة *aïdreî phôti eoikôs*^(٦٩). هذا هو «تلون» دهاء ميتيسي يتظاهر دائماً بعكس ماهيته، وينتمي انتماء القراصة إلى تلك الوقائع الكاذبة، إلى قوى الخداع التي يشير إليها هوميروس بلفظة *dólos* - خدعة - وهي: حصان طروادة^(٧٠)، فراش الحب ذو القيود السحرية^(٧١)، طعم صيد السمك^(٧٢)، كل الفخاخ التي تخفي وراء مظاهر مطمئنة أو جذابة، الشرك الذي توارده في باطنها.

الباب الثاني

الثعلب والأخطبوط

أتاحت لنا الفقرة الخاصة بأنطيلوخوس في «الإلياذة» أن نرسم، انطلاقاً من ملحمة هوميروس، الخطوط العريضة لحقل الدهاء الميتيسي الدلالي والسمات الجوهرية لهذا الشكل الخاص من الذكاء. والدهاء الميتيسي من حيث هو حرص أرب مكن أنطيلوخوس في أثناء المباريات من التقدم في سباق العربات على منافسين لديهم خيول أسرع من خيوله التي كانت أقل سرعة: فالخدعة dólos والمناورات kérde والمهارة في الإمساك بالفرصة kairós تعطي الأضعف الوسائل لينتصر على الأقوى، والأصغر لينتصر على الأكبر. وهذا هو أنطيلوخوس طوال التجربة يعمل دون هوادة، وقد ثبتت عينه على من سبقه dokeúei : فعلى الدهاء الميتيسي، كي يقلب الأوضاع، أن يتنبأ بالغيب، بما لا يمكن التنبؤ به. والذكاء الأخذ بالدهاء، وقد سلك مدارج المستقبل، يواجه مواقف مختلطة وجديدة، الخروج منها معلق دائماً، وهو لا يحقق سيطرته على الكائنات والأشياء إلا لأنه قادر على التنبؤ - فيما وراء الحاضر المباشر - بشريحة من المستقبل زاد سمكها أو قل. والدهاء الميتيسي يقط، متنبه دائماً بلوح متشعباً pantoie ومزركشاً poikilé ومتموجاً aiolé : فهو يتصف بكل الصفات التي تؤكد التحور المتعدد والتكافؤ المتعدد، لأن هذا الذكاء عليه أن يصطنع تموجاً وتحوراً أكثر من الموجودات المتسرية والمتحركة لكي يجعل نفسه منيعاً حيالها ولكي يهيمن عليها. والدهاء الميتيسي من حيث هو ذكاء قائم على الدهاء ينضوي في النهاية على الغش الذي ينضوي عليه الفخ، فالفخ يظهر على شكل غير شكله ويخفي حقيقته الفتاكة وراء مظاهر مطمئنة.

هذا النموذج الأول من الدهاء الميتيسي الذي تسجلت سماته في الإلياذة والأوديسا سنعرضه على شاهدنا الثاني ونعني به المؤلفات التي تحمل اسم أوبيانوس Oppianos.

* * *

«كتاب صيد السمك» Halieutika الذي ألفه أوبيانوس في القرن الثاني بعد الميلاد و«كتاب صيد الحيوان» Kynegetika الذي يحمل اسم المؤلف نفسه ^(١) يدخلان بنا في عالم

كله فخاخ. هناك فخاخ من قبيل السنارات والشباك والجبايات (أقفاص صيد السمك)، والأحبولات، والمقالب، ويدخل في قبيل الفخاخ على نحو ما : الحيوانات والبشر الذين نراهم تارة صيادين وتارة أخرى فريسة. في الكتابين المذكورين ترد كلمات خديعة، حيلة، العربة dólos, téchné, méchané وتتكرر بلا انقطاع مرتبطة بالدهاء المييتيسي. ففي عالم الحيوان، كما في عالم البشر، يتدخل الدهاء المييتيسي باستمرار لتزييف علاقات القوة. فليست القاعدة هي أن الجسم يأكل الضئيل: « فأولئك الذين لم ينعم الرب عليهم بنعمة القوة والذين لم يزودوا بشوكة صلبة ليدافعوا بها عن أنفسهم لديهم أسلحة تتمثل في إمكانات ذكائهم الخصب الفني بالحيل والخدع dóloi ، فيمكنهم أن يهلكوا سمكة تفوقهم في بسطة الجسم وفي القوة kai kraterón, kai hupérteron^(٢) » فليس الضعاف والنحاف محكوماً عليهم مقدماً بالهزيمة. والسرطانات المائية حيوانات بحرية صغيرة، قوتها - كما يقول أوبيانوس - متناسبة مع أجسامها: « ومع ذلك فإنها بفضل حيلها dóloi تنجح في قتل ذئب البحر وهو من أشد الأسماك قوة^(٣) » .

والدهاء المييتيسي لدى الأسماك يمكن أن يتخذ ألف شكل، فمعينه غني بالاختراعات، زاخر بألوان المباغطة. هذه هي على سبيل المثال ضفدعة البحر كيف تعمل : « ضفدعة البحر حيوان بحري ثقیل الحركة، رخو الجسم، قبيح المنظر. وفتحة فمها واسعة مفرطة السعة. وهي تحتكم على قدر غير قليل من الدهاء المييتيسي يأتيها بطعامها. فهي تتلبث دون حراك في قلب الوحل الرطب، ثم تعد زائدة لحمية صغيرة تحت فكها الأسفل: وهي زائدة دقيقة بيضاء كريهة الرائحة ، والضفدعة تحركها بلا انقطاع وتستخدمها كطعم (خديعة dólos) لتجذب السمك الصغير الذي ما يكاد يدركها حتى يندفع ليمسك بها. حينئذ تأتي الضفدعة بحركة غير محسوسة تسحب بها هذه الزائدة التي تشبه اللسان وتستمر في هزها برفق على بعد أصبعين من فمها الواسع. ولا يرتاب السمك الصغير أدنى ارتياب في أن هناك فخاً kruptón dólōn منصوباً فيتبع الطعم، وسرعان ما يندفن مختلجاً في أعماق هذا الفم الضخم ...^(٤) . ويضيف أوبيانوس أن الضفدعة الضعيفة تختل السمك على هذا النحو وتستولي عليه. إن مجال الدهاء المييتيسي هو المجال الذي تحكمه الحيلة والمخاتلة: إنه عالم مختلط يقوم على الغش والخداع. وزائدة الضفدعة البحرية هي طعم صيد حقيقي، طعم يتسم بسمة الطعم المزدوجة : فهذه الزائدة بالنسبة إلى السمك الصغير لها مظهر الطعام، ولكنه طعام سرعان ما

يتحول إلى قم ضخمة مفترس. وضفدعة البحر عندما تدلي من طرفها ما يشبه الشريط الذي تطوكه كما تريد ثم تسحبه، تقوم بحركة لثيمة لا ينقصها شيء من فن صيد السمك بالشخص، لأن هذه الحيلة sóphisma ^(٥) حفزت الإغريق على أن يطلقوا على الضفدعة البحرية الاسم الذي ينطبق عليها تماماً وهو اسم السمكة الصيادة halieús.

الأسماك صاحبة الدهاء المبتيسي فخاخ حية: والسمكة الرعادة تبدو رخوة الجسم، مجردة من كل قوة، ولكنها «تواري بين جنبها - كما يقول أوبيانوس - خديعة هي قوة تعتمد على ضعفها ^(٦)». وتتمثل خديعتها في أنها من وراء مظهرها الأعزل تفرغ شحنة كهربائية تباغت عدوها وتضعه تحت رحمتها.

إن البحر الذي تعمده حيوانات ملتبسة بواربي مظهرها المسالم حقيقتها القاتلة يشبه العالم المفخخ. فهذه الصخرة كتلة رمادية، مطمئنة، ساكنة. ولكنها في الوقت نفسه أخطبوط، يقول أوبيانوس: «وأسماك الأخطبوط بالمخادعة تختلط بالصخرة التي تلتصق بها ^(٧)» بهذه الوسيلة، وبفضل الإيهام apáté الذي تحدثه، تتخلص بسهولة من ملاحقة الصيادين كما تتخلص من ملاحقة الأسماك التي تخشى على نفسها من قوتها. وعلى العكس إذا مر بها كائن ضعيف، سارعت وغيّرت شكل الصخرة الذي اصطنعته، وعادت سيرتها الأولى إلى شكل الأخطبوط. وهكذا فالحيلة نفسها تأتيها بالطعام وتنجّيها من الموت. وعالم الغش هو أيضاً عالم اليقظة: وضفدعة البحر المتلبسة في الطين والأخطبوط الملتصق بالصخر يقفان على أهبة الاستعداد، فهما يرصدان ويتربصان لحظة التدخل. كل حيوان أوتي الدهاء المبتيسي عين حية لا تغمض أبداً بل لا ترمش أبداً ^(٨).

في عالم صيد السمك وصيد الحيوان لا يتحقق الفوز إلا بالدهاء المبتيسي. والقاعدة بالنسبة إلى الحيوان وبالنسبة إلى البشر صيادي السمك وصيادي الحيوانات قاعدة ثابتة تتمثل في: أنه لا سبيل إلى الانتصار على صاحب الدهاء المبتيسي الشديد إلا بأثبات مزيد من الدهاء المبتيسي حياله. فمينيلاوس لا يظفر بپروتوس وهو الإله القادر على الكثير من التحور، إلا باللجوء إلى الكمين والتخفي ^(٩). وهرقليس لم يظفر بپيريقلوميوس، المحارب المنيع الذي يتحور إلى ألف شكل، إلا بمعونة أثينة وكل ما لديها من دهاء ^(١٠). والسؤال الآن هو: كيف كان أوبيانوس يتصور هذا النمط من البشر، صياد الحيوان أو صياد السمك، الذي يواجه عالماً مفخخاً ويدخل في صراعات مع حيوانات مليئة بالدهاء؟ هناك فقرات عديدة في

«كتاب صيد السمك» و «كتاب صيد الحيوان» تتيح لنا أن نستخلص سماته الجوهرية وأن نتبين صفاته الأساسية. الصفة الأولى لصياد السمك وصياد الحيوان على السواء تتمثل في الخفة والمرونة والسرعة والحركة. أوبيانوس يتطلب من صياد السمك الماهر أن تتصف أعضاؤه بالخفة، فيكون قادراً على القفز من حجرة إلى حجرة، وعلى الجري على الشاطئ، والانتقال بسرعة تفوق سرعة فريسته^(١١). أما صياد الحيوان فينبغي أن يكون قوياً، صلباً يحتمل التعب، وأن يكون أيضاً عداءً ماهراً، سريع القدمين^(١٢) مثل المحارب الكامل طبقاً للنموذج الهوميروسي^(١٣). وأفلاطون عندما يلاحظ في «القوانين» أنه ليست هناك صفة حربية تفوق رشاقة الحركات البدنية - حركات القدمين وحركات اليدين، تنطبق ملحوظته تمام الانطباق على نموذج الإنسان الذي نسعى إلى تعريفه وتحديد صفاته^(١٤). وتتيح بعض السمات الميثية التشديد على هذه الصفة الأساسية. فهذا هو هيرميس عندما يشرع في الصيد عند هبوط الليل يضفر لنفسه «نعلين سريعين» يمكنه من التنقل بسرعة الريح، ويحكي نوئوس أن أجريوس ونوميوس، وهما من أساتذة صيد الحيوان الميثيين، كانا يملكان نعالاً عجيبة، وعندما أراد ديونيسوس أن يعبر عن مودته لنيقيوس المغرم بصيد الحيوان قدمهما إليه^(١٥). وكان هذان النعلان يكونان بحسب التقاليد جزءاً من تجهيزات أرتيميس عندما يخرج لعمليات الصيد الكبيرة التي حرص عليها^(١٦). ويشهد الاسم الذي أطلق عليهما بوضوح على القيم التي يرمزان إليها فقد سميا: إندروميديس *éndromídes* أي نعال «الجري».

والصفة الثانية لصياد الحيوان وصياد السمك هي التخفي، وهو فن يتمثل في أن ترى دون أن تُرى. وليس من شك في أن أوبيانوس لا يورد في أي موضع تعريفاً بالوضوح المطلوب؛ ولكنه عندما يضم عدداً معيناً من التعليمات والوصايا والنصائح معاً فهو يضع بين أيدينا السند الوحيد الذي يخول لنا الحق في استشفافه. نبدأ أولاً بما يعطيه من تعليمات تقنية خالصة: الخيط الذي تربط فيه السنارة لا بد أن يكون دقيقاً كالشعرة، والأحبولة التي تمد على المسالك التي تسلكها الفريسة يجب أن تختلط بأغصان الأشجار، والجابية (القفص الذي يوضع في الماء لصيد السمك) لا بد أن تندمج كلية في صورة العالم البحري، كما أن الأخطبوط يستعير لون وشكل الصخرة التي يلتصق بها^(١٨). هذه التروصيات الخاصة بأسلحة صيد السمك والحيوان لا تنفصل عن سلسلة كاملة من النصائح بوجهها أوبيانوس إلى أولئك الذين يريدون صيد سمكة أو حيوان، وهي: عليهم أن يكون ساكنين، وأن يتنقلوا دون ضجيج، ومهما

كانوا من السرعة، فلا بد أن يعرفوا عند اللزوم أن يتلبثوا بلا حراك طوال ساعات^(١٩). فإذا أراد صياد أن يصيد رفاً من السمك رصد الراصد فماذا يعمل؟ عليه أن يتحاشى على قدر الإمكان إحداث جلبة بالمجداف أو بالشباك؛ وعليه أن يرمي الشباك على مسافة كافية حتى لا يصل صخب المجاديف وقرقة المركب إلى السمك؛ وعلى كل المشاركين في حملة الصيد أن يلزموا أقصى درجات السكون حتى يتم «تطويق» السمك وحبسه في التحويطة الدائرية للشبكة الضخمة^(٢٠). في هذا العالم البحري الذي ألف أحبازه جميعاً - كما يقول بلوتارخوس - توجساً سرعان ما يتحول إلى ارتباب، يظل التخفي بلا جدوى إذا لم يبدأ أولاً بوضع الطعم ونصب الفخ^(٢١). على صيادي السمك والحيوان عندما يلزمون السكون ويتوارون عن الأنظار أن يجعلوا من أنفسهم فخاخاً.

التزام السكون وإرهاف السمع والتخفي بحيث ترى كل شيء دون أن تُرى، والتنبيه الدائم، كل هذا يغطي مصطلحاً فنياً في صيد السمك والحيوان شددنا من قبل على أهميته في السجل اللغوي الهوميروسي^(٢٢) هو مصطلح *dokeúein* : الترصد والتربص. والصفة الثالثة لهذا النمط من البشر هي اليقظة. وهنا نجد أوبيانوس صريح العبارة، إذ يقول إن صيد الحيوان وصيد السمك يتطلبان اللمعة الثاقبة. صيادو السمك وصيادو الحيوان لا بد أن تكون عيونهم مفتوحة، وحواسهم يقظة، ولا ينبغي لهم أبداً أن يستسلموا للرغبة في النوم^(٢٣). والحيوانات التي يتربصون بها لا تكف أبداً عن اليقظة. هل يمكن أن تنام الأسماك؟ لقد ناقش القدماء هذه المسألة مناقشة مستفيضة، حتى إن أرسطوطاليس اجتهد ما وسعه الجهد أن يبين في كتابه «تاريخ الحيوان» «طباع الحيوان» أنها تنام، بل تنام نوماً عميقاً^(٢٤). وبعض مؤلفي الكتب الفنية، مثل سلويقوس الطرسي *Séleucos de Tarse*، زعموا أن الأسماك جميعها لا تنام باستثناء نوع واحد يسمى على سبيل التناقض «المنتفض» *skáros*^(٢٥). وأخذ أوبيانوس بهذا الرأي فقال: إن الأسماك حيوانات لا تغمض عينيها، حتى في الليل، وهي تتميز بذكاء لا يغلبه النعاس أبداً *nóos panáüpnos*^(٢٦). وسلويقوس وأوبيانوس على حق على نحو ما في مواجهة أرسطوطاليس وعلمه في مجال الطبيعيات، فمن رأيهما أن الأسماك ما دامت ذات دهاء ميتيسي فلا يمكن أن تنام؛ إنها تشبه زيوس إله الدهاء الميتيسي، الذي لا يغفو، ولا تغمض له عين أبداً^(٢٧). البارع في التربص *cúskopos* مثل هيرميس هو الذي يكون صياد الحيوان^(٢٨). ويذكر پولوكس *Pollux* في سجل صفات الصياد، بعد أن أشار إلى أن

الصيد ينبغي أن يكون سريعاً *koûphos*، سباقاً في الجري *dromikós*، يقطاً *ágrupnos*، فرض عليه أيضاً أن يكون صاحب نظرة حادة، ثاقب البصر ^(٣٠) وعندما ينصح بوللو كس في موضع آخر بما ينبغي عليه أن يفعله لمواجهة الخنزير البري يشدد على هذه الصفة ويضفي عليها الأهمية كل الأهمية، يقول: ينبغي أن يكون ذا نظرة ثاقبة ليصوب *stocházesthai* على المواضع الحيوية *kairia*، على النقطة التي يكون فيها الجرح مميتاً ^(٣١).

إذا كان صياد الحيوان وصياد السمك قادرين على البقطة، فإنهما كما يقول أوبيانوس ^(٣٢) يحققون صيداً جيداً، ويكونون أعزاء على هرمس، إله الحظ، وهو علاوة على زيوس - الذي تتسم طبيعته بأنها غريبة على النوم تماماً - أشد ألهة البانثيون الإغريقي بقطة. الحركة والبقطة وفن أن ترى كل شيء دون أن ترى كل هذه الصفات تتلخص في الصفة التي يتطلبها أوبيانوس *Oppianos* في صياد السمك البار، ألا وهي: أن يكون ممتلئاً مَاحَلة *pol-upaipalos* ^(٣٣). هذه الصفة *paipalé* أو *paipálema* يمكن أن تدهشنا، فالكلمة معناها حرفياً «صفوة الدقيق»، ولكنها في لغة أرسطوفانيس تستخدم مجازاً للدلالة على الشخص الداهية الأريب المَحَال ^(٣٤). الإنسان الذي يوصف بهذه الصفة هو المتمكن من الأمحال. والتعبير يناظر سلسلة الكلمات التي تربط على نحو وثيق مفهوم الدهاء بفكرة الشعب والتنوع: الداهية صفة أوليسيس وهيفايستوس وهيرميس ^(٣٥)، والنبه *polútropos* صفة الأخطبوط والإنسان ذي الدهاء الميتيسي ^(٣٦)، والأرية *poluméchanos* صفة خاصة بذكاء أوليسيس ^(٣٧). والمَحَال، المتمكن من الماحلات *polupaipalos*، لا نحيلنا فقط إلى الفخاخ، والأحابيل، والجابيات، والشباك، وكل الخدع التي هي أسلحة صياد الحيوان وصياد السمك. السياق يدل على أكثر من هذا: «لابد لصياد السمك من عقل مليء بالماحلات، وبالحرص *noemon*. لأن الأسماك التي تقع بغتة في فخ، تبتدع ألف حيلة لتهرب منه *pollà kai aióla mechanóontai* ^(٣٨). دهاء الأسماك الميتيسي هو الذي يضطر الصياد إلى قدح ذكاء غني بالماحلات. وأوبيانوس يقول ذلك بوضوح في أكثر من موضع: «الأسماك لا تستغل ماحلات ذكائها، وحيلها وخدعها في علاقاتها مع أبناء جنسها فقط *nóema puknón, me-tis epiklopos*، بل كثيراً ما تنقض مهارة أولئك الذين يعملون على الاستيلاء عليها: وكثيراً ما تنجح في الإفلات عندما تكون السنارة قد أمسكتها أو تكون الشبكة قد أحاطت بها. إنها تفوز في معركة الدهاء *bouleï nikesantes*، وكثيراً ما تنتصر على أحابيل الإنسان ^(٣٩)».

حتى عندما تكون الحيوانات قد وقعت في الفخ، فإنها بفضل دهائها الميتيسي، تظل هي ذاتها فخاخاً: فهي تمتلك كل دهاء السفسطائي، المخاتل المليء بالخدع *poikilos* الذي «لا تعوزه الحيل أبداً» *pórous euméchanos porizein* للخروج من كل مأزق *amechanon* ^(٤٠). إن دهائها الميتيسي لينافس كيد بروميثيوس «فهو قادر على حل العقدة التي لا تحل، وعلى إيجاد مخرج» ^(٤١). وينبغي على صيادي الحيوان وصيادي السمك للانتصار على هذه الكائنات التي امتلأت جعبتها بالإمكانات، ولتقويض أركان حيلها المبالغتة أشد المبالغتة، وللتصدي للمفاجئات التي لا يمكن التنبؤ بها، أن يكونوا متمكنين من دهاء ميتيسي أعظم، وأن يحملوا في جعبتهم المزيد من الألاعيب التي لا يمكن أن تواجهها ضحاياهم. في تجربة عالم الحيوان ذاتها يجد الدهاء الميتيسي ما يشد به أزره، وما يتزود به من مقومات لامحيص عنها. ويلوتارخوس يشدد على هذه النقطة في كتابه «ذكاء الحيوان»، يقول: «إن ممارسة صيد الاخطبوط تنمي المهارة *deinótes* والذكاء العملي *súnesis*» ^(٤٢). وعلى العكس من ذلك نجد أفلاطون في «القوانين» يدين بعنف صيد السمك بالسنارة، وملاحقة الحيوانات المائية، واستخدام الجابيات، وصيد الطيور، وكل صنوف الصيد بالشباك والفخاخ، والسبب في ذلك أن هذه الأساليب تنمي صفات الدهاء والغش وهي تناقض الفضائل التي تتطلبها مدينة «القوانين» من رعاياها ^(٤٣).

صيادو السمك وصيادو الحيوان بما هم أساطين الماحلات يمارسون غشاً لا يدانيه غش آخر؛ فهم يزيدون من تدابيرهم الماكرة، ويشحذون قدرتهم على اختراع ألف من المخادعات للتصدي لملاحلات دهاء الحيوان. بعض الأسماك تقع في الفخ منجذبة إلى طعوم بسيطة: فالأخطبوط المشوي على الفحم يجتذب دون صعوبة سمك الكانثاري إلى داخل الجابية. ذلك صيد سهل، ولكن من الممكن تحويله إلى صيد هائل كالمعجزة عندما يستخدم الصياد بدلاً من الجابية العادية التي لا تحبس سوى سجين واحد جابية لا تنقل على الفور، وتلبد الصياد صابراً، تاركاً الأسماك تألف الآلة، وتتعود على أن تجد فيها طعامها، ثم ينزل فجأة غطاءً على الفتحة ينطبق عليها بإحكام، ويسبي هكذا القطيع كله ^(٤٤). ولكن هناك من الضحايا من هم أقل سذاجة، يحتاجون إلى أساليب أكثر خبثاً: فأربيانوس يوصي لصيد الأنثياس *anthias* ^(٤٥) بتثبيت «ذئب بحري» حي في سنارة ذات طرفين، ما أمكن ذلك. فإن لم يجد الصياد طعاماً حياً، فيمكنه أن يلجأ إلى الألعوبة البديلة التالية: فيرط تحت فم السمكة المتخذة طعاماً عدة

تسمى «الدلفين» تجعل جسم السمكة الميتة يتحرك حركات الجسم الحي. وتنخدع أسماك الأثياس عندما ترى السمكة الطعم تتحرك كأنها تلوذ بالفرار، فتندفع نحوها ^(٤٦). وهنا نلاحظ أن خدعة الصياد ليست إلا تقليداً أو رداً على خدعة الضفدعة البحرية.

* * *

الحيوانات ذات الدهاء الميتيسي لا تعد ولا تحصى . وأوريانوس يحكي باستفاضة عن الأعياب الإخنمون ichneumon ^(٤٧) ومخاتلة ثور البحر ^(٤٨)، وهو يدهش لدهاء نجمة البحر والريتسا ^(٤٩)، وتحايل الكابوريا التي تسلك سلوكاً ملتوياً ^(٥٠). ولكن من بين كل الحيوانات التي يميزها دهاؤها الميتيسي هناك حيوانان يفرضان نفسيهما بصفة خاصة على الاهتمام، ألا وهما : الثعلب والأخطبوط. ولهما في الفكر الإغريقي قيمة النموذج؛ فكأنهما تجسيد للدهاء في عالم الحيوان. كل واحد منهما يمثل ناحية جوهرية من الدهاء الميتيسي. أما الثعلب فلديه في جعبته ألف ألوية، ولكن دهاءه يبلغ ذروته فيما يمكن أن نسميه حركة الانقلاب أو سلوك الانقلاب. وأما الأخطبوط فإنه يرمز بما أوتيت لحاساته من مرونة فائقة إلى الإفلات اعتماداً على التحور المتعدد.

وعندما يصف أوريانوس دهاء ضفدعة البحر التي تتلبث في الطين وتظل ساكنة لا تراها الأنظار، فإنه ينطلق إلى مقارنة بالثعلب: «الثعلب المكار agkulómetis kerdó يصطنع حيلة مماثلة؛ فما يرى جماعة من الطيور البرية، حتى ينام على جنبه، ويمد أعضائه الخفيفة الحركة، ويغمض جفنيه ويقفل فمه. ويظن من يراه أنه يغط في سبات عميق أو أنه بالفعل مات لبراعته في حبس أنفاسه، ويكون هو في هذه الأثناء وهو ممدد على الأرض عاكفاً على قلب خطمه اللثيمة aióla bouleeúousa في ذهنه. وما تراه الطيور حتى تنقض عليه زرافات ووحداناً، وكأنها تريد أن تهينه فتخدش فراءه بمخالبها، وما تصل إلى متناول أسنانه حتى يميظ اللثام عن خدعته dólous وينقض عليها بغتة ^(٥١)». فالثعلب فخ؛ يتظاهر بأنه ميت، وعندما تحين اللحظة المناسبة يصبح الميت أشد الأحياء حياةً. ويتمثل فن الثعلب في أنه يعرف كيف يتلبد ساكناً ساكناً في الظل. هكذا يتخيله مؤلف «كتاب الصيد» : «أكثر الحيوانات البرية خبثاً aiolóoulos...، في حرصه، يسكن في أعماق جحر هبأه أدهى تهيئة. فهذا السكن الذي احتفروه لنفسه له سبعة أبواب مختلفة تؤدي إليها سبعة ممرات، وفتحاتها بعيدة بعضها عن البعض. وهكذا فخوفه أقل من خوف الصيادين الذين يضعون فخاً

على بابه فلا يتمكنون من إيقاعه في شراكهم^(٥٢). وهو في مكمنه يدبر خطط مخادعته. ويطابق هذا المكمن، أو هذا الجحر المحير، المقعم بالألغاز والمتعدد الأشكال، عقلاً لا سبيل إلى سبر أغواره. والحيوان الذي بلغ هذا المبلغ من المخاتلة لا يمكن إلا أن يكون منيعاً لا سبيل إلى الإيقاع به: «لا ينبغي لمن يريد صيده أن يعتمد على الفخاخ أو الأحابيل أو الشراك، فليس له مثيل في شم رائحة الكمين؛ وهو ماهر في قطع الحبال وفي الإفلات من الموت لما أوتيه من محلات الدهاء^(٥٣). ويستخدم أوبيانوس للتعبير عن «الإفلات» الفعل التخصيص: olisthánein أي ينزلق، وهو الفعل الذي يوحى بصورة المصارع الذي يدهن جسمه بالزيت لينزلق بين يدي غريمه^(٥٤). الثعلب بالنسبة إلى العالم الإغريقي هو الدهاء؛ ومن الممكن أن تعبر اللغة الإغريقية عن الدهاء بكلمة ألوبيكس alópex أي الثعلب. والصفات الجارية التي ينعت بها الثعلب هي: الخبيث^(٥٥) والماحلة^(٥٦) والمخادعة^(٥٧) aiolóoulos, poi-kilóphron, poikilos، والثعلب هو أسطون المخادعة: وكلامه في حكايات الحيوان أكثر إغراءً haimmúloi lógoi من كلام السفسطائي^(٥٨). وعندما تفاخر الفهد أمامه بأنه مرقط الفراء، رد الثعلب عليه بأنه يوارى من تحت فرائه ذي اللون الواحد المحمر عقلاً مزركشاً وذكاء متلوناً متعدد الأشكال يستطيع أن يتكيف مع كل الظروف^(٥٩). ويلقب بالكيردو Kerdó أي الانتهازي، وهو يمثل الخبيث^(٦٠) الذي خلا جزء من جسمه من الشعر فلا يستطيع أحد الإمساك به^(٦١). ومنذ عصر ألكايوس Alcaeus^(٦٢) يبدو نموذجاً لنمط معين من البشر، فيبتاكوس Pittacos ثعلب. إنه يعرف كيف يلوذ بالصمت، ويتقن في المعركة كذلك فن الخداع. وبيتاكوس الثعلب يقال عنه إنه قتل في المنازلة القائد الأثيني فرينون Phrynon، البطل الأولمبي في البانكراسيون pamkration تلك الرياضة التي تضم المصارعة والملاكمة معاً، فقد أخفى تحت درعه شبكة باغت غريمه وألقاها عليه^(٦٣).

وعقل الثعلب زاخر بالخبيث^(٦٤). وهذه هي حيلته في الإمساك بطيور الحبارى: إنه يحني رأسه صوب الأرض ويبصبص بذيوله. ويزعم إليانوس Elianos أن طيور الحبارى المخدوعة apatétheisai تقترب من هذا الشكل الذي تظنه واحداً من أبناء جنسها. وعندما تصبح قريبة المنال ينقلب الثعلب بغتة epistréphein وينقض عليها^(٦٥). وإذا كان دهاء الثعلب الميتيسي قد تأكد في تظاهره بالموت، فإنه يبلغ الذروة في حركة الانقلاب المفاجئة هذه. والحق أن الثعلب يملك سر حركة الانقلاب الذي يعتبر منتهى دهائه. وفي الديوان الرابع

«البرزخي» I Ve Isthmique يصف الشاعر بينداروس (بيندار) دهاء الثعلب وصفاً منفعياً بالإيحاء، يقول: كثيراً ما فاجأ دهاء الأضعف الأقوى وأوقعه kai krésson' andrôn 'cheirónôn ésphale téchna katamárpsais' فقد أخفقت شجاعة أياكس، وهي أعظم شجاعة بعد أخيلئوس Akhilleus، أمام خدعة أوليسيس الداهية polúmetis، وكان انتصار أوليسيس هو انتصار الذئب على الأسد^(٦٦). وينتقل بينداروس من خلال هذه الطرق إلى حيث يمدح ميليسسوس Mélissos الثيبي الذي غلب خصمه في مباراة الانكراسيون وهي الملاكمة والمصارعة معاً. يقول عنه إنه كان قصير القامة، ولكنه كان ذا قوة رهيبة: «شجاعته في المعركة تشبه شجاعة الضواري ذوات الزئير الرهيب». إنه أسد هصور. ولكنه أسد مبطن بشعلب ينقلب على نفسه فيوقف انقضاخ النسر^(٦٧). واعتُبر ميليسسوس أسطوناً في حيلة الحيلة أو حيلة الإفلات pálaisma التي تتمثل في الإفلات من هجمة الخصم، والانقلاب بالجسم انقلاباً يرد ضد الخصم قوة اندفاعه^(٦٨). والثعلب على نحو مماثل عندما ينقض النسر عليه، ينقلب على نفسه بغتة فينخدع النسر وتضيع منه الغنيمة، وتنقلب المواقف، فيتحول الغالب إلى مغلوب والمغلوب إلى الغالب. هذه هي ضربة الثعلب.

ولكن الثعلب ليس وحده الذي يملك ناصية هذه الضربة في عالم الحيوان. فهناك سمكة اشتهرت بأنها تعرف كيف تخرج من المأزق الذي لا مخرج منه. فعندما تبتلع السنارة تصعد إلى أعلى بكل ما تستطيع من سرعة وتقطع الخيط من منتصفه، بل من الجزء الأعلى منه في بعض الأحيان. وبلوتارخوس يتحدث بمزيد من الإفاضة: «هذه السمكة تهرب عادة من الطعم dólos، ولكنها إذا بلعته تخلصت منه، فهي بما أوتيت من قوة ومرونة hugróteta ترمي إلى الوراء وتقلب جسمها metabállein tò soma بحيث يكون الداخل مكان الخارج: فتقع السنارة hósta ton entòs genoménon apopitein ágkistron^(٦٩)». وهذه حركة مكر يؤكد لها إيليانوس حيث يقول: «هذه السمكة تطوي أعضائها الداخلية وتقلبها إلى الخارج، مجردة جسمها كالقميص heautes tò entòs metekdûsa éstrepseu éxo hosper oûn chitôna tò soma anelixasa^(٧٠)» إنها تقلب نفسها كالقفاز وتحقق منتهى ما تصل إليه حركة القلب. ورب سائل عن الاسم الذي أطلقه الإغريق على هذا الحيوان المائي الماكر؟ لقد أطلقوا عليه اسم «السمكة الثعلب». وليست هناك ملاحظة وضعية من الواقع تثبت حقيقة هذا المسلك العجيب الذي تنسبه روايات كثيرة إلى الثعلب، سواء الثعلب من ذوات الأربع، أو

السمة الشعب. فلم يلتق الإغريق في الطبيعة بهذه الألوان من السلوك يقوم بها حيوانات، ولكنهم كانوا يتصورونها في أذهانهم، في المفهوم الذي اصطنعوه عن الدهاء الميتيسي ووسائله ونتائجه. وهكذا فإن الشعب، في مفهومهم، من حيث هو تجسيد للدهاء لا يمكن أن يسلك إلا على نحو يطابق طبيعة ذكاء ملتو. وإذا كان الشعب ينقلب فهو إنما ينقلب لأن الدهاء الميتيسي قوة انقلاب.

وإذا كان الشعب مرناً ورقيقاً مثل سَيْر من الجلد، فإن الأخطبوط يتمدد بأعضاء مرنة و متموجة aióla guía لا تعد ولا تحصى (٧٢). والأخطبوط في رأي الإغريق عقدة ذات ألف ذراع، أو شبكة حبة من الأحابيل المتداخلة polúplokos (٧٣). وهذه الصفة هي نفس الصفة التي ينعت بها الشعبان والتفافاته والتواءاته (٧٤)؛ تلك هي المتاهة بتشعباتها، وتداخل قاعاتها وعمراتها (٧٥). والطوفون Typhon الوحش هو أيضاً معقد ومتشعب polúplokos كالأخطبوط؛ فهو كائن متشعب «له مائة رأس» وجذعه يمتد في أعضاء شعبانية (٧٦).

والأخطبوط مشهور بدهائه الميتيسي (٧٧). وأوبيانوس يقارنه بلص من أولئك اللصوص الذين يخرجون بالليل لينقضوا على فريستهم بغتة (٧٨). والأخطبوط لا يمكن الإمساك به، فمداحلاته mechané تتيح له أن يندمج في الحجر الذي يلتصق به (٧٩). وهو قادر على التشكل الكامل ليلتف على الأجسام التي يمسكها، وهو يعرف كيف يقلد ألوان الكائنات والأشياء التي يقترب منها (٨٠). والأخطبوط منيع لا يمكن الإمساك به، وهو كائن ليلي، مثله مثل هيرميس الملقب بالليلي núchios (٨١)، يعرف كيف يتوارى بالليل، الليل الذي يستطيع هو أن يفرزه، مثل الأحياء من بني جنسه، وبخاصة سمك الحبار. ويوصف الحبار بأنه مخادع مخاتل dólometis, dolóphrôn (٨٢)، وهو مشهور بأنه أكثر الرخويات دهاءً. وهو لكي يخدع عدوه ويدخل ضحيته يمتلك سلاحاً لا يخيب هو: الحبر، وهو أشبه ما يكون بالضباب tholós (٨٣). هذا السائل الغامق، هذا الضباب اللزج يتيح له الإفلات من هجوم الأعداء الذين يتحولون إلى فريسة له وكأنهم حبسوا في شبكة. هذا الحبر، هذا الضباب الأسود، هذا الليل الذي لا مخرج منه، هو الذي يحدد سمة من السمات الجوهرية للأخطبوط وللحبار. والحيوانات الرأسية الأرجل حيوانات منيعة، رخوة، تصطنع لنفسها منات الأطراف النشيطة، حيوانات غامضة كالأنغاز: فليس لها أمام وليس لها خلف؛ وهي تعوم ملتوية،

عينها إلى الأمام، وفمها إلى الخلف، ورأسها تحيط به كالهالة أرجلها المتحركة (٨٤). وعندما تتزوج فإنها تترايط ترابطاً وثيقاً، فمها إلى فم، وذراعاً إلى ذراع. وتسبح هكذا وهي مترابطة أشد الترابط، وقد أصبح مقدم أحدها مؤخر الآخر (٨٥). إنها حيوانات ملتوية، لا يتميز مقدمها تميزاً واضحاً عن مؤخرها، وهي تخطط كل الاتجاهات في ذاتها وفي مسلكها وفي كيانها الفيزيقي. وأسماك الحبار والأخطبوط كائنات لي؟ عرف لها مخرج apories، وليل الحبر الذي تفرزه ليل بلا مخرج، بلا طريق، وهو الصورة الكاملة لدهائها الميتيسي. الحبار والأخطبوط هما وحدهما، في هذه الظلمة المطبقة، اللذان يعرفان كيف يشقان طريقهما وكيف يفتحان لهما مخرجاً póros. الليل مأواهما، بلوذان به ليفلتا من أعدائهما، ويخرجان منه بغتة، ليطبقا على ضحايهما (٨٦). أنهما فخان حيّان يستخدمان وسيلة خداع يسميها بلوتارخوس سوفيسما sóphisma، هي: زائدة دقيقة طويلة تتحرك حركة بطيئة، يستخدمانها كالطعم في استدراج السمك. فإذا أصبح السمك في متناولهما أطبقا عليه بشراسة (٨٧). ولكن الشيء الذي يمنحهما القوة هو نفسه الذي يؤدي إلى هلاكهما. فهذه الحيوانات التي هي دهاء، كلها لا يمكن صيدها إلا بإيقاعها في فخها: والصيادون عندما يصيدونها يلقون إليها بأنثى من جنسها كطعم، يربطونها برباط متين لا يستطيع إلا الموت أن يفكه (٨٨). وهكذا فإن على الصياد لكي يقضي على هذه الأسماك أن يقلب عليها قوتها المتمثلة في الربط برباط متين.

والأخطبوط مثله مثل الثعلب يحدد نمطاً من السلوك البشري: «وجه إلى كل واحد من أصدقائنا... وجهاً مختلفاً من ذاتك epistrephe poikilon éthos. وتمثل بالأخطبوط ذي الطوايا العديدة إذ يصطنع لنفسه شكل الحجر الذي سيلتصق به. تلق الناس يوماً بإحدى الطوايا، وفي اليوم الآخر غير اللون. والكياسة sophie خير من الإصرار atropie (٨٩)» «الإصرار على لون يتعارض أشد التعارض مع "تعدد الأوجه"، كما يتعارض التصلب والثبات مع الحركة الدائمة التي يتحراها من يكشف دائماً وجهاً مختلفاً.

والنموذج المقترح هو نموذج الرجل "المناور"، المتلون، المتعدد الأوجه polútropos (٩٠) الرجل ذو الألف طريقة، الذي يوجه نحو كل شخص وجهاً مختلفاً. وهو بالنسبة إلى التراث الإغريقي كله يحمل اسم أوليسيس الداهية plúmetis، الذي قال عنه أوستاثيوس: إنه أخطبوط (٩١). ولكن الأخطبوط لا يميز فقط نمطاً من السلوك البشري. بل يستخدم أيضاً نمطاً

لشكل من الذكاء هو : الذكاء ذو اللامسات الأخطبوطية polúplokón nóema^(٩٢). هذا الذكاء الأخطبوطي يظهر خاصة في نمطين من البشر: السفسطائي والسياسي اللذين تتعارض خصالهما ووظائفهما في المجتمع الإغريقي وتتكامل كما يتقابل ويتباين مستوى الكلام ومستوى العمل. في الحديث المتعرج الرجاج poikiloi lógoi يبسط السفسطائي الكلام «ذا الثنايا والطوايا العديدة» periplokai^(٩٣) فإذا هي: مسلسلات من الكلمات تتتابع كحلقات الثعبان، وعبارات تتحلق حول الخصوم مثل أذرع الأخطبوط المرنة. أما السياسي فعندما يتخذ مظهر الأخطبوط، ويجعل من نفسه متعدد الثنايا والطوايا polúplokos، فإنه لا يصطنع فحسب لوغوس lógos الأخطبوط، بل يعبر عن قدرته على التكيف مع المواقف التي تسبب الحيرة أشد الحيرة، وعلى أن يغير وجهه فيتخذ وجوهاً عديدة بعدد الشرائع الاجتماعية والأنواع البشرية في المدينة، وعلى أن يخترع مئات الطرق المتنوعة التي تحقق لعمله الفعالية في أكثر الظروف تنوعاً^(٩٤).

والمعدد الثنايا والطوايا polútropos في بعض جوانبه من حيث هو نمط بشري يبدو كأنه يختلط بالنمط الذي يسميه الشعراء الغنائيون الهوائي المتقلب ephmeros^(٩٥)، إنه الإنسان الذي لا يبقى على حال بل يتغير بين لحظة وأخرى: فهو تارة على هذا الحال وتارة على ذاك؛ وهو أرعن ينزلق من تطرف إلى تطرف. والهوائي المتقلب ephmeros كالمعدد الثنايا والطوايا polútropos يتميز بالحركة. ولكنهما إذا كانا كائنين متحركين يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً في نقطة جوهرية، فأحدهما سلبي والآخر إيجابي. الهوائي هو الرجل المتقلب الذي يشعر بأنه يتغير في كل لحظة، يحس بكيانه الرجاج، يتقلب مع كل نسمة ريح، إنه - بحسب تعبير بينداروس - «فرسة الزمن الخادع» dólios aión^(٩٦)، الزمن الذي يغير مسار حياة. أما المناور المتعدد الثنايا والطوايا فإنه يمكن لنفسه اعتماداً على سيطرته، فهو: مرن، متموج، وهو مسيطر على نفسه دائماً، وهو لا يبدو متقلباً إلا في الظاهر. وحركات المتقلب التي يقوم بها هي الفخ أو الشبكة التي يقع فيها عدوه. وهو بدلاً من أن يكون لعبة في يد الحركة، يسيطر عليها، ويلعب بها ويلعب بالآخرين بسهولة ترجع إلى أنه يبدو في ظاهره كالهوائي. وبين المناور المتعدد الثنايا والطوايا وبين الهوائي المتقلب من البعد مثل ما بين الأخطبوط والحرياء: فإذا كانت محورات الحرياء ناجمة عن الخوف، فإن محورات الأخطبوط ناجمة عن الدهاء. إن محورات الأخطبوط - كما يبين پلوتارخوس^(٩٧) -

فِعْلٌ مُدَاخِلَةٌ mechané، وليست انفعالاً فيزيقياً خالصاً ... إنها وسيلة للإفلات من الأعداء والإمساك بالأسماك التي يتخذها طعاماً له». بناءً على قدرة الأخطبوط والإنسان المناور polútropos على اصطناع كل الأشكال دون أن البقاء سجيناً في أي منها يتحدد لدى الأخطبوط والإنسان المناور المتعدد الثنايا والطوايا دهاءً ميتبسي لا يبدو على مرونته أنها تنحني أمام الظروف إلا لتسيطر عليها سيطرة أوثق.

انقلاب الثعلب وتحويل الأخطبوط والحبار نمطان من أنماط السلوك يكونان بتكاملهما وجهي الدهاء الميتبسي اللذين لا ينفصل أحدهما عن الآخر ويشاركان في مُعامل مشترك هو : عنصر الربط والقيود. والأخطبوط المتعدد اللامسات polúplokos عبارة عن قيد معقود من ألف ذراع متشابكة، وكل أجزاء جسمه قيود تحدد بكل شيء ولا يستطيع أي شيء أن يحدد بها. والثعلب المخاتل poikilos يسكن في متاهة، والمتاهة مكان مخاتل poikilon يمد في كل الاتجاهات لمسافات مسالكة ودرويه. والثعلب كالقيد الحي الذي ينطوي وينبسط ويرتد وينقلب حسب إرادته، وهو كالأخطبوط أسطون متمكن من القيود: فلا شيء يمكن أن يحدد به، وهو يستطيع أن يحدد بكل شيء. والقيود أسلحة الدهاء الميتبسي المفضلة. والكلمتان plékein "يضفر" و stréphein "يرم" من الكلمات المفتاحية في قاموسه (٩٨). في الكتابين المنسوبين إلى أوبيانوس <عن صيد السمك وصيد الحيوان> لا يدور الحديث إلا حول القيود والحبال والسلاسل المصنوعة من غصون الخلاف المبروم، والجابية المضفورة dólos plektós (٩٩). وغصون شجر الخلاف lúgos هي بالنسبة إلى صيد السمك وصيد الحيوان المادة الخام الأساسية: هذه الغصون تبرم اثنين أو ثلاثة أو أربعة معاً، ثم تربط القطعة المبرومة إلى الأخرى لتكون حبال الخلاف المضفور التي يحملها صياد الحيوان وصياد السمك البارح دائماً معه (١٠٠). ولكن فن الأربطة ليس حكراً قاصراً على صيادي الحيوان والسمك: فعندما أراد هيرميس أن يخفي عن أبوللون مقود ثيرانه، حيث عزم على أن يوقعه في شرك من كيد، عكس آثار الثيران، دافعاً أمامه الثيران القهقري، وقلب هو أيضاً في الوقت نفسه آثار قدميه متقدماً القهقري، مداخل الأمام والخلف بعضهما في البعض مداخلات متشابكة، لا سبيل إلى فك تشابكها (١٠١). كان هيرميس يوصف بأنه عقدة حية، كذلك كان يوصف بالمحوري stro- phaios (١٠٢) ليس فقط لأنه كثيراً ما كان يقوم قريباً من الباب الذي يدور حول محاوره stróphigx ولكنه كما يقول الشراح (١٠٣) كان الدائر حول محوره stróphis (١٠٤)

كائناً متحركاً مثل فنان الپانتوميم ستروففيوس Strophios وهو أبو فلوجيوس Phlogios الذي كان فنان پانتوميم هو الآخر وكان يلقب بالدوار حول محوره : وكانا كلاهما يقلدان في تمثيلهما الصامت الكائنات الحية البالغة التنوع بتحريك أصابع أيديهما الرشيقة (١٠٥). وكانت كلمة محوري strophaios كنية يكتني بها الإغريق السفسطائي الذي يعرف كيف يشبك supplékein الكلام lógoi والحيل mechanei ويرمها stréphein (١٠٦).

وإذا كان المصارع ماهراً في التثني مثل غصن الخلاف. فإن السفسطائي بارع في تناول الكلام بالتثنيات والمداخلات. التثنيات: لأن السفسطائي متمكن من فن التثني بألف طريقة pásas strophàs stréphesthai (١٠٧)، والتحايل بألف وسيلة تحايل mechanâsthai strophàs، ومحاكاة الثعلب فيقلب الحجة التي استخدمها الخصم نفسه ويجعلها ضده. وهو يشبه پورتيوس في أنه لكي يفلت من قبضة الآخر يصطنع كل الأشكال الحية. والمداخلات: لأن السفسطائي لا يكف عن تعقيد الرأي والرأي المضاد بعضهما في البعض: أنه ينحو تماماً منحى پالاميديس Palamêdês مثل زينون الإيلي Zenon ho Eleates، ويتكلم بقدر فائق من الفن يمكنه من أن يجعل الأشياء نفسها تبدو لمستمعيه تارة متشابهة وتارة متباينة، تارة واحدة وتارة متعددة (١٠٩). وكلماته المتداخلة هي من قبيل الفخاخ strephomena (١١٠)، الألفاظ التي تنطق بها الآلهة ذوات الدهاء والتي يسميها الإغريق جريفوي griphoi (١١٢)، وهو اسم مشتق من اسم بعض شبك السمك. التواءات، انحناءات، مداخلات، انثناءات: هكذا يظهر مصارعون وسفسطائيون مثل قيود حية، لا يقلون في ذلك عن الأخطبوط والثعلب.

وليس موضوع الأريطة والقيود هو الكلمة الأخيرة في الدهاء الميتيسي للأخطبوط والثعلب. فحركة القلب والانقلاب التي يقوم بها الثعلب هي المناظر الكامل لتحورات الأخطبوط: ألم تر أن الثعلب عندما ينقلب يقوم بحركة التفاف دائرية يتحول فيها الأمام إلى الخلف، والخلف إلى الأمام. وهو كالحبار لا أول له ولا آخر، لا مقدم له ولا مؤخر: إنه بلا شكل، وإنه ليل عميق، وحصار لا مخرج منه. والدائرة التي يرسمها الثعلب عندما ينقلب تجعله منيعاً مثل الغمامة التي يفرزها الحبار. والغمامة nephéle اسم يطلقه الإغريق على نوع من شبك صيد السمك (١١٢). والشبكة التي هي نسيج لا يرى من الأريطة والقيود سلاح من أسلحة الدهاء الميتيسي المفضلة: بالشبكة انتصر پيتاكوس Pittakos على فرينون Phrynon (١١٣)، وبالشبكة شلت كليثمنسترا Klytaimnêstra حركة أجائمنون قبل أن تذبحه (١١٤)، وبالشبكة

حبس هيفايستوس أفروديتي وأريس (١١٥). والفخ الذي نصبه أوليسيس للخطاب كان شبكة «لها أعين لا تعد ولا تحصى» (١١٦)؛ والسلاسل التي غُل بها پروميثيوس إلى صخرته كانت تنسج حوله شبكة حلقاتها من الفولاذ (١١٧). كانت «شبكة بلا مخرج - ápeiron amphibles- tron (١١٨) تحقيق بكل شيء ولا يتمكن منها شيء، شكلها هو أكثر الأشكال انسيابية، وأكثرها حركة، وكذلك أكثرها إحداثاً للحيرة، ألا وهو شكل الدائرة. وفي لغة الإغريق، كما نعلم، يستخدم فعل enkukleîn (١١٩) أي حاق - أحاط - طَوَّق كالدائرة للتعبير عن الصيد. ليس هناك بين دهاء الشعب ودهاء الحبار ودهاء صياد السمك فرق ينصب على طبيعة الدهاء الميتيسي. ولا بد للانتصار على عدو أوتي دهاءً ميتيسياً أن ترد إلى نحره أسلحته الخاصة به؛ و«غمامة» صياد السمك تقابل تماماً «غمامة» الحبار. والإنسان الذي أوتي الدهاء الميتيسي يستطيع أن ينتصر على أكثر أنواع عالم الحيوان دهاءً بأن يجعل من نفسه باستخدام الشبكة قيداً ودائرة، وبأن يصبح بدوره ليلاً بهيماء، أو كمينا لا مخرج منه، أو شكلاً لا يمكن الإمساك به.

* * *

مرت بين هوميروس وبين أوبيانوس من الزمان عشرة قرون. وامتدت بين «الإلياذة» وبين «كتابي أوبيانوس» «صيد الحيوان» و«صيد السمك» مسافة فصلت بين القصة الملحمية والكتب الفنية التي تعالج صيد البر وصيد البحر. وعلى الرغم من ذلك فهناك في مجال دراستنا استمرار يبدو لافتاً للنظر آخذاً بالألباب. فقد بقي الحقل الدلالي الذي يقع فيه مفهوم الدهاء الميتيسي والذي ينتظم شبكة مدلولاته كما هو في جوهره. مجموعة الكلمات - الخديعة dólos، الاحتيال mechane، الماحلة téchne، المناورة kerdos، الإيهام apáte، الرجرجة aiólos، المخاتلة poikilos، الإغراء haimúlos - التي تحدد بما تتضمنه من سمات نوعية هذا النمط من الذكاء الدهائي الذي يتميز بالمعاجلة والمرونة، والالتواء والمخادعة مما يمكنه من مواجهة ما لم يكن في الحسبان، والتصدي لأكثر الظروف تغيراً والفوز في المعارك غير المتكافئة على أعداء تسلحوا بأسلحة أفضل لحوض مباراة القوة. فضعف أنطيلوخوس عند بداية سباق العربات ضعفً تمثل في تخلف خيله يناظر تماماً الضعف الفيزيقي في حالة السرطان البحري والسمك الرعّاد وهو ضعف لا يوازنه إلا مزيد من الدهاء الميتيسي؛ والبقطة المتحفزة المستمرة التي يأخذ بها الشاب نفسه على طول المضمار تشبه بقطة الأخطبوط الذي

يترصد لغنيمة بلا هوادة؛ وغش قائد العربة الداهية الذي يجعله دهاؤه الميتيسي، عن تدبير مسبق، يتصنع الطيش والجنون لكي يخدع منافسه هو صورة من الفخ الحي الذي يمثله الثعلب إذ يتصنع الموت وهو حي، أو صورة من زائدة الضفدعة البحرية الشبيهة باللسان التي تلوح في ظاهرها كأنها طعام للسماك الجائع وهي تخفي الفم المفترس الذي سينقل عليها.

والدهاء الميتيسي - بما يتسم به من سمات وألوان سلوك تميزه، وبالمجالات التي يمارس عمله فيها، والخطط التي يستخدمها لقلب قواعد اللعبة في مباراة القوة - نراه يستغل كل المفهوم الذي كونه الإغريق عن هذا النمط الخاص من الذكاء الذي لا يتأمل الجوهريات الثابتة بل ينشغل مباشرة بالمشكلات العملية بكل صروفها ويواجه عالماً من القوى المعادية والمحيرة لأنها تتصف دائماً بالغموض والتميع. والدهاء الميتيسي من حيث هو ذكاء يعمل فيما هو صائر، وفي موقف النضال، يكتسي شكل قوة مواجهة تستخدم صفات عقلية - الحرص، الفطنة، العجلة، نفاذ البصيرة، المكر، بل والكذب - ولكن هذه الصفات تلعب دورها كطائفة من الأعمال السحرية التي قد تحوزها لكي تتصدى للقوة الغاشمة بالأسلحة التي هي أسلحتها الخبيصة: المنعة والغش. والكائن الذي أوتي الدهاء الميتيسي منبع بفلت من بين أصابع عدوه مناسباً كالماء الجاري؛ وهو لفرط مرونته يتحور تحورات عديدة؛ وهو مثل الفخ يبدو على عكس حقيقته: غامضاً، مضاداً، يتوسل في عمله بالانقلاب.

هذا الاستمرار الذي استمره السجل اللغوي للدهاء الميتيسي، واستمرت من خلاله صورته وموضوعاته ونماذجه، كيف نفسره، وما هو المدى الذي نعترف له به؟ هل يمكن القول إن ما جاء في كتابي أوبيانوس هو مجرد لعبة أدبية، والتماس للقديم، واستخدام مقصود لسجل الملحمة اللغوي؟ حتى إذا أخذنا بهذا الرأي، فإن شواهد أوبيانوس توضح بنيات الفكر الهوميروسي المتصل بالدهاء الميتيسي. ولكن لماذا لا نلاحظ أن من هوميروس إلى أوبيانوس، على مدى تراث طويل يمتد عبر هيسودوس والشعراء الغنائيين والشعراء التراجيديين وأفلاطون وأرسطوطاليس، عدداً من الألفاظ المرتبطة أوثق الارتباط بالدهاء الميتيسي يبدو أنها كانت تحظى باستخدام مميز في مجالات صيد الحيوان وصيد السمك والحرب بقدر اعتبار الحرب مشابهة للمجالين الأولين. في النشيد الثاني عشر من «الإلياذة» تستخدم كلمة خديعة dólos للدلالة على الطعم، على سنارة الصياد (١٢٠). عند هيسودوس في نهاية الصراع الذي تصادم فيه المرة تلو المرة دهاء زيوس ودهاء پروميشيوس، كانت الخدعة النهائية

التي كرسست تفوق ملك الآلهة على التيتان تتمثل في خلق پاندورا Pandora لتكون الطعم الذي أوقع إپیمیθیوس وأوقع كل الرجال. كانت پاندورا خدعة وعرة لا مخرج منها dólos aipús améchanos^(١٢١)؛ ونجد شرحاً للقيم التي تتضمنها لفظة «وعرة» في الفقرة المناظرة في مأساة «أجاممنون» حيث تتفاخر كلوتایمیسترا بأنها، لكي توقع زوجها «أجاممنون» في الفخ، نصبت عالية شباك الكبد بحيث لا تستطيع قفزة أخرى أن تتجاوزها^(١٢٢)؛ هذه الخديعة الوعة التي لا مخرج منها dólos aipús améchanos هي الفخ، هي حفرة عميقاً عمقاً يجعل من المحال التماس مخرج منها. وعندما أقفل أولیسیس على الخطاب الفخ الذي نصبه لهم، كان هو الصياد الذي ألقى شباكه على سمك أخذ يرتعد بداخلها^(١٢٣)، وهنا نذكر كذلك سارپیدون Sarpédon عندما حذر هيكتور من الخطر الذي يتهدد الطرواديين وأفصح عن خوفه عليهم من أن يقعوا في شبكة تحيق بهم جميعاً من أولهم لآخرهم^(١٢٤). پینداروس يتحدث بوضوح عن دهاء الثعلب الميتیسی^(١٢٥)، وكذلك إيون الخیوسي Ion de Chios يصف حيلة القنفذ^(١٢٦). في مأساة «أجاممنون» التي أسهب فيها إسخیلوس أي إسهاب في الحديث عن موضوعات صيد الحيوان وصيد السمك^(١٢٧)، نجد ملك الإغريق هو صياد الحيوان الذي ضيق الخناق على مدينة پریاموس ليرمي عليها شباكه، ولكنه لن يلبث أن يقع في الشباك التي نسجها دهاء زوجته الميتیسی لتوقعه في الفخ بدوره. وسوفوكليس وأوریپیدیس يذكران فن صيادي الحيوان وصيادي السمك ويؤكدان الحيل mechanai التي يبتكرها عقلهم المبدع وذكاؤهم المتعدد الأوجه poikilia prapidon^(١٢٨). وعندما يرسم أفلاطون صورة إیروس Éros فإنه يجعله يرث عن میتیس، جدته الأولى، الخصال التي تجعل منه صياداً لا نظير له thereutes deinós يقف بلا انقطاع على أهبة الاستعداد، ذا رجولة، وسرعة، مستجمعاً كل قواه، عاكفاً دائماً على تدبير مكيدة^(١٢٩). وهو يستخدم مفردات صيد الحيوان والسمك في تعريف فن ذلك الذي يجسم في عينيه - عن معارضة للحكمة التي يوجهها الفيلسوف نحو عالم المثل - الذكاء القائم على كل مخاتلة صاحب الدهاء الميتیسی الغارق في عالم الظواهر والصيرورة، ألا وهو: السفسطائي الذي يتوسل بالأعيبه وحيله البلاغية ليجعل الخطاب الضعيف يظهر على الخطاب القوي.

ولدينا المزيد: يمكننا أن نرجع إلى أبعد ما نستطيع الرجوع إليه من الماضي فنجد سجل مفردات الدهاء الميتیسی يربطه بتقنيات لها علاقة واضحة بصيد الحيوان وصيد السمك. نجد

الناس ينسجون أو يغزلون أو يضفرون الدهاء الميتيسي أو الخديعة huphainein, plékein, tektaínesthai ، كما يجدلون فخ صيد الحيوان أو يضفرون جابية (١٣٠). كل هذه الألفاظ تشير إلى تقنيات قديمة (١٣١) هي تلك التي تستخدم مرونة الألياف النباتية، وقدرتها على الالتواء لتصنع منها عُقْدًا وأربطة وشباكاً وشبكات وأشرطة تمكّن من المباغطة والإيقاع والقيّد بالأغلال، وضم القطع العديدة معاً لتكون كلاً محكماً.

يبدو أن هذه الخبرة قد تركت بصمة عميقة على شريحة كاملة من الفكر الإغريقي. ول نجد السمات الجوهرية للدهاء الميتيسي التي استخلصناها بتحليلاتنا - وهي: المرونة والتحول والغش والالتباس والعكس والقلب - تتضمن قيماً معينة تنتسب إلى المنحني والمرن والمعوج والمائل والغامض، على عكس المستقيم والمباشر والصلب والواضح ذي المعنى الواحد. وتبلغ هذه القيم ذروتها في صورة الدائرة، التي هي رباط القيد الكامل لأنها كلها تنقلب وتنقلب على نفسها، ولا أول لها ولا آخر، ولا مقدمة لها ولا مؤخرة، ودورانها يجعلها ثابتة ومتحركة، وهي تتحرك في آن واحد في هذا الاتجاه وفي الاتجاه المضاد. هذه القيم نفسها تظهر في الاستخدام شبه المنظومي لسجل المنحني اللغوي لوصف الدهاء الميتيسي: لا الدهاء الميتيسي الملتوي agkulómetis فحسب، بل إن صفة مثل skoliós واسماً مثل stróphis، والألفاظ المركبة من الجذر -gu* والدالة على الانحناء، مثل الصفة amphigúeeis التي تدل على كائن أرجله ملتوية أو يمكن أن تنتقل إلى أمام وخلف في آن واحد، والجذر -kamp* الذي يدل على ما هو منحن أو ما هو قابل للثني أو ما هو ذو مرفق. ومن الأمور التي لها دلالة في هذا المجال هو أن أرسطوطاليس المنحول إذ بسط في كتاب «الميكانيكا» (١٣٢) نظرية الأدوات الخمس التي تمكّن من إحداث انقلاب القوة المميز للدهاء الميتيسي - أو إذا شئنا استخدام ألفاظ المؤلف نفسها: التي تجعل الأصغر والأضعف يسيطر على الأكبر والأقوى - شرح تأثير «الآلات» المدهش الذي تستخدمه البراعة البشرية مستغلة خصائص الدائرة: التي توحد في ذاتها عن طريق انحنائها المستمر والمنقلب على ذاته عدة أشياء متضادة، مولدة أحدها من الآخر، وهكذا تبرز الدائرة كأكثر الأشياء غرابة وتحجيراً thaumasíotaton في الدنيا بما تملكه من قوة تُشتت المنطق العادي. هذا التأثير التناقضي لقلب الأوضاع والموازن سجله أرسطوطاليس صاحب الطبيعيات في كتاب «تاريخ الحيوان» «طبائع الحيوان»، حيث نجد غالبية القصص التي سيفصلها أوبيانوس، بعد بلوتارخوس وأثينيوس، عن ذكاء الحيوان. وكما أن دهاء أنطيلوخوس الميتيسي مكّنه بحصانين أقل سرعة من التقدم على خيول أكثر

سرعة، كذلك تستطيع الضفادع البحرية - في رأي أرسطوطاليس - وهي أكثر الأسماك بطناً
bradútatoi أن تجدد وسيلة لالتهام البغال البحرية التي تعتبر في البحر أسرع الأسماك tòn
táchiston (١٣٣).

وإذا كان الدهاء الميتيسي على مدى ألف عام قد خط في الثقافة الإغريقية خطأ مستمراً
ظهر لنا ثابت الرسم، فلا يبدو على الرغم من ذلك أن مؤرخي الفكر الأنتيكي أعاروه اهتماماً
كافياً. ولعلهم كانوا مشغولين من خلال أعمال الفلاسفة الكبرى بإبراز مقومات أصالة
الهيلينية بالنسبة إلى حضارات أخرى: منطق الهوية، ميتافيزيقا الوجود والثابت، ولهذا
كثيراً ما نحوا منحى إهمال هذا الجانب الآخر من الذكاء الإغريقي الذي عظمه الميثوس عن
طريق تأليه ميتيس زوجة زيوس الأولى، تلك الربة التي ما كان ملك الآلهة بدون مساعدتها
ليستطيع أن يقيم هيمنته ويمارسها ويحافظ عليها. وعلى الذكاء لكي يحدد وجهته في عالم
التغير وعدم الثبات ولكي يسيطر على الصائر لاعباً وإياه لعبة الدهاء أن يقترن في عيون
الإغريق بالطبيعة على نحو ما، كما فعل مينيلوس عندما اندس في جلد عجل البحر لكي
ينتصر على أعمال پروتيوس الساحرة الرجراجة المتوجة. على الذكاء إذن، لشدة مرونته أن
يجعل نفسه حركة دوية وتحوراً متعدداً وانقلاباً واحتيالاً وغشاً.

الدهاء الميتيسي ذكاء دهائي أمدته صيد الحيوان وصيد السمك في البداية الأولى بالنموذج،
ثم تجاوز هذا الإطار تجاوزاً بعيداً، على نحو ما يبينه عند هوميروس شخص أوليسيس الذي
هو التجسيم البشري للدهاء الميتيسي. الدهاء الميتيسي هو مخططات المحارب عندما يركن
إلى المباغنة والخديعة والكمين، وهو فن الريان الذي يقود السفينة ضد الرياح والمد والجزر، وهو
تلاعب السفسطائي بالألفاظ ليقلب على غريمه الحجة البالغة التي احتج بها، وهو شطارة
المصرفي والتاجر اللذين يكسبان كالحواة مالا كثيراً من لا شيء، وهو حرص السياسي الأريب
الذي لديه حس استشعار يمكنه من التنبؤ مقدماً بمسار الأحداث الذي يفتقر إلى اليقين، وهو
ألاعيب حواة، وأسرار صنعة تمنح الحرفيين سيطرة على مادة تتمرد دائماً، قل التمرد أو زاد،
على جهدهم الجهيد: هكذا يسيطر الدهاء الميتيسي على كل الأنشطة التي يكون فيها على
الإنسان أن يتعلم كيف يناور القوى المعادية التي لا يمكن لفرط شدتها التحكم فيها مباشرة،
ولكن يمكن استخدامها برغمها دون مواجهتها وجهاً لوجه، من أجل التوصل بوسيلة ملتوية
ومباغنة لتحقيق المشروع الذي سبق التفكير فيه وتأمله وتدبيره.

القسم الثاني

الاستيلاء على السلطة

الباب الثالث

معارك زيوس

الربة ميتيس عند هيسودوس تقابل الدهاء الإنساني الميتيسي عند هوميروس، والدهاء الحيواني عند أوبيانوس، والربة ميتيس الداهية هي ابنة تيثيس Téthys وأوقيانوس Okéanos، تزوجها زيوس Zeus وابتلعها. وليس من شك في أن هذه الربة «مقارنة بشخصيات الآلهة المشهورين» شخصية صغيرة من بعض الأوجه. فلم يبق إلا غرق قط شعائر لربة بهذا الاسم. وعلى مستوى الشعائر لا تدخل ميتيس الداهية في عداد الآلهة الحقيقيين. فهل يرجع اهتمام الشاعر هيسودوس بها إلى خياله الشخصي واتجاهه إلى تأليه المجردات الخالصة؟ لو أخذنا بهذا الرأي لأنكرنا جزءاً جوهرياً من الفكر الديني، ونعني به الحاجة إلى تعريف وترتيب وتنظيم القوى المابعدية، وهي حاجة لا يمكن أن تستجيب لها الشعائر استجابة كاملة، ولكنها تجد ما يرضيها في التشكيلات الميثية الواسعة من قبيل تلك التي جاء بها هيسودوس. ومن هذا المنظور فإن ما يطلق عليه اسم «المجردات» الهيسودوسية هي أبعد ما تكون عن مفاهيم تخفت عن طريق حيل الاستعارة الشعرية في هيئة آلهة. إنها «قوى» دينية حقيقية تهيمن على أشكال من العمل محددة أشد التحديد وتعمل في قطاعات محددة من الواقع^(١). أما دورها في لعبة القوى الإلهية المختلفة - التي تحكي «ثيوجونية» هيسودوس عن مولدها وتخبر عن مجالات تطبيقها وصراعاتها وتوازاناتها حتى اللحظة التي يقوم فيها تحت سيطرة زيوس النظام النهائي للعالم - فيبدو هذا الدور أحياناً في مثل ضرورة دور بعض آلهة البانثيون التقليدي. وميتيس الداهية على وجه التحديد تحتل عند هيسودوس في تدبير العالم الإلهي مكاناً عظيماً. وإذا كانت هي زوجة زيوس الأولى التي اقترن بها على الفور بعد انتهاء حربه مع التيتان وإعلان لقبه ملك الآلهة، فإن ذلك يعني أن هذا الزواج يسم تتويج فوزه ويكرس هيمنته الملكية. ليس هناك سلطان بلا ميتيس، بلا دهاء ميتيسي. فلولا عون الربة ميتيس، ولولا دعم أسلحة الدهاء التي يحيط بها علمها السحري، لما كان من الممكن الاستيلاء على السلطة العليا ولا ممارستها ولا الحفاظ عليها. و«ثيوجونية» هيسودوس

تشدد بخاصة على دور ميتيس الداهية في تحقيق السيادة ودوامها. ومسرحية «پروميثيوس مغلولاً» لإسخيلوس تشهد على أن الفوز في الصراع على مُلك العالم - الذي تواجه فيه التيتان يقودهم كرونوس والأولمبيون يقودهم زيوس - كان مقرراً من قبل لمن «يناله لا بالقوة والعنف، ولكن بالدهاء»^(٢). وإذا كان جيش الأورانيدين وكرونوس قد هزم في النهاية، فإنما يرجع ذلك في رأي الشاعر التراچيدي إسخيلوس إلى عدم الاستماع إلى نصائح «پروميثيوس» الذي يجسد في طبيعته التيتانية المتمردة دهاء هذه الميتيس التي يحكي هيسودوس أن زيوس دبر أن تكون خالصة له كلها فابتلعها قبل أن تلد أثينة.

هذه الاختلافات في الروايتين الأسطورتين ليس لها من أثر إلا التشديد بمزيد من القوة على ثبات موضوع الدهاء في قلب ميثيات السيادة. فهيسودوس وإسخيلوس يتفقان على التعرف في «التيتان» پروميثيوس على نفس غط الذكاء الملتوي، ونفس القدرة على الخداع التي أطلق عليها الإغريق اسم ميتيس - الدهاء الميتيسي. وكلاهما - هيسودوس وإسخيلوس - يرون أن التيتان لا يتسم فحسب بأنه صاحب الدهاء الرجراج *aiolometis*، والدهاء الملتوي *agkulometis*، *aipométes*، المخاتل *poikilos*، *dolophronéon*، المخادع *polúidris*، *poikilóboulos*، اللئيم *sophistes*^(٣) وأنه صاحب القدرة «على إيجاد مخرج حتى من المآزق التي لا مخرج لها»^(٤)، المتمكن من المناورات، ومن تدابير الاحتيال، مستحضراً في ذهنه دائماً علمه بالفخاخ والمصائد، صنعتها الخداعية *dolie* *téchne*^(٥)، بل هو أيضاً الوحيد الذي يمكنه أن يقرر دخول لعبة الدهاء مع زيوس، واستخدام الإيهام *apáte*^(٦) ضده، والتصدي للملك الآلهة بدهاء ضد دهاء. وپروميثيوس هو «المتنبئ»، مثله في ذلك مثل الأوقيانيدي «ميتيس»، هو الذي يعرف كل شيء مسبقاً، فهو يمتلك هذا النمط من المعرفة الذي لا بد منه لمن يشتبك في معركة نهايتها غير مؤكدة^(٧). ميتيس «تعرف من الأشياء أكثر مما يعرف أي إله أو أي إنسان»^(٨)؛ پروميثيوس «يعرف من الأشياء أكثر من أي واحد في الدنيا»؛ وميتيس في بطن زيوس ستمكنه من أن يعرف كل ما ينتهي به إلى السعادة أو الشقاء^(٩)؛ پروميثيوس يعرف مسبقاً تمام المعرفة كل ما سيحدث؛ وما من مصيبة تصيبه إلا وقد عرفها من قبل^(١٠). وفي صياغة إسخيلوس الذي يتجاهل عمداً شخص ميتيس يتخذ پروميثيوس مكان ميتيس ويلعب الدور الذي خصها به هيسودوس. ولكن وجود وغياب ميتيس من بنية ميثيات السيادة يؤكدان بالقدر نفسه الدور الذي يخصص هذا الشكل من الذكاء الملتوي الذي تمثله الأوقيانيديس «ميتيس». وما كان يمكن، في المنظور التراچيدي الخاص بثلاثية إسخيلوس، أن تتدخل ميتيس على الإطلاق. لأن زيوس في مطلع

هذا المسرحية الأولى - والوحيدة التي وصلتنا وهي «پروميثيوس مفلولاً» - ملك الآلهة، لأنه انتصر على التيتان، ولكن سيادته لم تكن قد استقرت نهائياً بعد، بل كانت على العكس، تبدو مقضياً عليها بالانتهااء عند أجل بعينه حددته اللعنة التي نطق بها كرونوس «أبو زيوس» يوم سقوطه وخص بها أصغر أبنائه «وهو زيوس». وتأهب زيوس، دون أن يرتاب في شيء، لزواج «سيلقي به أسفل السلطة والعرش»^(١٢). فلما تم هذا الزواج الذي دفعه إليه عدم الأخذ بالحيلة طمعاً في النيريدية «جنية الماء» ثيتيس، بدأت بالنسبة إليه أوقات عسيرة سيباغته ويغلبه فيها الأقوى منه. لقد تحتم عليه، كما حدث لأبيه كرونوس من قبل، أن يعاني قسوة قانون تتابع الأجيال الذي يعني أن ابناً سيولد له يكون أقوى منه «فيسقطه عن العرش» ويعلمه «البون الذي يباعد بين أن تكون ملكاً حاكماً وأن تكون عبداً»^(١٣). الثلاثية كلها مبنية على هذا الموضوع، موضوع الخطر الذي يهدد حكم سيد الآلهة؛ وهي لا تضع على المسرح في تصويرها السيادة حالة الاستقرار والاستمرار كما صورها هيسودوس، بل تضع حالة أزمة لن يستطيع زيوس أن يتجاوزها إلا إذا دفع الثمن متمثلاً في التصالح مع پروميثيوس المفلول، وتحريره من قيوده، وتعديل السلطة الملكية في اتجاه العدل والتفكير. في هذا السياق لا يوجد مكان لميتيس. فوجودها، وزواجها، وابتلاع الملك المهيمن إياها يمكن أن تعني بالنسبة إلى هيمنة الإله الأولمبي ضماناً منيعاً وبقاءً صامداً. وإنما كان غياب الدهاء الميتيسي هو السبب في أن زيوس وجد نفسه من حيث هو ملك معتمداً على خداع پروميثيوس. واتخذ هذا الاعتماد سمة مزدوجة. كان زيوس في سعيه إلى الانتصار على كرونوس، أي في سعيه إلى الاستيلاء على السلطة الملكية - بحاجة إلى خطط التيتان الذكية؛ وهو من أجل الحفاظ على حكمه يريد أن يتقي المخاطر التي تحيق بالملك عندما يولد له أبناء أصغر وأقوى منه ولهذا فلا بد له من أن يعرف ما يخبئه الغيب، بأن يحصل من پروميثيوس على الكشف عن سر لا يعرفه إلا التيتان. ونجد عنصر الزواج الفتاك الذي يهدد مستقبل الإله الملك موجوداً عند إسخيلوس وهيسودوس، ولكن الاختلافات بينهما لها دلالتها. في ثيوجونية «هيسودوس» تأتي قصة الزواج الخطير مباشرة بعد أن يكون الآلهة قد ألحوا على زيوس أن يقبل السيادة، الملكية «الباسيليا basileia»، فتصرف تصرف الملك الصالح وقسم ألوان التشريف بينهم بالعدل. أما ميتيس التي اتخذها أول زوجة له، فكان المفروض أن تلد له ذرية أوتيت «حرصاً» يساوي حرص الأم^(١٤). وكان المخبأ في الغيب أن يصبح ابن ميتيس ملكاً على البشر وعلى الآلهة بدلاً من أبيه. فلما تلقى زيوس تحذيراً مما يمكن أن يصيبه، ابتلع زوجته قبل أن تلد له ولداً. أما إسخيلوس فسلطة زيوس الملكية لديه - على العكس مما هي لدى هيسودوس -

ليست مقبولة من الجميع بموافقة كاملة. ولا يبدو على هيمنة زيوس التي يرمز إليها «كراتوس» Kratos و«بيا» Bia - وهما رمزا : القوة الخالصة والإجبار - أنها كانت آنذاك قد وجدت التعبير الكامل. كان الآلهة يتحملون قانون هيمنة الأقوى أكثر مما كانوا يعترفون بسلطة ملك حقيقي. وكان هناك آلهة كثيرون يلومون زيوس على استيلائه بالعنف على العرش، ويلومونه على عنفه وعلى قراراته المستبدة ^(١٥). وهذا هو زيوس يشتهي الزواج من ثيتيس ، وهي ربة لها قدرات سحرية إذا انتقلت إلى ابنها جعلته - مثل ابن ميتيس - أقوى من أبيه، فيعزله عن العرش. ولكن زيوس في هذه المرة لا يعرف هذا السر. وهاهوذا وقد استسلم لنزواته ملكاً يوشك أن يصنع بنفسه شقاءه ^(١٦). كان الوحيد الذي يعرف هذا السر الرهيب، هو پروميثيوس، وكان هو أيضاً الوحيد الذي يحتكم على وسيلة درء هذا القدر ^(١٧). ومعنى هذا أن زيوس كان يمكنه تحاشي هذه البلية عن طريق الاستعانة بپروميثيوس، كان على الملك بغية الحفاظ على استمرار عرشه أن يشترك مع پروميثيوس وأن يستند إلى علمه. وسيكون عليه أن يتخلى نهائياً عن ثيتيس، بدلاً من أن يتخذها لنفسه زوجة وبيتلها كما فعل مع ميتيس بحسب رواية هيسودوس. ومن هنا فقصّة هيسودوس وقصّة إسكيلوس لا تختلفان إلا ظاهرياً. إنهما تشرحان في شكلين مختلفين الآليات السرية للسيادة، وتشددان أيضاً على الدور الذي تقوم به التدابير السحرية للذكاء الذهاني في إرساء قواعد السلطة الملكية التي لا ترتكن على القوة الغاشمة وحدها.

وتحكي مسرحية «پروميثيوس» لإسكيلوس أن التيتان إذ احتقروا أساليب الدهاء - me-
chanás haimúlas، وتغالوا في تعظيم قوتهم الوحشية، ظنوا أنهم سيحققون الفوز على الأولمبيين في غير جهد. وبذل ابن ياپيتوس Iapetos «أي پروميثيوس» الجهد في إقناعهم بعكس ظنهم فأغدق عليهم ما أغدق من النصائح والآراء الأريية، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. فلم يشأ كرونوس والتيتان أن يسمعوا شيئاً، بل رفضوا مجرد بحث المسألة. فلم يبق لپروميثيوس من سبيل إلا أن ينضم إلى جانب زيوس ^(١٨). وهذا هو الأولمبي زيوس يرحب بخدمات المنشق الذي سيمكنه بخططه boulai من تحقيق النصر وتكريس امتيازاته بأن يسمح بتقييد كرونوس الهرم وحلفائه في غيابات هوة تارتاروس ^(١٩).

موضوع الخديعة الذي يطالعنا واضحاً لدى إسكيلوس ، جامعاً في آن واحد الدهاء والفخ والقيّد السحري في مواجهة القوة البسيطة، مانحاً النجاح في المعارك من أجل السيادة، موضوع نلتقي به مجدداً في كل الحكايات الميثية الدائرة حول المعارك التي يتحتم على زيوس

خوض غمارها لكي يعلو ويبقى على قمة السلطة. وهو يرد عند هيسودوس نفسه بين السطور. وفي هذا الشأن لا بد من أن نورد ملاحظة أولى. جرت العادة على أن نقرأ «ثيوجونية» «هيسودوس» في التلخيص الذي ينسب إلى أبولودوريس والذي دون تقريباً في القرن الثاني الميلادي. في هذه القصة الموحدة التي صاغها كاتب الميثاث يقابل تمام المقابلة تتابع ثلاثة أجيال إلهية - جيل أورانوس وجيل كرونوس وجيل زيوس - ثلاثة عصور ملكية متتالية. أورانوس هو أول ملك تربع على عرش العالم. انقلب عليه ابنه كرونوس وضربه بالمنجل وطرده من العرش بمساعدة أخوته التيتان وتربع على العرش. ثم انقلب على كرونوس ابنه زيوس وأصبح هو ملك السماء^(٢٠). ولكن نص هيسودوس مختلف، فلم يرد فيه في أي لحظة أن أورانوس نودي به سيداً ولا اعتبر ملكاً. وكل الفقرات التي تتصل به تنخرط في سلك حكاية ميثية من حكايات نشأة الكون. ولم يظهر موضوع المنافسة على السيادة إلا مع كرونوس. أما أوروانوس فيظهر على هيئة قوة كونية أساسية: انه السماء الليلية المعتمدة ذات النجوم^(٢١). وجايا Gaia - الأرض - أنجبتته دون أن تتزوج بكائن من كان، أنجبتته بطريقة شبيهة بالاستنساخ، فجعلته مساوياً لها ison heoutei^(٢٢) حتى يغطيها تماماً عندما يتمدد فوقها^(٢٣) قبل أن يصبح بعد ضربة المنجل التي سددها إليه كرونوس: المقر المكين للآلهة السماوية، أي المناظر الدقيق لما تمثله جايا بالنسبة إلى الخليقة جميعاً منذ ظهورها عند أصل العالم: مقراً آمناً أبدأ على عكس فوهة الخاوس Khaos الفاعرة التي لا قاع لها^(٢٤).

ورب السماء السوداء لا يعرف له من نشاط آخر إلا النشاط الجنسي. ولهذا فهو يحيط بالأرض قاطبة، ويغطيها، وينتشر فيها بالليل^(٢٥). هذا الفيضان الغرامي يجعل من أورانوس «الذي يغشى ويخفي»^(٢٦): فهو يغشى ويخفي الأرض التي يأتي ليتددد عليها^(٢٧)؛ وهو لا يسمح لأولاده بالصعود إلى النور، بل يخفيهم في المكان الذي استولداهم فيه، في بطن جايا، التي تظل تتأوه مختنقة في أعماقها^(٢٨). كيف يمكن أن يكون أورانوس ملكاً على كون لم يبرز كلية بعد؟ كان لا بد من ضربة منجل يسددها كرونوس إلى أورانوس فينسحب أورانوس مخصياً عن جايا ويبتعد نهائياً ليستقر في هذا المكان الذي سيكون منذ ذلك الحين سقف العالم، كما تمثل جايا أرضيته. في ذلك الوقت، لا قبله، أصبح العالم هذا الكون المنظم الذي غدا في آن واحد الإطار والرمية بالنسبة إلى تناحر الآلهة على سيادة العالم.

ولنا أن نقارن مسلك أورانوس ومسلك كرونوس تجاه أولادهما. وسنفهم من خلال المقارنة المتوازية بين الفقرات على نحو أفضل تغير المستوى الذي ينجم عند الانتقال من أحدهما إلى

الآخر، المرور من موضوع بروز عالم متميز إلى موضوع منافسة على السلطة الملكية. ويحكي هيسودوس (الأبيات ١٣٢-٢١٠) أن أورانوس أوتي من جايا ثلاث سلالات من الأبناء، هم: التيتان والكوكلوپيس Kuklôpes والهيكاتونخيريس Hekatogkheires، وكلهم يوصفون بالفظاعة؛ وكانوا منذ القدم ex arches يقفون من أبيهم موقفاً قبيحاً مفعماً بالكراهية. والشاعر «هيسودوس» لا يكشف عن أسباب هذه الكراهية، ولكننا نستطيع أن نستشف معناها ونحدده. فقد قابل الأبناء عداً الأب بالعداء؛ ونحن نعرف هذا العداء من خلال مشاعر ذلك الذي اعتبر أشدهم فظاعة deinótatos paidon، واتسم منذ البداية بالدهاء المبتيسي الملتوي agkulometes^(٢٩). والشيء الذي كرهه كرونوس في أبيه أورانوس هو أنه thalerós مزدهر، مليء بالحبوبة والعصارة^(٣٠). من ناحية الابن: الدهاء المبتيسي. من ناحية الأب: الخصوبة العارمة. طبيعة أورانوس، وهي أنه «شره كل الشره إلى الحب^(٣١)»، منعت الأبناء الذين أنجبهم من أن يحتلوا في نور الشمس المكان الذي يليق بهم. وعندما أخفى أورانوس نسله في بطن الأرض، لم يكن يسعى إلى المحافظة على حكمه ضد منافسين محتملين، بل كان يسعى إلا الحيلولة دون كل ميلاد يمكن أن ينجم عنه كائنات مختلفة عنه^(٣٢). لم يكن من الممكن أن يظهر «جيل» جديد طالما استمر هذا الإنجاب المستمر الذي مارسه أورانوس متحداً دائماً بجايا. والإهانة lobe التي عابتها عليه جايا وكرونوس والتي قررا أن يحاسباه عليها وأن يدفعا ثمنها، هي بالنسبة إلى الأم وأبنائها هذا الشكل من الوجود الضيق المحدود الذي أقصاهم إليه اندفاعه الجنسي العام^(٣٣). ولقد عوقب أورانوس في الموضع الذي ارتكب به الإثم، ويشهد العقاب على ماهية الإثم. فلم يغفل رب السماء كما سيفعل كرونوس والتيتان عندما ينزل بهم زيوس عقابه. ففي اللحظة التي كان يعاشر فيها جايا هوى ابنه بالمنجل على أعضائه الجنسية فاجتثها. وأدى هذا الحدث إلى نتائج كونية حاسمة، فقد باعد السماء عن الأرض، ورفع القيد فيما بعد عن قدوم أجيال في المستقبل؛ وأقام شكلاً جديداً من الإنجاب عن طريق ضم مباديء تظل حتى في تقاربها متميزة ومتعارضة؛ وأسس التكامل الضروري بين قوى الصراع وقوى الحب^(٣٤)؛ واستهل أخيراً بالتهمة التي وجهها أورانوس لأبنائه neikeion قانون القصاص أو المكافأة tisis، ذلك القانون الذي تولته الإيرينيات Erinyes وأولاد الليل والذي لن يكف منذ ذلك الحين عن السيطرة على المستقبل^(٣٥). ولكن في منظور تحليلنا لا بد من التشديد قبل كل شيء آخر على سمتين. أولاهما أن الأمر يدور حول «كمين سري» يباغت أورانوس الغارق في الحب^(٣٦)؛ إنها حيلة مخادعة dolie téchne، خدعة dólōs^(٣٧)، تطابق تمام المطابقة الدهاء المبتيسي الملتوي

agkulometes؛ وثانيتهما إنها من ناحية اتصافها بالمخاتلة عملية تستهل بين الآلهة، إذ تفتح أمام لؤم كرونوس طريق السلطة، تاريخ نكبات السيادة.

وكرونوس لا يخفي أولاده في بطن الأرض، فعندما ينزلون من بطن الإلهة ريا Rhéa إلى ركبتيها يمسكهم ويبتلعهم كما سيبتلع زيوس ميتيس فيما بعد. وهو لم يفعل ذلك استجابة لطبيعته من حيث هو إله نهم «مزهر»، بل لدوافع سياسية عرضت عرضاً واضحاً شديد الوضوح: «كان يخشى أن يستولي حفيد آخر من أحفاد السماء على الشرف الملكي bas-ileida timen بين الخالدين (٢٨)» .

أخفى أورانوس أبناءه بأن استسلم دون مقاومة تقريباً إلى شهواته الجنسية. أما كرونوس فقد ابتلع أبناءه وبقي دائماً يقظاً متأهباً، قلقاً شاكاً، صاحي العين دائماً، يقف دون هودة على أهبة الاستعداد: dokeúon (٢٩). ولكن بقطعة هذا الذي أسماه هيسودوس Kronos Basileus كرونوس باسيلوس، أي الملك كرونوس، وميجاس أناكس mégas áanax أي الأمير القوي، «ميجاس = قوي و أناكس = أمير» (٤٠)، ووصفه بعبارة أكثر دقة في فقرة أخرى قائلاً عنه إنه «أول ملوك الآلهة» (٤١)، لم تكن من الكمال بحيث لا يستطيع أحد أن ينال منها. هذا الداهية سيجد من هو أكثر دهاء منه. فقد دبرت ريا بالاشتراك مع جايا وأورانوس مؤامرة دهائية، أو كما يقول هيسودوس، وجدت السبيل بالاتفاق مع أقاربها لتدبر خدعة ميتيسية (metis (metin sumphrássasthai) (٤٢) لكي ينجو زيوس، آخر الأبناء من المصير الذي لقيه من سبقوه. وأفلتت المؤامرة السرية التي دبرتها ريا من ترصد كرونوس اليقظ. وولدت «خفية»؛ و«أخفت» ابنها في كريت؛ و«خبأت» تحت لفاف أطفال قطعة من الحجر؛ وقدمتها «تحت المظهر الخداع» كأنها طفل وليد إلى شراة كرونوس الذي لم ير فيها إلا ناراً. انخدع كرونوس بهذا الإيهام -apáte- وهذه هي الكلمة التي يستخدمها پاوسانياس Pausanias (٤٣) - ولم يشك أورانوس العظيم في أن في مكان قطعة الحجر ابناً له، لن ينهزم ولن يعاني، بقي حياً لكي يطرده عما قريب بالقوة من العرش ويسود هو الخالدين بدلاً منه (٤٤).

هذا النصر النهائي الذي حققه زيوس على أبيه سيحتفل به هيسودوس في القصة الطويلة التي خص بها الحرب ضد التيتان (الأبيات ٦١٧-٨٨٥). في هذه المعركة التيتانية - التي تمثل ما يشبه ذروة القصيدة الشيجونية - يلعب الهيكاتونخيريس - ذوو المائة ذراع - دوراً حاسماً: عرف زيوس من جايا أن الفوز سيكون من نصيب أولئك الذين ينجحون في ضم

الهيكاتونخيريس إلى صفهم والحصول على مساندتهم. ومن هنا كان كوتوس Kottos وبياريوس Biareôs وجوجيس Gygês ضمّة وصناع النصر في معركة السيادة. ولكن هيسودوس في فقرة سابقة، في الأبيات ٤٩٣-٥٠٦ التي تلي مباشرة قصة «الخدعة» التي دبرتها ريا لإنقاذ الصغير زيوس، كشف عن وسيلتين من شأنهما أن يحققا نهائياً هيمنه ابن كرونوس الصغير. كان من الضروري العمل على أن يتقياً الأب كل الأبناء الذين ابتلعهم أي أخوة وأخوات زيوس الكبار حتى يحاربوا إلى جانب أخيه. ولا يحدد الشاعر بدقة الوسائل التي اتبعت لجعل كرونوس العظيم صاحب الأفكار الخبيثة يُفرغ ما في بطنه. ولكنه يشير فقط إلى أن الإله كرونوس وقع في هذه المرة أيضاً في خدعة dolotheis دبرت بناء على نصائح من جايا (٤٥). «فلما غلبه ابنه بمحاولات المكر والقوة «*téchneisi biephi te* paidós (٤٦) اضطر أن يتقياً بعد قطعة الحجر التي ابتلعها - بدلاً من زيوس - كل من كان قد أعقب من أولاد وقد عبر هيسودوس عن ذلك بقوله: «فأطلق نسله...*gónon... anéeke*» (٤٧) ويتبع نص أبوللودوروس Apollodoros من الناحية الجوهرية رواية هيسودوروس ولكنه يختلف اختلافاً طفيفاً إذ هو أكثر تصرّحاً، يقول: «فلما بلغ زيوس النضج ضمن لنفسه عون ميتيس بنت أوقيانوس، وقدم إلى كرونوس عقاراً *phármakon* شربه فاضطر إلى تقيؤ الحجر أولاً ثم بعد ذلك الأولاد الذين كان ابتلعهم: واستعان زيوس بهم في الحرب التي خاض غمارها ضد كرونوس والتيتان (٤٨)»

ليس الصحيح أن نُقَرَّب كرونوس الذي ابتلع أولاده من أورانوس الذي أخفى أولاده، بل الصحيح أن نقرّبه من زيوس الذي ابتلع ميتيس. فالموضوع في حالة زيوس يطابق الموضوع في حالة كرونوس. في الحالتين ملكٌ سيد يعرف أن قدره يقضي عليه بأن يخلعه واحد من أبنائه عن العرش. في رواية هيسودوس نبهت جايا وأورانوس كرونوس وزيوس. فاتجه سعي كل منهما إلى رد قضاء القدر بحيلة أربية (٤٩). وإذا كان سعي كرونوس قد خاب، فإن زيوس سيحقق النجاح فيما فشل فيه كرونوس. كان كرونوس يواجه جايا وأورانوس اللذين نبهاه إلى ما ينتظره، ولكنهما، وقد استعاناً بما دبراه مع ريا من دهاء ميتيسي وخدعة *dólos*، أحبطا محاولات الملك الأول التي أراد بها أن يغير نظام الأشياء لصالحه وأن يُبقي على الملكية في يديه. أما في حالة زيوس، فقد حدث العكس، إذ دخل الإلهان الأساسيان «جايا وأورانوس» اللعبة مع زيوس، فبناء على نصيحتهما قرر أن يبتلع ميتيس ويطويها في أحشائه «حتى لا يصبح الشرف الملكي أبداً ملكاً لأحد غيره من الآلهة التي تعيش إلى الأبد (٥٠)». وفي استطاعتنا أن نفهم موقف أورانوس. إنه يريد أن يحاسب كرونوس الذي لعنه علناً على الخطأ

الذي ارتكبه حياله. أما موقف جايا فهو يدهشنا أكثر. فهي في نهاية المطاف التي دفعت كرونوس إلى خصي أبيه؛ وهي التي اخترعت المنجل الفولاذي المنحني ، أي هي التي اخترعت أداة الجريمة لتضعها سلاحاً في يد ابنها. ولكن هاهي ذي تتخذ في هذا الجزء من القصة وجهين مختلفين، فهي تقارب ثيميس - التي كثيراً ما يخلطونها بها - والتي تمثل من حيث هي قوة عرافية قانون قدر ثابت لا علاج له. فجايا هي التي عن طريقها يستطيع كرونوس أو زيوس أو پروميشيوس أن يعرفوا ما يخبئه المستقبل. ولكن جايا تقارب الإيرينيات اللاتي يسهرن على ألا يفوت خطأ بلا عقاب، ويتحملن بعبء العمل على مر السنين دون تسامح على إنضاج عقاب الجرائم المتوارية أشد التواري (٥١). ولقد كانت جايا هي التي تلقت قطرات الدم التي سقطت من عضو أورانوس بعد قطعه، واستولدت منها على مر السنين *periploménon d'en-iauton* (٥٢) الإيرينيات الشديديات، واضطر كرونوس بعد ذلك أن يتقيأ على مر السنين *epiploménon d'eniauton* (٥٣) كل أولاده. أما عضو أورانوس المقطوع فقد حمله بونتوس *Póntos* وهو العنصر المائي ، هو الموج، الذي يتسم بالحركة بقدر ما تتسم الأرض به من جمود وثبات، إلى بعيد، في وقت طويل *poulùn chrónon* (٥٤)؛ وتكونت من زبد السني *aphrós* عندذاك الربة الداهية التي تهيمن على الاقترانات، والتي يصاحبها حيثما ذهبت، الحب والرغبة، ألا وهي الربة أفروديتي، التي لا تتسلح بقوة الانتقام ولا بالبطش الحربي، بل بالابتسامات، وألاعيب الشرثرة النسائية، والجاذبية الخطيرة للذة، وكل مDAHنات الإغراء *exapátas* (٥٥).

ولا يكفي زيوس لكي يستميل القدر لصالحه أن يضمن تواطؤ أورانوس وجيا وميلهما. فلا بد أن يفعل ملك الآلهة شيئاً يدل على نيته. وعلى الرغم من دهاء كرونوس وتنبهه اليقظ فقد أتاح لدهاء ريا أن يباغته؛ ووقع في الفخ *dólos* الذي دبرته له محاحلات *téchnai* زيوس؛ ولم يأخذ حذره من شراب الخديعة، من العقار السحري *phármakon* الذي جهزته ميتيس المحنكة. هكذا انقلبت عليه الخطط التي دبرها ليهرب من القدر الذي قدر عليه وحقت ذلك الذي كان يظن أنه سيفلت منه. فلم يستطع كرونوس أن يوقف الزمن الذي يقضي بأن تتابع الأجيال دون شفقة ، ولم يستطع أن يفلت من شريعة القصاص التي أقامها خصي أورانوس: فبعد أجل طال أو لم يطل سيكون عليه أن يدفع ثمناً يساوي الإثم الذي ارتكبه. بخدعة استهل كرونوس سيادته بأن مد يده لضرب أبيه. وبخدعة أخرى انهارت سيادته وانتهت كما بدأت. لم ينفعه دهائه كله بشيء منذ أن ترك خارجه قوة ميتيس العالية تستمر في ممارساتها وتستطيع أن تعارضه، تلك القوة التي هي، على نحو ما جاء في هذا السياق، قوة الزمن

المحتال، وهو زمن ينتهي دائماً مهما عملت، بأخذك على غرة^(٥٦). لم يبتلع زيوس أبناءه؛ وهو قد تلقى تحذيراً من الخطر الذي يترص به، كما تلقى أبوه مثله من قبل، ولكنه تقدم إلى أصل الداء. واستخدم في هجومه على ميتيس نفس أسلحتها. فاصطنع محلات أفروديتي الماكرة، وأغوى زوجته بالفش مستخدماً كلمات ناعمة haimulioisi lógoisi^(٥٧)، حتى إذا خلب لبها بالمخاتلة dóloi phrénas exapatesas، ابتلعها وطواها في أحشائه. وأبولودوروس يلخص القصة باقتضاب قائلاً: «عندما تبينت ميتيس أنها حامل، ابتلعها زيوس، وسبقها بغثة phthásas، لأن جايا تنبأت بأن ميتيس بعد أن تلد البنت التي تحملها في أحشائها، يمكن أن تلد ابناً يصبح ملك السماء^(٥٨). كان زيوس إذن هو الذي قلب في هذه المرة أسلحة الإلهة ضدها، تلك الأسلحة التي كانت تجعلها منيعة لا تُغلب، ألا وهي: الدهاء، الخداع، الهجوم على غرة. وبانتصار زيوس <على ربة الدهاء>، وابتلاعه إياها> اختفى إلى الأبد احتمال حدوث خدعة تباغته ويمكن أن تهدد هيمنته. لم يعد زيوس الملك، مثل كرونوس أو آلهة أخرى، إلهاً ذا دهاء، بل أصبح هو الداهية metieta، هو المعيار، معيار الدهاء، الرب الذي قُدَّ كله من دهاء.

* * *

الفصل الثاني الذي يدور حول صعود زيوس إلى العرش يضع على مسرح الأحداث الكوكلوپيس دون أن يسميهم بأسمائهم. والنص الذي يلي مباشرة مشهد إصابة كرونوس بالمنجل يطرح على التفسير والتأويل أسئلة دقيقة. فقد جاء فيه أن زيوس حرر من بطن كرونوس اخوته وأخواته الذين سيساعدونه في الصراع ضد التيتان. نقرأ: «ثم فك من الأغلال اللعينة اخوة أبيه، أبناء أورانوس hoús dese pater»، وعبارة hoús dese pater هذه يمكن تأويلها «تأسيساً على الأصل الإغريقي» على وجهين: «الذين قيدهم أبوه» أو «الذين قيدهم أبوهم»^(٥٩). في الحالة الأولى يكون المقصود هو أن كرونوس قيد بعض اخوته؛ في الحالة الثانية يكون أورانوس هو الذي قيد بعض أبنائه. ويبدو أن أبولودوروس وتزيتزيس Tzetzés اختارا التأويل الأول التي ينبغي علينا رفضه. فوضع كلمة pater بعد كلمة ouranidas يفرض الأخذ بالتأويل الثاني. أضف إلى ذلك أن هيسودوس في حديثه عن معركة التيتان يحدد بلا مواربة أن الهيكاتونخيريس، بين أبناء السماء، قيدهم أبوهم بقيد شديد^(٦٠). ولكن هذا التحديد لا يكفي للتغلب على عقبات التأويل. من ناحية: الفقرة التي ينصب عليها كلامنا لا تدور حول الهيكاتونخيريس، بل حول أولئك الذين قدموا ثمناً لخلاصهم «إلى زيوس

الرعد والصاعقة والبرق التي كانت الأرض الهائلة تخبئها، والتي سيضمن زيوس اعتماداً عليها الهيمنة على بشر من الفانين يدركهم الموت وآلهة لا يموتون^(٦١)» ونحن نعرف من البيت رقم ١٤١ أن الكوكلوپيس، الذين يوحى اسمهم بالرعد والصاعقة والبرق، قدموا إلى زيوس الرعد هدية له وصنعوا له الصاعقة. فلماذا لم يذكرهم الشاعر بالاسم؟ الألفاظ التي يستخدمها هيسودوس «أبناء أورانوس، اخوة أبيه - أو أعمامه^(٦٢) - تنطبق علاوة على الكوكلوپيس والهيكتاتونخيريس، على التيتان أنفسهم الذين لم يكن من الممكن أن يفك زيوس قيدهم لأنهم كانوا يحاربون ضده في معسكر كرونوس، وهو بعد انتصاره سيزج بهم مكبلين بالأغلال في غيابات تارتاروس الت تكتنفها الغيوم. هناك ما هو أكثر من ذلك. فقد عرض هيسودوس سجلاً لنسل أورانوس في فقرة سابقة أشرنا إليها من قبل وهي الأبيات من ١٣٢ إلى ١٥٣. في هذا السجل في بداية «ثيوجونية» نجد ثلاث طوائف من أبناء السماء والأرض. رتب الشاعر أول المذكورين بترتيب مولدهم ووسمهم بأسمائهم الخاصة دون ذكر لعشيرتهم، وهم: أوقيانوس Okéanos، كويوس Koios، كريوس Krios، هيبيرون yperion، يابيتوس Japetos، ثيا Theia، ريا Rheia، ثيميس Thémis، منيموسونه Mnèmosunè، فُوبه Phoibè، تيثيس Théthys، ثم يذكر بعدهم أصغرهم وهو كرونوس Kronos ذو الأفكار اللئيمة. ثم يأتي ثلاثة أبناء يوصفون بأصحاب العين المدورة كيكلوپيس وهم: برونطيس rontès، ستيروبيس Steropès، أرجيس Argès. ومن بعد هؤلاء ثلاثة ذكور أسماؤهم: كوتوس Kottos، برياريوس Briareôs وجوجيس Gygès يتميزون بأن لهم مائة ذراع. ولكن هذه المقطوعة الرئيسية لا تشير إلى أي تقييد للكوكلوپيس «حرفياً» أصحاب العين المدورة» أو الهيكتاتونخيريس «حرفياً» = من لهم مائة ذراع» ينسب إلى أبيهم أورانوس. على العكس: النص يشير ضمناً إلى أن كل الأولاد، سواء الأبناء أو البنات، عوملوا نفس المعاملة: كلهم خبثوا سواء بسواء وبالطريقة التي شرحناها من قبل في بطن جايا. كذلك توجهت جايا إلى أولادها جميعاً لتحضهم على التمرد «على أبيهم»^(٦٣). وباسمهم جميعاً قام كرونوس، الوحيد الذي لم يكن ليرتعد أو يهتز، بالتصميم على «بسط ذراعه» ليتمكن من عضو أبيه ويقطعه^(٦٤). ولقد ألحق أورانوس بهم جميعاً دون تمييز، على سبيل اللعنة، كنية epiklesis «تيتان»، التي لم يحملها أحد من قبل، «لكي ينزل المستقبل بأولئك الذين مدوا ذراعهم أعلى مما ينبغي titainontas القصاص tisin الذي يستحقه^(٦٥)».

في النص الوحيد الذي خص به هيسودوس أورانوس، ونسله، وخصيه، لا تظهر الشمس في هيئة الإله الذي يجمع الشمل. والعقاب الجماعي الذي أنزله بأولاده، وتواطؤهم المتساوي على التمرد، والاسم الوحيد - اسم التيتان - الذي كناههم به جميعاً على سبيل اللعنة، كل هذا يسمح لنا بأن نفترض أنهم بعد انتصار كرونوس لقوا نفس المصير. هيسودوس لا يصف مصير التيتان بدقة إلا بعد خصي أورانوس فيقول عموماً إنهم تحرروا. وما كانت به حاجة إلى هذه القيلة، فهي بديهية. فما دام أورانوس قد نُحي، لم يعد هناك من يستأنف حبسهم في بطن جايا، التي كان قد أخفاهم فيها. وهذا هو الشاعر دون ما حاجة إلى تفسيرات أخرى، يعرض عندما تسنح اللحظة المناسبة، كيف تزوج أبناء وبنات السماء وماذا أنجبوا من أولاد^(٦٦). ولكن القائمة التي بوردها والتي يذكر فيها كل رب باسمه وكل ربة باسمها، دون استخدام لفظة تيتان على الإطلاق، لا يأتي فيها أحد من الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس. لا يذكر شيئاً عنهم. صحيح أن هؤلاء وأولئك لم يكن لهم نسل، أو على الأقل لم ينجبوا أبناء مرموقين، ولهذا فلم يكن هناك مبرر لذكرهم^(٦٧). ومع ذلك فقد كان الأحرى بهيسودوس أن يقول ما لم نعرفه إلا فيما بعد وما قاله على نحو يشبه المصادفة بمناسبة خلاصهم على يد زيوس: وهو أن بعض أبناء أورانوس - على عكس اخوتهم وأخواتهم - قيدهم أبوهم بالأغلال. وإذا كان أورانوس قيدهم، وزيوس فك قيدهم، فلنا أن نقبل - دون أن يقول ذلك هيسودوس - بأنهم ظلوا طوال حكم كرونوس في حالة العبودية نفسها التي دفع بهم إليها من قبل. ولكن كيف نفسر إذن أن إزاحة السجان لم تحقق لهؤلاء المساجين ما حققته لإخوتهم، أعني: التحرر؟ إن سكوت هيسودوس عن البيان يمثل مشكلة. أما أبوللودوروس، الذي ظل يتبع تراث «ثيوجونية»، فنراه يبذل جهداً لإدخال شيء من الحبكة في تتابع الأحداث^(٦٨). ولكي يصل إلى هدفه هذا الذي ارتآه، نراه يسلك سبيلاً مضاداً لهيسودوس، فيجعل الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس يولدون قبل أولاد السماء والأرض الآخرين، ويعود فيسلك سبيلاً مضاداً لهيسودوس فيخص باسم التيتان الأولاد الذين ولدوا بعدهم دون سواهم. ويفترض كاتب الميثاث أبوللودوروس، الذي يبدو أوروانوس لديه في هيئة أول ملك، أن أورانوس بدأ بنفي الهيكاتونخيريس والكوكلوپيس إلى التارتاروس بعد أن قيدهم بالأغلال. وأن جايا ثارت على إبعاد أبنائها، فلما وضعت حملها الجديد من التيتان ذكوراً وإناثاً، أطلقتهم للهجوم على عرش أورانوس. واضطلعوا جميعاً بالهجوم، إلا أوقيانوس؛ وقام كرونوس بخصي أبيه. وما طرد أورانوس من السلطة، حتي قام التيتان بأول عمل لهم وهو تحرير إخوتهم الهيكاتونخيريس والكوكلوپيس، الذين كانوا مثلهم ضحايا استبداد الأب. ثم قاموا بعد ذلك بوضع السيادة

بين يدي كرونوس. وما كاد كرونوس يصبح ملكاً حتى سارع بدوره إلى تقييد الهيكاتونخيريس والكوكلوپيس وترحيلهم إلى تلك الأماكن تحت الأرض التي أتوا منها، والتي سيظلون بها حتى يخلصهم زيوس مرة أخرى.

ولكن هذه الحبكة التي أدخلها المؤلف وكلفته الأخذ بتعديلات معينة في تتابع الوقائع، تبدو لنا كاشفة عن لفظ وروح قصة هيسودوس والمنطق الكامن في الحكاية الميثية. ففي صياغة أبوللودوروس نجد أن أورانوس ملكاً هو الذي يقيد؛ ونجد أورانوس ملكاً هو الذي يتعرض للهجوم والهزيمة؛ وكرونوس ملكاً هو الذي يفك القيد، ثم يقيد من جديد؛ وزيوس ملكاً هو الذي يفك القيد بدوره. وإذا صح تحليلنا، فإن أورانوس عند هيسودوس ليس ملكاً؛ وكرونوس هو أول من حمل هذا اللقب. ولفظة «تيتان» تسم في ثيوجونية هيسودوس كل أولئك الذين شاركوا في هذه الملكية الأولى التي أقامها كرونوس. وهي في كل استخداماتها في قصيدة ثيوجونية من أولها إلى آخرها تدل على مجموعة محددة، ليس على أساس أصولها في المقام الأول من حيث هي دائرة أسرية، ولكن من حيث علاقة المعارضة التي تضطلع بها على مستويين حيال الآلهة الذين يحكمون فوق جبل أوليمپوس. هؤلاء هم أولاً من يسميهم هيسودوس الآلهة القدامى *próteroi theoi*، على نقيض آلهة اليوم^(٦٩). وهم أيضاً المنافسون المباشرين لزيوس، الذين نازلوا الأوليمپيين في الحرب من أجل ملكية السماء. والتعبير *próteroi theoi Titenes* يشير إلى جيلين من الآلهة، تتابعا وتواجهها من أجل السيطرة على العالم. وبهذا المعنى فإن استخدام كلمة تيتان عند هيسودوس يؤكد القرابة التي أكدها هيسوخوس بين تيتان وتيتاكس *Titax* = ملك، وتيتينه *Titènè* = ملكة. التيتان ملوك، بل هم على نحو أكثر تحديداً أول الآلهة الملوك^(٧٠).

ولقد أكب الشراح المحدثون على المشكلات التي تعرضنا لها، وحاولوا حلها من وجه نظر النقد النصي، إما مفترضين مع أرتور ماير *Arthur Meyer* أن الفقرة التي جاءت في تسلسل أبناء جايا وأورانوس خاصة بالكوكلوپيس والهيكاتونخيريس (الأبيات ١٣٩-١٥٣) محشورة، وإما قائلين كما فعل ه. بوزه *H. Buse* و م. ل. ويست *M. L. West* أن هذه القطعة لم تكن موجودة في الصياغة الأولى لقصيدة هيسودوس وأن الحديث عن خصي أورانوس كان يلي مباشرة الإشارة إلى كرونوس حاقداً على أبيه المزدهر^(٧١). فيكون هيسودوس قد حشر فيما بعد في نصه الأبيات ١٣٩-١٥٣. وأناط بالكوكلوپيس والهيكاتونخيريس هذا الدور مضطراً بعد أن كتب المقطع الخاص بمعركة التيتان الذي جاء فيما

بعد. فلما كانت هذه الأشخاص تلعب دوراً رئيسياً في انتصار زيوس كان من الضروري أن يبين الشاعر من هم ومن أين أتوا. ويكون هيسودوس، سعباً منه لإعطائهم شهادة الميلاد وشهادة الحالة الاجتماعية اللتين كانوا في حاجة إليهما، قد رجع إلى الوراء وأضاف إلى نسل أورانوس، ملعونين تحت الاسم الجامع "تيتان"، أسماء الكوكلوپيس الثلاثة والهيكاتونخيريس الثلاثة.

ولكن إضافتهم في هذا الموضع يعيبه ضم الشاعر الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس على نحو وثيق إلى مجموعة التيتان مما يفقد الفروق العميقة بين هؤلاء وأولئك مبرراتها. لماذا غل بعض أبناء أورانوس بالقيود ولم يخبأوا كالأخرين؟ وإذا كانوا قد كُبلوا بقيود فلماذا لم يذكر الشاعر ذلك؟ وإذا كانوا قيدوا أو خبثوا، فلماذا أدى إبعاد أورانوس إلى تحرير البعض دون الآخرين؟

هذه الإعادة لتكوين النص التي قام بها علماء فقه اللغة تتخذ سمة الافتراض؛ ولا يمكن أن نستخدمها للبيان والتدليل. ولكنها إذ تبين المشكلات وتحددها بدقة قد تسمح لنا بأن نستنج من حيرة هيسودوس نفسها بعض الاستنتاجات. ولكن من الضروري أولاً أن نطرح المشكلة على نحو آخر. ونحن - دون أن نزعم أننا سنعيد تكوين النص ليكون هو النص الحقيقي فيما وراء النص الذي وصل إلينا - سنحاول فقط أن نتوصل - من خلال بنيات القصة ومواقع السكوت فيها، بل ومواقع التناقض بها - إلى المنطق الذي يحكم عند هيسودوس تنظيم الحكايات الميثية الخاصة بالسيادة «على الآلهة». وهناك على هذا المستوى من الطرح ملحوظة تفرض نفسه علينا، ولا بد من أن نثبتها. وهي أنه سواء كان الأمر أمر الكوكلوپيس أو الهيكاتونخيريس فإن الإشارة إلى أغلالهم ترد دائماً في سياق بعينه، ألا وهو: الصراع الذي يتنازع فيه على السيادة الآلهة التيتان القدامى يقودهم كرونوس من ناحية، والمتطلعون الجدد إلى السلطة يقودهم زيوس من الناحية الأخرى. إننا لا نجد أية إشارة إلى هذه الأغلال طالما كنا نبحث على المستوى الكوسموجوني الخاص بالعلاقات بين جايا وأورانوس. ومعنى هذا أن موضوع القيد يمثل جزءاً لا يتجزأ من الميثيات الملكية. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية هناك تناسق كامل بين نواب الكوكلوپيس ونواب الهيكاتونخيريس. نجد نفس البنية القصصية، ونفس الوظيفة في النسيج الكلي للحكاية الميثية. يظهر الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس مغلولين، وزيوس يحل وثاقهم؛ وعلى الرغم من أنهم أخوة التيتان، فإنهم يظهرون أولاً في معسكر الأولمبيين ويجلبون لهم - سواء في ذلك الكوكلوپيس أو الهيكاتونخيريس - وسائل

النصر. والفقرتان - تلك الخاصة بالكوكلوپيس وتلك الخاصة بالهيكاتونخيريس - تكرر الواحدة منهما الأخرى حتى لتبدو إحداهما كأنها تجعل الأخرى زائدة بلا فائدة. فإذا كان الكوكلوپيس قد أمدوا زيوس عندما قدموا إليه الصاعقة بالسلح الذي يضمن تفوقه ويسمح له بالسيادة على الآلهة والبشر (البيت ٥٠٦) ففيما حاجته إلى الهيكاتونخيريس ليكسب المعركة؟ والعكس صحيح. إذا صح ما جاء في البيت ٦٢٨ من أن النصر لا يمكن أن يتحقق إلا بالهيكاتونخيريس، فلماذا يصور الشاعر الإله زيوس في وسط المعركة وقد كف عن التحكم في حميته، فراح يرمي البرق بيده دون هوادة لكي ينسف التيتان أعلى الأوليمپ (الأبيات ٦٨٧-١١٧)؟

وتتطلب الإجابة عن هذه الأسئلة توسيع مجال التحليل. فمهما اختلف الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس بعضهما عن البعض الآخر في أسلوب العمل، فأسلوب عمل الكوكلوپيس يتضح في أنهم يستخدمون سحراً منصباً على التعدين، كما يتلخص أسلوب عمل الهيكاتونخيريس في أنهم يملكون ناصية سحر منصب على الحرب (٧٢)، ومن هنا فإنهم لا يكررون بعضهم بعضاً في أداء الدور الذي يضطلعون به وهو دور صناع النجاح فحسب، بل يؤدون أيضاً وظيفة مساوية تماماً لتلك التي كلف بها إسخيلوس پروميشيوس. هناك قرابة بين هؤلاء وأولئك في كل النقاط. فوصول زيوس للملكية رهن بأن تتدخل لصالحه آلهة تنتمي إلى جيل غير جيله، تنتمي إلى جيل الآلهة الأولين المقربة من القوى الأصلية التي سيخضعها الملك الجديد لنفسه. والكوكلوپيس والهيكاتونخيريس من حيث هم إخوة التيتان الناجمين مباشرة من الأرض والسما، ينتمون إلى هذا النمط. أما پروميشيوس فهو عكس ذلك، هو ابن التيتان ياپيتوس، ونحن، إذا حسبنا عمره بدقة الحساب الزمني التي يأخذ بها المؤرخ وجدناه في مثل عمر زيوس ابن التيتان كرونوس. فلا شأن له إذن بهذا النمط. ويفرض منطق الحكاية الميثية على الشاعر التراچيدي منظوراً مختلفاً تماماً. وپروميشيوس عند إسخيلوس يظهر هو نفسه كالتيتان، قريباً من القوى الأصلية التي ابتهل إليها في كلماته الأولى، واستشهدا في كلماته الأخيرة. أما زيوس والأوليمپيون فهم بالنسبة إليه آلهة صغار، هم الآلهة الجدد الذين هدموا القوى القديمة وحطمو التقسيم العتيق (٧٣). وأمه هي ثيميس Thémis - والتي هي بحسب قوله جايا Gaia باسم آخر (البيت ٢١٠) - ولهذا فإنه مثل الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس ابن الأرض. وآية تجانسه مع القوى الكونية هي زيارة أوقيانوس الذي أتى باسم روابط الدم يقترح عليه مساندته، وتظهر كذلك على نحو أشد في وجود كورس

الإوقيانيديس المخلص إلى جانبه حتى يحين حين الكارثة النهائية، ومن بينهن ميتيس التي كان تزوج أختاً لها اسمها هيسيوني Hésione (البيت ٥٦٠).

وهناك تقارب آخر يتمثل في أن الأم الأصلية جايا، أصل كل الأشياء باستثناء الخاوس والليل، كشفت لزئوس تفصيلاً عما ينبغي عليه أن يفعله مع الهيكاتونخيريس إن أراد أن ينجح في مسعاه (البيتان ٦٢٦-٦٢٧)؛ وهي التي أبلغت پروميشيوس مقدماً بالطريقة التي يجب اتباعها لكي يكون النصر حليف هذا المعسكر دون غيره (مسرحية «پروميشيوس»، البيت ٢١٠). وكانت هي التي وارت في حجرها هذه الصاعقة التي سيقدمها الكوكلوپيس بموافقتها إلى زئوس لكي يستخدمها سلاحاً حاسماً يحقق له النصر (٧٤).

والنقطة الأخيرة التي نذكرها هي: أن الكوكلوپيس والهيكتاتونخيريس منذ ظهورهم في ميثات بالسيادة عند هيسودوس يمثلون أمامنا كالمقيدين بالأغلال كما رأينا. وزئوس هو الذي يحررهم؛ وهم، في مقابل هذا الصنيع، يقدمون إليه السند الذي يحتاج إليه لتحقيق النصر. وهؤلاء الأشخاص الذين يقيدون وتُفك قيودهم، أساطين في القيود. والأمر واضح بين في حالة الهيكاتونخيريس: ففي صراعهم ضد التيتان نراهم يشلون حركة إختهم تحت ركام من الحجارة «فيقيدونهم بقيود أليمة» (٧٥)، ويدفعون بهم على عجل تحت الأرض في أعماق التارتاروس، من حيث هم «حراس phúlakes زئوس بحرسون الأسرى» (٧٦). وكما أن لهم القدرة على التقييد، لهم القدرة على التحرير. في «الإلياذة» عندما يتهبأ الآلهة المتحالفون ضد زئوس ليفلّوه، تتحرك ثيتيس - وقد ذكرنا من قبل علاقتها بميتيس الأوقيانيدية - فتدعو برياريوس ليخف إلى فجدة زئوس، وبرياريوس هو أبرز الإخوة الثلاثة. وكان مجرد وجود الهيكاتونخيريس إلى جانب ملك الآلهة كافياً لإبعاد خطر الأغلال التي كانت تتهدده (٧٧).

والكوكلوپيس عند هيسودوس لا يظهرون صراحة أصحاب قدرة على التقييد. إنهم الصناع الذين يصنعون تحت الأرض أسلحة زئوس، ووشائج القرابة بينهم من حيث هم حدادون إلهيون وبين هيفايستوس الذي بينت ماري ديلكور Marie Delcourt سمته السحرية، وأنه أسطون طلاسُم تُحرر من القيود وأسطون قيود لا قدرة لأحد على حلها، قيود رهيبة تزداد الخشية منها لأنها خفية لا تدركها الأبصار (٧٨). وإذا تبعنا صياغة أورفيوسية تذكر، بعد هيسودوس، أن الكوكلوپيس جلبوا لزئوس الرعد وصنعوا له العاصفة، فلنا أن نصدق أن هيفايستوس علم الكوكلوپيس حرفته (٧٩). وهناك ما هو أكثر من ذلك: هناك الآلة التي

منحوها زيوس ووثق فيها (البيت ٥٠٦) ليضمن حكمه، كما وثق عند محاربة كرونوس في الهيكتاتونخيريس (pistoi البيت ٦٥١ والبيت ٧٣٥)، على عكس التيتان الذين لم يرضوا بالثقة في نصائح پروميشيوس الحكيمة (pitheia البيت ٢٠٤) - ولم تكن تلك الآلة سلاحاً بالمعنى المألوف. إنها آلة تأخذ العدو أخذاً أكيداً مباشراً، وتنزل بالبشر موتاً مباغتاً ينقُض من السماء. هذه الآلة تلعب حيال البشر الذين ينبغي عليه أن يصارعهم دور آلة هيمنة سحرية. بهذه الآلة «يكبح» زيوس العدو الإلهي فيطرحه من فوره أرضاً، وقد شل قدرته، وسمره في موضعه. وصَعَقُ إلهٍ يعني في عرف سيد السماء تقييده، ربطه بالأغلال، حتى يتجرد من القوة الحيوية التي تبث فيه الحياة، ونبذه إلى الأبد جامداً إلى أطراف العالم، بعيداً عن الدار الإلهية التي كان من قبل يمارس من خلالها قوته. وقام هيسبيودوس وفي أعقابه الشعراء الآخرون بتصوير ذي بعدين لألوان التأثير المرعبة الناجمة عن هذه الحزمة المجدولة من النار التي يطوق بها زيوس أعداءه. هناك أولاً مشاهد من الاضطراب الكوني؛ الهواء يتأجج، الأمواج والمحيط تتأجج، والأرض والبحر والسماء تنهار بعضها فوق بعض؛ وهوة التارتاروس ترتجف وقد زلزلت؛ وكل أرجاء الكون المختلفة، وكل العناصر تختلط من جديد في اضطراب شبيه بالخاوس الأصلي^(٨٠). للصاعقة من القوة ما يمكنها من رد العالم على نحو ما إلى الحال التي كان عليها «أصلاً»، ومن هنا فإن النصر الذي تمكن زيوس منه يتخذ قيمة إعادة كاملة للنظام في الكون. هذا هو البعد الأول.

أما البعد الثاني فيجعل آثار الصاعقة تبدو أكثر تحديداً ودقة. وسواء كان الحديث عن التيتان أو عن توفون فإن المشاهد، بل التعبيرات، تتكرر. التيتان الذين كانوا يسكنون أعالي أوثروس^(٨١)، يجدون أنفسهم في النهاية على الأرض حيث يفتك الهيكتاتونخيريس بهم تحت ركام من الحجارة^(٨٢). فقد دحرهم زيوس من السماء (البيت ٨٢٠). أما توفون فيخر على الأرض، مقلوباً (البيت ٨٥٨). فقد أصابته الصاعقة «وأوقعته من أعالي مكابراته البديعة» («پروميشيوس»، البيت ٣٦٠)، مثلما تنبأ پروميشيوس لزيوس بأن إلهاً سيأتي، يمتلك ناراً أقوى من البرق، «توقعه وقوعاً مهيناً» («پروميشيوس»، البيت ٩١٩). أعمت الصاعقة التي أرسلها زيوس التيتان فوهنت حميتهم ménos، وخبا كفاحهم^(٨٣). كذلك توفون الذي كانوا يميزونه بقوة ذراعيه وساقيه cheires, pódes^(٨٤) التي وصفوها بأنها لا تتعب، أصيب في الشيء الذي تقوم عليه قوته: أصيب في أطرافه guia؛ وسقط مبتوراً guiotheis (البيت ٨٥٨). «وأصبحت قوته sthénos هباءً منثوراً، فقد نسفها الرعد نسفاً» («پروميشيوس»، البيت ٣٦٢).

ويظهر خمود الحمية ménos وشلل الأطراف في نصوص أخرى ناجمين عن قوة سحرية تقيّد وتكبّل. في الإلياذة يخشى أجائمنون من قوة زيوس «أن تقيّد حمية» (الإغريق) وأذرعهم»^(٨٥). والمفردات الأكثر استخداماً في تعريف العمل الصاعق الذي يعمل به الملك السيد مفردات توحى بالقيود. في «ثيوجونية» نجد ابن كرونوس «يكبح» أباه (البيت ٤٦٤)؛ توفون «كبحته» الضربة التي حصره بها زيوس (البيت ٨٥٧)؛ كذلك نجد عند بندار عدو الإله «تكبحه» الصاعقة (انظر Pythique, 8, 24) وعند إسخيلوس يرمي غضب زيوس إلى «كبح» نسل أورانوس («پروميثيوس» البيتين ١٦٣-١٦٤). والأفعال damnáo, damázo, dāmneimi حتى إذا لم يكن لها أصلاً، كما يقترح أونيانس Onians^(٨٦)، معنى الكبح بالقيود والأغلال، تسم القهر الذي يفرضه الإنسان على الحيوانات الوحشية حيث يركب عليها النير واللجام أو القيد. والقراءة الدلالية بين «الكبح» و«التقيّد» تشهد عليها فقرات متعددة عند هوميروس نستخلص منها نصين من «الإلياذة» نتوسع فيهما^(٨٧).

النص الأول يعرض پوسايدون الذي زلزل التربة، وشوكته في كثير من صفاتها، وبمؤثراتها الكونية، قريبة من صاعقة زيوس. ثم إننا في صياغة آپولودوروس نجد الكوكلوپيس لم يصنعوا فقط الصاعقة لزيوس لتكون آلة النصر. ولكنهم قدموا كذلك لپوسايدون وهاديس Hadès الأسلحة التي يملكونها ملكاً خاصاً لهم: «أعطى الكوكلوپيس زيوس الرعد والبرق والصاعقة، وأعطوا هاديس خوذة الكلب، وأعطوا پوسايدون الشوكة. فلما تسلحوا بهذه الآلات انتصروا على التيتان، وألقوا بهم في غياهبات التارتاروس وجعلوا الهيكاتونخيريس حراساً عليهم^(٨٨). كذلك مسرحية «پروميثيوس» لإسخيلوس تجمع الصاعقة والشوكة على سمة مشتركة هي أنهما آلة هيمنة: فالغريم الرياني الذي شاء له القدر أن يقلب زيوس «سيبدع heuresei ناراً أقوى من الصاعقة لها دوي هائل يغطي الرعد ويمزق سلاح پوسايدون، الشوكة، بلية البحر، التي تزلزل الأرض^(٨٩)». وفي نصنا الذي وجدناه في «الإلياذة» يتدخل پوسايدون بالسحر عند نشوب المعركة بين إيدومينيوس Idomeneus الذي حماه، والطروادي ألكاثوس Alkathoos؛ وسحر عيني ألكاثوس البراقتين thélxas ósse phaeiná، سحراً شبيهاً بومضة الصاعقة في «ثيوجونية» التي تعمي التيتان وتسلبهم عيونهم ósse d'amerde... auge, 698، و«يكبح» edámasse المحارب الطروادي «فيغل أطرافه الرائعة pédese phaidima guîa؛ ويستمر النص: «فلم يعد في استطاعة الرجل أن يولي دبره ويلوذ بالفرار - ناهيك أن يتجنب الضربات. فبقي قائماً، ساكناً بلا حراك، مثل النصب «الجنائزي الحجري» stele^(٩٠). ومقارنة المحارب الذي تركه السحر قائماً في الأرض

بالنصب الجنائزي، تتخذ هنا قيمتها كاملة، ليس فقط لأن الموت عندما يقيد الحي يجمده في صلابة الحجارة وثباتها، وإنما لأن النصب الجنائزي يرمز إلى الثبات، إلى الاندساس في نقطة محددة من تربة هذه القوة المتحركة التي لا يمكن الإحاطة بها والتي تنتشر في كل مكان وتمثلها روح الميت psuche.

والنص الثاني من الإلياذة لا يقل إيحائية عن الأول^(٩١). فهذان هما الألوآديان Aloades - أوتوس Otos وإيفيالتيس Ephialtès - يكبلان آريس Arès بكبل فظيع desan krateroi eni desmoi. والمعنى أنهم حبسوا هذا الرب في جرة من البرونز لا يستطيع أن يخرج منها أبداً. والعبارة نصها عند هوميروس: «Chalepòs he desmòs edámna كبحه قيد قاس»، وهي عبارة لافتة للنظر لم يعدم الباحثون أن يقارنوا جرة البرونز - التي كبحت آريس كالقيد - بتلك الجرة الأخرى التي يحيط بها البرونز والتي سد بوسايدون فوهتها ببوابات من البرونز، ونعني بها: هوة التارتاروس السحيقة كما يصفها هيسودوس في الفقرة التي يذكر فيها السجن الذي زج زيوس فيه التيتان^(٩٢).

ولهب البرق الذي يخطف البصر وقد أمسكه زيوس بين يديه واستخدمه سلاحاً راشقاً لا يقل يحدث في الأماكن نفس التأثير المذهل «المثل» الذي يحدثه برق الأسلحة المعدنية على البشر، ذلك البريق البرونزي الذي يصعد إلى عنان السماء ويجمد من فرط برودة الرعب قلب العدو. وعبارة «ثيوجونية» ósse d'amerde... auge, 698 = «بريق الصاعقة سمل عيون<التيتان>» تقابلها حرفاً حرفاً عبارة الإلياذة ósse d'amerde auge, XIII, 340 - «بريق البرونز بهر عيون<المحاربين>». والبرق الذي يتكشف فيه النور والنار، مثله مثل معدن الصلب الأبيض الذي صنع منه منجل hárpe كرونوس مصدره باطن الأرض الحالك الذي ظل قابلاً فيه إلى حين (٥٠٥). ولقد أسلمت جايا لابنها سلاح المنجل hárpe، وهو الخدعة dólos التي ابتدعتها. وفن الكوكلوپيس هو الذي هباً لزيوس الصاعقة؛ ومهارتهم mechanai, 145 ومعها مقدرتهم هي التي جعلت من قوة النار الأصلية الوسيلة التي يمكن أن يستخدمها الملك الجديد والتي تؤهله لحكم السماء فوق قمة الأثير البراق - على الأقل إلى أن يقوم ابن من أبناء ميتيس أو ثيتيس - بدوره - بـ«اختراع» نار أقوى من الصاعقة. وهذا الإشعاع المنبعث من النار البالغة الاستعار، هذا البريق المنبعث من النور البالغ التوهج، لا تستطيع الآلهة - مهما كانت منيرة لامعة براقه - مواجهته دون خطر. فليس هناك سلاح يمكن أن يفتك بالمخلدين؛ ولكن سلاح النار الذي يمتلكه زيوس يفضي بأعدائه إلى الظلمات، إلى ذلك الليل

الذي يبقى فيه الآلهة المغلوبيين مكبلين بعيداً عن نور الشمس. وإنّا لنقرأ في «ثيوجونية» أن البريق الباهر المنبعث من الصاعقة والبرق يخطف عيون التيتان «على الرغم من قوتهم». ويوصف التيتان هنا بأنهم chthónioi^(٩٣). وهذه الكلمة حيّرت الشراح المحدثين. وهذا هو مازون Mazon يترجمها إلى «أبناء الأرض» كما لو كانت gegeneis. صحيح أن التيتان أبناء الأرض، ولكن جابا لم يسمها هيسودوس chthón، ثم إن التيتان كانوا ينسبون عادة إلى أبيهم، لا إلى أمهم. وهيسودوس يسميهم أورانيديين Ouranides «نسبة إلى أبيهم أورانوس». ومن هنا فإن معنى الكلمة كما يذكر ويست West في شرحه^(٩٤) هو «تحت الأرض»، وهذا صحيح لأن التيتان كانوا يقيمون تحت الأرض hupò chthonós (٧١٧) حيث ألقى بهم الهيكاتونخيريس، وعندما تناديهم هيرا في «المتابعة البيثية» «من شعرر بينداروس» ضاربة الأرض بكفها فهي تناديهم باسم «يا معشر الآلهة التيتان، يا من تقيمون تحت الأرض»^(٩٥). واستخدام صفة «الذين يقيمون تحت الأرض» قبل أن يلقي بهم الهيكاتونخيريس في أعماق التارتاروس لا يحتمل فقط معنى استباق الأحداث، فالتيتان وقد قُطعوا عن نور الشمس، وحُرموا البصر يتمنون إلى مجال الليل (٥٦). ومنذ تلك اللحظة كانوا تحت رحمة زيوس، وقد ألقى بهم بلا دفاع إلى عدو، عينه على عكس عينهم، مفتوحة دائماً على سعتها، ويقظته لا تفتر لحظة. وسلاح النار الذي باغتهم وخطف بصرهم يمثل بحسب عبارة إسخيلوس في «پروميثيوس» (358) ágrupnon bélos سلاح اليقظة الدائمة الذي لا يعرف ليل السُّنة والنوم^(٩٦). ولم يكن أمام الهيكاتونخيريس إلا أن يتموا بطريقة حرفية على نحو أو آخر تلك المهمة التي كان سلاح الكوكلوپيس قد أنجزها بطريقته إذ قطع التيتان عن عالم اليقظة والنور. فطرحوهم بلا حراك تحت الحجارة التي غطتهم، هكذا زج الهيكاتونخيريس محاربي كرونوس «في الظلام» eskiasan مكبلين بقيود أليمة، منبوذين تحت الأرض في غيابات هوة التارتاروس السحيقة الخالكة التي لن يخرجوا منها أبداً^(٩٨).

في الصراع ضد توفون تتواصل الفقرات على النحو نفسه لتعبر من خلال متتابعات السرد، عن الموضوع الميثي المتمثل في يقظة مهيمنة تبلغ ذروتها في القدرة على مباغته العدو وشله وتكبيله عن طريق ضربه بالصاعقة، يذكر هيسودوس: «كان من الممكن أن يصبح توفون ملكاً على الفانين والخالدين، لو لم يلحقه أبو الآلهة والبشر بعينه الثاقبة فجأة؛ فعاجله بالرعد، وضربه به ضرباً شديداً قوياً»^(٩٩). هذا الذي نراه في هذا المشهد يتناقض تناقضاً كاملاً مع كرونوس الذي ظلت عينه يقظة، وظل على أهبة الاستعداد (البيت ٤٦٦)، ولكنه على الرغم من ذلك باغته رها Rhéa بحيلتها. ونجد في صياغة إپيمينيديس أن السرد نفسه يؤكد

بالنسبة إلى الملك ضرورة البيقظة الكاملة التي لا تخبو لحظة. ولو خفض زيوس يقطته، ولو للحظة واحدة، لخاطر بفقدان سلطته العليا. ولقد انتهز توفون الفرصة عندما ترك زيوس الوسنَ يرخي جفنيه، وما كان له أن يغفو. فصعد توفون إلى القصر الملكي، ودلف من أبوابه، ونفذ إلى داخله. وما كاد يضع يده على الملكية حتى فاجأه زيوس بهجوم مضاد، وأجهز عليه بالصاعقة ^(١٠٠). ووصف المعركة ضد توفون في «ثيوجونية» بذكرنا بالمعركة ضد التيتان. هذه هي الصاعقة ترج الكون من أعاليه إلى أسافله. كل شيء من السماء إلى أعماق التارتاروس اهتز وغلا. أحاطت الضربات بتوفون فمزقته حتى خر صريعاً. ولكي يعطي زيوس نصره الذي «كبح» عدوه معناه كاملاً، دحره في التارتاروس ^(١٠١).

في صياغة أبوللودوروس يضرب ملك الآلهة عدوه بالصاعقة، ثم يرمي فوقه جلاميد إتنا Etna، كما حطم الهيكاتونخيروس التيتان تحت الحجارة من قبل ليكبلوهم بالأغلال ^(١٠٢). أما عند بنداروس فيتمدد توفون «مفلولاً» dédetai تحت الإتنا؛ و«عمود السماء» يمسكه مكبلاً وصقلية كلها تضمه piézei ^(١٠٣). على أي وجه ينبغي علينا أن نفهم هذا الضم؟ في «الأوديسا» نجد هيرميس يتأمل القيود السحرية التي شل بها هيفايستوس حركة أفروديتي وأريس على سرير حبهما ويتمنى على سبيل الفكاهة أن تضمه في صحبة الربة «أفروديتي» قيوداً أوثق من هذه ^(١٠٤)؛ وفي فقرة أخرى يطلب أوليسيس إلى رفاقه، حتى يقاوم نداء الجنيات، أن يتكرموا بضمه piézein في قيود أكثر عدداً ^(١٠٥). بل ربما جاز لنا أن نجازف بتحديد الشكل الذي اتخذته أحياناً في الخيال الميثي تلك القيود التي ضمت توفون تحت الإتنا. وپروميثيوس يذكر في إشفاق مصير ثائر مثله هو توفون العنيف الذي «كبحته القوة» ^(١٠٦)، والذي وهن جسمه فتعدد جانباً «تضمه أصول الإتنا» ipoúmenos rhizaisin Aitnaiais húpo ^(١٠٧). ولقد كبُل ملك الآلهة پروميثيوس كما كبُل من قبل توفون والتيتان. ويظهر في بعض الصور في الوضع الذي وصفته «ثيوجونية»: مقيداً إلى عمود بقيود وثقى لا تُحل ^(١٠٨). بل إتنا نلقاه في مأساة إسخيلوس وقد غل مرتين:

أولاهما في مستهل المسرحية إذ أوثقه هيفايستوس إلى الصخرة بقيود لا تتهراً. والإله الحداد يعمل صاغراً بأمر من زيوس ونجد ممثلي زيوس المباشرين، وهما كراتوس Kratos وبيا Biè - أي القهر والعنف - إلى جانبيه. وقوته على التقيد لا تقوم، مثل قوة زيوس، على مستوى السيادة، ولكنها تعمل من تحتها، في خدمة السلطة؛ إنها قوة آلية بحتة.

وثانيتهما في ختام المسرحية، إذ أتى هيرميس إليه يطلب منه باسم زيوس أن يكشف له

سر القران الذي يهدد بخلع ملك الآلهة عن العرش. ورفض التيتان پروميشيوس فأطلق زيوس عليه الصاعقة. وانطلاق الصاعقة من حيث هي سلاح في يد الملك يمثل الهيمنة يتخذ مرة أخرى سمة مزدوجة، فهو كارثة كونية «تقلب العالم وتحث به الاضطراب» (٩٩٤)؛ فهذه هي الأرض بجذورها تُقتلع من قواعدها؛ والبحر يمتد مائجاً صاخاً فيمحو حتى في السماء درب النجوم (الأبيات ١٠٤٥-١٠٥٠). وانطلاق هذه الصاعقة يمثل بالنسبة إلى پروميشيوس، الذي كبل بالأغلال في الهواء الطلق، درجة جديدة من محنة الإخضاع. فشعلة الصاعقة تنسف القمة التي غل إليها؛ وسيدفن بدنه تحت الأرض (البيت ١٠١٨)، وستضمه حجرة منحنية بين ذراعيها (1019) *petraia d'agkále se bastásei*. بل إن پروميشيوس يواجه في النهاية مصير القذف في غياهب التارتاروس حيث يلحق بتوفون والتيتان المكبلين بقيود وثقى لا سبيل إلى فكها *desmois alútois* (١٠٩). ولكن مصيره سيكون في الواقع مختلفاً. وآلام پروميشيوس لا تذكر بعقاب التيتان المضروبين بالصاعقة بقدر ما تذكر على الأحرى بالبلايا التي عاناها من أبناء أورانوس هؤلاء الذين سيتبين أن عونهم ضرورة لا محيص عنها لسيد السماء الجديد. ولسوف يخلف پروميشيوس المغلول، بموافقة زيوس (١١٠)، پروميشيوس المحرر، فيجري عليه ما جرى على الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس (١١١)، الذين غلوا ثم حرروا. وتغير الحال على هذا النحو يلعب في نسيج تدابير الميثوس، في كل مرة يحدث فيها، دوراً مشابهاً. فما يتحرر الكوكلوپيس حتى يقدموا إلى زيوس ثمن تحريرهم، ألا وهو الصاعقة التي هي آلة تمكنه من تحقيق النصر (البيت ٥٠١ وما بعده). كذلك الهيكاتونخيريس عندما يتحررون من قيودهم يقدم ثمناً لهذا «الصنيع الذي لم يتوقعوه» (البيت ٦٦٠) التزاماً بأن يدخلوا في المعركة ضد التيتان بكل ما لقوتهم الحربية من ثقل حاسم. وپروميشيوس يقدم إلى ملك الآلهة في مقابل حريته التي ردت إليه السر الذي ينقذ به تاجه. وكان التيتان پروميشيوس قد تنبأ عندما صُب عليه العذاب صياً بأن يوماً سيأتي، علي الرغم من قيودي، يكون فيه «ملك السعداء بحاجة إليّ، إذا أراد أن يعرف أي قدر خطير هذا الذي يترص به ليجرده من صولجانه وجلاله». ثم يضيف إلى ذلك أن ليس هناك ما يجعله يكشف السر، لا التلطف، ولا الدهاء، ولا التهديد، «إلا إذا فك «ملك الآلهة» باديء ذي بدء هذه القيود الغلاظ» (١١٢). وإذا لم يكن هذا الأمل قد ثبت أنه هباء منشور حتى إن فقرة أخرى جاء فيها على لسان الكورس أنه بدوره يتوقع أن يرى پروميشيوس «يتعامل مع زيوس تعامل الند مع الند» (١١٣)، فإنما يرجع ذلك إلى أن زيوس الأوليمبي «ملك الآلهة» لا يعرف له من وسيلة أخرى لرد القدر «إلا بفك أغلال پروميشيوس» (١١٤). فيكون على ملك الآلهة أن يشترك مع «پروميشيوس»

ابن ياپيتوس حيث إنه يحتاج إلى أن يضم إلى سلطته الملكية ما عند التيتان من الدهاء والمحاولة والعلم السري بالغيبي، ويشرك هذا النمط الخاص من الذكاء الذي يمثله پروميشيوس في بنيان حكم، يصير - بغير هذا العون - إلى الفرق في البؤس وينتهي إلى العبودية. وكما أن علم الكوكلوپيس البارع أتاه بأسلحة لا تقهر، وكما أن ضراوة الهيكاتونخيريس المعجزة شلت أعداءه بهجوم متكرر، فإن حرص پروميشيوس الملتوي يسهم في التمكن من القيود التي سينزعها عن كرونوس ليستغلها هو استغلال الملك ويضمن هكذا سيطرته الدائمة على العالم.

ومع ذلك فيروميشيوس بمكانه في الميثوس حيث لا يقف بجانب زيوس بل في وجهه، يتخذ وضع المنافسة والتعاون معاً سواء بسواء^(١١٥)، لا يلوح في هيئة من يقيد بل من يفك القيد. صحيح أنه علم البشر أن يُخضعوا الحيوانات بأن يكبحوها تحت النير واللجام « پروميشيوس »، البيتان ٤٦٢-٤٦٣)، ولكن هذه المهارة لم تكن إلا واحدة من المهارات التقنية العديدة التي منحها إياهم بكرم أي كرم: فكل الفنون والصنائع التي أوتيها البشر جاءت من پروميشيوس. وإذا كانت مسرحية إسخيلوس تذكر تدابيرها boulai التي سمحت لزيوس بأن يوارى التيتان في غياهب التارتاروس (البيتان ٢١٩-٢٢٠) حيث تحتل مكاناً جعله هيسودوس خالصاً للصاعقة التي قدمها الكوكلوپيس وللضربات التي شارك بها الهيكاتونخيريس، فليس هناك ما يسمح لنا بتحديد طبيعة التدابير التي نفذها الداهية ابن ياپيتوس. وعلى العكس من ذلك نجد قدرته على فك القيود مشدداً عليها كل التشديد. حتى عندما يكون مكبلاً بالأغلال يظل على نحرٍ ما منيعاً لا يمكن الإمساك به، أوتي مكرًا هائلاً إلى الدرجة التي لا يمكن معها الإبقاء عليه مغلولاً إلى النهاية. وهذا هو كراتوس يأمر هيفايستوس: « اضرب بمزيد من العنف، ضم واهصر، لا يأخذن لين، حتى المغلول بأغلال لا تُفص، لديه القدرة على أن يجد له مخرجاً. »^(١١٦) وهذا هو پروميشيوس يقول قول المتنبي: « بعد أن احتملت ألف بلية أليمة، وألف كارثة نكراء، سأفلت من قيودي »^(١١٧).

ولم يكن التيتان يجد دائماً السبيل للنجاة بنفسه فحسب، بل لقد « حرر » البشر من رهبة الموت (٢٤٨). بل لقد فعل ما هو أكثر من ذلك، إذ كان هو الوحيد بين الآلهة، الذي أنجز لصالح البشر - ضد إرادة زيوس عندما كان في مستهل حكمه يتمنى أن يبيد جنس الإنسان ويتلاشى - انجازاً مثل ذلك الذي أنجزه الإله الأوليمبي زيوس لصالح الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، واستطاع أن يعلن في فخاره: « هذا هو ما أقدمت عليه: لقد حللت قيود البشر (exelusámen, 235) وعملت على ألا يهبطوا محطمين إلى هاديس Hadès

«الموت». وماذا يكون حل قيود البشر غير النجاة بهم من الهدم؟ والإله ثاناتوس Thánatos - الموت - إله رهيب، لا يلين قلبه الذي قد من البرونز؛ فما يلقي حباله على إنسان حتى يأخذه إلى الأبد (١١٨). فلما خطف زيوس نور عيون التيتان، وأحاطهم الهيكاتونخيريس بالظلام، كانت تلك، كما رأينا من قبل، وسيلة أدت إلى تقييدهم. ولقد تحقق أن التقييد بالأغلال كان بالنسبة إليهم مرادفاً لِرَجْ جامد في ليل التارتاروس البهيم. وعلى العكس يعني فك قيود الكوكلوپيس والهيكتاتونخيريس ردهم إلى نور الشمس مع كل ما يتضمنه هذا النور بالنسبة إلى الآلهة والبشر من حيوية وحركة.

و«ثيوجونية» تتكلم على نحو مختلف عن الهيكاتونخيريس «وقد تحرروا من قيودهم» (البيتان ٦٥٩-٦٦٠) «ورُدُّوا إلى النور» (البيتان ٦٢٦ و ٦٦٩) (١١٩). وپروميشيوس في بعض صياغات أسطوره يرافق من ناحية أخرى هيفايستوس من حيث هو أسطون سحر يحرر من القيود. وهو الذي أبدع أول امرأة - پاندورا Pandora - أو هو الذي خلق الجنس البشري عندما بث الحياة في المادة الخامدة؛ وقد تناول التراب فبلله بالماء وصوره، وحل قيود الذراعين والساقين، ونفخ فيه الحياة والحركة (١٢٠). وهو الذي أسعف زيوس عندما ألمَّ به ألمُ الوضع بعد ابتلاعه زوجته الأولى «ميتيس»؛ فخلصه من ألمه بضربة من بلطته المزدوجة حرر بها البنت - الربة أثينة - التي حملتها ميتيس في بطنها، وكانت محبوسة في تجويف رأس أبيها لا تستطيع الخروج منه (١٢١).

ووضعُ التيتان هذا المختلط، حليفاً ضرورياً لزيوس في توليه سلطته والحفاظ عليه، ومعارضاً له كذلك، معادياً ومتصالحاً، مغلولاً ومحرراً، على نحو ما متفقاً مع زيوس، على نحو ما رغماً عنه، هذا الوضع نجد تأكيداً له في عادة يشهد عليها مجتشان من آثار إسخيلوس ذكرهما أثينايسوس Athênaios (١٢٢). فبناءً على مجتث «پروميشيوس محرراً» جرت العادة تكريماً لپروميشيوس على أن «يكون تتويج الرأس ثمناً للقيد» antipoina tou ekeinou desmou. ونجد في مجتث «سفينكس» فقرة تبين بدقة هذه العلاقة القطبية بين التاج - الذي يكرس الاستقامة الدينية لفرد ما أو يكون مكافأة لمنتصر - والقيد الذي يكبل المغلوب: «وتاجاً للضيف الغريب xénoi، ولكنه تاج على العرف القديم: فهو بحسب قول پروميشيوس أفضل القيود كلها áristos desmon». ولم يكن تاج پروميشيوس القديم مصنوعاً من ورق الغار أو الزيتون كالمعتاد، ولكنه كان مصنوعاً من الصفصاف lúgos. واجتهد التفسير المتبحر الذي قدمه أثينايسوس في أن يوضح هذا الوضع الغريب: «وتاج

الصفصاف يناقض المنطق، لأن الصفصاف يستخدم في صناعة القيود وشباك صيد الحيوان pròs desmoús gàr kai plégmata^(١٢٣)». والكتاب الذي خص به مينودوتوس Men-odotos الساموسي الأحداث الهامة التي شهدتها وطنه «جزيرة ساموس Samos» يقدم إلى أثينايس Athênaios مؤلف كتاب Deipnosophistes الموسوعي، وعنوانه يعني «وليمة السفسطائيين» عناصر حل المشكلة^(١٢٤). فهو يربط في كتابه هذا تاج الصفصاف بشعيرة «التمثال المغلول»، وهي شعيرة لا يمكننا هنا أن نفيض في شرحها، وهي تدور في ساموس حول الصنم الخشبي العتيق brétas، صنم الربة هيرا Héra، التي غلّوها بقيود من هائش الصفصاف lugódesmos، كما هي الحال في اسبرطة. تحول دون هروبها من تلقائها. ولقد سأل الكاريون «وهم أهل كاريا Karia جنوب شرق آسيا الصغرى» الإله أبوللون النصيحة، فأجاب بأن عليهم وقد قيدوا الربة أن يقدموا إليها من أنفسهم كفارة، كفارة لا تكون مفروضة عليهم، بل يقدمونها عن طيب خاطر من تلقاء أنفسهم، ولا تجعلهم يقاسون شيئاً فيه إرهاق حقيقي لهم.

ويعلق أثينايس على ذلك بقوله: «هذه الكفارة هي تماماً الكفارة التي فرضها زيوس على پروميشيوس بعد أن حل قيوده الأليمة؛ فلما قبل التيتان «پروميشيوس» راضياً كل الرضا هذا التعويض الذي لم يكن ليكلفه شيئاً يرهقه، أمر ملك الآلهة بأن يقدم الكفارة^(١٢٥)». ونحن عندما نقرأ هذا النص الذي يذكّرنا فيه تاج پروميشيوس الصفصافي يقيناً بالأغلال القديمة، والذي نجد فيه على العكس قيود پروميشيوس ابن يابيتوس تتحول إلى تاج الانتصار^(١٢٦)، يصعب علينا أن نقرر من الإثنين، الإله الملك، أو التيتان الداهية، غلب الآخر في لعبة التقييد وحل القيود والتي تندرج تحت علامة الدهاء الميتيسي^(١٢٧).

وثمة جزئية أخيرة تقرّب پروميشيوس من الكوكلويس والهيكاتونخيريس بإلقائها الضوء على بعض أوجه عبوديتهم المشتركة والمحدودة بزمان. «ثيوجونية» هيسودوس تلزم الصمت حيال الطريقة التي حرر بها زيوس حلفاء المستقبلين من بين تلك الجماعة من أبناء أورانوس الذين ظلوا مغلولين تحت حكم أخيه كرونوس. ويزودنا أبوللودوروس بتحديد دقيق يبدو لنا للوهلة الأولى في غموض اللغز، فيقول: «حل زيوس قيودهم بعد أن قتل حارستهم كامبي Kampè^(١٢٨)».

وكلمة كامبي Kampè، الاتحناة، تسم في عالم الحيوان نوعاً من الدود يستطيع أن يتكور على نفسه تكوراً كاملاً؛ ونستنتج من شرح لهيسوخوس Hésychius أن الكلمة

كانت عند «الشاعر الكوميدي» إبيخارموس Epikharmos تحمل معنى "كيتوس" ketos وهو وحش بحري مُتَلَوٍّ، مثل عجول البحر التي يحكمها «شيخ البحر» المعروف بأنه منيع لا ينال منه أحد، وساحراً اشتهر بأنه أسطون في المخادعات والماحلات والاحتيالات، فلا يمكن الانتصار عليه إلا بتكبيله كالقامطة تكبيلاً لا ينفذ (١٢٩). وكامبي عند ديودوروس وحش أنجبته الأرض؛ وديونيسوس يقتل كامبي قبل مواجهة التيتان (١٣٠). وكامبي عند نوتوس جنبية من التارتاروس، لها أجنحة سوداء، وفلوس قائمة، ومخالب منحنية مثل المنجل hárpe (١٣١). ويمكننا أن نتصور أن الإتحناء الذي يقرب كامبي من دهاء كرونوس الميتيسي الملتوي agkulometis ويقربها أكثر من الحجرة المنحنية agkále petraia التي ضمت بروميشيوس، تسم هذه الخلفة التي خلفتها الأرض صاحبة القيود، وحارسة المغلولين تحت الأرض. إلا أن الفعل kámpto لا يعني فقط يحني، ولكنه يعني أيضاً يثني، يطوي، يلوي. وهذا الفعل في المبني للمجهول يتردد بإلحاح أخاذ في مسرحية «بروميشيوس» لإسخيلوس لتحديد محنة التيتان في موقف المعذب. ولقد أعلن بروميشيوس لكورس الأوقيانيدات: لقد حللت قيود البشر. «ولهذا فأنا أنحني kámptomai اليوم تحت وطأة هذه الآلام القاسية التي يصعب احتمالها، والتي يلين الفؤاد لمرآها (١٣٢)». و يتردد التعبير مرتين آخرين: «أنا الذي ساعدت زيوس على إقامة سلطته، أرى عظم الألم الذي يحنني اليوم تحت وطأته» و «بعد أن أنحني تحت وطأة ألف ألم سأفلت من قيودي (١٣٣)». وكامبي ليست فقط الاتحناء من حيث هي أسطوانة القيود، ولكن لأنها تحني الكوكلوپيس والهيكتاتونخيريس كما فعل زيوس - على حد قول بندار - عندما «حنا ékampse البشر الذين أسرفوا في الغرور (١٣٤)».

ووجود كامبي، وقد ألقى عليه نص إسخيلوس الضوء، قد يسمح لنا بأن نتقدم بتحليلنا إلى أبعد مما وصلنا إليه. وقد وسّع لوي جيرنيه Louis Gernet نطاق دراسة قام بها العالم اليوناني كرامبوللوس Keramopoulos على أسلوب تنفيذ حكم الإعدام الذي سمي أپوتومپانيسموس apotumpanismós، وتمكن فيها من التعرف إلى طريقة شديدة البشاعة في العقاب العلني حيث كان المحكوم عليه يثبت عارياً بثلاثة خطاطيف إلى خشبة مقامة في الأرض، واستخرج لوي جيرنيه المعاني القانونية والدينية لتعذيب بروميشيوس (١٣٥). كان تعذيب بروميشيوس عرضاً علنياً مهيناً من نط الأپوتومپانيسموس apotumpanismós الذي يقدم نص من قوانين أفلاطون تحديدات دقيقة مهمة عليه. بالنسبة إلى بعض طوائف المجرمين يتمثل التعذيب في «عرض علني مهين للمجرم، قاعداً أو واقفاً amórphous hédras è stáscis عند المعابد على حدود البلاد (١٣٦)». وعلينا أن نحفظ بعض التفاصيل. كان المجرم

يُبعد خارج المدينة «إلى الحدود» ؛ وكان يعاني ما يعانيه من «آلام هذا» العقاب الذي يهدف إلى إبعاده، إلى دحره إلى «حدود البلاد»، والعقاب يتخذ قيمة النبذ خارج العالم الذي كان ينتمي إليه *huperorismós*. ويلعب وضع المحكوم عليه دوراً جوهرياً. ويكون هذا الوضع كما بين أفلاطون على شكلين: إما واقفاً أو قاعداً. في مسرحية إسخيلوس تثبت القيود پروميشيوس إلى الصخرة واقفاً ؛ كذلك تبينه بعض المصورات واقفاً مغلولاً إلى خشبة أو عمود. وكلمات هيفايستوس الأولى تهدف إلى إعلان التبتان بالعذاب الذي ينتظره: «ستقوم على هذه الصخرة بحراسة أليمة، تظل إلى الأبد واقفاً *orthostáden*، لا تغفو ولا تشني ركبتيك *ou kámp-ton gónu*»^(١٣٧). وعبارة «تشني ركبتيك» تحمل هنا معناها العادي هو طلب الراحة، والرقود والاسترخاء^(١٣٨). ويؤكد استخدامه^(١٣٩) - عن طريق المفارقة ذاتها - قيم الكلمة ذاتها عندما ينطق بها پروميشيوس : التبتان «ينحني» تحت وطأة محنة بلغت من العنف درجة لا تسمح له بأن يشني ركبتيه، أي يرتاح، لحظة.

ولكننا لمجد التبتان في مصورات أقدم (وبخاصة حجر محفور في كريت، وصورة عتيقة بالحفر البارز في أولبيا، ورسوم عديدة على أوان) مغلولاً إلى خشبته، في وضع القعود، أو على الأخرى في وضع الجثو، وقد حنا ركبتيه إلى أمام. فما معنى هذا الوضع؟ إنه يتقابل موقفاً شعائرياً يقفه صاحبه في التوسل والحزن والتعليم، بين لوي جيرنيه أنه يرمز في التعذيب إلى حالة الموت الجوهري، ونبذ المذنب من ساحة الحياة في نفس الوقت الذي يجري فيه نبذه من أرض مدينته. فالأمر لا يقتصر على معاقبة المجرم بغلّه إلى خشبة، بل يتعدى ذلك - عن طريق المعاملة المهينة التي تنصب عليه علناً - إلى النيل من صفته الحيوية والدينية، «إلى إعدام ما لدى الفرد من قوة "غيبية"، من صميم وجوده وقيمة وجوده «وكرامته»، وهو ما يسمى بالإغريقية "تيمي" *timé*»^(١٤٠). هذه هي طبيعة «القيد» الذي فرضه ملك الآلهة على أولئك الذين ينبذهم إلى حدود العالم، مثل المحكوم عليهم بالإعدام والتشهير المهين على الخشبة «بعيداً عن البشر، بعيداً عن الآلهة»، لكي يبقوهم مجردين من كل تشريفاتهم، جامدين وعاجزين في حالة توشك أن تكون الموت^(١٤١).

* * *

هذه التحليلات - إذا لم تكن أتاحت لنا أن نحدد وضع الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس تحديداً أفضل، وأن نبين بدقة وظيفتهم بالقياس إلى اخوتهم التبتان، وإلى زيوس أو إلى شخص مثل پروميشيوس في مسرحية إسخيلوس - فلعلها تعطينا الحق في اقتراح تفسير يطابق منطق السياق السردي بوضع غوامض نص هيسودوس.

كرونوس في منظور هيسودوس هو أول ملك، وهو بهذه الصفة أسس السيادة الملكية. ولقد قامت هذه السلطة التي لم تكن الدنيا تعرفها من قبل بفضل دهاء من وحي جايا، وتنفيذ ابنها الأريب الجريء كرونوس. والخدعة dólos التي أقامت الهيمنة تتسم بسمة مزدوجة، إيجابية وسلبية معاً. أما إنها تتسم بسمة إيجابية فلأنها أدخلت العالم مرحلة متقدمة من التطور: فانطلق النشوء، وانفتح المكان وتنظم العالم. انتهت تلك الضمة المتكررة دون ما حد التي اتحدت بها السماء بالأرض وتبعها حُكمُ ملكٍ يراقب من أعالي السماء باهتمام أي اهتمام كل ما يحدث في مختلف أرجاء الكون. وأما إن الخدعة dólos تتسم بسمة سلبية فلأنها في الوقت نفسه جريمة بشعة، واعتداء آثم ارتكب ضد «آلهة هي» القوى الأصلية التي تمثل أصل ومنبع كل وجود. وهكذا فليس هناك نظام كوني حقيقي بدون تمييز وهيكله طبقية وهيمنة. وكذلك ليست هناك هيمنة بدون صراع وظلم يقع على الآخرين، وقهر تفرضه الخيانة والعنف. وتصرف كرونوس «إذ قتل أباه أورانوس بتدبير من أمه جايا» وما أحدثه من تمزق في نسيج العالم، أتاح لكل شيء أن يجد موضعه في المكان والزمان؛ ولكنه من حيث هو تمرد على رب السماء الذي هو الرب الأب سجل في الوجود إلى أبد الأبدين حضور الشر. والخطأ الذي ارتكبه كرونوس خطأ لا يمكن محوه، ولا يمكن الرجوع عنه، والعودة إلى الوراء «إلى ما قبل أن يحدث». الشيء الوحيد الممكن هو دفع الثمن، فالجريمة تعود بمرور الزمن لتضرب من ارتكبها. وسيعاني كرونوس على يد ابنه «زيوس» نفس المعاملة التي نال بها من أبيه (١٤٢).

ولكن لكي يعود التوازن دون أن يولد الصراع على السلطة من جديد ودون أن يتفجر المرة تلو المرة بلا نهاية، جيلاً بعد جيل، لابد أن تفلت هيمنة زيوس من رقة مسلسل الخطأ والعقاب الذي بدأت حلقاته رداً على دهاء كرونوس الميئسي الملتوي. لم تكن للملك الجديد القدرة على تجميد الزمن، وإيقاف مسار المواليد، وتثبيت الصيرورة؛ ولكن كان عليه أن يجد، على عكس أبيه، الوسيلة لإقامة نظام يضمن، مع استمرار حكمه استقرار الكون ويضمن للقوى الإلهية التي كسب إسهامها شباباً ثابتاً، وقوة لا تتضعع، كما يضمن لها دوام سمات الشرف التي نالتها. ولن يستطيع زيوس أن يحو الشر الذي أصبح منذ ذلك الحين جزءاً من العالم. إنما استطاع فقط أن يبعده، أن يزيحه عن الآلهة (١٤٣)، بأن ينبذه بعيداً عنهم فيقصيه إلى آخر حدود العالم أو بأن يبعث به إلى أرض البشر لكي يجعل منه قدر المخلوقات

الفانية (١٤٤).

وهكذا فإن ملكية الرب الأوليمبي «زيوس» خلقت ملكية كرونوس دون أن تكررهما. والملك الثاني لم يكن نسخة من الملك الأول، بل كان رداً عليه. وهو عندما قلبه، أقام في الحقيقة من جديد السلطة التي كانت قد أقيمت من قبل، ثم ترنحت. والميثوس، وقد جعل ملكاً يخلف ملكاً، يعبر عن الاستمرار والانقطاع، التوافق والانقلاب جميعاً.

ودهاء كرونوس الميتيسي دهاء لا يقع التشديد فيه فقط على التدني إذا ما قيس بدهاء زيوس، ولكنه يقع على سمته المحيرة، بل الشريرة. فكرونوس رهيب *deinós*؛ الحقد يسكن قلبه؛ والعصى الإجرامي الضال الناجم عن التهور *áte* (atasthalie, 209) يظهر - حتى في لؤمه الخبيث - في صورة ذكاء ضال، وجنون. ومهما بلغ هذا الداهية من سوء الظن، ومهما بلغ من التشكك، فقد كان على عكس الحريص كما فهمه الإغريق، وكان الإغريق يفهمون الحريص على أنه الاعتدال، وضبط النفس والتحكم في الذات: "سوفروسونه" *sophrosúne*. وبناءً على هذا المعنى - ويغض النظر عن المواربة - فإن كرونوس قريب «الشبه» من أورانوس، غضوب، متهور مثله. وهناك توافق له معناه: في الفقرة التي قلنا عنها إنها مدسوسة «في غير موضعها» حيث إنها لا ترد في سياق مشاجرات أورانوس مع أولاده، بل في سياق الصراع بين كرونوس وزيوس - بصور النص إله السماء، مثلما كان ابنه في الفقرة السابقة على مشهد الخصى، ضالاً نتيجة التهور *áte* (*aesiphrosúneisi*)^(١٤٥). ويقابل جنون كرونوس الذي بسط يده ضد أبيه جنون أورانوس الذي غل تلك المجموعة من أبنائه التي سيحل زيوس وثاقها. أما ما يسم عقل زيوس فهو - على العكس من هذا وذاك - الحريص. والإله صاحب الدهاء الميتيسي *metieta* - على العكس من صاحب الدهاء الميتيسي الملتوي *-agkulométes* - يبدو في صورة المفكر، المعتدل (البيتان ٦٥٦-٦٥٧)، الحسن النية (البيتان ٥٠٣ و ٦٦٠)، المحترم لامتيازات الآخرين (الأبيات ٣٩٢-٣٩٦؛ ٤٢٤-٤٢٦). والنص يشدد بقوة على التناقض بين "الحكمة" التي تسلتهمها قرارات زيوس (*epiphrosúne*, 658)، والضللال المشترك بين أورانوس وكرونوس (*acsiphrosúne*, 502).

وكرونوس بموقفه المتوسط بين أورانوس وزيوس يتخذ وضعاً مختلطاً. فهو في صراعه ضد أورانوس يتخذ - من حيث هو إله أرب فطين، ومن حيث هو مؤسس الملكية - مكاناً إلى جانب زيوس. ولكنه في صراعه مع زيوس يتخذ - بخلفه المتهور، الهائج المائج الذي لا يملك نفسه، مكاناً قريباً من القوة الأصلية المنبوذة ناحية أورانوس.

ملكية زيوس تضم كل أشكال القوى التي كانت مبعثرة في الجيل السابق، لدى الآلهة

الأولين. وهي تجمع إلى دهاء كرونوس وجراته المتجبرة، مع صاعقة الكوكلوپيس وضمت الهيكاتونخيريس التي لا راد لها، علم جايا الأكيد بالمستقبل، ومواريه ربات البحر المتموجات لتحويل ما لا سبيل إلى رده، ومماحلات أفروديتي ذاتها وطفيان إغرائها الحلو.

ولم تقتصر الملكية الإلهية الجديدة على كراتوس Krátos وبيا Bia - أي على الهيمنة والقوة؛ صحيح أنها تعتمد عليهما، ولكنها تعتمد عليهما بهدف وضعهما في خدمة نظام يتجاوزهما، لأن زيوس يضم في شخصه السلطة العليا والاحترام الأوثق للشرعية العادلة^(١٤٦)، كما أن ملكيته ملكية توفيق تضم معاً هيمنة الأمير والتوزيع الصحيح لمناصب الشرف، والوحشية الحربية والإخلاص للعهد^(١٤٧)، والعنف والإقناع، والنظرة، وقوة الأطراف وكل أشكال الذكاء.

ونحن نجد عند هيسودوس أن صعود الأولمبيين، وهم الآلهة الذين يسميهم «صناع كل أعمال الخير»^(١٤٨)، يواكب تنظيم عالم لا ينفصل فيه سلطان زيوس عن سيطرة العدل. فلما سوى الأولمبيون صراعهم مع التيتان «ألحوا على زيوس أن يستولي على السلطة وعلى عرش البشر؛ وكان هو الذي وزع عليهم مناصب الشرف»^(١٤٩). ويفترض إقامة نظام مؤسس على توزيع عادل للمناصب والامتيازات اندحار هؤلاء الآلهة الأول الذين هم التيتان بعنفهم. وكان تحقيق انتصار الأولمبيين يتطلب مساندة الآلهة الكونيين الذين هم أساس وأصل السلطة والعلم. كان زيوس يتسيد على تنظيم جديد، ولكن القوى التي عبأها وركزها كانت موجودة من قبل في العالم. سلمته جايا علمها بالغيب من حيث هي ربة الأرض؛ واستخلص من ميتيس، الأوقيانيدية، وأفروديتي، سليله الموج، مماحلات الذكاء ومخاتلات الإغراء. وهذان هما كراتوس Krátos وبيا Bia - أي الهيمنة والقوة - يرافقانه بما هو ملك في كل مكان، ولقد استجابا لأول نداء وسارعا للحاق بمعسكره، وبصحبتهما أمهما ستوكس Styx «ربة هي نهر في عالم الموت» بناءً على نصيحة التيتان أوقيانوس، كما فعل پروميشيوس - حسب مسرحية إسخيلوس - عندما حذرت جايا فحضر يقدم إلى الإله الشاب حيله وخططه^(١٥٠). ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، كان الكوكلوپيس يمتلكون الصاعقة، وكان الهيكاتونخيريس يملكون قوة القيود التي سيعتمد عليها الملك الجديد لينتصر ويحكم. وإذا كانوا أقدم من زيوس من حيث ترتيب النشوء، فما الذي فعله هؤلاء الأشخاص بأسلحتهم ويقوتهم قبل أن يولد «زيوس» الأولمبي؟ لا بد أنهم كانوا في وضع حال دون أن يستخدموها. هذا «التحييد» المؤقت لعملاء النصر، وسندة الملكية، يعبر عنه الميثوس

بعنصر تقييد الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس. ولكن إذا كان كرونوس هو الذي كبلهم بالأغلال، فمعنى ذلك أن هذا الرب كان أكثر قوة وسلطاناً من أخوته. وفي هذه الحالة لا نرى كيف يمكن أن يحققوا لزيوس نجاحاً لم يستطيعوا أن يحققوه لأنفسهم. وعلى العكس، إذا لم يكونوا تحت حكم كرونوس قد أرغموا على العجز مغلولين في قيود نكراء، لما سنحت لزيوس فرصة تحريرهم وكسبهم لقضيته. أما وقد تحرروا مثل اخوتهم التيتان نتيجة لإقصاء أورانوس، فقد كانوا مشاركين في هيمنتهم، ولم يكن هناك من سبب ليلعبوا دور المنشقين. وليس من الممكن أن يكون كرونوس قبيدهم أو حل وثاقهم. ومن وجهة نظر منطق الميثوس لا يمكن أن تكون هناك علاقة من أي نوع، لا إيجابية ولا سلبية، بين ملكية كرونوس من ناحية ووضع الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس من الناحية الأخرى. ومن هنا جاء صمت هيسودوس المطبق، فهو لم يقل كلمة واحدة في هذا الموضوع. وما دام زيوس سيقوم بحل وثاق الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، فلم يكن بد من أن يظهروا في مستهل حرب التيتان في وضع المكبلين بالأغلال؛ ولهذا عمد الشاعر إلى أن يسجل في هذه اللحظة من القصة أن «أباهم» كبلهم بالأغلال، مزحزحاً إلى ما قبل عصر كرونوس أصل هذا الإذلال الذي لا يمكنه أن يضعه في عصر كرونوس، والذي ينبغي أن يستمر إلى ظهور زيوس. وهكذا نجده ينسب إلى أورانوس عملاً لم يكن من الممكن أن ينسب - دون مناقضة - إلى الملك الأول. ولكن التراث الإغريقي التالي كله يظهر فيه كرونوس رباً يكبل بالقيود ويفك القيود، ملكاً مغلولاً ومخلوعاً عن العرش، رباً مغلولاً (١٥١).

الباب الرابع

الاقتران بميتيس ومملكة السماء

بعد أن استهلك زيوس عرسه الأول «وفرغ من زوجته الأولى» ميتيس Métis، تزوج في عرس ثان التيتانة ثيميس Thémis^(١). ونلاحظ أن هذين العرسين يكمل أحدهما الآخر ضماناً لهيمنة ملك الآلهة الجديد، فالريتان - ميتيس وثيميس - تتجاوبان شريكتين في ثنائي يضم القوى المتضامنة والمتعارضة. والريتان كلاهما من الربات ذوات النبوءة بحيط علمهما بدائرة الزمان كلها. ولديهما بناءً على علاقتهما بالكائنين الكونيين الأولين - الماء والأرض - قدرات سابقة على حكم زيوس، بل سابقة على مولده هو ابن كرونوس الصغير. كانت ثيميس التي وضعتها جايا تسيطر على نبوءات الأرض. أما ميتيس، ابنة أوقيانوس Okéanos وتيثوس Téthys، فكانت كشيوخ البحر تمثل النبوءة بالماء^(٢). ولكن العلم الشامل الذي أوتيته كل واحدة من زوجتي زيوس الأوليين يتسم بسمات تختلف من هذه إلى تلك، وهو اختلاف يفسر لماذا لم يتزوج ملك الآلهة ثيميس إلا بعد أن امتص كل قدرات ميتيس وأصبح هو نفسه، وقد ابتلعها، الداهية الميتيسي metieta. أما علم ثيميس الشامل فيتصل بنظام فهم على أنه أقيم من قبل، وثبت واستقر نهائياً. والكلمة التي تقولها ثيميس كلمة لها قيمة جازمة قاطعة؛ تفصح عن المستقبل كما لو كان مكتوباً من قبل؛ وهي إذ تعبر عما سيكون بناء على ما هو كائن، لا تصوغ نصائح، بل تنطق بمراسيم: تأمر أو تمنع. وأما علم ميتيس الشامل فهو على العكس علم يتصل بالمستقبل الذي يواجهه من ناحيته الاحتمالية؛ وكلمتها كلمة ذات قيمة افتراضية أو إشكالية؛ وهي تنصح بما ينبغي عمله حتى تحدث الأمور على نحو دون آخر؛ تنطق بالمستقبل لا من حيث هو قد ثبت من قبل، ولكن من حيث هو نحس أو سعد ممكنين، وتقدم وسائل علمها المكير التي تمكّن صاحبها من تحويل الأمور إلى الأفضل لا إلى الأسوأ. ثيميس تترجم في العالم الإلهي أوجه الاستقرار والاستمرار والانتظام: دوام

النظام وتوالي فصول السنة دوراً بعد دور (فثيميس هي أم هوراي Horai «وهوراي هن يونوميا وديكي وأيريني ربات الطبيعة المشرفات على فصول السنة وعلى كل صور النظام في الطبيعة»)، تحديد القدر (فهي أم موثراي Moîrai اللاتي «يعطين البشر الفانين إما السعد وإما النحس»^(٤). ويتلخص دورها في بيان المحرمات وحدود الحرام المحظور تجاوزها والامتيازات التطبيقية الواجب احترامها حتي يظل كل واحد إلى الأبد في حدود مجاله ورتبته. وميتيس - على العكس - تتدخل عندما يلوح العالم الإلهي هائجاً مائجاً بالحركة أو عندما يختل توازن القوى فيه إلى حين من أثر: صدامات الخلافة، صراعات السيادة، معارك وثورات، تنصيب أمير جديد؛ هنالك يتخذ زمان الآلهة صبغة متعشرة عارمة؛ وعلى القوى البعيدة لكي تنتصر أن تثبت حميتها وقوتها وقدرتها على المبادرة الذكية والدهاء وروح الابتكار^(٥).

زيوس إذ يقترب بميتيس بعد أن فرغ لتوه من إسقاط كرونوس وقلب الوضع القديم للأمر، لا يقف عند حد الاعتراف بالخدمات التي أسدتها الربة إليه، بل يتخذ لنفسه الوسائل الكفيلة بإقامة نظام جديد حقاً. وهو إذ يشرك معه ثيميس يضيف على القواعد التي فرضها لتوه وعلى توزيع المناصب والامتيازات قيمة نظام مصون لا يحس. فزواجه بريتين يكرس صعود السيد الجديد وسقوط العاهل الأول، ويرسي، في الوقت نفسه، قواعد استحالة إدخال تغيير على هذا الوضع بعد ذلك.

أما إن حيل ميتيس تنضوي على تهديد لكل نظام قائم، وأما إن ذكائها يمتد داخل مجال المتحرك والمباغت ليقرب المواقف على نحو أفضل، ويهز أركان الدرجات الهرمية التي بدت في غاية الصلابة، فهو ما يعبر عنه الموضوع الميثي الخاص بالمخاطر المتصلة بسلالتها. فأولاد ميتيس يأخذون عن أمهم نفس نمط المخاتلة الملتوية الذي تتميز به. وابن الربة ميتيس وهو يتسلح بهذا السلاح - «سلاح المخاتلة الملتوية» - مقضي عليه حتماً بأن ينكر هيمنة أبيه، وبأن يقلب الملك القائم لينشيء حكماً جديداً. ولكن زيوس ليس ملك كالملوك الآخرين. فهو بعد أن تزوج ميتيس وسيطر عليها وابتلعها أصبح أكثر من مجرد ملك: لقد جعل نفسه السيادة الملكية ذاتها. ولما كان كل دهاء العالم، وكل الأمور المباغته التي يخفيها الزمان قد أصبحت في داخل زيوس، فلم تعد السيادة الملكية موضوع صراع يتكرر إلى ما لا نهاية بل أصبحت وضعاً مستقراً دائماً. هنا استطاع ملك الآلهة أن يحتفل بزفافه إلى ثيميس وأن يستولدها أبناءاً حسناً هم الفصول «فصول السنة» والمقادير. ولقد أصدر القرارات التي لا راد

لها فثبتت تتابع أحداث المستقبل، كما ثبت الدرجات الهرمية للموظائف والرتب والمناصب. هكذا جعلها على نحو لا يقبل التغيير. ومهما يحدث من أمر في المستقبل، فلن يكون إلا أمراً عرفه زيوس من قبل واستقر في رأسه منذ الأزل.

وهيسودوس لا يحكي لنا تفصيلاً عن الطريقة التي استخدمها زيوس لكي يقبض على ميتيس وابتلعها ويجعل من نفسه الداهية الميتيسي metieta, meliôcis^(٦). إنه يقول لنا فقط إن ميتيس كانت على وشك وضع أثينة، «فخلب لبها بالحيلة متوسلاً بكلمات مغرية خداعة وابتلعها في أحشائه». والأرجح أن الإمساك بالربة ميتيس لم يكن أمراً سهلاً. وهناك حاشية كتبها بعض الشراح على هامش نص هيسودوس يقول فيها إن ميتيس كانت لها القدرة على التشكل على أي شكل تشاء. «فضللها زيوس وصفرها» وابتلعها^(٧). ونتبين في هذه العبارة موضوعاً من موضوعات الفولكلور، موضوع ساحر (أو ساحرة) أوتي من القدرة على التحور ما يجعل من المحال التغلب عليه، فيحتال عليه (أو عليها) بعضهم مدعياً أنه يريد أن يختبر قوته، ويطلب إليه أن يتخذ أشكالاً مختلفة، وما يزال يجعله يتحور ويتحور حتى يتخذ شكل حيوان صغير ضعيف فيتمكن منه دون مخاطرة.

ويبدو أن قصة بيريكلومينوس Periklymenos ومعركته مع هرقليس Héraklès من نفس هذا النمط. وهيسودوس هو أول من حكاها ومن ثبت بهذا المعنى الموروث الأسطوري في فقرة من "سجل النساء" الذي نفا إلى علمنا عن طريق حاشيتين كتبهما بعض الشراح، أولاهما كتبها على هامش الألياذة، والثانية على هامش «الأرجونوتية Argonautika» >= سيرة ملاحي أرجو> لإپولونيوس Apollonios الرودسي وفيها يستشهد بأبيات من قريض الشاعر البوئيسي <أي = هيسودوس>^(٨). ويطالعنا بيريكلومينوس Periklymenos في قصة هيسودوس من حيث هو أشد أبناء نيلوس Neleus مراساً. ولقد أعطاه جده پوسايدون القدرة على أن يتشكل في أثناء المعارك على كل شكل. ولقد أخطأ هذا المحارب عندما استغل قدرته السحرية على التحور لكي يغلب هرقليس القوي ابن زيوس. ولكن هرقليس تمكن منه بعد ذلك وقتله عندما أتى ليخرب پيلوس Pylos. ولقد تلقى هرقليس في سعيه إلى غلبة البطل المتحور الكثير من حيل الربة أثينة التي وقفت إلى جانبه تقدم إليه المساعدة الواعية اليقظة. أخذ بيريكلومينوس يتحور طوراً بعد طور إلى نسر وأسد وثعبان هائل. ولكن هرقليس الذي أوصته أثينة بأن يقضي على بيريكلومينوس بضربة من الهراوة اهتبل اللحظة التي تحور فيها غريمه إلى ذبابة فقضى عليه. وهناك رواية أخرى مختلفة اختلافاً قليلاً أوردها

هيسودوس جاء فيها أن هرقليس انتهرز فرصة تحور بيريكلومينوس إلى نحلة وحط وهو في هذه الهيئة على موضع في منتصف النير الممتد فوق كاهلي حصاني عربته فعاجله، بناء على توجيهات الربة أثينة، بسهم قاتل. وفي كلتا الروايتين يتولى دهاء الربة الميتيسي تدبير الأمر برمته والبلوغ به إلى منتهاه. هذا الدهاء الميتسي الملتوي بقلب على المحارب الساحر تلك القدرة على التحور التي حصل عليها من جده رب البحر. ولم تبين الربة أثينة لهرقليس لحظة الضرب الملائمة فحسب، ولم تكتف بإرشاده إلى العدو مهما كانت الصورة التي تمكن من التحور إليها، بل تمكنت من تهيئة الفرصة التي سيفيد منها البطل هرقليس بأن أغرت بيريكلومينوس بالغش أن يتحور إلى حشرة (ذبابة أو نحلة) تشير ثائرة الحصانين الذين يجران عربة العدو. ومن هنا يمكننا أن نقول إن أثينة في رواية هيسودوس كانت تسدد ضد بيريكلومينوس وقدرته التحورية نفس «ضربة الخداع» التي سددها ملك الآلهة زيوس في «ثيوجونيا» ضد الربة ميتيس قبل أن تلد بنتاً علم سلفاً أن «حرص» أمها الرهيب سيكمن فيها، وهو نفس الحرص الرهيب الكامن في زيوس ذاته.

والرواية الثيوجونية - سير الآلهة - التي أوردها خروسيبوس Khrysispos^(٩) تختلف عن رواية «ثيوجونية» هيسودوس في أنها لا تضع اقتران زيوس بميتيس في مسار زواج الإله زيوس، بل في مسار نزاع مع زوجته الشرعية هيرا^(١٠). ولكن هذه الرواية المختلفة تؤكد في النقاط الأساسية رواية هيسودوس: فهي كذلك تذكر أن زيوس ابتلع الربة الداهية متوسلاً بالمباغثة والخديعة. تقول هذه الرواية إن زيوس - وقد فر من هيرا Héra ليقترن، بعيداً عنها، ببنت أوقيانوس وتيثوس «أي ميتيس»، وتقول إنه «خدع ميتيس على الرغم من كل علمها (وفي قراءة أخرى: على الرغم مما اتسمت به من بأس)»^(١١)، وأمسكها ودسها في أحشائه خوفاً من أن تلد ذرية أشد فتكاً من الصاعقة. هكذا ابتلعها زيوس الكروني «ابن كرونوس» المتربع على عرش الأثير بفتة، وكانت آنذاك تحمل أثينة، وهي التي وضعها بعد ذلك زيوس من رأسه على ضفاف نهر تريتون Triton الوعرة. وبقيت ميتيس كامنة في أحشاء زيوس.

وموضوع تحورات ميتيس الذي ربطه صاحب الحاشية المدونة على هامش هيسودوس عند فقرة ابتلاع زيوس للربة^(١٢)، وضعه أبوللودوروس عند أصل العلاقات بين ميتيس ابنة أوقيانوس وزيوس سيد الآلهة، حيث كتب: أن زيوس «اقترن بميتيس التي تحورت على كل الأشكال لكي تفلت منه، فلما حملت ابتلعها بعد أن أمسكها بفتة.»^(١٣) في هذه الصياغة

يبدو الزواج والابتلاع مثل ركني مواجهة واحدة قام بها زيوس حيال الربة ميتيس حتى يقربها، ويتحد معها ثم ليسيفها تماماً في النهاية. ولقد كانت ميتيس مائجة منيعة توصلت بكل وسائل المخاتلات السحرية لكي تفلت من ضمة زيوس. فاستخدمت نفس حيل المخادعة *dolie* *téchine* التي استخدمتها ثيتيس ضد بيليوس، وپروتیوس ضد مينیلاوس ونیریوس ضد هرقل^(١٤). وفي كل حالة من هذه الحالات يظل السيناريو الميثي في جوهره واحداً. وهؤلاء الآلهة البحريون - على الرغم مما يبدو عليهم من تباين - يشتركون مع ميتيس في أن لديهم علاوة على موهبة التحور العديد ذكاءً ملتويًا وعلمًا من نمط العرافة. أما التصدي لمن يواجهونهم فيقوم دائماً - بناءً على حيلة أو مكيدة أو كمين أو تخفٍ - على مباغتة كائنٍ شديد الدهاء، شديد الربة، دائم اليقظة، وتقييده بقيد لا ينحل مهما حدث. هكذا يجد الوحش نفسه وقد جرده القيد من سلاح السحر، وأدار عجلة التحورات إلى منتهاها، فلا مفر من أن يستسلم لقاهره. وهكذا يجد الداهية من هو أكثر دهاء منه؛ ويفاجأ من كان دائم الحذر؛ ويقيّد من كان أسطوناً في التقييد؛ وينظر من كانت لديه القدرة على أن يدور دائرة أشكال التحور كلها فيجد نفسه وقد أحبط به وانقفلت عليه الدائرة؛ ويتحول الأمر المختلط - في خدمة المسيطر عليه - إلى أمر واضح، والأمر الغامض إلى أمر صريح. والآلهة المائعون الغامضون المتناقضون الذين كانت لهم القدرة على التحور يضطرون بعد أن تحقق بهم الهزيمة إلى أن يكشفوا للعدو الظافر في وضوح عما كان يريد معرفته عن الطريق والمخرج والحيلة. إلا أن زيوس هو الوحيد الذي مضي إلى النهاية في الصراع ضد «ميتيس، وهي» الكائن المائي الذي يمثل كل قدرات وكل مفاخر الذكاء القائم على الدهاء. وهو لم يكتف بتطويقها بذراعية كالوثاق كما فعل بيليوس *Peleus* بثيتيس ليرغمها على الاتحاد معه، أو كما فعل هرقل بنيريوس *Nereus*، ومينیلاوس بپروتیوس *Pereus* من أجل الحصول على السر الذي يوتهن به نجاح مسعاها. عندما ابتلع زيوس ميتيس أحكم حولها الوثاق الذي سيبقيها سجيناً إلى الأبد؛ لقد حبسها نهائياً في داخله، لكي تنقل إليه في كل لحظة، وقد اندمجت في مادته، تلك المعرفة بمقادير المستقبل التي ستمكنه من السيطرة على مسار الأحداث المتحرك الذي يعوزه اليقين.

وسيناريو المعركة التي تدور ضد الإله المتحور يترجم في شكل درامي وصول الغالب إلى امتيازات الدهاء الميتيسي، واقتناصه روح المخاتلات التي تجعل له مخرجاً عندما تتأزم المواقف وتبدو كما لو كانت بلا مخرج. وتبين صروف الصراع ذاتها الانتقال من المتحرك والعائم إلى المستقر والثابت، ومن الغامض إلى الواضح، ومن المتناقض إلى الصريح، ومن غير

اليقيني إلى اليقيني، تبين باختصار - ونقولها بالإغريقية - الانتقال من الأپوريا (=اللا طريق) aporia حيث يضيع البطل أصلاً، إلى الپوروس (=الطريق) póros أي الحيلة الأربية التي يتمكن منها في نهاية المحنة لكي يبلغ بمشروعاته النجاح. والإله الذي يؤخذ على غرة يتخذ - في سعيه إلى النجاة - أشد المآخذ تحييراً، وأكثرها تبايناً فيما بينها، وأعنفها رعباً؛ فيتحوّل إلى ماء ينساب، أو لهب يحرق، أو ريح أو شجرة أو طائر أو غر أو ثعبان. ولكن سلسلة التحورات لا يمكن أن تطول إلى مالا نهاية، بل هي دائرة من الأشكال المعدودة تصل إلى نهايتها ثم تعود إلى بدايتها مرة أخرى. فإذا استطاع العدو القابض على الوحش أن يستمر في ضمته دون فكاك، فإن الإله المتحوّل وقد وصل في دائرة تحولاته إلى منتهاها يضطر إلى العودة إلى هيئته العادية وشكله الأول، فلا يحيد عنهما. وهكذا أنبا خيرون Khiron پيليوس أن ثيتيس ستحوّل إلى نار أو ماء أو حيوان وحشي، وأن عليه أن يظل قابضاً عليها لا يلين إلى أن يراها تعود إلى هيئتها القديمة archaria morphé (١٥). وكذلك إيدوثيا Idothea حذرت مينيلوس من ألاعيب أبيها پروتيوس، وقالت له: «امسكه جيداً ولا تدعه يفلت مهما حاول في صرعة هوجاء أن يتملص؛ وهو سيتحوّل إلى كل الأشكال، فيغيّر هيئته إلى كل ما يزحف على الأرض أو إلى ماء أو نار مقدسة؛ أما أنت فامسكه دون أن تلين، بل اهصره وشد وثاقه؛ فإذا وصل إلى حد الرغبة في الكلام الطيب، فسيعود إلى اتخاذ السمات التي رأيت عليها عندما غط في النوم؛ حينئذٍ دع العنف، وحل وثاق الشيخ واسأله عن الرب الذي يخلق لك المتاعب (١٦)» والواقع أن پروتيوس وقد أخذ على غرة بمكيّدة مزدوجة من كمين وتخف (١٧)، استخدم - بغية الخروج من مأزقه - ألاعيبه الخبيثة olophoia؛ ووضع فيها كل ما أوتي من حيل الخداع (١٨). فتحوّل أولاً إلى أسد ثم إلى تنين ثم إلى فهد ثم إلى خنزير هائل؛ وتحوّل إلى ماء جارٍ وإلى شجرة سامقة؛ فلم يحقق مأربه في التملص؛ ولم ينحل القيد. حتى إذا فرغت جعبته من الألاعيب السحرية (١٩) عاد سيرته الأولى فإذا هو شيخ من شيوخ البحر صدوق صريح. وإذا صراع القوة والمكر ينتهي ويحل محله حوار صريح، يتكلم فيه كل طرف بقلب مفتوح دون مخاتلة أو مواربة atrekéos (٢٠).

فالسيطرة على مقدرة الخداع هذه التي يمثلها في تلونها وتوجيها الرب المتحوّل تتطلب ممن يتصدى له أن يطوق دفعة واحدة كل تحولاته المتباينة ويحكم حوله وثاقاً لا يلين. وهذا أمر تبينه النصوص بوضوح شديد. مينيلوس يستفسر من إيدوثيا: ما هي الوسيلة التي يتوسل بها إنسان فإن عهدي مثله لكي يفرض النير على إله مثل پروتيوس؟ وتعطيه إيدوثيا - وهي حورية من حوريات مياه البحر - الخطة: عليه أن يرمي بفتة على أبيها، وأن يمسكه مسكة لا

يدعه يفلت منها. وبالفعل انتهز مينيلوس اللحظة السانحة وانقض مع رفاقه على شيخ البحر وطوق جسمه بذراعيه فلم يدعه يفلت (٢١). كذلك خيرون أوصى بيليوس بأن يضم sul-labeîn ثيتيس وبأن يظل قابضاً عليها katascheîn (٢٢)، وكذلك هرقليس وقد طوق نيريوس sullabon، شد وثاقه édese، ولم يحله ouk éluse إلا بعد أن حصل منه على المعلومة التي كان يبغيتها (٢٣).

والأشكال المصورة أكثر تعبيراً من النصوص المكتوبة. وسواء كان موضوعها هو هرقليس في صراعه ضد نيريوس أو ضد تريتون، أو بيليوس يسدد إلى ثيتيس ضربة خنجر، فإن الأشكال المصورة تبين البطل وهو يشل حركة غريمه بتطويقه بذراعيه، جاعلاً من ذراعيه حلقة تحزمه كحزام وثيق التف حوله، ولاحماً اليد اليسرى باليد اليمنى. فإذا انتهت المباراة انفتح طوق الذراعين لتحرير الإله الذي مكنه دهاؤه الميتيسي من التشكل على كل شكل. أما الربة ميتيس نفسها وقد «وُريت في أحشاء زيوس» فقد بقيت مغلولة في الوثاق الذي شده زيوس ابن كرونوس بالمخاتلة والغدر حول قرينته عندما ابتلعها.

وكما أن زيوس قلب على ميتيس أسلحتها نفسها وهي : الدهاء والخدعة والمباغطة، كذلك اضطر مينيلوس، لكي يغلب پروتيوس Prôteus إلى أن يواجه «الأعيب» الإله البحري بالحيلتين dóloi اللتين دبرتهما ابنته - «ابنة پروتيوس» - لكي يوقعه في الفخ «المزدوج»: الكمين والتخفي. ولقد بينت له المزيد فعرف: أن الرب المتحور لا يمكن الإيقاع به وقهره إلا عندما ينعس، حينئذ يخبر حذره المألوف، وتغفو يقظته. لا بد للنيل منه أن يكون دهاؤه الميتيسي قد ولى عنه إلى حين. كذلك هرقليس ينقض على نيريوس عندما يأخذه النوم (٢٤). وهذه هي إيدوثيا كشفت لمينيلوس الخطة التي دبرتها ضد أبيها لكي تسلمه له أعزل، مجرداً من كل سلاح: كان على مينيلوس الإغريقي أن ينصب كميناً ليتحين اللحظة التي يستسلم فيها پروتيوس للوسن. وما كاد الرب پروتيوس يفتش الرمل ليغفو إغفاءة تتيح له قليلاً من الراحة حتى وجد نفسه مكبلاً (٢٥).

والنوم «وهو عند الإغريق الإله» هوبنوس Húpnos، إله قوي ورهيب. وهو يلقي حباله السحرية على كل كائن حي، وعلى كل فكرة مهما كانت من السرعة، وعلى كل قريحة مهما كانت من الانطلاق. وهو عندما يرغب بعرق كل ما يتحرك، بأغلال خفية شبيهة بتلك التي يستخدمها أخوه التوأم «الإله» ثاناتوس Thánatos، إله الموت، ليكبل بها أبناء الفانية تكبلاً أدياً.

وما للآلهة من حيوية وحركة فائقتين لا يعصمها من قوة هوبنوس Húpnos «إله النوم» التي تصيب بالشلل. فإذا وقعت الآلهة في شركه، بقيت فيه طالما شاء، وقد صغرت وتضاءلت، وخبت حيويتها القديمة، ووهنت بقطتها. في هذه اللحظات من الفتور يعتم ما في الآلهة من دهاء ميتيسي، ويصبح من الممكن مباغتتها. وهذا هو هوبنوس Húpnos «إله النوم» يقول في "الإلياذة" دون استكبار إنه من السهل عليه أن ينيم كل الآلهة الخالدة، لا يستثنى منها تيارأوقيانوس الدوار الدائب الذي هو الأب الذي أنجب كل الكائنات (٢٦). ليس هناك سوى إله واحد تقف قوته التقييدية حياله موقف العاجز لأن ما أوتيته هذا الإله من دهاء ميتيسي لا يعرف الراحة أو الوهن، «ألا وهو زيوس». «أما زيوس ابن كرونوس فلا أستطيع الاقتراب منه أو إنامته، إلا أن يأمرني هو بذلك» (٢٧) زيوس، الإله السيد، بما لديه من دهاء ميتيسي في داخله، يصمد في حالة من اليقظة الدائمة؛ وعينه التي لا تعرف النوم ولا تغمض أبداً تجعله دائم اليقظة؛ لم يعد من الممكن مباغتته بهجوم أو خديعة أو دهاء ميتيسي. أما كرونوس فعلى الرغم مما أوتي من مكر، ومن قدرة على التقييد اعتماداً على دهائه الميتيسي الملتوي، فقد كان من الممكن غله. وطُرد من العرش، وسار سيرة من لم يعد أكثر من ظل إله وحلم سيادة. ولقد نُبذ إلى بعيد فلم يعد يقضي وقته كله إلا في النوم.

والأسلحة البشرية للدهاء الميتيسي وهي الشباك، والجوابي، والفخاخ، والحبال، والمصائد، وكل ما بُرم ونسج ودبر ورُتّب وجُهِّز وأُعد وصُنِّع (٢٨)، كل هذه يقابلها في عالم الآلهة: القيد السحري الخفي العتيد. ليس من الممكن أن يفنى كائن إلهي، إنما الممكن هو أن يقيد. وما معنى هذا التقييد؟ معناه أولاً أن يفقد الإله امتيازاً من امتيازاته الرئيسية وهو الامتياز المتمثل في قدرته على التنقل الخاطف، في قدرته على التواجد في كل مكان، تلك القدرة التي تمكنه في وقت أقل مما يتطلبه البرق أو الخاطر البالغ السرعة من الحضور في كل أماكن الكون التي يختار الظهور فيها. أما تقييد الإله فيؤدي إلى نبذه إلى حدود الكون، أو إلى وهدة وراء الوجود، أو إلى هاوية التارتاروس التي وصدت عتبتها إلى الأبد، أو إلى مغارة في جزيرة مقطوعة عن العالم. حتى عندما يكون الإله المقيد في مكان ما بداخل العالم المنظم، فإن شل حركته الذي يبدد مجال فعله يؤدي إلى ضالة قوته وكيانه فيبدو ضعيفاً واهياً واهناً، تلك الحالة القريبة من الموت التي يمثلها النوم بالنسبة إلى الآلهة (٢٩).

والتراث الأورفيوسي يصف كرونوس «الإله المغلول المغلوب» راقداً يشخر بعد أن عض «طعم الخديعة» الذي أذاقه زيوس إياه عندما أغراه بالعسل، أو يصفه وقد طامن رأسه على

رقبته العريضة، وغُل في أصفاد هوبنوس Húpnos «إله النوم» الذي يسيطر على كل الكائنات^(٣٠). وبلوتارخوس يذكر في نصين كرونوس الذي نُبذ بالعراء في جزيرة بنام فيها تحت حراسة برياريوس Briareus، أو قد تمدد نائماً في كهف سحيق، ويوضح في النصين «أن النوم هو الصفاد الذي أعده زيوس ليوثقه به»^(٣١).

وهناك بين خمول كرونوس مخلوعاً وبقظة زيوس ملكاً حالات متوسطة عديدة. وميثاث السيادة الملكية تلعب بهذه الحالات المتوسطة، وبهذه الدرجات المختلفة من البقظة وحضور البديهة لدى الآلهة لكي تنوء بالمخاطر التي كان من الممكن في بعض اللحظات أن تهدد سيادة زيوس ذاته. والصراع الذي كان على الرب الأوليمبي - بعد انتصاره على التيتان - أن يخوضه ضد توفويوس Typhoeus أو توفون Typhon له دلالة الخاصة بالنسبة لموضوع البقظة والخمول وما بينهما من درجات. فتوفويوس عند هيسودوس وحش هائل pélor^(٣٢)، وهو الابن الأخير الذي أنجبته جايا عن اقترانها بتارتاروس. وأياً كانت الأنماط الشرقية التي أغرت بعض الباحثين على مقارنتها بهذه الشخصية الإغريقية^(٣٣)، فالرأي عندنا أن توفويوس في قصيدة هيسودوس يتسم بسماة أصيلة من الضروري استخلاصها وإظهارها بوضوح. فتوفويوس من ناحية أمه يبدو كقوة خثونية أرضية «خثون Khthon = الأرض» تتعارض مع الآلهة السماوية؛ وهو من ناحية أبيه تارتاروس - الذي يصفه هيسودوس بالعبوس والقطرة - قريب من إيريبوس Erebus «إله الظلمات» ونوكس Nux «إله الليل» اللذين تولدا مباشرة من الخاوس؛ وهو بهذه الوراثة المزدوجة يتخذ هيئة قوة أصيلة؛ ولد متأخراً، أصغر من زيوس، فكان يستأنف - في عالم شمله التمايز والنظام - ذرية «أولئك الذين كانوا في البداية»، ذرية الكائنات الأولانية التي يضعها هيسودوس عند جذور العالم. ولم يكتسب توفويوس من أصله هذا قوة فائقة وحمية استثنائية فحسب؛ بل كان نمط الطاقة التي أتاحت له يجعل من هذه الطاقة قوة خلط واضطراب وعميل للخاوس. وجمع هيسودوس في وصفه إياه إلى قوة ذراعيه عدة سمات لها دلالتها: أولاً حركة قدميه التي لا تكل ولا تنصب.

وعلى العكس من أولليكومي Ullikumi الحيثي الذي كثيراً ما قورن به والذي كان يهدد ملك السماء بخمود كتلته الهائلة^(٣٤)، كان توفويوس دائب الحركة لا يعرف الخمود أو الخمول؛ كانت قدماه لا تكلان akámatoi^(٣٥)؛ كانتا دائبتا الحركة لا تعرفان تعباً ولا راحة. وكان عنف طبيعته العارم يظهر في كثرة رؤوسه الهائلة التي كانت تبرز من كتفيه : مائة رأس

ثعبانية تنتشر من فوق جسده، وتضاعف على نحو جبار عدد عيونه التي ترشق في كل الاتجاهات في وقت واحد بريق نظرة نارية متأجج^(٣٦). وبدلاً من أن يكون لتيفيوس صوت يطابق جوهره الخصب نجده يجمع في شخصه ألف صوت مختلفة؛ فهو تارة يتكلم بلغة إله، وتارة يقلد صوت حيوان ليجعل من نفسه ثوراً أو أسداً أو كلباً، وتارة يصدر ألواناً من الصغير الحاد^(٣٧). هذه الجلبة الصوتية وهذه الزركمة الطنانة^(٣٨) تترجمان على المستوى السمعي السمة التحورية المتعددة التحور لوحش يتخيله نونوس Nonnos على نحو أكثر تراثية جامعاً في هيئته كل أنواع الحيوانات في تشكيلة واحدة، وهو ما فهمه صاحب الحاشية المكتوبة على هامش «پروميثيوس» لإسخيلوس حيث قال إن ما أوتيهِ الوحش من مائة رأس هي مجموعة شاملة للحيوانات المتوحشة جمعاء^(٣٩). أوتي توفويوس قوة وحركة وبقظة ونظرات نارية مضاعفة مائة ضعف فكان بكبائه المختلط غريباً على مستوى زيوس. يقول هيسودوس: «عندئذ طراً في ذلك اليوم طارئ» (كأنه داء) لا دواء له؛ وإوشك توفويوس أن يصبح ملكاً على الفانين والخالدين لو لم يره فجأة أبو الآلهة والبشر بعينه الشاقبة. فأحدث دويماً حاداً عاتياً^(٤٠)، ولقد سلك إسخيلوس سبيل الميثوس كما ورد عند هيسودوس تماماً عندما صور هجوم توفويوس (توفون) على زيوس في صورة محنة تواجه فيها - بغية نيل السيادة على العالم - من ناحية: البرق المنطلق من عيون الوحش الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ومن الناحية المقابلة: الصاعقة المتنبهة أبداً التي كانت تحت يد الإله الداهية «زيوس»^(٤١). ولقد رأينا الموضوع نفسه في صياغة «إيبيمينديس» وخلاصتها أن: توفويوس (توفون) انتهر فرصة تمكّن النوم من جفني زيوس ليدلف إلى قصره، ويوغل فيه حتى يوشك أن يضع يده على الملك، ولكن في اللحظة التي يلوح فيها كل شيء كأنه قد ضاع من قبضة زيوس يفتح زيوس عينه؛ ويغر الوحش مصعوقاً^(٤٢). ولا نجد إلا في «كتاب الميثات والأساطير المسمى» «مكتبة Bibliothēke» «ببليوثيكي» «المنسوب إلى» أبوللودوروس الأثيني Apol- lodoros إشارة إلى الهزيمة المؤقتة التي مني بها زيوس وإلى أقول سلطته الملكية إلى حين. وتوفويوس (توفون) عند أبوللودوروس - وهو كذلك عند پلوتارخوخوس وعند نونوس Nonnos - يحمل سمات تقره من أولليكومى Ullikumi الحيثي وسيت Seth المصري. ومع ذلك فهناك شيء له دلالة البالغة، ألا وهو أننا نتبين - على الرغم من كل هذه الألوان من العدوى «التي جاءت من الأسطورة الحيثية والأسطورة المصرية وأثرت على الميثوس الإغريقي» - أن منطق الميثوس الإغريقي ومعناه هنا ظلاً مطابقين للتراث الإغريقي كما تعبر عنه آثار هيسودوس. والرأي عند أبوللودوروس^(٤٣) أن توفويوس (توفون) . ابن جيا Gaia

وتارتاروس Tartaros، هو أقوى وأضخم الكائنات التي أنجبته الأرض الأم. وهو كائن نصفه بشر ونصفه وحش، له قدمان تركتزان على الأرض التي أنجبته؛ أما رأسه فيتجاوز قمم الجبال ويمس أعالي السماء؛ وهو عندما يبسط ذراعيه تصل إحدى كفيه إلى مغرب الشمس والأخرى إلى مشرقها. هكذا تُؤخذ كتلته الأعلى والأدنى، الغرب والشرق، وتخلط كل اتجاهات المكان معاً، كما تختلط فيه - بحسب رواية هيسودوس - الأصوات المتباينة أشد التباين، وهي أصوات الوحوش التي تعمُر الأرض، وأصوات الآلهة التي تعمُر السماء. ولا يقف التناظر عند هذا الحد. ففي «ثيوجونية» هيسودوس قام زيوس بإلقاء جسد توفويوس (توفون) - بعد أن صق - في أعماق التارتاروس. فتولدت من جسده «جسد الوحش» الرياح العاتية، والزوابع العاصفة التي أخذت تنطلق من غمام التارتاروس، وتبزغ فجأة فوق الأرض أو البحر، محدثة صفيراً مذهلاً هنا وهناك في كل النواحي، خالطة كل اتجاهات المكان في دواماتها الهائجة المضطربة. ولو كان توفويوس (توفون) قد انتصر على زيوس لجلّب انتصاره على العالم وعلى الآلهة شراً مستطيراً هو رجوع الاضطراب، أو هو عودة إلى حالة خاوية شبيهة بذلك المكان الذي لا اتجاه فيه والذي يمثله تحت الأرض التارتاروس وهو هاوية سحيقة ضالة غير ذات تحديد، ليس لها أعلى ولا أسفل، ليس لها يمين ولا شمال^(٤٤). هذا الشر نفسه، الذي «لا علاج له»، يمثله بالنسبة إلى البشر فوق سطح الأرض منذ ذلك الحين «منذ هزيمة توفويوس (توفون)» الرياح العاصفة المتولدة عن الوحش، ويقول عنها هيسودوس: «ليس للبشر الفانيين ملجأ من هذا البلاء»^(٤٥). هذه الرياح العاتية الحالكة الخاوية المنبعثة من أعماق الأرض تقابلها في رأي هيسودوس الرياح العادية المنتظمة «الثلاث» وهي التي يسميها: «بورياس Boreas» و«نوتوس Notos» و«زيفوروس Zephyrus». هذه الرياح الثلاث من أصل سماوي، «وهي باليونانية مذكرة» أبناء إيوس Éôs وأسترايوس Astraïos، إخوة نجم الصباح وكل النجوم التي تتلألأ في الليل وترسم بسناها ما يشبه نقاط الاهتداء إلى الطريق على ظلمة القبة السماوية كما ترسم عليها في كل ليلة الدروب الثابتة والدائمة^(٤٦). والرياح العادية المنتظمة التي تهب دائماً في نفس الاتجاه، والتي ترسم على صفحة البحار طرق الملاحة، توجه وتنظم هي كذلك العالم المنظور «عالم الشهادة» بأنها تحدد فيه المناطق المختلفة وبأنها تربطها بعضها ببعض الآخر.

والتوافقات بين توفويوس (توفون) كما يصوره هيسودوس والرياح العاصفة التي ترد المكان البشري إلى حالة من الاضطراب شبيهة بالخاوس الأولاني توافقات تضي على بيانات أبولودوروس عن توفويوس (توفون) بعداً أكثر اتساعاً وأكثر دقة؛ فهي تشدد على سمة

« القوة الخاوسية » التي بقيت للوحش في الفكر الميثي عند الإغريق. وهناك نقطة أخرى يستأنف فيها نص أبوللودوروس « ثيوجونية » هيسودوس ويؤكد دور الذكاء الملتوي في ممارسة سلطة السيادة الملكية. فموضوع الاحتيال والخداع dólos موجود في صلب القصة. تحكي القصة أن المعركة دارت رحاها أولاً عن بعد بين توفويوس (توفون) الذي كان فمه وعيناه تنفث لهيباً، وكانت ذراعه ترميان صخوراً متأججة وبين زيوس الذي سدد إليه الصاعقة من بعيد. وتقدم توفويوس (توفون) نحو السماء؛ واستمر الصراع عن قرب؛ وضرب زيوس عدوه بالمنجل hárpe وهو سلاح كرونوس. فلما رأى الوحش قد جرح هاجمه جسماً إلى جسم. ولكن توفويوس (توفون) شل حركة زيوس بدسه في حلقاته الشعبانية، وانتزع منه منجله، وقطع به أعصاب يديه وقدميه؛ وألقى بجسد زيوس المشلول فوق كتفيه وحمله إلى قلقلية حيث وضعه في الكهف الكوروكوري «في جزيرة كروكورا». وأخفى أعصاب الإله زيوس في جلد دب، وأقام على الحراسة حبة حارسة phúlax هي ديلفوني Delphúne، رقاها إلى نفس المناصب التي كان برياريوس يشغلها، ووكّل إليها المهام التي كان زيوس يكلها إلى برياريوس لحراسة التيتان والتي كان كرونوس من قبله يكلها إلى كامبي Kámpe لحراسة الهيكاتونخيريس^(٤٧). وبدا الصراع كأنما قد حسم على هذا النحو. كان زيوس مقهوراً في نفس حالة العبودية التي فرضها على كرونوس؛ كانت حركته قد شلت ووقد هامداً في غيابة كهف فاقد القوة، عاجز اليدين والقدمين، كانت تلك حال زيوس الذي وصف عدوه الوحش توفويوس (توفون) - كما جاء في «ثيوجونية» هيسودوس - بأنه عدو ملك الآلهة، أو أنه على الأقل كان عدوه إلى أن أصابته الصاعقة وتقطعت أوصاله guiotheis^(٤٨).

أما نجاة زيوس وإعادة سلطته الملكية فسيحققهما تدخل اثنين من « الغشاشين »^(٤٩). هما هيرميس Hérnès الماكر وشريكه إيجيبان Egipan، وهما شخصان يحتلان في نسيج قصة أبوللودوروس موضعاً يناظر بالضبط الموضع الذي تحتله مبيتيس في نسيج قصة هيسودوس وبروميثيوس وإيسخيلوس. ويتمكن الشريكان خفيةً من نشل أعصاب الإله زيوس وإعادة تركيبها على جسمه. فلما عادت أعصاب يديه وقدميه إلى أماكنها، استرد زيوس كل قوته الخصبية ten idian ischün، وظهر فجأةً أمام الوحش توفويوس (توفون) الذي أصابه الدهول، واعتلى عربته، وألقى عليه صاعقته، فلاذ بالفرار، فطارده في فراره. وكان من الممكن أن تظل المعركة سجالاً لو لم تدبر المويراي Moirai «ريات القدر»، وهن ثلاث كلوثو Klotho ولاخيسيس Lakhésis وأتروپوس Atropos حيلة جديدة، خديعة ثانية. ولقد استطعن الإيقاع بتوفويوس (توفون) بنفس ضربة «طعام الخديعة» التي أوقع بها زيوس أباه

كرونوس وغله بحسب الرواية الأورفيوسية. فأغرين توفويوس (توفون) بأن يقضم ثمرة أكدّن له أنها ستأتيه بقوة لا نظير لها. ولكن هذا العقار phármakon المزعوم الذي يجعل من يتناوله منيعاً لا يُغلب والذي كان المتوقع أن يبلغ بقوة الوحش الهائلة أبعد مدى، لم يكن في الحقيقة إلا «ثمرة عابرة»، وعكس طعام الخلود، وطعاماً لا يمكن أن يذوقه طاعم دون أن تُستهلك قواه وينتهي إلى الموت. وإذا العنف البالغ الذي تحقق للوحش في البداية تنزعه عنه سدّة زيوس بذكاء مخاتل ساخر.

وموضوع الاحتيال هذا كرس له نونوس «الشاعر الملحمي ابن مدينة أخميم التي كانت تسمى بالإغريقية پانوپوليس» في الكتابين الأولين من ملحمة Dionysiaka الديونوسيات، اللذين تناول فيهما قصة توفويوس (توفون) - موضوع أضفى إليه الشاعر بعداً يوشك أن يكون باروكي الطابع baroque «بما حفلت به المعالجة من تفصيلات وتشعبات وزخارف»؛ ولكننا نجد وراء الكم الضخم من التفصيلات الخيالية سجلاً لغوياً واسعاً للدهاء الميئسي منشوراً كالمروحة بكل درجاته يرجع إلى أبعد شرائح التراث. نطالع هنا أن زيوس وقد شغل بغرامياته ترك صواعقه «وهي سلاحه الأساسي، سلاح السيادة الملكية» في ركن قصي من السماء، ولكن الدخان المتصاعد منها كشف عن مكان وجودها. وأشارت جايا على توفويوس (توفون) بأن ينشلها فمد يده إلى قمة الأثير ونشل «الصاعقة» سلاح السيادة الملكية. واتخذ الوحش المتحور بدافع من وحشيته المتعجرفة هيئة المناهض لزيوس المناوئ له، بمعنى أن يكون سيد الاضطراب «على عكس سيد النظام»؛ ولقد كان موقعه من السيادة الملكية الحقيقية موقع ابن الحرام nóthos من أولاد الحال. كان إذن يمثل الانتقام للتيان ولكرونوس الذي زعم أنه سيعيده معه إلى «عرش» السماء. ولقد هرب كل الآلهة الأولمبيين من مسكنهم السماوي. ودبر زيوس خطة مأكرة بالاتفاق مع إيروس Éros، وطلب إلى كادموس Kadmos أن يساعده على تنفيذها. وكان الملك كادموس أريباً فطيناً فاستعان بالإله Pan، وتنكر في ثياب راع. فلما تنكر في هذه الثياب المضللة تسليح بناي بسيط راح يستخرج منه نغمات خلابة ليواجه بها المستبد الفتى الذي بث الاضطراب في الكون. ووهن عنف توفويوس (توفون) العارم تحت تأثير الموسيقى، فاقترب من عازف الناي دون أن يشك في أن مكيدة تدبر له، وترك في المغارة السلاح الذي نشله «من زيوس من قبل». وتصنع كادموس الفرع فطمأنه توفويوس (توفون) واقترح عليه أن يحمله إلى السماء التي «قال له إنه» سيقم فيها معه لكي يتغنى فيها بعظمة الملك الجديد. وهنا طلب كادموس آلة «موسيقية» أرفع قدراً من الناي تكون جذيرة بالاحتفال بالنصر الذي تحقق ضد زيوس. هذه

الآلة التي طلبهما هي آلة الليرة lura «الوترية» ، وقال إنه بحاجة إلى أوتار «ليصنعها». كان توفوريوس (توفون) يجهل الخدعة المدبرة فعمي عن الخطة التي وضعت للإيقاع به إلى الهلاك، فأحضر أعصاب زيوس التي كان زيوس قد فقدتها في معركة سابقة. واستمر كادموس في العزف؛ وكذلك انتهز زيوس فرصة خفوت يقظة عدوه ونومه فتسلل إلى المغارة واسترد سلاحه «الصاعقة» واختفى. كذلك اختفى كادموس في غمامة واره زيوس فيها. وسكتت الموسيقى. هنالك استرد توفوريوس (توفون) وعيه، واسترد معه مزاجه العنيف العارم العادي. والتمس الصاعقة فلم يجدها وفهم بعد فوات الأوان أنه قد غرر به. وحل الليل، وأحاط النوم بكل ما هو حي في الطبيعة، وتمدد توفوريوس (توفون) على حجر أمه جايا؛ وخلدت رؤوسه الثعبانية إلى النوم متكورة في أجواف الكهوف. أما زيوس فقد ظل ساهراً. فلما أسفر الصباح تحدى الوحش توفوريوس (توفون) الإله الأوليمبي زيوس أن ينازله؛ وهجم عليه بأذرعته الكثيرة، وبأفواه المتوحشة المفترسة، وخصائل شعره الكثيفة الأفعرانية، ورماء بالصخور وبالجبال بل وبالمياه التي سلطها نحو السماء. ولكن زيوس أحاط بالوحش كله كاملاً بنار صاعقه التي استعرت حتى البياض، على الرغم من ألف شكل تشكل عليها.

وأغرب من قصة نوئوس هذه قصة أوبيانوس Oppianos^(٥٠) وإن كانت من الناحية الأدبية أقل تعقيداً؛ وإذا كان أوبيانوس يفرض المقارنة مع ميثوس إيللويانكا Illuyanka، فإنه يقربنا من نص أبوللودوروس ويربط قصته من خلاله بتراث هيسودوس الذي يجمع في ميثات السيادة على نحو وثيق موضوع الدهاء بموضوعي الطعام والابتلاع. أوبيانوس يضع قصته كلها في ضوء هيرميس الداهية poikilómetis الذي كان أول من عرف كيف يدبر حيل صيادي السمك المتسمة بالحرص البالغ prôtistos ... Boulaàs dè perissonóon haliéon ... emésao ، وكيف يكتشف كل حيل صيد الحيوان ويخطط لموت السمك. وهو الذي عهد إلى ابنه Pan بن الأعماق البحرية (صيد السمك) - Pan الذي قيل إنه أنقذ زيوس وقتل توفوريوس (توفون). فهو الذي خدع الوحش الرهيب dolósas بأن أغراه بأن يقدم إليه وليمة شهية من السمك. وهكذا استدرجه بالخيانة على أن يبرح المغارة الواسعة التي كان يلوذ بها آمناً في أعماق البحار لكي يبرز إلى طرف الشاطيء حيث ضربه زيوس بصاعقة حرقت رؤوسه كلها. وليس من شك في أن «صورة» توفوريوس (توفون) هذا الذي ضيعه شره تدين بالكثير من سماتها لأقدم رواية من الروايتين اللتين نعرف منهما ميثوس إيللويانكا Illuyanka الحيثي^(٥١). تحكي هذه الرواية عن الشعبان إيللويانكا أنه نازل وغلب إله العاصفة الذي يحتل في مجمع الآلهة الحيثي مكان زيوس. وتدخلت الربة إينارا Inara يعينها شخص

عادي، إنسان فان من البشر، اسمه هوپاسيا Hupasiya ، فأعدت وليمة حافلة دعت إليها إيللويانكا. ورح الشعبان جحره، وذهب إليها فملاً جوفه من الشراب والطعام في شراة حتى عجز عن العودة إلى جحره، فكبله هوپاسيا بالأغلال، وقام رب العاصفة بقتله.

ليس هناك مجال للشك في التشابه بين القصتين. ولكن إذا كان أوبيانوس قد استطاع أن يسم توفويوس (توفون) بسمات اتصف بها إيللويانكا الحيثي، فإننا يرجع ذلك إلى أنها - دون تعديل كبير- دخلت متكاملة كلها في الميثوس الإغريقي الذي يدور حول عدو زيوس. توفويوس (توفون) عند أوبيانوس بهوى السمك ويأكله بشراة، ولكنه ليس شعباناً كإيللويانكا، بل هو من السمك: والتغلب عليه يعني صيده، ويحتاج صيده إلى تعبئة دهاء هيرميس كله، وحشد كل فخاخ الإله الداهية، معلم الأحابيل والجوابي، ومخترع الخدع dóloi التي نجد اسمها يُستخدم في شعر هوميروس بما يمكن أن يعني الطعم الذي يصاد به السمك. ونخلص من هذا إلى أن هيمنة زيوس بين الآلهة ترتكن على نفس النمط من الذكاء الملتوي الذي يحكم صيد الحيوان وصيد السمك ويجعل للبشر الغلبة على الحيوانات التي أوتيت ما أوتيه الثعلب والأخطبوط من حيلة^(٥٢). ونلاحظ أكثر من هذا. توفويوس (توفون) عند أوبيانوس يهلك ضحية شراة. وليمة السمك التي أعدت له هي غواية apáte، فتنة، مثل الطعم الذي يمكّن الصيادين من إخراج السمك من الماء، الطعم الذي يلوح في ظاهره مغرباً كالحياة وهو يخفي في طياته الموت، وليمة السمك هذه تشبه العسل الذي أغرم به كرونوس والذي استخدمه زيوس «فخاً» ليوقع فيه أباه، وتشبه الثمرة التي استخدمتها المويراي لفتنة توفويوس (توفون) الذي ظن أنه سيجد فيها مزيداً من القوة وأنها ستمكنه من معرفة مصائر من يعيشون حياة عابرة.

نفس موضوع طعام الخديعة يرد في نص آخر لدى أبوللودوروس متصلاً أيضاً بصراعات زيوس ضد أعدائه^(٥٣). يدور هذا النص حول العمالقة الذين يبدو وضعهم غامضاً متأرجحاً طالما ظل الصراع الذي يضعهم في مواجهة ملك الآلهة معلقاً بغير حسم. هل سيصبحون مغلوبين يدركهم الموت أم سيصبحون غالبين خالدين؟ والآلهة تعرف من نبوءة العرافة أنها لن «يكون لها أن» تقضي في أمر «من أمورها» وحدها أبداً. فهذا هو زيوس يحتاج لتحقيق النصر إلى من هو أصغر منه. إنه يحتاج لكي يهلك العمالقة إلى عون إنسان بسيط من أبناء الفانية. ذلكم هو هيرقليس الذي سيتولى الأمر، ولم يكن هيرقليس قد دخل في عداد الآلهة بعد. ولكن جيا التي علمت بالخطر الذي يتهدد أبناءها العمالقة أعدت خطة للتصدي له. وبحثت

عن عقار phármakon يعصم العمالقة من الهلاك حتى لو امتدت إليهم يد مخلوق عابر غير خالد. ومنع زيوس الفجر والقمر والشمس من الظهور ، وسبق هو جيا phthásas فحصد قبلها عشب الخلود، على نحو شبيه بما جاء في نص أبوللودوروس عندما سبق زيوس ميتيس بغتة phthásas فأمسكها وابتلعها قبل أن تلد الإبن الذي لا يُقهر^(٥٤). وسجل القصة اللغوي وترتيبها يشددان على الرباط الذي جاء في «المكتبة» <مكتبة أبوللودوروس> وهي ديوان من نصوص الأساطير الميثية نُحل إليه رابطاً على نحو وثيق الفقرات المختلفة للاستبلاء على سلطة السيادة الملكية: ميتيس تحتال على كرونوس لتسقيه العقار phármakon مدعية أنه سيضعف قواه الباطنية عشرة أضعاف، فلم يضاعف قواه، بل اضطره إلى أن يلفظ من جوفه أولئك الذين سينتصرون عليه ويقهرونه؛ وزيوس يحتال على ميتيس فيبتلعها وبقاياها إلى الأبد في جوفه؛ وزيوس يحتال على جيا عندما يحصد من تحت أقدام العمالقة عشب الخلود الذي كان سيعصمهم من الموت لو ابتلعوه؛ والمويراي <ريات القدر> تحتلن على توفوريوس (توفون) ليبتلع طعاماً في ظاهره جرعة من الخلود وهو في حقيقته <عقار> يورده مورد الهزيمة والموت.

وما هو قصد نص أبوللودوروس عندما يشدد قطعاً في صراعات زيوس من أجل السيادة الملكية على وظيفة الطعام المبتلع، سواء كان طعام خديعة أو ذا أثر حقيقي؟ هل قصده أن يظهر ما في الفكر الثيوجوني لهيسودوس من قصور أم أن يوضح واحدة من أساسياته؟ وموضوع الابتلاع يرد عند هيسودوس في لحظتين حاسمتين متعارضتين فيما بينهما تعارضاً واضحاً. فكرونوس يبتلع أولاده ولكن دهاء ريا الميتيسي يجعله يبتلع حَجَرَةً بدلاً من زيوس ثم يجعله يتقيأ كل الذين ابتلعهم من قبل. وعلى العكس من ذلك تماماً يبتلع زيوس الربة ميتيس وبقاياها إلى الأبد في جوفه^(٥٥).

وهناك فقرات أخرى تلقي الضوء على معنى هذين الحدثين في الميثوس عند الشاعر البوئيسي هيسودوس. فعندما فرغ زيوس من تخليص الهيكاتونخيريس والخروج بهم من الظلمات إلى النور، قرر أن يشركهم في صراع كان قائماً منذ عشر سنوات واستمر متأرجحاً دون أن يستطيع أي من المعسكرين (التيان والأوليمبيين) أن يميل الميزان لصالحه^(٥٦). ويبدو أن كوتوس وجوجيس ورياريوس كان لهم قبل أن يدخلوا ميدان المعركة وضعٌ شبيه بوضع العمالقة عند أبوللودوروس: لم يكونوا من البشر الفانين، ولكنهم لم يكونوا حائزين تمام الحياة لذلك الوضع من الحيوية الدائمة والشباب الدائم الذي يخص الخالدين وحدهم. ولم تتغير الحال

إلا بعد أن عرضت عليهم الآلهة أن يقاسموها النيكتر nektar (شراب الآلهة) والأمبروسيا ambrosia (طعام الآلهة) وهما غذاء الخلود الذي يستأثر الآلهة بامتياز، حينذاك اكتملت قوة الهيكاتونخيريس وأصبحوا قادرين على أن يلعبوا دور عوامل الانتصار الحاسمة. يقول هيسودوس: «حينذاك استفحلت حمية الحرب في صدورهم»^(٥٧). هذا الغذاء الإلهي المخلّد - الذي ضاعف عند الهيكاتونخيريس مائة ضعف طاقة إلهية لا شك في أنها كانت غافية وقت أن كانوا مصفدين في الأغلال - يمثل المقابل الدقيق للعقار الذي ظن توفوريوس (توفون) ، بحسب رواية أپولودوروس، أنه سيجدد قواه التجديد الذي يحتاج إليه ليحتل مكان زيوس ثم كان هو الذي انتهى به في الواقع إلى القدر العام للفانين. ويذكر هيسودوس أن آثار غذاء الخلود هذا تتصدى للآثار التي تحدثها في العالم الرياني مياه ستوكس Styx «نهر في ملكوت الموت». ويقول إنه عندما كان شجار بثور^(٥٨)، يواجه فيه إله إلها آخر، كانت إيريس Iris تحضر قليلاً من هذه المياه الأولانية التي تجلبها من فرع من الأوقيانوس تحت الأرض ليضطرب المذنب. وكانت تحمل هذا الماء في إبريق من الذهب. وكان الريان المتنازعان بصبان الماء على الأرض تأكيداً لصدق ميمينهما. ويمكننا أن نتصور أنهما كانا بحسب التقاليد يرتشفان في الوقت نفسه بعض هذا الماء «وإذا بالحق يحصحص»، وإذا بالكذاب يقع على الأرض ويظل ممدداً خامداً بلا قوة وبلا صوت على مدى عام طويل. وكان النائم، طالما استمر خموده، يظل مثل الذي حاق به نعاس سحري، بعيداً عن الغذاء الإلهي. يقول هيسودوس: «لن يقرب من شفثيه بعد ذلك أبداً لا النيكتر ولا الأمبروسيا»^(٥٩).

وهكذا نفهم على نحو أفضل الأهمية التي يكتسبها في «ثيوجونية» هيسودوس تقسيم أنصبة الغذاء بين البشر والآلهة، على النحو الذي قضى به پروميثيوس عندما أقام مناسك القران الأول. ولندكر هنا بالخطوط العريضة للقصة^(٦٠). كان الآلهة والبشر يعيشون في الأصل معاً ويجلسون إلى الولائم نفسها جميعاً. ولكن پروميثيوس تلقى مهمة تقسيم الأنصبة وتحديد ما يخص هؤلاء وما يخص أولئك. ودار بخلده أن ينتهز تلك الفرصة السانحة لكي يحط من شأن زيوس ويغشه من أجل صالح البشر. وهكذا قامت بين التيتان الماكر والملك الداهية معركة دها، وخديعة كانت أسلحة الطرفين فيها هي: الخديعة والغش. قسم پروميثيوس ثوراً ضخماً مذبوحاً في حضور الآلهة والبشر إلى نصيين كل منهما ينضوي على غش يتوارى تحت ظاهر خداع. أما النصيب الأول فكان يخفي تحت مظهر مفرٍ يثير الشهية إلى أبعد الحدود عظام الشور عارية من اللحم تماماً؛ وأما النصيب الثاني فكان يخفي تحت الجلد والكرش ومالا يؤكل من السقط كل قطع اللحم الجيدة. وفي لحظة الاختيار «يقضي العرف بأن» يتقدم السيد

قبل المسود، ويكون على زيوس أن يختار أولاً. ويتظاهر زيوس الأولمبي - «وقد فهم حيل التيتان پروميثيوس وعرف كيف يدرك مغزاها» (٦١) - بأنه وقع في اللعبة، ويقلب على البشر التدبير الماكر، ويوقعهم في الفخ الذي ظن پروميثيوس أنه أوقعه فيه. هذه القطع التي لا تؤكل - وهي العظام البيضاء سيكون على البشر منذ تلك اللحظة أن يحرقوها قرابين على الأتصاب للتقرب إلى الآلهة - ومعنى هذا أنها أصبحت بقراره هي في الواقع الجزء الوحيد الجيد حقاً من الذبيحة، «لأنه يقرب الإنسان من الآلهة». ثم يحتفظ البشر باللحم الذي يطهونه ويطعمونه ليعيدوا الحيوية إلى قواهم الخائرة، ولكن هذا الغذاء لن يكون إلا غذاءً «عابراً» «لا يحقق شعباً حقيقياً دائماً» مثل الثمرة التي قدمتها المويراي إلى توفون (توفويوس). ومن به حاجة إلى أن يشبع منه، ومن يجد لذة في هذا الطعام سيعرف جوعاً «بعد جوع»، جوعاً يتجدد بلا انقطاع، وسيعرف الاستهلاك الذي ينهك القوى، وسيذوق النصب والموت. أما الذي لا يتغذى إلا على دخان العظام والروائح والعطور فسيعرف من فوره ولائم الخلود وسيجلس إلى الموائد التي ينعم فيها بمذاق النيكتار والأمبروسيا.

هكذا نالت كل طائفة من الكائنات الحية الغذاء الذي يناسبها والذي تستحقه. نال البشر القانون لحم الحيوان المذبوح المطهو. ونال العمالقة وتوفون بدلاً من عقار الخلود الثمرة العابرة «التي لا تغني من جوع»، ونال كرونوس طعام الخديعة الذي كبله في أصفاد النوم. ونال الأولمبيون، حلفاء زيوس الذين أطلق سراحهم وحل قيودهم، النيكتار والأمبروسيا. أما زيوس، زيوس وحده، فنال هذا الغذاء الرباني الذي عرف بالدهاء كيف يبتلعه ويسيفه في جوهرة الخصى: ألا وهي الربة ميتيس التي هي عقار الذكاء والمكر الفائقين، عقار السيادة الملكية التي لا تبيد (٦٢).

القسم الثالث

عند أصول العالم

الباب الخامس

الدهاء الميتيسي الأورفي

وحبارة ثيتيس

من الصعوبة بمكان - كما لاحظ كيرن O. Kern ^(١) - ألا نتبين في شخص ميتيس وفي مشهد ابتلاع زيوس إياها، كما وردا في السير الثيوجونية الأورفيوسية التي تعرف بآثار الرابسوديين «الرابسودوس Rhapsôdos شاعر جوال من العصر القديم» (تميزا لها عن الصياغات الأخرى) الاستعارة السافرة من «ثيوجونية» هيسودوس. ولا يمكن أن يطلب طالب من الباحثين في إطار استقصاء عن الدهاء الميتيسي أن يفتحوا ملف الثيوجونيات «الأورفيوسية» بكماله وقامه. كل ما يصبون إليه هو أن يشددوا فقط على النقاط التي تمس المشكلة المطروحة مباشرة. هذه النقاط تبدو في رأينا داعمة لمذهب العلماء الذين مالوا إلى القول بأصالة تراث مبني، لا شك أنه كان هامشياً إذا قيس بتراث أكثر «عراقة» كتراث هيسودوس، واليوم - بعد اكتشاف ما جاء في بردية ديرفيني Derveni المكتوبة حول نهاية القرن الرابع قبل الميلاد من تفسير لثيوجونية أورفيوسية لا جدال في أنها أكثر قدماً ^(٢) - لم يعد ممكناً أن نرى أن تأليفاً مصطنعاً قامت به الأفلاطونية المحدثه المتأخرة دون رباط حقيقي بهؤلاء الأشخاص والبيئات الدينية التي وضعها الواضعون - منذ القرن السادس - تحت راية أورفيوس لكي يحققوا الانتشار لأحاديثهم المقدسة Hieroi Logoi .

وإذ يطلق اللاهوتيون الأورفيون اسم ميتيس (مع اسمين آخرين هما فانيس Phānes أي الباهر الذي يظهر ويظهر - وپروتوجونوس Protógonos أي المولود الأول) على الربة الكبيرة الأولانية التي بزغت من البيضة الكونية حاملة في ذاتها بذرة الآلهة جميعهم ^(٣)، وجرثومة الأشياء كلها، فأخرجت إلى النور - من حيث هي الوالدة الأولى ^(٤) - الكون كله في مساره المتتابع وفي تنوعه الواسع، فإنهم يختارون السير على درب «ثيوجونية» هيسودوس، تلك الثيوجونية التي جهلها هوميروس والتي لعبت فيها الربة ميتيس الدور الذي حاولنا أن نحدده.

ولكنهم في الحقيقة لا يلحقون أنفسهم بتراث هيسودوس إلا لكي ينفصلوا عنه، حتى بشددوا بوضوح أكثر - عن طريق بيان سمات التقارب والتشابه الظاهرة - على اختلافات التوجه بين أحاديثهم عن بزوغ العالم وحديث الشاعر البوئيسي هيسودوس عنه. ومن وراء الموازنة بين هذا السرد وذاك - وفيها نجد سلسلة أورانوس .. كرونوس .. زيوس ، وتكراراً لموضوع ابتلاع ميتيس - تقوم أركان لاهوت تكوين كوني جديد يختلف أعماق الاختلاف عن اللاهوت الذي تظاهروا بأنهم يتبعون نموذج.

ميتيس عند هيسودوس إلهة دورها بالضرورة دور تابع لا يمكن فهمه إلا بالقياس إلى إله ذكر تكون هي رفيقته، ومساعدته التي يحتاج إلى عونها، هذا الإله هو : زيوس، الأب والملك. وزيوس يحتاج إلى ميتيس حاجة ماسة، لا محيص عنها، ولكنه يحتاج إليها لهدف بعينه وهو أن يحقق بوجودها بجواره أولاً ثم بوجودها في داخله بعد ذلك، هيمنة خصيصة بملك الآلهة وحده، وهي هيمنة ظهر طوال نضاله أنه هو مدبر أمرها الحقيقي . وزيوس عندما يبتلع ميتيس في ختام الأساطير الميثية الشيجونية، يضع النقطة الأخيرة في مسار تطور افتراضه معاركه ضد قوي الاضطراب الأولانية، ويخرج شيئاً فشيئاً من الخاوس الأول عالماً منظماً، متميزاً، ذا طبقات هرمية، تحقق له الاستقرار منذ ذلك الحين.

أما عند الأورفيوسيين «أولئك الشعراء المجهولين المتأخرين الذين نسبوا إلى أورفيوس آثاراً ليست له» فلم تعد ميتيس كلمة مؤنثة تسمى بها ربة أنثى كما صورها هيسودوس. كان هذا الانحراف المقصود عن هيسودوس حرياً بأن يبدو من قبيل المفارقة، بل الاستفزاز، لأن كلمة ميتيس في الحس اللغوي الإغريقي اسم نكرة مؤنث الجنس. وهاهي ذي أصبحت «عند الأورفيوسيين» آلهة مزدوج الجنس، مزدوج الطبيعة، طبيعته مذكرة ومؤنثة diphués^(٥). ولكن هذا اللامعيز أو هذا الالتباس الجنسي له قيمة إيجابية تماماً: قيمة تتضمن أن ميتيس فانيس Mètis-Phanès (فانيس= الباهر) تتعالي بالتضاد بين المؤنث والمذكر، وهو تضاد عندما يفرض نفسه بعد ذلك يكتسب صفة تحديد لا يخلو منها الآلهة أنفسهم ، تحديد الانتماء إلى هذا الجنس دون الجنس الآخر. لم تعد ميتيس من حيث هي امرأة تابعة لزيوس ، بل أصبحت من حيث هي مزدوجة الجنس "هو" لا هي، في موقع أعلى أو على أية حال فيما وراء..

ومن هنا نفهم أن فصل الابتلاع يتضمن في هذا السياق الجديد، معنى مختلفاً كل الاختلاف. في الجيل الإلهي الخامس (وقد انتقل الصولجان من فانيس ميتيس Phanès-Mètis

إلى نوكتس Núx - أي الليل - قبل أن يصل عن طريق أورانوس ثم كرونوس إلى أيدي زيوس) يبتلع زيوس فانيس ميتيس ويبقيها في جوفه. ولكن الأمر في هذه المرة لم يعد أمر إله ملك شاب يقرر أن يسبغ في نفسه قوى شخصية ثانوية بهدف تجميد مسار الكون في الوضع الذي أحدثه انتصاره وحكمه الجديد. على العكس. فزيوس إذ يتطابق كله تماماً مع الإله الذي سبقه يرمي إلى أن يعود - وراء كرونوس وأورانوس - إلى الحالة الأولانية السابقة^(٦)، وأن يقفل في ذاته حلقة التكوين، وإذا كان كل شيء قد نشأ عن الواحد، فكل شيء يعود من جديد ليندمج فيه. على هذا النحو يمكن أن يجري «خلق آخر»^(٧)، يناظر الخلق الأول، خلق فانيس ميتيس، وهو خلق يكون فيه زيوس - «الذي هو بداية ووسط ونهاية» كل شيء، «والذي ولد الأول والآخر»^(٨) - سيد الكون، والمَلِك الأعلى على شاكلة زيوس في «ثيوجونية» هيسودوس، والوالد الأولاني - وهو ذكر وأنثى في آن واحد^(٩) الوالد الذي ولد كل شيء خاص ومؤجل، على شاكلة هذين الكيانين الأولين اللذين هما في «ثيوجونية» هيسودوس نفسها: الخاوس Khaos وجايا Gaia. هناك إذن ناحيتان، من الناحية الأولى: يتطور مسار القصة الثيوجونية عند هيسودوس تبعاً لمحور مستقيم من الاضطراب إلى النظام حتى يصل إلى قمة المنحنى فيتوقف بابتلاع زيوس لميتيس. من الناحية الأخرى: يرسم السرد عند الأورفيوسيين دائرة قوامها اتساع وتركيز متعاقبين، حيث لا يظهر الكل متحداً إلا من خلال عملية تفريق الأجزاء المنفصلة عبر المكان والزمان أولاً، ثم من خلال ابتلاع ميتيس فانيس بعد ذلك تجمع الأجزاء المنفصلة متكاملة معاً من جديد في داخل الكل. هذا الخلق الثاني الذي يربط زيوس بالوالد الأول فانيس ميتيس يهدف أساساً إلى أن يوجد هذا العالم الذي هو عالمنا والذي لم يعد يحكمه زيوس، بل أصبح ابنه هو الذي يحكمه، بعد أن نزل له عن العرش، وابنه هو ديونيسوس الأورفيوسي الذي يمثل هذا الجيل السادس والأخير من الآلهة الملوك، وعنه قال أفلاطون إن تواتر النشيد لن ينقطع إلا عند قدومه، أي أن صعوده إلى العرش يمثل في القصائد المنسوبة إلى أورفيوس نهاية العملية الثيوجونية «نهاية توالد الآلهة، ويبدأ توالد البشر»^(١٠). لماذا حل ديونيسوس هكذا محل زيوس؟ لم يكن الأمر بالنسبة إلى المتشيعين إلى الإله ديونيسيوس ينحصر في مجرد رغبتهم في إبدال الرب الأعلى الرسمي بسيدهم الجديد، ومواجهة زيوس بديونيسوس الذي سيكون على قدر منافسه نظيراً ومثيلاً له على مستوى القيم والمهام اللاهوتية. وديونيسوس الأورفيوسي - شأنه شأن أبيه زيوس ومن خلال أبيه شأنه شأن فانيس ميتيس المحبوس في جوفه^(١١) [والذي كان منذ الأصل يحتوي في ذاته زيوس وديونيسوس في آن واحد^(١٢)] - يمثل الوحدة الكاملة للعالم المتفرق

المبرقش المتنوع المتغير الذي أنيط به أن ييسط عليه سلطته في الجيل السادس. ولكنه هو الوحيد بين جميع الآلهة الإغريق الذي أدخل في حياته الخاصة كإله هذا التوازن التبادلي، هذا الذهاب والعودة من الواحد إلى المتعدد، ومن الذات إلى الآخر، من الكل المركز إلى التشتت، بل إنه يتبنى هذا التوازن التبادلي في معرض شغف يحيط بالبشر في حياتهم على نحو مباشر نظراً لأن هذا الشغف يؤسس ميثياً بؤس الوضع البشري ويفتح في الوقت نفسه على مستوى الشعائر السبيل أمام الخلاص. وبهذا المعنى يمكننا أن نقول إن الثيوجونية الأورفيوسية كلها كانت متوجهة نحو الأنتروپوجونيا < سيرة توالد البشر > التي كانت الـ «ثيوجونية» < سيرة توالد الآلهة > تمثل بالنسبة إليها ما يشبه التمهيد، والتي انتهت إليها نهائياً في الجيل السادس؛ عندئذ، وعندئذ فقط، يستطيع النشيد أن ينقطع. أما جثمان ديونيسوس المحرق الذي قطعه التيتان إرباً، ثم أعادوا تكوينه ابتداءً من القلب الذي حفظته معجزة، ففيه سجل مكتوب وتلخيص مدون يشمل العملية الثيوجونية السابقة كلها. ولكن هذه العملية تتخذ منذ ذلك الحين معنى إنسانياً خالصاً. ولا يقتصر الأمر على أن الجنس البشري المتولد عن رماد التيتان الذين حرقهم البرق يحمل وزر أو ما يوشك أن يكون ذنب البعثة الإجرامية للأعضاء الإلهية، بل إن البشر يستطيعون أن يتطهروا من خطيئتهم الأسلافية بممارسة الشعائر الأورفيوسية وأسلوب الحياة الأورفيوسية، وأن يرجعوا من خلال ديونيسوس إلى الوحدة المفقودة وأن يجدوا مرة أخرى حياة عصر ذهبي لا يضعه الأورفيوسيون - مستلهمين هنا أيضاً هيسودوس ليختلفوا عنه - في زمن كرونوس، بل في عصر فانيس ميتيس، أي في عصر الكل الأول و«الواحد» الأصلي.

وتحول زوجة زيوس الأولى إلى ربة قوية أولانية لا يترجم فقط في بيئة طائفية رغبة جدالية تجاه الميثولوجيا الشائعة. إن ترقية ميتيس، بانتزاعها من وضعها الأنثوي والصعود بها إلى قمة الهرم الرباني تستجيب لبعض السمات التي كانت من قبل مبينة بوضوح في ثيوجونية هيسودوس وكانت تقدر سلفاً لهذه الشخصية الميثية أن تلعب دور الوالد الأول في مبدأ العالم. فميتيس قوة مائية. سائلة، متعددة الأشكال، ذات خاصيات مخصبة ومربية مثل أخواتها الأوقيانيدات، شديدة القرب من أمها تيثيس - التي يذكر تراث قديم يضمه هوميروس - أنها بما هي والدة كل الأشياء *génésis pántesi* ولدت كل الأشياء، إلهية وبشرية. ولقد كانت موهبتها التحورية تجعلها قادرة على التعبير عن الدورة الكاملة لدائرة الأشكال، الأشكال المتضمنة سلفاً على نحو ما في الصورة الأولانية *archaia morphé* والراجعة في نهاية الدورة إلى أصلها الأول. ونذكر أخيراً - وبصفة خاصة - أن توافقات

ميتيس مع الحرص الأريب والتفكير الماكر كانت تسمح بإضفاء بُعدٍ من الذكاء وقيمةٍ من التمثيل المسبق على القوة الأولانية وتمكن على هذا النحو من تأدية معزوفة التكوين على مستوى كوني عقلي مزدوج: فميلاد الكون قوامه بزوغ شيء إلى النور كان في البداية متوارياً في ظلام الأول الوالد، في بطنه الأجوف؛ ولكن هذا النشوء يعرض على أنه عملية من المستوى الذهني، شبيهة بالعملية التي يقوم بها ذكاء عراك عندما يعي ويدبر ويجهز في رأسه مسار الأحداث القادمة حيث إن المستقبل يكون - ساعة التمثيل - قد تقرر سلفاً في ذهنه قبل أن يتحقق في الواقع الخارجي. وهنا تجد القدرة على الربط التي تملكها ميتيس حقل تطبيق جديد. ونحن نعرف أن الإغريق كانوا يعتقدون أن القدر الذي «يربط» البشر «تغزله» الميراي Moirai. كذلك القوة الأولانية، بما تتسم به من دهاء ميتيسي، ومكر عليم، تنسج وتضفر وتضم وتعقد الخيوط التي يصنع تداخلها نسيج المستقبل، إذ هي تربط في نسيج واحد - على النحو الذي يتم عليه تدبير الفخ - تتابع الأجيال والأحداث. أما إن هذا النموذج المتمثل في عملية نسج ذكية قد استخدمه الأورفيوسيون قبل العصر الهيلينستي بكثير، ليصفوا عملية التكوين، فهو أمر نجد الدليل عليه في ملحوظة سجلها أرسطوطاليس، حيث ذكر أن أبيات الشعر المنسوبة إلى أورفيوس جاء بها أن الكائن الحي يتم إنتاجه ginesthai tò zoion بنفس الكيفية التي يتم بها ضفر خيوط شبكة homoios ... tei tou diktúou plokai^(١٤).

وبردية ديرفيني Dervini تقدم شواهد قيمة تؤكد هذه النقطة. في العمود ١٤ من البردية يشرح المفسر بيتاً من القصيدة الأورفية ربما كان Moira epéklosen: (= مويرا غزلت) فيرى أن من الممكن، في اللغة الجارية، التعبير عن هذا المعنى بقولنا: «سيحدث ما غزلته مويرا». ويضيف: «أورفيوس أطلق على phrónesis (= الذكاء) اسم "مويرا" ... قبل أن يتم تعيين زيوس بالاسم، كانت مويرا أي ذكاء الرب موجودة، في كل زمان وفي كل مكان». وفي العمود ١٥ يستأنف التفسير: «عندما يقول قائل إن مويرا Moira غزلت فإنه يعني إن ذكاء زيوس قد حدد الأشياء الحاضرة والماضية والمستقبلية، كيف ينبغي أن تنشأ وتوجد وتفتنى». ونكاد نجد ما يفرينا بأن نقول مع ميركلباخ Merkelbach إن هناك قرابة بين الحرص (النجابة) phrónesis الفرونيسيس الذي يجده المفسر في القصيدة الأورفوسية والنويسيس nóesis الذي قال به ديوجينيس Diogenes الأبولوني أو النوس Noûs الذي قال به أناكساجوراس Anaxagoras^(١٥). وعلينا أن نضيف هنا أن مصطلح فرونيسيس phrónesis له قيمة أقل تجريداً، أقل في الذهنية والفلسفية الخالصة من النويسيس أو النوس، وإنه يعني حرصاً أريباً مميزاً للدهاء الميتيسي.

وفي العمود الرابع بالبردية ينصب التفسير على بيت شعري كان أورفيوس يتغنى فيه بزيوس إذ يخلق الأوقيانوس - المحيط - ذات التيار الواسع. هذه العملية الخلقية يعبر عنها بالفعل ميساتو mésato : زيوس «تَمَثَّل»، «وَعَى» قوة المحيط. فالتحقيق الخارجي «للأشياء» والإتشاء الديمورجي البنائي يَكُونان في البداية «فكرة» داخلية في عقل زيوس، ويحدد المفسر بدقة هذه القيمة médomai ميدوماي مشدداً على أن زيوس لا يُحدث موجوداً في الواقع لا يكون هو ذاته، أو يكون غريباً عن حرصه phrónesis : فقرة المحيط هي قوته هو. ونفس مصطلح ميساتو mésato الذي يرد أربع مرات في واحد من المجتثات المرتبطة بثيوجونية الرابسوديين والتي تتغنى بخلق ديميتير Déméter - ونميل أكثر إلى استخدام كلمة «اختراع» (بالفرنسية invention) - الأمبروسيا والنيكتار والعسل^(١٦). واللفظ نفسه هو الذي استخدم في مجتث آخر من المجموعة ذاتها للتعبير عن خلق فانيس ميتيس القمر : «تمثلت mésato رضاً أخرى يسميها الخالدون سيلينه seléné ويسميها أهل الأرض مينه méne^(١٧)»

وفي العمود ٢٠ من البردية إشارة على وجه التحديد إلى خلق القمر، أو على الأحرى - نظراً لأن الخالق في هذه المرة ليس فانيس ميتيس، ولكن زيوس - فالمقصود هو : إعادة خلق القمر. وبين المفسر أن العملية العقلية التي يقوم بها زيوس عندما يعي أو يخترع القمر، تستجيب لغائية لا تقل عقلية من وجهة نظر البشر. ففي ظلمة السماء الليلية «يُظهر» phainei القمر لأعين أولئك الذين يعرفون التفكير إشارة تعلمهم ما ينبغي عليهم عمله أو الكف عنه. فالقمر يعرف الفلاحين متى يزرعون والملاحين متى يبحرون. «فلو لم يوجد القمر، لما عرف الناس الحساب arithmón ولا الفصول ولا الرياح». فلما «تمثل» زيوس القمر كان يفكر سلفاً في الدهاء الميتيسي عند الفلاح الذي يعرف كيف يتتبع نظام فصول السنة، وعند الملاح الذي يستطيع أن يفك في النجوم شفرة اتجاه الرياح وطرق الملاحة التي سجلها فيها الذكاء الإلهي.

والمادة التوثيقية التي لدينا عن فانيس ميتيس Phanès-Mètis الأورفيوسية يعتمدها النقص أشد النقص، والتشتت أشد التشتت، مما يحول بيننا وبين تقديم تحليل مثل التحليل الذي قدمناه عن الميتيس «الدهاء الميتيسي» في ثيوجونية هيسودوس وفي تراث هيسودوس. ومن هنا فإن تناولنا موضوع فانيس ميتيس سيكون بالضرورة أقل مباشرة. ولهذا فقد اعتمدنا طريقة توضيح طويلة على نحو ما في المقارنة بهيسودوس، بيناها على

أساس الاختلاف، في سعيها إلى استخلاص السمات الخاصة للثيوجونية الأورفيوسية وبيان توجهها الخاص. ومن الممكن السير في هذا الطريق نفسه إلى أبعد من ذلك، لإلقاء الضوء من ناحية أخرى على الشخصية الميثية لفانيس ميتينس ووضعها ووظائفها.

ولقد أتاحت لنا الفرصة لتحقيق هذا الهدف بعد اكتشاف إ. لوبيل E. Lobel بردية نشرها في عام ١٩٥٧. هذا البردية عبارة عن تفسير على قصيدة كوسموجونية «عن نشأة الكون» كتبها ألقمان Aleman في اسبرطة في القرن السابع قبل الميلاد. تبين لنا هذه البردية منذ العصر العتيق الأرخائي كيف أن شاعراً قليل التخصص في اللاهوت مثل ألقمان - كنا نتصور شعره محصوراً في الموضوعات الخاصة بالغنائية الكورالية - كان قادراً على أن يتغنى برواية عن نشأة الكون تختلف اختلافاً شديداً عن رواية هيسودوس. ونلاحظ على ثيوجونية ألقمان التي نستخلصها من روايته هذه أنها لا تتسم بأي سمة أورفيوسية، بل تستخدم بعض النماذج الميثية التي قام الدليل هكذا على قدمها والتي ليست بلا علاقة بالنماذج الميثية التي تستخدمها الأحاديث المقدسة hieroi lógoi.

جعل ألقمان في ثيوجونيته في أصل العالم النيربادية «الحورية» ثيتيس Thétis، تلعب دورها مشتركة من ناحية مع پوروس Póros و تيكمور Tékmor، ومن الناحية الثانية مع سكوتوس Skótos^(١٨). فكيف نفسر هذا الدور - الذي يبدو لأول وهلة تناقضياً - هذا الدور الذي جعل ألقمان ثيتيس، أم أخيلليوس Akhilleus، تلعبه في نشأة الكون واشتراكها مع پوروس و تيكمور وسكوتوس؟

بالنسبة إلى الخطوط العريضة لمنظومة ألقمان نحن نقبل الاستنتاجات التي وصل إليها ويست M. L. West ولخصها في مقاله الأخير: في الأصل كانت هناك حالة لا شكل لها، لم يكن فيها شيء يمكن تمييزه^(١٩)؛ ثم كانت هناك ثيتيس التي يبدو أن عملها كان يتسم بسمة الخلق؛ ثم ظهر بعد ذلك پوروس و تيكمور في صحبة سكوتوس، وكان تيكمور على الأقل يعمل عمل مبدأ التمييز في الظلام؛ وبفضل پوروس و تيكمور تبع النور - نور النهار ونور النجوم الليلية - الليل البهيم، والحلقة المطبقة الشاملة^(٢٠).

وننحي جانباً مشكلة هامة لا يمكننا أن نعالجها في نطاق هذه الدراسة. فالمفسر الذي فسر ألقمان يقول ما نفهم منه أن ثيتيس تعمل عمل صانع المعادن^(٢١). ويمكننا أن نذكر في هذا المقام أن السماء كانت فعلاً بالنسبة إلى ألقمان كما كانت بالنسبة إلى هوميروس من البرونز. وكان ألقمان يجعل من أورانوس Ouranos ابن أكمون Akmôn السندال^(٢٢). ومن ناحية

أخرى نفهم أن هيفايستوس عندما اندفع هارياً من أعلى السماء (مثل السندان akmon البروتزي الذي ذكر هيسودوس أنه وقع من السماء على الأرض) ^(٢٣)، كانت ثيتيس هي التي تلقفته سراً في عمق البحر، وكانت هذه الربة البحرية هي التي تَلَقَّى لديها أصول صناعة المعادن، حيث تعلم تشكيل روائع المصنوعات الفنية daidala ^(٢٤). وجدير بالذكر أن الشياطين البحريين اتصلت بينهم وبين صناعة المعادن توافقات صحت بخاصة لدى شخصيات مثل التيلخينين Telchines ^(٢٥). وكانت ثيتيس نفسها تحمل كُنيةً يمكن أن تكون لها دلالتها في هذا المقام، ألا وهي Purrhaie ١١٢: أي الوهاجة التي احمرت وتوهجت في النار ^(٢٦). وأياً كان الأمر فقد قدم ويست M. L. West في دراسته الأخيرة أسانيد قوية جداً دعم بها الرأي الذي يؤكد أن القول بأن الربة ثيتيس تقوم مقام الأب الأول صانع المعادن الذي صنع السماء على طريقة الخالقيسوس khalkeús «المعدن، الحداد» ^(٢٧)، ليس قول القمان، بل قول المفسر.

وسواء قبلنا بهذا الحل أو بغيره من الحلول في شأن هذه المسألة، فهناك مشكلة قبلها تظل قائمة: كيف يمكننا أن نبرر صفة الربة العظيمة الأولانية التي تُخلع على ربة صغيرة جداً مثل ثيتيس، وفي وقت كانت لهذه الخورية البحرية النيريدية في اسبرطة أيام ألقمان معبدها وصنمها xóanon المستور الذي لم يكن لأحد سوى الكاهنة أن تراه ^(٢٨)، ولقد قبل جمهرة الباحثين ما ذهب إليه بورا Bowra ولويد جونز Lloyd Jones وهو أن ثيتيس إذ تظهر في ثيوجونية ألقمان فهي لا تظهر فيها على هيئة ربة بحرية وزوجة بيليوس التي نالها غصباً بأن طوقها بذراعيه تطويقاً دونه كل قيد وتمكن منها على الرغم من قدرتها على التحور، بل تظهر نتيجة لسبب آخر وهو أن اسمها "Thétis ثيتيس" أتاح للشاعر نوعاً من اللعب البديعي بلفظة "tithemi تيثيمي" (= صهر، صنع، أنشأ، أبداع الخ)، فتكون ثيتيس اسم فاعل «من الفعل: تيثيمي» يعني: تلك التي تصهر، وتدبر وتنشئ وتبداع. هذا التأويل يمكن أن يستند إلى شواهد من «الحاشية» على لوكوفرون Lycophron، أليكساندرا Alexandra، ٢٢، حيث توصف ثيتيس بأنها أيتيا إيوتيسياس aitia euthesias أي = سبب إبداع الكون، ومن الحاشية تاو T على الكتاب الأول من الإلياذة (٣٣٩): «يقولون إن ثيتيس هي إبداع وطبيعة كل شيء ten thésin kai phúsin tou pantós». ولكن هاتين الحاشيتين تتجاوزان ما يسعى الساعون إلى إثباته. فثيتيس لا توصف فقط بأنها تيسيس thésis (= المبدعة)، بل توصف بأنها طبيعة كل phúsis tou pantós؛ والحاشية على لوكوفرون أكثر صراحة: فهي

تصف ثيتيس Thétis he thálassa بأنها البحر وتحدد بدقة أن ثيتيس هي سبب الإبداع euthesia لأن العنصر السائل وهو أصل الكون عندما جمع وتكثف ظهرت الأرض اليابسة epháne he xerá فتحقق حسن نظام الكون eukosmia^(٢٩). فاللعب بالألفاظ حول ثيتيس ثابت بالشواهد، ولكنه يرد في إطار وصف لنشأة الكون يكون فيه البحر - ممثلاً في حورية الماء النيريدية - العنصر الأساسي.

والعجيب في الأمر أن البعض دهشوا للدور الذي أنيط بابنة نيربوس «ثيتيس». ولكن بين تيثوس - زوجة أوقيانوس التي قدمها هوميروس على أنها أصل كل شيء génesis pántesi - وبين ثيتيس - زوجة بيليوس - هناك من الروابط الوثيقة ما يجعل الجدة والحفيدة تبدوان كالبديلتين^(٣٠). ونحن نقرأ في «الميثوجرافيات الفاتيكانية» : Ophion, et secundum philosophos Okeanos, qui et Nereus, de maiore Thetide genuit caelum^(٣١). وثيتيس عند هوميروس تشارك جنية بحرية نيريدية أخرى تبرز مثلها من بين جوقة الربات البحريات المجهولات الاسم، هذه هي : يورونومي Eurynomè. ولقد استقبلت ثيتيس ويورونومي معاً هيفايستوس في أعماق الهاوية البحرية، في ما يشبه المابعد البعيد عن الآلهة والبشر جميعاً، استقبلتاه عندما اندفع هاوياً من أعالي السماء. ويورونومي هذه كانت تلعب في كوسموجونيات قريبة من كوسموجية فيريقوده السوري - Phérécyde de Sy-ros نفس دور الربة الأولانية الذي لعبته ثيتيس^(٣٢). اشتركت يورونومي مع أوفيونيوس Ophioneus أو أوفيون Ophion - وهو شيخ من شيوخ البحر يشبه پروتيوس أو نيربوس أو تريتون - وحكمت العالم مع زوجها قبل أن يخلق كرونوس وريا هذين الزوجين البحريين العتيقين ويسقطانها مدحورين من أعالي السماء إلى أعماق الأوقيانوس^(٣٣). وكان للربة يورونومي، بما هي ربة البحر الأولانية، معبدها في فيجاليا، معبدٌ موحدٌ مستورٌ مثل معبد ثيتيس في اسبرطة. ولم يكن هذا المعبد يفتح إلا مرة واحدة في العام: فيرى الرائي في ذلك اليوم الصنم القديم يمثل الربة، نصفها امرأة ونصفها سمكة، مغلولة في قيود من الذهب^(٣٤). فهي إذن ربة ذات قيود، تقيّد وتقيّد، مثلها مثل ثيتيس التي قيدتها ضمة بيليوس، ولكنها كانت متمكنة من القيود يشهد على ذلك ما جاء في الإلياذة من أنها هي التي خلصت زيوس من القيود بأن أخرجت برياروس من أعماق البحار، وكانت الآلهة كلها قد ثارت على زيوس وأجمعت أمرها على تكبيله^(٣٥).

وهناك ربة ثالثة تتوازي ميثولوجيتها مع ميثولوجية ثيتيس حتى إن الربتين تبدوان فيهما

كالبديلتين، تلك هي ميتيس. يقول كوك A. B. Cook: «كانت ميتيس، مثلها مثل ثيتيس قوة بحرية؛ وكانت ميتيس مثل ثيتيس متحورة؛ وكانت ميتيس مثل ثيتيس حبيبة زيوس؛ وكانت ميتيس مثل ثيتيس مقدراً عليها أن تحمل ابناً من شأنه أن يخلق أباه». (٣٦). ولقد شهدنا أن ميتيس في الثيوجونيات الأورفيوسية ترقت وبلغت مبلغ الربة الأولانية. ومن الأسباب التي أتاحت لهذه الربات البحريات أن تلعب عند أصل العالم هذا الدور الكوسموجوني هو قدرتهن على التحور (٣٧). كُنَّ على نحوٍ ما يحتوين مقدماً في داخلهن كل الأشكال التي يمكن أن تظهر على مرالضرورة، وكُنَّ تارة يخفيها وتارة يخرجنها إلى النور. هكذا نطالع في الثيوجونيات «الرابسودية»، أن زيوس، زيوس الماكر mérmeros، ما يكاد يبتلع ميتيس حتى يضم في داخله «النار والماء والتراب والأثير، والليل والنهار، وميتيس الوالد الأول genétor» (أو الوالدة الأولى genétis بحسب ما إذا كانت الربة تعتبر مذكرة أو مؤنثة) (٣٨). وعلى النحو نفسه تبتهل الأنشودات الأورفيوسية إلى نيريوس من حيث هو مبدأ كل الأشياء؛ وتدعو پروتيوس من حيث هو المولود الأول، الذي أظهر مبادي، كل طبيعة páses phúseos archàs hós éphenen، محوراً المادة المقدسة بحسب كل صنف الأشكال húlen allásson hierèn idéais polumórphais (٣٩). وبعد أن تنوه الأنشودة بالعلم الغيبي الذي أوتيهِ پروتيوس، فقد كان مثل ميتيس يعرف الماضي والحاضر والمستقبل، Pánta gàr Proteî próte phúsis egkatétheke تختم بالكلمات التالية: فالطبيعة الأولانية أبدعت في پروتيوس كل شيء، وهي عبارة تناظر تماماً ما ذهبت إليه الحاشية التي صورت ثيتيس على أنها طبيعة كل شيء وإبداع كل شيء، phúsis kai thésis toû pantós.

هذه النصوص نصوص متأخرة ما في ذلك شك، ومن الصعب أن نحدد أصل التراث الذي تنتسب إليه. والشيء الوحيد المتاح لنا هو أن نلاحظ غرة الواجهة ذات الصور المنحوتة تعلو الهيكتاتومبيدوم الذي يرجع إلى القرن السادس، وهي تصور صراع هيراقليس ضد تريتون، صراع البطل الذي طوق الوحش بنفس الضمة التطويقية التي أحاط بها بيليوس ثيتيس أو التي أحاط بها مينيلاس پروتيوس (٤٠)، ونرى الإله نيريوس يُخرج من الماء وجهه المثلث الملتحي وبشاهد في مكر المنظر كله. وشيخ البحر يمسك في كل يد من أياديه اليسرى رموز العناصر المختلفة التي تجمعها طبيعته التي تتحور على أشكال عديدة، وهذه العناصر هي: الماء والهواء والنار (٤١).

وترتبط هذه القدرة التحورية لدى شيخ البحر والربات البحريات بشكل خاص من الذكاء

قوامه المكر والدهاء والخداع، يعمل عمله عندما يجد الأشخاص أنفسهم - بدلاً من أن يبتدعوا الجواهر العتيقة - في قبضة موجودات صيرورة رجاجة ومتعددة ومباغثة. في هذا العالم من التغير الذي لا يتوقف يحتاج الشخص إلى عقل بانتوبوروس pantopóros واسع الخيل، خصب المخارج، قادر في كل موقف على أن يبتكر خطة مناسبة للظروف (mechos, mech- ané, boulé)، وأن يجد المخرج والحيلة من أجل الخلاص من المأزق كما يقول أريستوفانيس في «الفرسان»: أن تجد المخارج البارة من المواقف المستحيلة ek ton amechánon pórous eumechánous porizein^(٤٢). ولقد شدنا كذلك على أهمية كلمات بعينها في الحقل الدلالي للدهاء الميتيسي من قبيل: aiólos, poikilos, dólos, dólios, dolie téch- ne, kerdaléos, kórdos, skoliós, mechané المناورة، الاهتيال، الماحلة، الإيهام، الإغراء، الغواية. ولنذكر في هذا المقام أنه إذا كانت بعض الكوسموجونيات الأورفيوسية تضع كرونوس في موضع أصل العالم - وهو كرونوس صاحب الدهاء الميتيسي الباقي Chronos apthitómētis الذي يحتضن فيه كل شيء مثلما يبتدع الدهاء الميتيسي لدى الإنسان الداهية مسبقاً الفخاخ المحبوكة لبوقع فيها ضحاياه. ذلك هو الزمن الداهية الذي يتحدث عنه بنداروس في الأنشودة البرزخية الثامنة، الزمن الداهية الذي يقلب ويقلب طريق الحياة بلا انقطاع، تارة من هذه الناحية، ومن تلك الناحية تارة أخرى dólios aión... helisson biou póron^(٤٣).

ميتيس عند أفلاطون هي على وجه التحديد الدقيق أم پوروس Póros => المخرج، الطريق الذي اقترن بينيا Penia => القفر لينجب إيروس Éros => الحب^(٤٤). وليس من شك في أن أفلاطون يتندر، ولكن من حقنا تماماً أن نصدق أنه على سبيل السخرية تناول موضوعات ميثية أكثر قدماً. وأفلاطون لا يقدم إيروس على أنه إله theós، ثيوس، بالمعنى الأصيل، ولكن على أنه شيطان دايمون daimon، وسيط يهيمن على عالم الصيرورة، في منتصف الطريق بين الأشكال الدائمة والهيولي المجردة من كل شكل ومن كل تحديد. ورث إيروس عن ميتيس وپوروس عقلاً نبياً، دائم اليقظة، لا يصعب عليه إيجاد المخارج póroi لكي يجلب لنفسه porizein في عالم القفر penia - الذي غاص فيه - كل الثروات التي انجذب إليها، أعني: الأشكال، المعرفة، الجمال. فالقفر penia يمثل إذن على المستوى الميتافيزيقي قفر الشكل، الافتقار إلى الشكل، غياب التحديد. ولم يخطيء بلوتارخوس عندما ترجم بينيا => القفر penia بالهيولي أو المادة الخام^(٤٥). ولقد أصاب ويست M. L. West في ملاحظته أن وجود پوروس «الطريق، المخرج، وتيكمور tékmor (= الهدف،

الإشارة) في قصيدة ألقمان يفترض - قبل ظهورهما - أن تكون هناك حالة للمادة تتحدد سلبياً بوصفها *áporon kai atékmaron* بالافتقار إلى الطريق «پوروس *póros*» والهدف. الإشارة «تيكمور *tékmor*» بمعنى الپينيا القفر *penia*^(٤٦). هذه هي نفس الطريقة السلبية الاختزالية التي فهمت بها النصوص الأورفيوسية الأكثر تأخراً، فالظلمة العظمى «الميجا خاسما *méga chásma*» توصف بالسلب والاختزال بأنها الظلمة التي تفتقر إلى كل شيء *ástaton kai ápeiron kai aóriston* والتي هي بلا ثبات وبلا تحديد وبلا تمييز؛ وهي كذلك *adiakriton pánton ónton katà skotóessan omichlen*، حيث إن كل شيء -نتيجة غياب التمييز والتحديد - مضطرب مختلط في غيام حالك؛ إنها هوة بلا حدود وبلا قاع وبلا أساس *oudé ti peirar hupen, ou puthmén, oudé tis hédra*^(٤٧)، بينما نجد نيريوس في الأناشيد الأورفيوسية على هيئة المقابل الإيجابي في وجه هذا السلب والاختزال والافتقار، فهو قرار وقاع البحر وهو حدود الأرض وهو مبدأ كل الأشياء^(٤٨) *hédren... puthmen póntou, gaies péras, arche hapánton*.

هل اخترع أفلاطون العلاقات بين ميتيس وپوروس وإيروس اختراعاً كاملاً؟ كان إيروس يلعب من قبل دوراً في الكوسموجونيات التي يسخر منها أرسطوفانيس في مسرحية «الطيور»^(٤٩). عندما نجم من البيضة الكونية التي وُضعت في حضن إيريبوس *Erébos* «الظلمات الكونية الصفيقة» التي لا حد لها *Erébos d'en apeirosi kólpois*، أتى بالنور على جناحيه الذهبيين الشبيهين بالإعصارين فظهر للأبصار كل ما كان من قبل مهوشاً غير متميز. وعلى النحو نفسه تدعو الأنشودة الأورفية إلى پروتوجونوس *Protógonos* تحت اسم فانيس ذلك الذي «بدد الظلمة الحالكة» *skotóessan homichlen* والذي أتى بالنور الباهر *lampròn pháos* على جناحيه^(٥٠). صحيح أن أرسطوفانيس لا يتكلم عن ميتيس ولا عن پوروس. ولكن ميتيس كانت عند هيسودوس شخصية مكتملة التشخيص. وكان لها عنده وضع ربة حقيقية وهامة يحدث المحدثون أخبار مغامراتها. وإذا كان زيوس اتخذها زوجة أولى، وكان زواجه تكريساً لانتصاره في معارك السيادة الملكية، وإذا كان ابتلعها ليضمن لحكمه دواماً خالداً، فإنما كان السبب في ذلك هو أن ميتيس كانت «تعرف من الأشياء أكثر مما يعرف أي رب أو أي إنسان فان» وأنها ستتيح لزيوس، عندما تكون في داخل جوفه، أن «يعرف مقدماً ما سيصيبه من يسر أو عسر»^(٥١) أي يعرف مقدماً كل صروف الصيرورة. ولسنا نجد عند ألقمان في نصنا أن پوروس له شخصية مشخصة فحسب، ولكنه مفهوم على أنه إله أولاتي، لأننا نجده في قصيدة ثانية پارثينيون *Partheneion* اللوفر يكون ثنائية مع

أيسا Aîsa ، «أيسا = القدر» ، تحت اسم جيرايئاتوي geraitatoi أي = أقدم الآلهة (٥٢) . ويمكننا من ناحية أخرى أن نستنتج من مجتث لپارمينيديس أن أفلاطون لم يكن عليه أن يخترع العلاقة بين ميتيس إيروس. فپارمينيديس عندما يترك وصف مجال الوجود ليتناول مجال الصيرورة، يصور في المشهد ربةً أنثى كبيرة كان يمكن أن تطلق عليها أسماء مختلفة: ديكى، أنانكى، أفروديتى Dikè, Anankè, Aphrodite. هذا الشيطان daimon الذي يحكم العالم المتعدد والمتغير - حيث يتعارض النور والظلمة تعارض الند للند - ينبج إيروس فيكون هو أول وأقدم الآلهة. ولكن اللفظة التي تدل على إجاب إيروس القديم تكشف في الربة الكبيرة عن ربة ذات دهاء ميتيسى. ويكتب پارمينيديس Parmenidês: «وحملت» إيروس أول الآلهة قاطبة protiston mèn Érota theon metisato pánton (٥٣) . وشبيه بالفعل ميدوماي medomai الذي نبهنا إلى استخدام الأورفيوسيين إياه (وهذا الشبه والتوازي له دلالة) نجد هنا الفعل ميتيوماي metiomai الذي يتضمن نوعاً من الخلق، عملية عقلية، عملية ذكاء. (أكثر منه عملية ولادة تقوم بها الربة الأم) خصيصة بشيطان دايموني أرب يحكم العالم kubernaî ممسكا بالدفة فيرسم له مقدماً طريقه مثل الريان الذي يوجه السفينة في البحر.

هذه المقارنة بين الصانع الإلهي وبين الريان لها ما يبررها حيث إن حركات النجوم والشمس التي ينتظم عليها مسار الصيرورة ، ترسم في السماء دروباً وسبلاً ومسالك hodoi, ké-leuthoi, póroi ، وهي طرق مرئية تحدد مختلف مناطق الفضاء ، وهي أيضاً طرق أو بوابات البحر póroi halós حيث إن النجوم تبرز من المياه عند ظهورها وتعود فتفوص فيها من جديد (٥٤) ، والشمس بخاصة تبدأ كل يوم رحلتها الملاحية الليلية من خلال نهر أوقيانوس. هذه الرحلة الملاحية تعبر عنها الأفعال diapléo, peraino, poreúo أو تعبيرات مثل ذلك الذي استخدمه إيسخيلوس في مجتث «بنات الشمس» الذي استشهد به أثيناىوس "Diabállei polùm oidmatóenta peridromon póron" أي يجتاز التيار الدائري بأمواجه العارمة (٥٥) . وطبقاً لرواية ذكرها ديودورس الصقلي يكون أونوبيديس Oinopidês قد تعلم معارف تلقاها من الكهنة المصرية من بينها أن الشمس لها «مجراها» المائل loxen échei ten poreian (٥٦) . وقصيدة الأرجونوتية «ملاحو سفينة أرجو» «أرجوناوتيكاً Argonautika المنحولة إلى أورفيوس تتحدث أيضاً عن نجم ساطع ينطلق من خلال «دروب» الهواء (٥٧) ؛ كما تتحدث عن العراف الذي تعلم «طرق» النجوم-àstron pa-reias (٥٨) مثل أنكيوس Ankaeus الذي سيحل محل الملاح تيفوس Typhos على دفة

السفينة "أرجو" والذي يستطيع أن يوجه مسارها لأنه يعرف *poreias ouranias ástron* (٥٩) أي يعرف الطرق السماوية للنجوم. وأراتوس Aratos يحدد بدقة الاسم الذي أطلق على ثريا «نجوم» پلياديس Pléiádes فيقول الاسم هو هيبثاپوروي Heptáporoi أي "الدروب السبعة" ويذكر أثينايس أنها Heptáporoi tekmaírontai tà peri ten zoen hoi ánthropoi «الدروب السبعة التي يستخلص منها الناس إشارات عن حياتهم» - عن طريق حياتهم póros biou.

بل ربما كان من الممكن إن نحدد مكان ومعنى هذه الدروب السبعة poroi التي هي أهداف وإشارات tékmar للناس. ففي أقصى الأفق البحري، حيث تبدو القبة السماوية كأنها ترتكن على سطح المياه وحيث كان الإغريق يرسمون المجرى الدائري لنهر أوقيانوس، هناك ترسم الهيبثاپوروي دروب پلياديس السبعة Heptáporoi - وهي تتجاوز المضائق المؤدية من أعماق البحر إلى السماء - المسالك التي تصل مكان البشر ومكان الآلهة بعضهم البعض. و«نجوم» پلياديس كما يؤكد أراتوس «مشهورة باسم الدروب السبعة الهيبثاپوروي Heptáporoi على الرغم من أنها ستة دروب فقط تبدو للأعين. ولا يرجع هذا إلى أن نجماً منها - إلى أبعد ما تحفظ ذاكرة البشر - تلاشى من السماء. ولكن هكذا يحكون الحكاية. وهكذا يسمون سبعة باسم مميز.» ولدى بعض الشعراء، وبخاصة سيمونيدس وپنداروس، تتسمى پلياديس Pléiádes پليثاي Péleiai أو پليثياديس Peleíádes، وهي "حمام" السماء التي تهرب فراراً من أوريون Orion الصياد المتوحش. وننقل عن موثيرو Moirô البيزنطي واللغوي قراطيس Kratès، أن أثينايس لاحظ أن هذه الحمام السماوية مكلفة بمهمة تتمثل في إحضار الأمبروسيا لزئوس، والأمبروسيا هي شراب الخلود الذي يغترف من مياه نهر أوقيانوس، عند منتهى العالم الأرضي، على حدود البحر والسماء. وهكذا نجد تفسير العبارة اللغزية التي قالها هوميروس عندما وصف في الأوديسا البلاجكتاي Plagktai أي الصخور «الرجراجة» التي تمثل المضيق الذي لا يمكن لسفينة بشرية عبوره. حتى الطيور - على حد تعبير هوميروس الدقيق - لا يمكنها عبوره «حتى الحمام pé-leiai الخوافة التي تذهب إلى زئوس الأب بالأمبروسيا. ولكن الصخرة الناعمة تأخذ في كل مرة إحداها ويكون على زئوس أن يقدم بديلاً لها حتى يكتمل العدد.» (٦١). تجري الأمور كلها إذن كما لو كانت واحدة من الحمام السماوية تضيع كل يوم، وهو ما يعني - كما عبر أراتوس Aratos بتعبير آخر - أن الناظر لا يمكنه أن يرى إلا ستة؛ ولكنها على الرغم من ذلك تسمى الدروب السبعة لأن زئوس لا يريد لعددها أن ينقص. وپلياديس بنات أطلس Atlas؛

ولهذا فلنا أن نفترض أن الصخرة الناعمة lis pétre عند هوميروس، تلك التي ينبغي عليها أن تعبر من فوق قممتها، هي «عمود من أعمدة السماء التي يعتبر أطلس رمزها، عمود يفصل بين الأعلى والأسفل، بين السماء والبحر، مهبطاً بينهما هذا المضيق الذي تسلكه الپلياديس كل يوم عندما تنطلق في السماء لترسم طرُقها póroi.

من حقنا إذن أن ننسب إلى پوروس Póros المشخّص في شعر ألكمان Alkman دوراً مناظراً للدور الذي أقر الشراح عموماً بأنه أنيط بتيكمور Tékmor. پوروس يدس في ظلمة skótos السماء والمياه المختلطة أصلاً دروباً متميزة تُظهر للأعين على القبة السماوية وعلى البحر اتجاهات المكان المختلفة، فتوجّه امتداداً كان من قبل خالياً من كل خط ومن كل علامة هادية áporon kai atékmarton (٦٣).

هذا التناسق الوظيفي بين پوروس Póros والتيكمور Tékmor اللذين يرافقان ثنائياً الرية البحرية ثيتيس، نفهمه على نحو أفضل إذا نحن أخذنا في حسابنا اشتراكهما في مفردات الملاحة التي ينتمي فيها فن الريان وبالتحديد دهاء الريان الميتيسي (٦٤) إلى التنبؤ وعلم النجوم في آن واحد: فالريان إذ يسعى إلى تحديد مساره على الامتداد غير المتمايز للبحر يكون عليه أن يخمنه اعتماداً على الإشارات التي تعرفه الآلهة بها، وبخاصة مسار النجوم في السماء الليلية. وهيسوخوس Hésychius و«موسوعة» "السودا" Souda > حرفياً «الحصن» موسوعة ضخمة بالإغريقية مجهولة المؤلف (٦٥) يقدمان إلينا تعبيراً بجري مجرى الأمثال ونقرأ عنه تحديداً أنه مأخوذ أصلاً من لغة الملاحة: ástrois tekmairesthai أي <= ينجم > يخمن اعتماداً على النجوم، ويستخدم هذا التعبير في شأن أولئك الذين يقومون برحلة (أو رحلة بحرية) متبعين مساراً طويلاً ومنفرداً - epi ton makrán kai eremen hodòn po-reuoménon. هكذا كان الأرجونوتية بحارة سفينة أرجو Argo يجتهدون في تخمين موضع المضايق pórous t'apetekmaironto لكي يخرجوا من مياه المستنقعات الضحلة التي تاهوا فيها، ولكنهم إذ أعوزهم دهاء ميتيسي مناسب oútina metin échon وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التخبط عمياناً (٦٦). وكما أن الملاحين يخمنون tekmairesthai طريقهم اعتماداً على إشارات مختلفة، كذلك الآلهة والعرافون يعرفونهم طريقهم tekmairesthai بأن يحددوا مقدماً الاتجاهات والإشارات والعلامات الهادية. وإذا كان فايتون Phaéton - على حد قول المؤلف المجهول Peri apiston - قد بين للشمس طريقها tòu heliou drómon etekmétrato (٦٧)، كذلك كان الملاح تيفوس بدوره قادراً على أن يوجه رحلة سفينة

"أرجو" مسترشداً بالشمس والنجوم tekmairesthai plóon eelíoi te kai astéri^(٦٨). وأوليسيس يحكي لرفاقه في الأوديسا أن كيركي Kirké حددت لهم طريقاً مختلفة álén hodón tekmeríato^(٦٩). وتوجيه الربة الملاحين إلى الاتجاه الذي ينبغي عليهم اتباعه يعني ضمناً بدهة أن حددت لهم علامات دقيقة تدل على الطريق. وفي فقرة أخرى، عندما أصدر كاليبسو أمره بالملاحة، جاعلاً الدب على يساره، أمسك أوليسيس Kalypso يد الدفة يوجهها pontoporeuéménai دون أن ينصرف بعينه عن السماء الليلية^(٧٠). هكذا تبعت طريق السفينة طريق النجوم، هذه النجوم التي هي كما يقول أوربيديس عن sema kunós في مسرحية "هيكابي" Hékabê أي علامة ملاحة هادية nautilois tékmar، علامة تتبع للملاحين أن يحددوا طريقهم^(٧١).

أما المعنى الكوسمولوجي الذي يمكن أن تكتسبه كلمة مثل تيكمار tékmar مرتبطة بمفهوم الطرق السماوية والبحرية، فيبدو واضحاً في قصيدة الأرجونوتية - بحارة سفينة أرجو Argo لأبولونيوس. عند قيام السفينة بنشد أورفيوس نشيداً، هذا النشيد يتحدث عن مولد العالم، وينوه برحلة ملاحي الأرجو - الأرجونوتيكا - الذين يقومون لأول مرة بفتح طرق البحر ويتحدد «نهائي» أبدي لمضايقه، ويضفي على هذه الرحلة البحرية بعداً كوسمولوجياً تؤكد - كما سنرى - فقرة الكاتولاس katoulás التي تنتهي بها هذه الرحلة البحرية. يتغنى أورفيوس في نشيده بأصل الكون: كانت الأرض والبحر والسماء في البداية مختلطة مضطربة في شكل واحد يفتقر إلى التمايز، ثم انفصلت بعضها عن البعض الآخر تحت تأثير الصراع Neikos ؛ حينذاك كونت النجوم وطرق القمر والشمس في السماء عند الخروج من الخاوس الأولاتي العلامة التي تحدت إلى الأبد-ed' hos émpedon aièn en aithéri tékmar éch-ousin ástra selennaies te kai kéleuthoi^(٧٢).

يبدو أن پوروس وتيكمور كان عليهما مجتمعين دور يتمثل في تبديد الظلمة الشاملة التي سادت في ليل المياه الأولانية وذلك بفتح الطرق التي من خلالها تستطيع الشمس في سيرها أن تُحضر نور النهار، وتستطيع النجوم أن ترسم في السماء الليلية الطرق المنيرة للأبراج. وإذا كان ألقمان قد اختار أن يشخص هذين المبدأين ليجعل منهما شريكي ثيتيس - ويفضلهما على ما عندهما، مثل "هودوس" hodós و"سيما" sema، فلا بد أن السبب في ذلك أن قيمتهما الدلالية الأكثر ثراءً وتشابكاً كانت أصلح للعبة الخيال الميثي. فلفظة پوروس لا تعني فقط - بالمعنى الملموس إلى أبعد حد - طريقاً، ممراً، معبراً، مخاضة^(٧٣)؛ وكذلك

لفظة تيكمور لا تعني فقط علامة مميزة، مؤشر، إشارة. بل للفظتين معنى عقلي واضح بالنسبة إلى بوروس في علاقته بالدهاء المييتيسي: إنه التدبير، المخرج الذي يكتشفه مكر كائن ذكي ليخرج من مأزق *aporia*. ونحن نرى في مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس أن بوروس مرتبطة بالتبخني *téchne* أي «التقنية» الحيلة. فالتيتان پروميثيوس منع البشر الحيلة حتى يجدوا الطرق *téchnas te kai pórous*؛ والنار «التي منحها» البشر توصف بأنها سيدة كل الحيل وكل الطرق العظيمة *didáskalos téchnes páses kai mégas* *póros*^(٧٤). كذلك تيكمار *tékmar* في بعض استخداماتها - كما لاحظ فرينكل *Fraenkel* بحق - لها نفس المعاني الضمنية النفسانية، فنجدها مرادفة لكلمة *mechos* أي تدبير ودواء لموقف عسير^(٧٥). ونفهم هكذا أن ثيتيس - وهي ربة بحرية أوتيت نفس غط الذكاء الداهية والعقل الخصب الغني بالحيل الذي أوتيته مييتيس أو شيوخ البحر - تجذب بمجرد حضورها ومنذ أن تظهر: بوروس و تيكمور. ونص برديتنا (1. 15-16) يذكر: ما إن ظهرت ثيتيس، حتى ظهر مبدأ كل شيء. ومنتهاه جميعاً *tes Thétidos genoménes arche kai télos háma* *pánton egéneto*؛ وذكر المفسر أن لفظ "أرخي" *arche* الذي ورد بالنص هو بوروس، وتيلوس *télos* هو تيكمور، وأن ثيتيس لعبت دور تخنييتيس *technites* أي دور "صانع". ويست *M. L. West* يقيناً على حق عندما يؤكد أن ألقمان *Alkman* لم تكن لديه قط القدرة على أن يقول «من عندياته» شيئاً من هذا القبيل. ولكن المفسر هو الذي لصق على نص الشاعر ألقمان مفردات أرسطوطاليسية. ولكن ربما كان النص مهياً لمعنى عكسي من هذا النوع حيث إن ثيتيس وردت فيه وقد أوتيت علماً، حكمة *sophia* بالمعنى الأرخائي للفظ، أو حيلة *téchne* من قبيل الماحلة *doilie téchne* التي اصطنعها پروتيوس والتي تتحدث عنها «الأوديسا»^(٧٦) وهي عبارة عن قدرته على التحور ومعرفته بكل هاوية وكل طريق من طرق البحر، لدى ذلك الذي قالت عنه الأناشيد الأورفيوسية إنه يمسك مفاتيح البحر *kleidas póntou*^(٧٧). ويصح أن نستعيد الخطوط العريضة لمغامرة مينيلاس: نسمع أن الآلهة قيدت طريقه بأن غلت الرياح؛ وظل مينيلاس أسيراً في جزيرته لا يستطيع أن يركب البحر مرة أخرى^(٧٨)؛ ونطالع في موضعين أنه لم يستطع أن يجد علامة *tékmar* ليخرج من هذا المأزق *aporia*، أي لم يصل إلى تدبير للخلاص مما حاق به وفي الوقت نفسه لم يصل إلى إشارة إلى الطريق التي يتبعها، إشارة تتيح له أن يستدل على مساره فوق الامتداد غير المتمايز من المياه^(٧٩). هنالك تدخلت أيدوثيا *Eidothea*، ونصحته بأن «يقيد» أباه^(٨٠)؛ وإذا كان مينيلاس قد تمكن منه واستمر في ضمه على الرغم من ماحلته، فسيكون على الإله

البحري أن يقول له، دون موارد منذ تلك اللحظة فصاعداً، ودون غموض atrekéos (٨١) «عن الطريق، وعن نقاط الاهتداء التي يقاس بها الطريق ذهاباً وإياباً hodòn kai métra keleúthou nóstón th' (٨٢)».

ويمكننا إذن أن نفهم أن پوروس يمكن أن يصور على أنه الأرخي arché، تيكمور على أنه تيلوس télos. پوروس هو المسيرة، هو العبور؛ تيكمور هو الهدف، هو المنتهى. هكذا في الإلياذة (٨٣)، پوسايدون يُمخر عباب البحر الذي ينفّث أمامه ليتيح له العبور؛ الرب يخطو ثلاث خطوات؛ وفي الخطوة الرابعة يبلغ الهدف hiketo tékmor الذي سعى إليه. وتيكمور مهياً للاشتراك مع ثيتيس على نحو خاص حيث إن الكلمة تنتمي إلى مفردات العرافة كما ينتمي إلى مفردات الفلك والملاحة البحرية، كما أنها تطلق على ظاهرة إشارة القضاء الإلهي boulé، وهي إشارة تكون واضحة للتعبير عن حكم وعن أن هذا الحكم مبرم لا راد له. فقد أعطى زيوس إشارة بجبهته عبر بها عن استجابته لرجاء ثيتيس وكانت هذه الإشارة قضاءً إلهياً مبرماً mégiston tékmor (٨٤). كذلك يتحدث موزيوس عن الإشارة من حيث هي الإشارة الإلهية tékmar enargés التي تبين بها الآلهة للبشر الفانين كيف يفرقون بين الخير والشر (٨٥).

ولقد اتخذ پوروس - أكثر من تيكمور - مكاناً إلى جانب الربة البحرية الأولانية ثيتيس لكي يعبر عن العبور من الامتداد البحري الخاوسي إلى مكان موصوف ومنظم. وتتيح لنا دراسات بوخهولتز Bucholz وليسكي Lesky وبينفنيست Benveniste (٨٦) أن نحدد بدقة العلاقات بين پوروس Póros وپونتوس Póntos في الفكر الإغريقي الأرخي العتيق وفيما يمكن أن نسميه التجربة الدينية التي استمدتها الإغريق من الملاحة البحرية والبحر. ولفظ پونتوس Póntos - على عكس الكلمات الأخرى الدالة على البحر thálassa, pélagos, kûma - يعني البحر البعيد، يعني المجهول في البحر البعيد، يعني الفضاء البحري «البعيد عن البر» والذي لا يرى منه الناظر الساحل، وحيث لا يبدو لمطلع سوى السماء والماء يختلطان في الليالي الخالية من النجوم أو الفارقة في غمام العواصف فيتشكلان على شكل كتلة واحدة حالكة، غير مميزة، بلا نقاط اهتداء تدل على الطريق. وپونتوس، بما هو أبو نيريوس وجدّ ثيتيس، يناسب الحال من حيث تضاده مع صفحة الماء، ومع قاع البحر، الذي تصوّره هاوية laítma تخيم عليها نفس الظلمة التي تخيم على التارتاروس الغائم (٨٧). وقد بين ليسكي Lesky أن الأصل اللغوي لكلمة پونتوس Póntos يحدده معناها على أنه «الطريق

المستهدف». ثم بين بينثينيست Benveniste أن پونتوس تقابل الكلمة الفيدية «التي جاءت في الفيدات الهندية» pánthâh والتي تعني - على عكس الألفاظ الدالة على الطرق المرسومة، المحددة، والدروب الممهدة - الطريق من حيث هو لم يرسم مسبقاً، الطريق من حيث هو العبور الذي يحاوله البعض من خلال منطقة مجهولة نكراء، والطريق الذي ينبغي فتحه في موضع ليس به ولا يمكن أن يكون به طريق بالمعنى الخصب. وبهذا المعنى فالپونتوس Póntos هو بحر لا يمكن اجتيازه áporon pélagos^(٨٨) أو على الأقل هذه الهاوية البحرية التي لا يسهل اجتيازها ábusson pélagos ou mál eúporon والتي ينو بها إيسخيلوس في «الضارعات»^(٨٩). وإذا كانت سفينة أرجو هي سفينة پونتوپوروس pontopóros neûs، وإذا كانت أخت ثيتيس - وهي نيريدية - تحمل اسم پونتوپوريا Pontopóreia^(٩٠)، فإن السبب في ذلك هو أن كل إبحار في أعالي البحار، من حيث هو عبور للپونتوس يمثل مغامرة تتجدد في كل مرة، واستكشافاً في مكان بكر، لم يمسه بشر من قبل، وليس فيه أدنى أثر بشري، وطريقاً póros ينبغي فتحه وإعادة رسمه مجدداً المرة تلو المرة بلا انقطاع فوق الامتداد السائل كأنما لم يكن هناك من قبل قط طريق قد رسم.

وبهذا المعنى يكون هناك في فكر الإغريق الميثي مكان يناظر الامتداد البحري. فهذا هو هيسودوس يحكي أننا إذا أسقطنا من أعالي السماء سندانا أو رجماً ákmon فإنه يبلغ الأرض بعد تسعة أيام، وهو يقطع المسافة من الأرض إلى التارتاروس في نفس الفترة من الزمن. أما إذا قذف به إلى جوف التارتاروس فإنه لن يبلغ قاعه ولا بعد سنة، بل يظل هائماً ضالاً لا يبلغ نهاية^(٩١). وليس من الممكن اجتياز التارتاروس لأنه ليس به اتجاه ثابت أو محدد. بل هو ظلمة غائمة، هو كتلة حالكة لا فوق لها ولا تحت، لا يمين لها ولا شمال، هو مكان بلا اتجاه. ويعبر هيسودوس عن غياب الاتجاه تعبيراً تصويرياً فيقول إن التارتاروس تغشاه الزوابع thúellai التي تهب هنا وهناك éntha kai éntha، تارة في هذا الاتجاه، وتارة أخرى في ذلك، زوابع مستمرة تمزج وتخلط كل اتجاهات المكان في ليلة ليلاء شبيهة بليلة الخاوس الأولاني^(٩٢).

والپونتوس Pòntos «البحر» كان من الممكن أن يظل شبيهاً بالتارتاروس الذي حكى عنه هيسودوس والذي كان هو نفسه صورة من الخاوس^(٩٣)، لو لم تجلب ثيتيس معها پوروس Póros وتيكمور Tékmor. إذا كانت هناك سفينة بأعالي البحر في الليل، على بعد لا يرى الناظر منه أرضاً تلوح للبصر في الأفق، فالمكان البحري لا يفتقر إلى اتجاه وانتظام. بل هو

يشتمل على اتجاهات ثابتة، أولاً لأن حركات النجوم المنتظمة في السماء تمثل إشارات مضيئة يستخدمها الملاحون علامات هادية؛ وثانياً لأن بعض الرياح، وهي الرياح المنتظمة، رياح الزفيروس Zephyrus والبورياس Boreas والنوتوس Notos التي تهب دائماً في نفس الأوقات، وفي نفس الاتجاهات، ترسم طرقاً تكتنف المكان البحري. هذه الرياح هي التي تحمل السفن من ساحل إلى الساحل المقابل، في اتجاه محدد، فوق ظهر البحر الفسيح، «مثل تيار النهر»^(٩٤). وكتاب الرياح Peri anemon يشدد على أن بعض الرياح خصصت لهذا النوع أو ذاك من العبور؛ فهي تربط الأجزاء المختلفة من العالم الإغريقي فيما بينها وبحسب مسارات محددة. عندما أرادت أثينة - كما جاء في الأوديسا^(٩٥) - أن تنقذ أوليسيس، فرضت النوم على الرياح؛ وكبلت طرق الرياح الأخرى ton állon anémon keleúthous إلا ربح بورياس التي رسمت وحدها الطريق póros الوحيد. أما عبارة أپوروس أنيموس áporos ánemos «مأزق الريح» فهي تعني إما ريحاً عنيفة عنفاً يحول دون الإفادة منها أو التصدي لها، وإما غياباً الريح غياباً كاملاً كذلك الذي عرفه الإغريق في «ميناء» أوليس، فوضعهم في وضع استحالت فيه الملاحة استحالة كاملة en aporiai toû ploû pollêi^(٩٦).

وعلى النقيض من هذه الرياح المنتظمة التي توجه بمسارها المكان البحري وتسمح بعبوره، هناك الرياح العاصفة التي يصفها هيسودوس مستخدماً نفس العبارات التي وصف بها زوابع thúellai التارتاروس؛ فهي رياح تباغت فجأة، وتهب مذهلة، وتتدافع حسبما اتفق هنا وهناك، من كل الجوانب دفعة واحدة، خالطة في زوابعها المضطربة كل اتجاهات المكان^(٩٧). والرياح المنتظمة مصدرها رباني؛ يقول هيسودوس عنها إنها بنات «أبناء» إيوس Eós وأسترايتوس Astraïos^(٩٨). إيوس هو نور النهار عندما يبرز الفجر من أبواب البحر في نقطة «علامة» الشرق، حيث تنطلق الشمس من المحيط إلى السماء؛ وأسترايتوس هو نور الليل الذي يحل بلألاء النجوم عندما تغوص الشمس من جديد، وقد تمت مسيرتها، في النقطة التي هي «علامة» الغرب. هذه الرياح هي الإخوة الكبار لنجمة الصباح وكل النجوم المنيرة. ويشدد أراتوس Aratos في «كتابه» «الظواهر» Phainomena على القرابة بين الرياح والنجوم؛ فاتجاه الرياح ينضبط بناءً على حركات النجوم^(٩٩). إن طرقهم المتوافقة هي التي تحدد الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتوجه مكاناً لولاها لبقى بلا شكل وبلا تمييز^(١٠٠).

والرياح المضطربة المختلطة ليست رباتية الأصل؛ فليس لها علاقة بالنجوم المضيئة، ولكن علاقتها تتصل بمجال الليل^(١٠١). فهي قد انطلقت من جثة توفون التي ألقاها زيوس في التارتاروس. والرأي عند فيريقوديس Phérécyde أن الزوابع thúellai مثل أبناء بوربوس والهاربيين مجالها moîra التارتاروس^(١٠٢). والرياح، قياساً على بعض الروايات، تخرج من فوهات الجحيم السماء bóthroi^(١٠٣)؛ وهي، قياساً على روايات أخرى، تولد في أعالي البحر في ذلك المكان الغائم في الامتداد الفسيح الذي يصفه بعض المؤلفين بأنه تارتاروس الهاوية «هاوية البحر» Khásma^(١٠٤). والرياح عندما تهب في البحر الهونتوس لا تجلب معها فقط الاضطراب الذي يصيب الطرق وتوجهاتها، والاختلاط الذي يحيط بكل اتجاهات المكان، بل تجلب معها غمة من البحر والسماء غارقين دون تمايز في نفس الليلة الصفيقة التي لا سبيل إلى ولوجها. وتأسيساً على هذا المعنى، فإن الامتداد البحري يرتد من خلال هذه الرياح إلى حالته الخارسية الأولانية، حالة انعدام الطرق áporon وانعدام العلامات atékmarton. هكذا يعود كل شيء من جديد ليصبح مختلطاً مضطرباً في تلك الحالة التي توحى بها الكلمات : الليل Núx، الظلمة skótos، إيريبوس Erebos، الغمامة الحالكة الصفيقة homichle skotóessa، الغمامة السوداء kuanée nephéle، الغمة achlús، الظلمات الكثيفة zophos eeroeidés. ويحدثنا هوميروس أن زيوس إذا ما دبر إغراق سفينة، انتظر إلى أن تغيب الأرض عن البصر، حتى «لا يكون هناك سوى السماء والماء؛ حينذاك تلوح غمامة صفيقة معتمة kuanée nephéle يبسطها زيوس ابن كرونوس على سفينة جوفاء، ومن هذه الغمامة تحيط الظلمات بالبحر»^(١٠٥). وإسخيلوس أكثر دقة في الوصف، فهو ينوه بعنف الرياح الشرسة عندما تموج البحار póntou و«يختلط الموج الهائج ويمحو sugchouseien من السماء طريق diódous النجوم»^(١٠٦). وقاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يكشف بوضوح عن الخلفيات الميثية لصور عاصفة البحر هذه. وهو يتناول من جديد بدوره وصف الصخور السوداء Kuáncai، التي يراها كذلك «رجراجة» Plagktai أي يرى أنها skoliðs póros الممر المعوج الذي يتحدث عنه أبولونيوس الرودسي، الممر المعوج الذي لا تستطيع سفينة عبوره؛ والصخور الرجراجة تتحرك أفقياً وتصطك بلا انقطاع مثل الباب الذي ما يكاد إنسان بهم بالدخول منه حتى ينفلق ويصبح جداراً متصلاً^(١٠٧). وهي تتحرك رأسياً كذلك، فتنتقل من عمق الأغوار البحرية نحو السماء^(١٠٨). إنها عند أطراف العالم أبواب لا سبيل إلى النفاذ من خلالها، وهي أبواب ذوات أعمدة هي أعمدة السماء kiones ouranoû، ولكن هذه الأعمدة بدلاً من أن تكون ثابتة كأعمدة أطلس تُبقي دائماً على المسافة بين العالي والواطي^(١٠٩)، تظل متحركة ولا

تكف عن خلط مياه البحار بنار السماء. ونحن قد وجدنا من قبل عند هوميروس تلك السفينة التي حاولت اجتياز هذه الأبواب، كيف غَشَّتْها الموجة التي كانت تهدر عند أسافلها، وغَشَّتْها الأعاصير النارية التي تشتعل عند أعاليها^(١١٠). ويندروس يقارنها بنفثة العواصف: هذه الصخور المزدوجة، في رأيه، صخور حية zoai، تتدحرج kulindéskonto من جانب إلى الجانب الآخر، أسرع من أسراب الرياح المذهلة^(١١١). والرأي عند فاليريوس فلاكوس أن كويانيا هي بالضبط المكان الذي تتخذه رياح العواصف طريقاً iter، طريقاً يتوارى عميقاً في التربة، ثم يصعد من العالم الجهنمي حتى يبلغ سطح البحر. وهناك الموضع الذي اعتادت أن تبرز فيه لتخلط السماء بالماء miscere polum fretumque^(١١٢)؛ وما إن تفلت حتي يطبق الليل على كل شيء، بسماء حالكة سوداء كالقار piceo premit nox omnia caelo. وكذلك عندما ظهر توفون فوق البحر، جلب الليل وخلط الأعلى بالأسفل extulit adsurgens noctem, imaque summis miscuit^(١١٣). وأبولونيوس الرودسي هو الذي اتخذ لديه المعنى الكوني للعاصفة في أعالي البحار قيمته كلها. فهذا هو أورفيوس عندما تبحر السفينة يكون قد تغنى بالنظام الذي شمل العالم نتيجة ظهور النجوم ومسارات القمر والشمس، علامة اهتداء tékmar جرى تثبيتها إلى الأبد في السماء. وفي آخر رحلة العبور، عندما كانت السفينة فوق هوة البحر الواسعة méga laitma حاقت بها «ليلة رهيبة» وصفت بأنها ka-toulás أي حالكة هوجاء. فهي إعصار تتشابك وتتلقى فيه كل الرياح في اختلاط لا سبيل إلى تفريقه، وهي ظلمة مطبقة لا سبيل إلى اختراقها، سوداء كالقار. يقول أبولونيوس: «هذه الليلة لا تستطيع النجوم اختراقها، ولا أشعة القمر، كأن الخاوس الأسود mélan chaos سقط من السماء أو كأن الظلمة قد صعدت من أعماق باراثر Barathre^(١١٤)». هذا الخاوس الأسود هو الذي يمتد فوق البحر عندما يرتد الپونتوس - نتيجة غياب الرياح المنتظمة وغياب نور النجوم - إلى حالته الأولى، حالة التجرد من الطرق والتجرد من العلامات الهادية، ويصف ثيوقريطيس في أناشيده الإيديلية السفينة التي تعجز عن حساب مغارب ومطالع النجوم، فينتهي أمرها إلى الارتطام بالعواصف الرهيبة. ويحيط بها الليل البهيم. وفجأة - يأتي عون الديوسكورين Dioskoroï «الأخوين التوأمين كاستور وپولوديوكيس، ابني زيوس، اللذين كانا يظهران على هيئة ضود فوق السفينة» - فتهدأ العاصفة، ويعم سكون مضيء lipare galéne. وتتشتت الغمامات الحالكة ومن وسطها تظهر للبصر «نجوم» الدبية Arctoi ephánesan، وينبئ semainousa ضياء amaure نجم المعلق بجو ملائم للملاحة^(١١٥).

ويُوصف خلاص الأرجونوتية، ملاحى أرجو، على نحو مشابه: فقد تمثل في بروز العالم بروزاً مفاجئاً حيال النور بعد أن دلف من الليلة الحالكة الأولانية (١١٧). وهذا هو ياسون Jason «من ملاحى أرجو» إذ يدرك عجزه عن قيادة السفينة يرفع الدعاء إلى أبوللون Aiglotes . فيرسل الإله أبوللون في الظلمة الكاملة من أعلى الصخور السوداء Melántheioi فجأة ومضة متألفة. عندئذ يرى ملاحو أرجو فوق امتداد المياه جزيرةً بوجهون مقدم السفينة نحوها، هذه هي الجزيرة التي ستسمى من بعد باسم أنافي Anáphe. وكلمة أنافي تعني "تلك التي ظهرت" - «الظاهرة» - وهي تذكرنا بميتيس فانيس التي ترفرف بأجنحتها البراقة أي التي تحرك الرياح والنجوم فتبدد هكذا «الظلمة الحالكة» وتجلب «النور الساطع» (١١٨) هذه الومضة التي بشها أبوللون - Aigletes أيجليتيس - تذكرنا باسم الأضحية التي كانوا يقدمونها في ديلفي احتفالاً بذكرى انتهاء الطوفان عندما برزت أرض بعد طول انتظار من بين الكم الهائل اللاتهامي من المياه، واستطاع ديوكاليون Deucalion أن يضع قدمه عليها لينجب الجنس البشري: كانت هذه الضحية تسمى Aigle أيجلي (١١٩).

وهكذا فإن فقرة «ملاحى أرجو» مبنية على نفس الثنائي المتضاد تضاد الأبيض والأسود والذي فعله الخيال الكوسموجوني نفسه للتعبير عن أصل العالم، فنجد: من ناحية ظلمة غامة مطبقة، ومن الناحية الأخرى: النور الذي يجعل الأشياء تظهر ويحدد المكان.

على أساس هذا التخطيط تنظم كوسموجونيا ألقمان، عنده من ناحية Skótos سكوتوس أي الظلمة، ومن الناحية الأخرى: پوروس Póros وتيكمور Tékmor أي الطريق والعلامة الهادية. وهذا التخطيط هو الذي نجده في الكوسموجونيات التي يسمونها أورفيوسية، والتي تتأكد في أسراريات فلويا Phlya على الرسوم المصورة في telestérion التيليستيريون: كان الناظر إليها يرى فيها رجلاً هرمًا أبيض الشعر له أجنحة (يقولون لنا على وجه التحديد إنه إيروس العتيق الأرخائي؛ ولكن من الممكن جداً أن يكون أيضاً پوروس العجوز أقدم الآلهة جميعاً présbus Póros, geraitatos ton theon (١٢٠). وكان هذا الرجل الهرم يلاحق امرأة هيئتها سوداء كلها kuanocidés ، وكان الشيخ يرمز إلى فوس phos أي النور، أما المرأة فترمز إلى الماء المعتم skoteinòn húdor (١٢١).

هذه ثنائية النهار والليل، النور والظلمة - وإننا لنجد ربة من شاكلة ميتيس تمثل الاثنين، هذا وذاك، جميعاً، كما نجدها ذكراً وأنثى في آن واحد. وهي تتجاوز هذه المتضادات بمقدرتها على التحور تحورات عديدة. وفي الشيوجونيات التي توصف بالرابسودية، نجد ميتيس التي

ما تكاد تخرج من البيضة الكونية حتى تنجب نوكتس أي الليلة ثم تقترب بها لتنجب بقية سلسلة الآلهة. ونقرأ عند أكوسيلائوس Acousilaos عكس ذلك، وهو أن نوكتس Núx وإيريوس Érebus هما اللذان أنجبا ميتيس منيرة، شريكة لأثير Aithér وإيروس Éros. وماذا عن ثيتيس؟ إنها أولاً تمثل يقيناً المياه الحالكة tò skoteinòn húdor، تمثل ليل الأعماق البحرية. ومن حيث هي ربة أعماق البحر الحالكة، فهي تقيم في أعماق الغيابات البحرية en benthessin halòs في ذلك المكان الذي يسميه أوريبيديس المغارات المظلمة ántra múchia مثل ليل ابنة نيريوس^(١٢٢). وهي عندما تصعد من عمق البحر لتلحق على رملة الشاطئ، بابنها أخيلليوس، تتخذ هيئة غمامة حالكة homichle تطفو من بحر وصفه الشاعر على غير عادته بأنه أبيض لأن سطح المياه الموشاة بالزبد يبدو واضحاً منيراً على عكس ظلمة الأعماق التي تقيم فيها الربة عادة^(١٢٣). في النشيد الرابع والعشرين من الإلياذة نقرأ عن ثيتيس عندما تبحر الأعماق البحرية لتذهب إلى الإليمپوس أنها تتخذ حجابها المظلم kálluma kuáneon. وكأنما تصور الشاعر أن الصفة kuáneos (= حالك) التي هي ذات دلالة بذاتها لا تكفي، فأضاف كلمة melánteron التي تعني أنه ليس هناك حجاباً أكثر سواداً من ذلك الذي اتخذته^(١٢٤). ولقد فسر البعض الحجاب الأسود الذي اتخذته ثيتيس بأنه ثوب حداد لبسته الربة حزناً على باتروكلوس Patroklos «صاحب أخيلليوس» الذي مات، أو حزناً مسبقاً على ابنها الذي علمت أنه سيموت عما قريب. وهذا تفسير لا يمكن إقامة الدليل على صحته. فما كان لثيتيس أن تلبس الحداد على باتروكلوس. وما كان لها أن تلبس ثوب الحداد قبل أن يموت ابنتها. ثم إننا لدينا الدليل الشكلي على أن صفة الأسود الحالك kuanéa تختص بها ثيتيس بما هي ربة بحرية مستقلة عن كل ظرف خاص. فنحن نعرف عن طريق فيلوستراتوس Philostratos نص الابتهاالات التي كان الثيساليون يبتهلون بها إلى ثيتيس عندما يحجون في كل عالم إلى طروادة: كانوا يدعونها ثيتيس السوداء kuanéa^(١٢٥). أضف إلى هذا أن الأناشيد الأورفيوسية ترد فيها كل ربات البحر الأولاتية، على نفس نسق امرأة تبليستيريون فلوا، أي سوداوات. ثيتيس، أم الغمامات السوداوات، تسمى kuanópeplos ونيريوس kuanaugétis والنيريدات يسمون kuanaugéis^(١٢٦). ولكن ربات الأعماق البحرية السوداوات يمكنهن جلب النور والنهار والنجاة. وهناك شرح قديم يبين لنا أن النيريدات جميعاً، عندما ينقذن السفن الجانحة (كما

فعلت ثيتيس على رأس عصابة من أخواتها إذ أنقذت السفينة أرجو عند اجتيازها ممر الصخور الرجراجة) يتخذن هيئة وقيمة البيضاوات، النساء البيضاوات Leukothéai (١٢٧). وما أدراك ما سيدات البحر البيضاوات. إنهن ييزغن من الغيابات السحيقة إلى سطح المياه، وسط الزبد الأبيض. في قصيدة الأرجونوتية «بحارة أرجو» لأبولونيوس تدفع النيريدة السفينة من خلال ممر الصخور الرجراجة؛ وتمسك ثيتيس نفسها الدفة بيدها، وتوجه المسار وتشق السبيل: فاتحة الطريق البحري ومثبتة إياه إلى الأبد ithune kéleuthon (١٢٨).

من بين المخلوقات الحيوانية التي تربطها الأسطورة على نحو خاص بزوجة بيليوس وتحوراتها، نجد مخلوقة توحى على نحو كاشف بالقيم الميثية التي نسبها ألقمان إلى ربة الأعماق البحرية. واتباعاً لتراث انتقل من خلال أوريبديس، ونعتقد أنه لا بد يرجع في بداياته إلى الأناشيد القبرصية، نجد ثيتيس - وقد لاحقها بيليوس - تلجأ بغية الإفلات منه إلى اتخاذ كل الأشكال التي تتيحها لها دائرة التحورات، وما تزال تتحور حتى يتمكن البطل من الإمساك بها وهي في صورة sepia «سبيا، أي سمكة الحبار» ويتحد بها (١٢٩). وأكبر الظن أن هذه الصورة التي بدت فيها ثيتيس على هيئة سمكة الحبار صورة موهلة في القدم. ونحن نعرف مما كتبه هيرودوتوس Herodotos خاصة أن بيليوس تمكن من ثيتيس عند موضع على البحر اسماء «كأب سيبياس» أي رأس الحبار؛ وكأب سيبياس تطل على منطقة من البحر غنية بأسماء الحبار، وكانت كانت مخصصة لثيتيس والنيريدات (١٣٠).

وكانت سمكة الحبار تبدو للمقدماء نموذج الحيوان ذي الدهاء الميثيسي. والرأي عند أرسطوطاليس أن سمكة الحبار هي أكثر الأسماك دهاءً panourgótatos؛ وبلوتارخوس يذكرها مثلاً على اليقظة والمخاتلة؛ وأريبانوس يصف سمكة الحبار بالاحتياال والخذاع والمكر sepia dolometis, dolóphron, sepiai kerdaléai (١٣١). وهناك دراسة قام بها لويس سيريه Louis Siret مكنته منذ عام ١٩١٣ من التشديد على أن الاضطبوط والحبار أتبع لهما منذ الحضارات النيوليتية أن يرمزا إلى الماء والبحر (١٣٢). ولكن من الضروري أن نحدد بدقة أكثر شكل الصور التي توحى بها هذه الكائنات الرأسات الأرجل في عقل الإغريق. كان القدماء يرون أن دهاء الاضطبوط الميثيسي يعتمد أولاً وقبل كل شيء آخر على قدرته على التحور المتعدد. والاضطبوط مرن منساب مثل الماء الذي يتحرك فيه، فهو يكتسب أشكال الصخور التي يتشبث بها الواحدة بعد الأخرى. وهو علاوة على ذلك يحاكي لونها لكي يندمج فيها على نحو أفضل ويجعل وجوده غير مرئي. كذلك يرى البعض - على ما يذكر

أرسطوطاليس - أن السمكة الحبارة تتخذ لون الأجسام التي تقترب منها (١٣٣). ومرونة الرخويات بما لها من لماسات كثيرة polúplokoi تجعل من جسمها شبكة من الأربطة، وعقدة حية قوامها الأوثقة المتحركة المنبثة. أما رأس سمكة الحبارة فيعلوها بدلاً من الشعر hoste plókoi زوائد طويلة لماسة تستخدمها السمكة - وهي ممددة على رمل الشواطئ،، خيوطاً لاجتذاب السمك وتكبيله- وهي تقنية يسميها بلوتارخوس "سوفيسما" sôphisma => مكر، خبث (١٣٤). والحبارة، إذا هبت العاصفة، تمد لماساتها لكي تتشبث تشبثاً صلباً في الصخور الغائرة تحت الماء: وهذه الطريقة هي نفس الطريقة التي يستخدمها الحبارة عندما يربطون السفينة بحبل في صخور الساحل أو عندما يلقيون الهلب إلى القاع إذا كانوا في أعالي البحار حتى يؤمنوا السفينة ضد الموج (١٣٥). وفي وقت التزاوج يترابط الحبار، الذكور والإناث، ترابطاً وثيقاً sumplékantai، فماً إلى فم، عاقدة لماساتها بعضها في البعض. وعلى هذه الصورة تسبح أسماك الحبار، متحدة فماً إلى فم، وذراعاً إلى ذراع، فكأنها كائن واحد، ولكنه كائن محير ومتناقض، لا يعرف أحد أين يبدأ وأين ينتهي، أين يمينه وأين شماله، أين مقدمته وأين مؤخرته (١٣٦). هكذا تتجامع أسماك الحبار في ضمة لا يستطيع أي شيء أن يفضها (وهي ضمة فيها ضياعها، حيث يجد الرابط نفسه مربوطاً، وإذا الصيادون يستغلون وثاق الذكر والأنثى، فيقلبونه إلى ضد مرامه ويجعلونه وبالاً على أسماك الحبار التي يسكونها)، وتسبح أسماك الحبار المتشابكة كأنها مضمفورة بعضها في البعض؛ وتتحرك في اتجاهات متضادة: هذه تسبح إلى أمام، وتلك إلى خلف (١٣٧). وهل هناك من يستطيع، عندما يتحدث عن الحبار، أن يتكلم عن أمام وخلف، عن فوق وتحت؟ فالحبارات بتشريحها «المعكوس» - العينان في جانب، والفم في الجانب المقابل، والرأس يتتوج إلى أعلى بهالة جياشة من الأرجل - وبحركتها المعوجة (١٣٨) التي تضم، مثل حركة الكابوريا أو عجل البحر، عدة اتجاهات في وقت واحد، وبما تتميز به من قدرة على التحور المتعدد، ومرونة لماساتها قريبة من ربات البحر الأولاتية التي يقوم دهاؤها الميتيسي المتشكل، المرن - شأنه شأن الصيرورة التي تهيمن عليها - يقوم على ما ليس مستقيماً وليس مباشراً، بل على ما هو منحن ومتموج ومعوج، على ما ليس ثابتاً راسخاً، بل على ما هو متحرك، متغير، على ما ليس محدداً أحادياً، بل على ما هو متعدد الأشكال وما هو مختلط.

وهناك سمة أخرى محيرة للحبارة ترتبط بلونها الذي يوحي أولاً - على سبيل التناقض مع ما أوتي البشر - ببشرة المرأة وورديتها ومزاجها (١٣٩). وهناك مقارنة يعقدها أرسطوفانيس في مسرحية «اجتماع النساء» «اسم المسرحية بالفرنسية L'Assemblée des femmes

وبالإغريقية Ekklesiásousai يربط فيها الحبارة والبياض والمرأة معاً. في هذه المسرحية تتنكر النساء الأثينيات على هيئة الرجال ويتخذن لحىً مستعارة. وهذه هي إحداً من تعلق على هذا التنكر ومنظر النساء المتنكرات بقولها: «كأنما لصقوا لحىً على سمكات حبارة محمرة»^(١٤٠). ويشرح ج. تايلاردا J. Taillardat العبارة شرحاً صائباً، فيقول: «كانت النساء الأثينيات يلزمن بيوتهن فتظل بشرتهن بيضاء بلون سمك الحبارة، وعلى الرغم من أنهن في مسرحية أرسطوفانيس عرضن بشرتهن للشمس لتلفحها حتى تسمر وتتشبه بشرة الرجال فقد كانت اللفحة سطحية أحمرت منها جلودهن فشابهت النساء سمك الحبار المحمر في المقلاة أكثر مما شابهن الرجال السمر»^(١٤١). وكاتب الحاشية لخص المقصود بقوله leukai gàr hai se-piai = لأن سمكات الحبارة بيضاء.

ولكن هذه السمكات البيضاء تحمل في داخلها سائلاً أسود هو الثولوس tholós، وهي عندما تبث هذا الحبر، تنشر من حولها ظلمة موصدة تتواري في داخلها، سحابة ليلاء تضطرب وتختلط فيها كل طرق البحر.

وهذا هو ما يشرحه - بعد أرسطوطاليس - پلوتارخوس وأثيناؤوس وأوبيانوس. كان أرسطوطاليس قد سجل من قبل أن الحبارة تتواري في حبرها krúptetai، وأنها تتظاهر بأنها تستمر في طريقها إلى أمام ثم تنقلب إلى وراء لتضيق في الثولوس tholós^(١٤٢)، ويكتب پلوتارخوس: إنها تعمل عملها technoméne لكي تجعل الماء عكراً معتماً، فتنتشر الظلمة skótos من حولها لتمكنها من الهرب سراً والإفلات من نظر الصياد. ويضيف: إن الحبارة تقلد هكذا الآلهة الهوميروسيين الذين كثيراً ما يحيطون بسحابة مظلمة سوداء kuanée nephéle أولئك الذين يريدون لجدتهم فيتوارون عن الأنظار^(١٤٣). والرأي عند أوبيانوس أن سمكات الحبارة تلعب لعبتها، وتمكر مكرها kerdos على النحو التالي: فهي لديها حبر أسود tholós kuáneos قرب رأسها، وهو سائل أشد سواداً من القار، وهو من قبيل السائل السحري الفارماكون phármakon، فتحدث غمامة مظلمة قائمة achlúos hu-gres وهي عندما تبث هذه الضبابة الليلاء «فإن السحابة السوداء التي يحدثها السائل ichòr achluóeis تعكر الماء في المنطقة المحيطة وتخفي emáldune كل طرق kéleutha البحر» ويجعل من المستحيل رؤية أي شيء. وعلى هذا النحو، ومن خلال التعقيم aporia الذي تخلقه، تستطيع الحبارات التماس سبيلها póros الخصب: «فهي تهرب بسرعة من خلال طريق الحبر tholós, dià tholóentos póroio^(١٤٤)». ومن الطريف أن نجد في نص

أوبيانوس في معرض الحديث عن سمكة الحبارة التي تنشر الليل البهيم في قلب المياه، مزجاً بين مدلولي كلمة پوروس póros : من ناحية سبيل الخروج من صعوبة، تدبير كائن أرب أوتي الدهاء الميتيسي؛ ومن ناحية ثانية سبيل ، درب، معبر.

ربما كان هذا الالتفاف نحو الحبارة هو الذي جعل أثينا يوس يقدم إلينا أفضل مفتاح لفهم مكان ثيتيس في كوسموجونية ألقمان وإدخالها في صلة مزدوجة وتناقضية بالظلمة الليلية سكوتوس Skótos وبالمسالك Póros والدلائل المنيرة Tékmor. والمؤلف الذي نسج ساخراً معارضاً على أنوال الآخرين، وهو يستشهد بمطرون Matrôn، يحيي في ثينيس، «ابنة نيريوس، sepie euplókamos الحبارة ذات المشابك الجميلة (واللمّاسات العديدة)، الربة الفظيعة ذات الصوت البشري he móne ichthús oûsa tò leukòn kai mélan oîde، الوحيدة التي كانت سمكة، فعرفت الأبيض والأسود جميعاً»^(١٤٥).

القسم الرابع

العلوم الإلهية :

أثينة .. هيفايستوس

الباب السادس

عين البرونز

أثينة Athena مثلها مثل غالبية الربات الحامية للمدن تبدو كأنها تتبعثر من خلال تعدد وظائفها، وتنوع تدخلاتها. ونحن في مواجهة هذه القيم المتعددة نجد التحليل التقليدي - الذي يعتمد أصل الكلمات ويهدف إلى تحديد كل إله من خلال جوهره - يبدو عليه أنه ليس لديه إلا أن يختار بين حلين يتساويان في عدم إمكان البرهنة على أي منهما: إما أن يفترض أن أثينة في الأصل ربة حربية أو قوة خصوبة تحورت سماتها تدريجياً. وإما أن يفترض باديء ذي بدء أن هناك اثنتين متباينتين ولكنهما متكاملتان يشهد تضافهما بالضرورة على تلك الوظائف التي تتسم بالأهمية الكبرى بين الوظائف المناطة بها ^(١). كل هذه التفسيرات الوراثة لا تخطئ فحسب في تصميمها على تحديد أثينة منفصلة عن الآلهة الأخرى، بل تخطئ أيضاً في إهمالها تمييز مجالات العمل الخاصة بأثينة، ووسائل العمل التي تستخدمها هذه القوة الإلهية. ونورد فيما يلي مثلاً اخترنا من ميثاث أثينة ذاتها يبين على الفور مدى التمييز الذي قال به جورج دوميزيل Georges Dumézil عندما لاحظ أن أسلوب عمل إله ما أكثر دلالة على الخصائص من قائمة أماكن عمله، ومناسبات خدماته. وفي دراسة عن أصول ذبح الثيران في أثينا ^(٢) بذل العالم الإيطالي بيستالوتسا U. Pestalozza ما بذل من جهد ليبين أن وراء أثينة - العذراء والمحاربة - كانت تكمن ربة أم، ارتبطت بالمحراث، واتخذت من الفلاحة نشاطها الأول. ويستند بيستالوتسا في إقامة نظريته على حجج من بينها حجة أساسية تتمثل في ميثوس رواه سيرفيوس Servius في «شرحه على ملحمة الإنيادة» Commentaire à l'Énéide ^(٣).

يقول: «كانت هناك في أتيكة Attikê في قديم الزمان بنت اسمها مورميكس Murrmix، حبتها أثينة بصداقة عظيمة لأنها كانت عذراء، ولكنها كانت ماهرة في العمل بيديها. وذات يوم حلت الكراهية محل الصداقة، وإليك السبب: كانت أثينة قد شهدت ديميتير Démèter تخترع القمح، وعزمت على أن تبين لأهل أتيكة كيف يمكنهم أن يحسنوا فلاحة الأرض ويحصلوا بشكل أسرع على ثمرتها، فاخترعت المحراث. ولكن مورميكس التي علمت باختراع

أثينة تجاسرت على سرقة المحراث وذهبت به إلى الرجال وقالت لمن أرادوا أن يسمعوها منهم إن منحة ديميتير لن تأتي أكلها إلا إذا استعان الرجال بالمحراث الذي اخترعته هي فهو الآلة الوحيدة القادرة على قلب الأرض وتيسير نمو القمح.»

وإذا نحن ضربنا صفحاً عن غضب أثينة وعقاب مورميكس التي جعلت غلة وحكم عليها لكي تقيم أودها أن تختلس بعض حبوب القمح، وسألنا: ماذا يبين لنا هذا الميثوس؟ لا جدال في أن أثينة تظهر فيه ممثلة لقوة إلهية متجهة نحو العمل في فلاح الأرض، وبعبارة أكثر تحديداً نحو الحرث وأثره المخصب، فهل هي لهذا السبب - كما يؤكد بيستالوتسا - ربة أم، وقوة خصوبة وإخصاب؟ العكس هو الصحيح، فكل هذه الحكاية الميثية تحمل الدليل على أن ديميتير وأثينة، إذا كانتا شريكتين في مجال عمل واحد، فإن طرق عمل كل واحدة منهما، وأنماط تدخلها مختلفة اختلافاً أساسياً.

ففي الأرض الأتيكية التي هي أول أرض تتلقى منحة ديميتير، تتدخل أثينة بصفقتها قوة تمتلك «السوللرتسيا sollertia» أي المهارة اليدوية والذكاء العملي: فهي تصنع الآلة، العدة التقنية التي تتيح حصاداً أيسر لقمح ديميتير. في مواجهة ديميتير تمثل أثينة المهارة والاختراع التقني اللذين يكملان العمل المخصص بقوة إنتاج الحبوب. ليس هنا بلا شك تقسيم فاصل مطلق ولا تقسيم نهائي قاطع. فهناك نصوص تراثية ميثية تصف كيف تحضر ديميتير - مع ما تحضره من خيرات الحبوب - الأدوات التي تيسر الزراعة وتمكن من الاستفادة من النباتات المزروعة: فهي التي منحت البشر المحراث والطاحونة^(٥). ولكن هذه الأدوات التي تهبها ديميتير البشر وتكشف لهم عن سرها، ليست إلا أشياء مكملة لا غنى عنها على نحو أو آخر، لحياة الزراعة التي نجد هذه القوة الإلهية مسئولة عنها. وديميتير بصفقتها ربة كبيرة تهيمن على النشاط الزراعي يمكنها أن تتخذ لنفسها كل مقومات زراعة الحبوب، بما فيها المقومات التقنية البحتة. وعلى الرغم من هذا التوسع الذي يشمل مجالها فإن أسلوب عمل ديميتير يظل هو هو: إذ يتسم بطبيعة خصيبة مخصبة، ولا يتسم قط بسمة تقنية نوعية. أما أثينة فهي على العكس قوة تقنية يمكنها أن تتدخل في مجال الزراعة: وأسلوب عملها ليس أسلوب إخصاب، بل هو في جوهره تقني. والميثوس اللاتيني الذي يورده سيرفيوس والذي يعرض أثينة تخترع أداة الحرث بندرج مباشرة في امتداد الميثوس الإغريقي الأرخائي العتيق: في قصيدة «الأعمال» لهيسيودوس نقراً أن «خادم أثينة» هو الوحيد المتمكن من صناعة محراث الفلاح، المتمكن من «تعشيق» قطعة الخشب المنحنية gúes في الكعب الذي يحمل سلاح المحراث، ومن تركيبه وضبطه في قصبة المحراث بعد ذلك^(٦)..

والمثل الذي حفظناه والذي يشهد على مهارة أثينة البدوية يبدو أنه يرجع هذا الشكل من الذكاء العملي الذي يسميه الرومان «سوللرتسيا *sollertia*» ويسميه الإغريق ميتيس *métis* الدهاء الميتيسي. ومن الممكن أن نخشى من أننا إذا شددنا على تمكن أثينة التقني فإننا ننتهي إلى إهمال نشاطها من حيث هي قوة حربية، وإهمال تفوقها على الآلهة الآخرين في حرفة الأسلحة. سنرد بأن الإشادة المرجعية بالدهاء الميتيسي تبرره طبيعة أثينة ذاتها: أليست هي من بين الآلهة القوة التي - مثل زيوس ذاته - تقوم بينها وبين الإلهة ميتيس أو ثق الائتلافات؟ وإذا كان زيوس قد ابتلعها ليصبح «مليئاً بالميتيس»، فإن أثينة كانت هي الإبنة التي حملتها ميتيس في أحشائها في اللحظة التي استسلمت فيها للمباغطة.

فأثينة إذن تلقت عن أمها الدهاء الميتيسي، وكانت لهذا السبب كثيرة الحكمة *polúboulos*، كثيرة الدهاء *polúmētis*^(٧)، ولأنها ابنة بطن الربة ميتيس، فقد كانوا أحياناً يسمونها كأماها «ميتيس»^(٨). هذه الأثينة التي نعرفها، أثينة الملقبة بميتيس والتي يبدو لقبها كأنما سجل في تراث ثقافي طويل، ليست، كما قد يتوقع البعض، أثينة ربة عمل حرفي أو نشاط تقني، بل هي أثينة حربية، إنها الربة التي اكتست بالبرونز كيوم مولدها، والتي تسلحت بأسلحة باهرة قالت عنها رواية أنكرها المنكرون^(٩) إن الربة ميتيس حملتها «في ذاتها الخلاقة» في نفس الوقت الذي حملت فيه ابنتها «في أحشائها». والحق أن الأثينة التي توصف بالخالقيوييكوس *Chalkioikos* «أي = ذات البيت البرونزي» الاسبرطية التي تحمل اسم ميتيس^(١١) ليست فقط الربة الحامية للمدينة التي كانوا يحتفلون في كل عام بعيدها تحت رئاسة المستشارين وبمشاركة الشباب المدججين بالسلاح: إنها أثينة مسلحة، يكسوها برونز المحاربين^(١٢). وإذا كانت صفتها الخالقيوييكوس «ذات البيت البرونزي» تشير من ناحية إلى بعض سمات هيكلها الذي ربما كانت عدة عناصر فيه - مثل السقف أو الكسوات - مصنوعة كلها من المعدن^(١٣)، فإنها يمكن أيضاً علاوة على ذلك أن تعني انتماء أثينة إلى جنس الرجال البرونزيين، إلى أولئك المحاربين الذين وهبوا أنفسهم للحرب هبة مطلقة حتى إن بيوتهم *oîkoi* صنعت من نفس المعدن الذين يموتون به كما كانوا يعيشون^(١٤).

فإذا ذكرنا الجنس الثالث الذي يتناوله ميثوس هيسبيودوس، وذكرنا الاسبرطيين أو العمالقة، قد نجد ما يفرنا بالحديث عن «الوظيفة الحربية» التي تتولاها أثينة^(١٥)، خاصة وأن أثينة وقد عزفت عن الزواج ونذرت نفسها للعذرية، مما يوحي بأن أثينة على نحو ما قد نبذت أنثويتها وقد منحت فضيلتها الحربية أقصى ما لديها من شدة^(١٦). ولكن الكلمة

الجوهرية في مجال الحرب ومجال التقنيات، الكلمة الملائمة لتحديد ماهية قوة إلهية، هذه الكلمة تظل هي أسلوب تدخلها، أي - في مجالنا هنا - طريقته المعينة في استغلال هذا الدهاء المبتيسي الذي أتيح لأثينة بنصيب وافر.

وقبل أن ننعم النظر في «الحرص» كيف مكن الربة من السيطرة على الحصان ومن قيادة سفينة في الليل آمنة من خلال الزوايا، ينبغي علينا أن نبين كيف أن نفس نوع الذكاء يمكنه أن يؤدي دوراً في لعبة حربية تقودها قوة يجللها البرونز^(١٧). فإذا كانت الضربات التي تسدها الأيدي ضد المواقع المعادية تتطلب علاوة على الشجاعة، جسارة النظرة وسرعة التنفيذ، وإذا كان التريص ونصب الكمين^(١٨) يتطلبان حرص الثعلب ومهارة «المخبأ» حتى لا يكون المحارب عرضة لمن يراه أو يباغته، وإذا كانت هذه العمليات العسكرية المختلفة تتطلب صفات الدهاء والتواظؤ التي أكبرها القرن الرابع في قاداته ومخططيته الحربيين^(١٩) وهم المحترفون المتمكنون من حرب أكثر تقنية، وحتى إذا كانت بعض هذه المناورات تعتمد أحياناً أثينة وعونها ونصائحها^(٢٠)، فإن الدهاء المبتيسي للربة المدججة بالأسلحة يفعل وسائل أكثر سرية تستنفر صنوفاً من السحر المحير ومن أعمال الكيد العجيبة.

واستناداً إلى حكايات مولدها الميثية فإن ابنة زيوس وميتيس بزغت في دوي باهر من النور والصخب، فكانت : «باهرة بسنا أسلحتها، كانت إبهاراً من البرونز ينصب على العيون»، وهي عندما جاءت إلى الدنيا أطلقت صيحة حرب هائلة^(٢١). تلك أثينة لصيقة بأسلحتها التي أبدعتها لها ميتيس نفسها وصنعتها بنفسها فجاءت درة حداد حقيقية يزيد من روعتها أن الدهاء المبتيسي الذي يبت فيها حياة متألفة في بريق معدني قد توج لتوه الذكاء البراق الصارخ، ألا وهو الدهاء المبتيسي الذي حظيت به تلك البنت التي أنجبها زيوس وزوجته التي ابتلعها. نور باهر ورنين برونزي، هما سمتا القوة الحربية التي أوتيته أثينة، والتي أظهرتها مدوية في المعارك والمناوشات وبخاصة تلك التي وردت في الإلياذة^(٢٢)، وبخاصة عندما تقدم أخيلليوس ليمنع الطرواديين من الاستيلاء على جثمان پتروقلوس Pe-troklos، وما زال يتقدم حتى بلغ الخندق الذي يحد معسكر الإغريق. لم تعد لديه الأسلحة التي كان پتروقلوس يتسلح بها، ولم يكن قد تلقى بعد الأسلحة التي ذهبت ثيتيس إلى هيفايستوس في طلبها^(٢٣). ولكن المصادفة شامت أن تعيره أثينة أسلحتها، فألقت على كتفي أخيلليوس السريال ذا الشرايات الطوال، واستخرجت من جسده لها مدوياً، وضوءاً صعد حتى الأثير. فلما بلغ أخيلليوس الخندق وواجه الطرواديين، وقف وصرخ صرخة، «كذلك

باللاس أثينة Pallas Athéné «وهكذا يسمونها» أصدرت صوتها ... فظن من سمع الصوت أنه صفير النفير^(٢٤) يدوي بالندير يوم يطوق المدينة أعداء يفتكون بأرواح البشر». وإذا بالرعب يشيع فيهم والتشتت ينال منهم: «ما كادوا يسمعون صوت رنين البرونز ópa chálkeon^(٢٥) حتى انتفضت قلوبهم جميعاً»: وجفلت الخيول، وفقد قادة العربات صوابهم «عندما رأوا النار المتأججة تستمر رهيبة»، وأوها على جبين المحارب، وإنها للنار «التي تستمد استعارها من من الربة ذات النظرة المستعرة Glaukopis^(٢٦)».

وهذه هي ابنة زيوس، في سعيها لتحقيق المناعة لهذا المحارب الذي اختارت أن تحميه، تستره بالسريال «المرعب»، بهذه العدة التي هي نصف درقة، ونصف سريال^(٢٧) تفتريشها كالتاج أقنعة الهزيمة Phóbos والمنازلة Éris ورأس الجورجونة Gorgone المهول^(٢٨). هذه العدة سلاح مطلق يقال إن هيفايستوس قدمه إلى زيوس ليُلقي الرعب بين البشر^(٢٩)، إلا أن تكون ميتيس - طبقاً لرواية تراثية موازية^(٣٠) - هي التي صنعتها بنفسها من أجل ابنتها أثينة، فأهدتها سلاحاً «لا يغلبه شيء حتى صاعقة زيوس نفسها»^(٣١). لأن السريال، شأنه شأن جديلة النار التي أوتيتها زيوس ملك الآرباب، يحدث للعدو شللاً صاعقاً يدل على شدة فعاليته السحرية هنا قناع الجورجونة بنظرتها المميتة التي تجمد كل ما تصيبه وتحيله إلى جمود الحجر. وقوة الجورجونة السحرية هذه التي تنطلق من السريال قوة تعرفها الملحمة الهوميروسية وتلمسها كذلك في عيني المحارب الغضوب الذي تملكه «لوسة Lússa»، الجنون، أو في البريق الرهيب الذي يبثه برونز درع^(٣٢).

كانت أثينة ذات النظرة الساحرة تملك السريال والجوجونة والنار الخاطفة والصوت المدوي، وكلها من أركان السحر الحربي الذي حفظت سره في تأجج نظرتها الخلافة. وأثينة Glau-kopis - شأنها شأن الطائر الليلي الذي يتبعها في كل مكان، شأنها شأن البومة glaúx التي تفتن الطيور الأخرى وترعبها بعينها الثابتة المفعمة بالنار وكذلك بنبرات شدوها^(٣٣) - تغلب أعداءها بعينها، وبصوت أسلحتها البرونزية، هذه الأسلحة التي يحلو لتراثها الملحمي أن يقارن بريقها بومضة البرق، وصوتها بدوي الرعد^(٣٤). و«صوت البرونز» الذي تصدره أثينة ومن تحميه معاً، عند إطلاق صيحة الحرب، هذا الصوت ليس إلا الجواب في عالم نبرات «عين البرونز» التي تسلطها على أعدائها بلا شفقة ابنة ميتيس، تلك التي يسميها الإغريق الربة «ذات العين الباقة Glaukopis والقوة «ذات العين الحادة» oxuderkes^(٣٥)».

و«حرص» أثينة، بل دهاؤها الميتيسي، يعمل في حقل النشاط الحربي عمل آلية فتنة

تضم تصرفات سحرية معينة يتصرفها المحارب الأرخائي العتيق: وجه عبوس، نظرة الجورجونة «المرعبة»، صرخات - وقيماً أخلاقية مختلفة ترتبط بالمعدن: بريق السيوف، تأجج الخوذات وقرقعات مكتومة تنطلق من السروج البرونزية التي تتجلل بها الخيول^(٣٦). وليست «النظرة الثاقبة» التي تصدر عن أسلحة أثينة هي النظرة النكراء الباغية oxuderkeîs التي يلقيها التيلخين Telchines على ثقافات الجيران والتيلخين حدادون حاقدون غيورون على أسرارهم^(٣٧). وأثينة لم تصنع أسلحتها الحربية بنفسها، بل هي - بما هي إلهة - خرجت كاملة التسليح من جمجمة زيوس، نتاج عملية تعدينية. وليست نظرتها البراقة هي عين الصانع الحاقدة، بل هي النار المرعبة الصادرة من البرونز وقد طُوِّع لتحقيق أهداف حربية. ولا يعني هذا أن هناك على المستوى اللاهوتي هذا الفصل بين الأنشطة اليدوية وبين حرفة الأسلحة الذي عرفه عدد معين من المدن^(٣٨): فدهاء أثينة الميتيسي الذي يقارب علم هيفايستوس يستغل قيم البرونز من حيث هو معدن جرى إنتاجه وإحيائه بنار الحداد، ولكن التطبيق الذي تمارسه أثينة بجري على مستوى الحرب النشيطة باستخدام فعال للأسلحة التي يحملها أو يشهرها الرجال المحاربون.

الباب السابع

الشكيمة اليقظة

منذ ظهرت الدراسات التي قام بها جورج دوميزيل Georges Dumézil أصبحنا نعرف أن أفضل تعريف لإله من الآلهة هو أن يكون تعريفاً فارقاً ومصنفاً، وأن المشروع البحثي الذي يستهدف الوصول إلى تعريف للآلهة في علاقاتها المتبادلة، ورسم مواقعها الواحد بالنسبة إلى الآخر، عليه أن يبدأ عمله انطلاقاً من تصورين هما :

- الإكمالية

- والتعارضية،

فالإكمالية والتعارضية تقربان القوى الإلهية بعضها من البعض أو تفصلها الواحدة عن الأخرى؛ ومن الضروري أن يجرى هذا العمل البحثي على مستويات ثلاثة:

- مستوى الممارسات الثقافية

- مستوى الروايات التراثية الميثية

- مستوى الرسوم التصويرية

ولكي يمكن البدء في مثل هذا النوع من الدراسة التحليلية يكفي أن نرى أمامنا شاهداً على قيام علاقة وثيقة على نحوٍ ما بين إلهين في حدود مجال عمل واحد يعملان فيه كلاهما. وهذه هي الحال بالنسبة إلى أثينة وهوسايدون كما نراها في عدة سياقات.

ولنبداً على الفور بتناول المثل الذي اخترنا تمحيصه، والنظر إليه من هذا المنطلق، فنجد أن هناك في العالم الإغريقي: أثينة هيبيا Hippias - أثينة ربة الخيل - مشتركة على نحو وثيق مع هوسايدون هيبوس Hippios - هوسايدون رب الخيل: لكل منهما في توزيع أنصبه الآلهة نصيب في نفس المجال، مجال "الخيل" سواء كان الخيل خيل جر أو خيل ركوب، سواء كان الموضوع موضوع فن قيادة عربات تجرها الخيول أو فن ركوب الحصان أو الفروسية.

من بين الأماكن التي تلتقت فيها أثينة «ربة الخيل» منسكاً مشتركاً مع بوسايدون «رب الخيل»^(١) ربما كانت كورنثوس Korinthos أهم أو على الأقل أعجب مكان. عندما زار پاوسانياس Pausanias في القرن الثاني الميلادي مدينة كورنثوس، لم يغب عنه أن يشدد على وجود مزار لأثينة كانوا يسمونه خالينيتيس Chalinitis أي «ذو الشكيمة» غير بعيد عن قبر ابني ميديا. وبهذه المناسبة أورد "وصف الرحلة" الذي صنّفه اوسانياس «المعروف في الفرنسية بالپيريغيزه Périégèse - عن الإغريقية پيري هيغيسيس Peri hegesis tes Hellados» تعليقاً موجزاً: «يقولون إن أثينة هي الربة التي قدمت أشد مساعدة إلى بيلليروفون Bellérophon، وعلى نحو خاص عندما أعطته «الحصان» پيجاسوس بعد أن روضته بيدها وأخضعته للشكيمة» - cheirosaméne... entheîsa autè toi hippoi chal- inón^(٢). والمبشوس الذي يذكره پاوسانياس على هذا النحو معروف لنا تماماً تضمنته القصة المفصلة التي حكاها الشاعر پنداروس في أنشودة من أنشوداته الأولمبية، الأنشودة الثالثة عشرة، التي كتبها في عام ٤٦٤ قجيداً لانتصار مزدوج في السباق والمباراة الخامسة حقه ابن من أبناء كورنثوس المشاهير.

«كان بيلليروفون آنذاك قريباً من النبع، فتملكته رغبة عنيفة في ترويض پيجاسوس zeûxai، فبذل «بيلليروفون» ابن جورجونة المتوجة بالشعابين، جهوداً مضاعفة، بلا جدوى، حتى حلت اللحظة التي أتته فيها باللاس Pallas «أثينة» بالشكيمة، شبيهة بتاج من ذهب. فإذا حلمه يتحول إلى حقيقة. وقالت له «أثينة» ابنة زيوس: "أنت نائم، يا أيها الأمير، يا ابن أيولوس Aiolos؛ تعال، خذ هذه الآلة التي ستسحر حصانك philtron... hippeion، وقدمها إلى أبيك، مروض الخيول، Damaîos «دامايوس»، وتقرّب إليه بشور أبيض قرباناً». هذا هو ما ظن بيلليروفون أنه سمعه من فم أثينة ذات السريال الأسود في ليل غشيه فيه النوم. فهب واقفاً وأمسك بالشيء العجيب téras الذي وجده قريباً منه، ويم، في غمرة الفرح، شطر كاهن البلد، ابن كويرانوس Koiranos، ليقص عليه خلاصة المغامرة كلها. فقص عليه كيف استجاب للعرافة، فذهب لينام، ليلته، على هيكل الربة، وكيف أتته ابنة زيوس، وهو الرب المسلح بالصاعقة، فأعطته بنفسها الذهب الذي يروض القوة الجامحة damasiphron. هنالك حضه الكاهن على أن يصدع للرؤيا دونما تقاعس، وأن يقدم من فوره إلى الإله الذي يحمل الأرض قرباناً من الحيوان القوي من ذوات الأربع، ثم يسارع بإقامة هيكل عال لأثينة «ربة الخيل»... وتقدم المحارب بيلليروفون، وقد غمرته حمية كالنار، فأمسك الحصان الذي ركض إلى عنان السماء، فدس في فمه الآلة التي ستجعل منه مطيّة طيعة pha`rmakon praüa^(٣).

وقصة بيلليروفون - شأنها شأن الميثاث التي حكاها پنداروس في أناشيد النصر Epi-nikeia التي تدرج في مدارج مدح ابن من أبناء كورنثوس انتصر في السباق أو في المباراة الحماسية - تحمل قيمة نمطية يشهد عليها بناء القصيدة. فينداروس ابتداء من الافتتاحية الموضوعية تحت راية اكتشافات كورنثوس القديمة الأريبة، واختراجاتها sophismata البديعة^(٤)، ويعلن پنداروس عن نيته، التي لا يلبث أن يكشف عنها بعبارات صريحة، وهي الثناء من خلال مغامرة بطولية على الدهاء الميتيسي للكورنثيين القدماء وعلى فضائلهم الحربية في الوقت نفسه. ^(٥) ثم تتوالى سلسلة من الإشارات تحدد بدقة مصورات هذا النمط من الذكاء الذي صنع شهرة مدينة المنتصر. نجد أولاً استحياء شخصيتين مبثيتين مألوفتين في كورنثوس: شخصية ساحرة قديرة هي ميديا Medeia ، وشخصية بطل عظيم المكر هو سيسيفوس Sisyphos ^(٦). ثم نجد بعد ذلك ذكرى الحوادث العظام في حرب جلاوكوس Glaukos، ابن بيلليروفون ^(٧). هذه العناصر المختلفة تسلك معاً طريقاً واحداً لتضع في مركز القصة الميثولوجية المبسطة في داخل المدح الغنائي شخصية ابنة ميتيس وزئوس ألا وهي أثينة ذات «الحرص» الذي يتضافر مع وصفها بـ«ذات الخيل»، بوضعها المتمثل في قوة الخيل.

ونلاحظ باديء ذي بدء أن الإشادة بذكاء الكورنثيين الميتيسي وما لهم من اختراجات -so-phismata تبدو لصيقة بالميثوس الذي يقص قصة اختراع أثينة الشكيمة تلك الألة القادرة على كبح الحصان وإخضاعه لفارسه. ولكن هذا الذكاء هو أيضاً نفس نمط الذكاء الذي أسهم سيسيفوس Sisyphos وميديا Medeia في تحديده تحديداً دقيقاً، وهما أكثر اثنين من أبطال الميثولوجيا الكورنثية حظاً من الدهاء الميتيسي. أما سيسوفوس فهو يمثل ذلك الضرب من المكر الذي يدخل في عداد الذكاء المخاتل، فقد أوتي المكر والمداينة، وتلوين الوعود كتلوين القطعان التي يسرقها من جيرانه، يخادع حتى الموت. أما ميديا ^(٨)، فهي الأولى بين النساء الحبيرات بالسموم وأشرية الحب، وأنواع السحر الناسفة phármaka metióenta ^(٩) وقد جاءت لتبين أهمية شيء بعينه في الذكاء التقني الذي تتحدث عنه هذه القصة المزدوجة، أهمية جزء لا يسنهان به، جزء أشد قتامة، هو مكوّن سحري عرفنا بعض سماته في حديثنا عن أثينة.

في سياق الذكاء المخاتل ذي الصبغة التقنية والمستوى السحري اتخذ اختراع الشكيمة وانتصاره على پيجاسوس مكانه. وتراث هيسودوس ^(١٠) يصور الحصان الذي قاوم

بيلليروفون في صورة حيوان أعجوبة: فهو ابن جورجونة، بزغ على حدود الليل، من رقبة ميدوسا Medusa المقطوعة، في مشهد أوقيانوسي تفور فيه المياه الخثونية «الأرضية»، وبيجاسوس الذي خلقه بوسايدون^(١١) تتمركز صورته الميثية وسط باقة من المصورات تمتد من جورجو Gorgô ذي رأس الحصان إلى ديميتير إيرينوس «ربة الانتقام» ثيلپوسا Démèter Erinús de Thelpousa^(١٢). وهو في قفزه التي حملته من الأعماق الخثونية «الأرضية» إلى العالم الأوراني الذي ولجده بصفته حامل الصاعقة وحامل الرعد عند زيوس، قد نشر المجموعة المتدرجة الكاملة لمصورات الحصان التي أتاح تحليل ف. شاخرماير F. Scha-chermeyr إعدادها، وهي مجموعة تلخص السمات الجوهرية لبوسايدون هيپوس Po-seidon-Hippos وهيپيوس Hippios^(١٣): الحصان من حيث هو قوة خثونية «أرضية»^(١٤) متوجهة نحو العالم الجهنمي، وقوى الخصب التي تخفيها المياه العذبة والينابيع الفوارة؛ الحصان الناسف المشترك مع الرياح والسحب والعواصف؛ الحصان من حيث هو حيوان حربي، من حيث هو قوة حربية. وإلى جانب القيم البوسايدونية للحصان بيجاسوس، كان المقصود من الإشارة المرجعية إلى جورجونة^(١٥) توجيه مستمع أو جمهور بينداروس نحو صور أخرى تحيل إلى علامة مميزة للحصان في الفكر الإغريقي^(١٦). وهذا هو اكسينوفون Xenophon في كتابه «فن الخيالة»^(١٧) الذي ألفه في لحظة كانت الهيبولوجيا "علم الخيل" فيها قد اتخذت شكل معرفة تقنية خالصة، يستخدم في وصف حصان عصبي وعنيف صفة جورجوس gorgós التي تعني فظيع مزعج. والكلمة في هذا السياق المختص بعلم الخيل لا تعدم أن تكون غامضة. ما من شك في أن من خصال الحصان الأصيل أن تكون عينه - كما يسجل <Pollux> أحد فقهاء المعجمات^(١٨) - مليئة بالنار blémma gorgón. ولكن الصفة نفسها تغطي حقلاً أوسع بكثير: فكلمة gorgós جورجوس تحتمل قيماً أخرى^(١٩)، مثل بريق الأسلحة^(٢٠) المهارة الفائقة الباهرة التي للبطل^(٢١)، الصرعة الحربية التي تغير شكل وجه بشري^(٢٢). في كلمة gorgós جورجوس صورة نظرة جورجونة التي تكشف مجال القوى الإلهية وتتوافق مع ما يسميه اكسينوفون في نفس كتاب علم الخيل^(٢٣) دايمنيون تي daimóniôn ti أي ما لا أعلم من العجب العجائب الذي يعطي تقريباً هامش الحيرة الذي يصح أن يرضى قائد خيالة أمين بوجوده في فن الخيل.

كل هذه الإشارات توحى بأن جورجونة تترجم في الفكر الإغريقي سمة جوهرية من سمات الخيل. هكذا يبدو الحصان - بتصرفاته، بعصبيته، بصهيله، بأزمات جنونه، بمزاجه الجفول، بردود فعله المبالغية، بالرغوة على فمه، بالعرق على كسوته - حيواناً غامضاً عجيباً مزعجاً؛

أنه قوه دايمنية. كذلك نجد في الفكر الديني بين الحصان الجموح وبين جورجونة وبين المسكون «الذي يسكنه عفريت» مقاربات واضحة المعالم لاحظها هنري چانمير Henri Jeanmaire (٢٤) من قبل. فالمسكون «مركوب»، تركبه قوة غامضة عجيبة «تلجمه» anaseirázei (٢٥)، والأصوات المتلعثمة التي يصدرها بعض المصابين بالصرع تذكّر بالصهيل، بهذا الضحك المخيف الذي يضحكه الحصان؛ وعلى وجوههم المتقلصة يوشك الإنسان أن يرى قناع جورجونة. وإكسينوفون يقولها بكلمات لا لبس فيها: «المسكونون ينظرون نظرات جورجونة البشعة، ويصدرون صوتاً مرعباً، ولهم قوة فوق قوة البشر.» (٢٦) وعندما أحس أورستيس Orestes بأنه مهدد نتيجة وجود الإيرينيات «ريات الانتقام»، أخوات الجورجونات Gorgones، وجوداً غامضاً، قال وكأنا أثارته خيول جامحة: «كأنما خرجت خيولي عند منعطف الطريق عن مسارها فجأة.» (٢٧) ولكن الأمر لم يبق في هذه الحالة مجرد علاقة بين الإنسان المسكون والحصان الجامح. وكيف يمكننا - ونحن نسمع الإشارة المزدوجة من قائد يفقد السيطرة على خيوله وعن خيول مكدنة تخطي، المنعطف وتندفع خارج المسار - ألا نتعرف على المسمى تاراكسيبوس Taráxippos أي «مرعب الخيول» والذي يمثل سمة جوهرية من سمات بوسايدون هيبيوس Poseidon Hippios؟ (٢٨) فالمنعطف هو الموضع الذي يمارس فيه هذا الإله قوته المزعجة، وكان قادة العربات يقدمون إليه قرباناً قبل القيام للسباق أو الدخول في الألعاب الأولمبية. وقد جمع پاوسانياس (٢٩) حول تاراكسيبوس Taráxippos طائفة من الروايات التراثية الأسطورية المنسوبة على موضوعين متمايزين ولكنهما متكاملان. نجد، من ناحية، المصورات التي تركز في تاراكسيبوس Taráxippos على الصفة السحرية للخوف الذي يستبد فجأة بالخيول. فيكون تاراكسيبوس Taráxippos حَجَرَةً لونها لون النار pétas... chróan purrhâs تبعث بريقاً هائلاً يملأ الخيول المكدنة بالرعب (٣٠). ويقول آخرون إنه سحر خبأه بيلويس Pelops في ذلك الموضع ليرعب خيل أوينوماوس Oinomaos. وهناك في مقابل قصص الرعب حكايات ميثية، المحور المشترك فيها هو صورة قائد عربة قُتل مع خيله المكدنة، أو قائد عربة قلبه خيله. ويقولون إن آية «مرعب الخيول» هي مقبرة المدعو داميون Dameon الذي سقط هو وحصانه إبان حملة عسكرية، ويقول آخرون إن هذا الموضع هو الموضع الذي دفن فيه ألكاثوس Alkathos وهو ضحية من ضحايا أوينوماوس Oinomaos الذي حوله الحقد إلى «عين شريرة» báskanos تصيب كل الخيول المكدنة. وغير هؤلاء وأولئك يزعمون أن تاراكسيبوس Traxippos اسم حَمَلَه جلاوكوس، Glaukos ابن سيسيفوس، الذي فتكت به خيوله في الألعاب الإسيثمية التي أقامها أكاستوس Akastos على شرف

أبيه. ولكن هذا الجلاوكوس الكورنثي (٣١) يبدو هو نفسه قرين جلاوكوس آخر من بوثيا هذه المرة، مات ميتة مأساوية فقد التهمته حياً خيول متوحشة كان يحلو له أن يطعمها لحم البشر (٣٢).

وصورة حصان يلتهم ويلوك بأسنانه لحم سيده صورة تحدد المغزى البعيد أشد البعد لسلسلة من المصورات تكشف السمة المزعجة للحصان وتشهد على انتمائه إلى عالم القوى الجهنمية. هذه السمات التي يتسم بها الحصان يمكن تحديدها على نحو أدق من خلال ميشين آخرين: ميشوس مغامرات هيپومينيس Hippomenes ولايمونه Leimône وميشوس فرسان ديوميديس Diomedes. أما الميثوس الأول (٣٣) فيجعل من الحصان أداة عقاب ينزله واحد من الكودريدين Kodrides بابنته التي تذب باستجابتها للغواية؛ ويقولون إن هيپومينيس حبس ابنته بين أربعة جدران في بيت مهجور مع فرس طلوقة منع عنه الطعام فأصابه الجوع بالجنون. وهكذا عذبت البنت عذاباً عجيباً، ولكن العجب يخف إذا قارناه، على سبيل المقابلة، بالاسم هيپومينيس Hippomenes الذي كان الإغريق يطلقونه للتشهير على الغانيات والفاجرات، فالكلمة تدل على افرازات الأعضاء التناسلية التي تفرزها الفرسة الهانجة شبقاً (٣٤). وهذه هي لايمونه Leimône قد حكم عليها بأن يمزقها فرس طلوقة كناية عن الذي غواها، ولكن الفرس كان يملكه جنون مفترس يثير في النفس في الوقت نفسه فظاعة القوى الغيبية المابعدية. ويحكي الميثوس الثاني حكاية الأفراس التي امتلكها ديوميديس Dio-medes الشراقي، من أبناء أريس Ares، وكانت هذه الأفراس ولدت على ضفاف كوسينيتيس Kossinites الذي قيل إن مياهه تجعل الخيول التي تشرب منها تمتلئ بهياج عارم وحشي، وقد أسر هيراقليس Héraklès هذه الأفراس التي تشتهي أكل لحم البشر في عمل من «الأعمال» التي فرضت عليه، وأخضعها للنير ليسلمها إلى أوروستهيوس Eurustheus قبل أن يلوذ بالفرار إلى جبل قريب من أوليمپوس، وهناك مزقتها الكواسر الحقيقية إرباً (٣٥).

من خلال هذه المصورات المختلفة - التي تكشف على نحو ما السمة الوحشية في حيوان مستأنس كان الإنسان طوال تاريخه كله يتصور أنه يشعر تجاهه على نحو شبه تلقائي بمشاعر الثقة بل الصداقة - نجد أن علينا أن نحدد ذلك الجزء من الحصان الذي يتطلب الإخضاع والقهر في الميثوس عند بينداروس يقابل هذا الجزء تماماً ذلك الجزء في پيجاسوس الذي يقاوم جهود بيليروفون. فليس من قبيل المصادفة أن نجد أويريبيديس في معرض الحديث عن خيول

ديوميديس يذكر بصريح العبارة أن هذه الحيوانات لا تعرف الشكيمة، وأنها غير ملجمة achalinoi^(٣٦): أي خيول تأكل لحم البشر omophages، هي عكس الخيول الممرجة الملجمة المشكومة. وبالتبادل ينصب عمل الشكيمة التي توضع قهراً في فم الحصان على قوة هذا الحيوان الوحشية، على العنف العجيب الغامض الذي يبدو أنه يخلط الحصان والإنسان المسكون ويجعل منه نوعاً من جورجونة. هناك سلسلة طويلة من الكلمات المترابطة في الأنشودة الأولمبية الثالثة عشرة تسمح بتحديد دقيق لأسلوب عمل آلة الخيل: هذه الكلمات هي فيلترون philtion أي شراب (البيت ٦٨) فارماكون phármakon أي عقار (البيت ٨٥) تيراس téras أي شيء عجيب رهيب (البيت ٧٣)، يصبغها بصبغة محددة النعت داسيفرون damasiphron (البيت ٧٨) ومفهوم métra ميترا (البيت ٢٠). وكلمة تيراس^(٣٧) تفرض فكرة شيء خارق للمألوف، ولكنها تبين في الوقت نفسه أن هناك قوة عجيبة غامضة، وفعالية فائقة للطبيعة مركزين في الشكيمة، وكلمتا فيلترون وفارماكون تؤكدان وتحديدان بدقة هذه السمة الجوهرية للقوة السحرية. والشكيمة التي يحملها كل حصان يُكذن أو يُركب تبدو مناظرة للأشربة السحرية والعقاقير والمركبات العجيبة الغامضة التي كانت ميديا - ذكرها الشاعر مباشرة بعد الإشارة إلى دهاء الكورنثيين المبتيسي - تستخدمها أحسن من كل من عداها لكي تعطي ياسون Jason السيطرة على الثيران في مهمة الحرث، والهيمنة على الشعبان الهائل المكلف بحراسة الجزة الذهبية ليلاً ونهاراً. وهنا تبدو الشكيمة حاملة قوة سحرية مزدوجة الأساس. فالشكيمة chalinós من ناحية نتاج للمتعبين، هي ابن اللهب purigenes <مذكر>^(٣٨) أو من جنس اللهب purigenétes^(٣٩)، إنها كائن حي لا يأخذه نعاس أو نوم ágrupnos^(٤٠)، هي شيء معدني صنعتته وبشت فيه الحياة قوة الحداد، ودهاء هيفايستوس المبتيسي. ومن ناحية ثانية هذه الشكيمة الموضوعة في فم الحصان تؤثر عليه مثل المسكة السحرية. إنها عقار يكبل عنقه^(٤١). وبينداروس يصف الشكيمة بأنها damasiphron^(٤٢) أي التي تكبح الجماع، و praüs^(٤٣) أي التي تروّض، ويستخدم الاستعارة métra ميترا، وهي عدة القياس والمقياس والاعتدال. ويلجأ سوفوكليس إلى الصورة نفسها فيسمي الشكيمة الكماحة akestér^(٤٤) "تلك التي عليها مهمة التهدة"^(٤٥)، التي تعمل عمل العقار أو الدواء^(٤٦). إنها نفس العلاقة بين الشكيمة الكماحة والسحر المرسومة في الموروثات الثيسالية حول لابيثاي Lapithai- پيليثرونيون Pelethron-ion^(٤٧). في هذه المنطقة من جبل پيليون، يقولون إن الحصان الأول الذي بزغ من الأرض روضه واحد من اللابيثيين اسمه پيليثرونيوس Pelethronios وهو نفس اسم نبات عجيب

طلع من تلك الأرض ذاتها، وينسبون إليه كل القدرات الطبية والسحرية . كل هذه المعطيات تبين بما فيه الكفاية أن التأثير على الحصان، والتحكم في قوته المزعجة، يتطلبان أن تكون الشكيمة على نحوٍ ما من نفس طبيعة الحصان، أي أن تتضمن في ذاتها قوة غريبة وغامضة .

وهناك شاهد أخير يستحق أن نضيفه إلى الشواهد السابقة: ليس فقط لأنه يؤكد السمة السحرية للحصان ولكن لأنه يحدد هذه السمة على أساس علاقة مباشرة بينها وبين أثينة. هذا الشاهد عبارة عن أغنية خزاف انتقلت من خلال سيرة لهوميروس منسوبة إلى هيرودوتوس^(٤٨). تبدأ الأغنية بابتهاال إلى أثينة أن تبسط يدها فوق فرن الخزف لكي تجف الأشياء فيه على أكمل وجه، وتكتسي بطبقة جميلة سوداء لامعة وتؤتي عند بيعها بربح طيب^(٤٩). يلي هذا الجزء الأول جزء ثانٍ يتعرض فيه مؤلف الأغنية ، وقد يكون هوميروس، للحالة التي لا ينال فيها الخزافون جزاء ما بذلوا من جهد. ويورد نظرية طويلة عن شياطين القرن، وهم : الكاسر Súntrips ، الشارخ Smáragos ، المستعر أبداً Asbestos ، والمفتت Sabáktes^(٥٠). هؤلاء الشياطين كما تدل أسماؤهم الوظيفية بوضوح يحطمون الآنية ويحولونها إلى فتات. ويتحدد التهديد بدقة في الصورة التالية: hos gnáthos hippeie brúkei, brúkei dè káminos « ليطلق القرن صَخّة دونها تلك التي يطلقها فم الحصان»^(٥١) وتتوالى سلسلة من الصور تدعم الصورة الأولى، وهي صور: سحر «الساحرة» كيركي Kirké وسمومها العنيفة والقنطوري والفظاعة العارمة^(٥٢) والأغنية كلها مبنية على تضاد مزدوج: هناك - من ناحية - تضاد على مستوى محسوس وتقني بين الخزفيات التي جففت على أكمل وجه وبين الخزفيات المحطمة؛ وهناك من ناحية ثانية تضاد على مستوى ديني بين أثينة وشياطين القرن. نجد على هذا المستوى الأخير تناظراً بين الشياطين المنهمكين في التحطيم، والنار المستعرة التي تنسف الخزفيات، وسموم كيركي، وهجوم القنطوري وبين الصخ المزعج الذي يطلقه فك الحصان. وعلى الرغم من أن هذا التضاد ليس محورياً في الأنشودة فمن الممكن استخلاصه وملاحظة أنه تضاد بين صورة أثينة التي تساعد الخزاف على السيطرة على قوة النار المزعجة وبين صورة حصان مليء بالهياج والصخ.

هذا الصخ الذي يحدثه الحصان يذكره إيسخيلوس مرتين من حيث هو صورة للموت والحرب. فعندما يحيط السادة السبعة بمدينة ثيبة «تلق الشكائم الأجراس بين فكي الحصان منذرة بالمذبحة»^(٥٣)؛ ويشتد الخوف عند سماع ضجيج العربات، وصرير محاور العجلات

والصخ الذي تحدثه الشكيمة المتولدة من النار، الشكيمة التي لا يأخذها إغفاء ولا نوم في أفواه الخيول^(٥٤). هذا الحصان الشره المفترس الذي يطلق فمه الغاضب صخ الشكيمة، وهي شكيمة تتخذ هنا سمات النار المزعجة التي أنتجتها، هذا الحصان يلوح لنا مثل الصورة المقلوبة للحصان الذي أخضعته إرادة أثينة للكماحة. ومع ذلك فحصان الحرب الذي أفرع الشيبين، في مسرحية إيسخيلوس التراجيدية، ليس هو بالضبط الحيوان المفزع الذي تحدث عنه أنشودة الخزاف. فإذا كان حصان أنشودة الخزاف يطلق صخاً من فك لا يعرف الشكيمة (لا يختلف في ذلك عن خيول ديوميديس المفترسة) فإن الحصان الآخر بما له من وظيفة حربية حيون يُركب له لجام وعُدة. ولكن الشكيمة التي تتحرك في فمه - إذا كانت هي العدة التي يستخدمها الفارس ليقود مطيته - فهي أيضاً بطبيعتها نارية وبالقرقة المعدنية التي يبثها تمثل مضاعفة للصخ المشثوم الذي يبثه فك الحيوان. في المعركة التي قام بها السادة السبعة ضد ثيبة، جاء توتر الحصان، وإظهاره التبرم والعصبية داعماً قوة الفارس الحربية الذي كان يسعى إلى ضرب أعدائه بالرعب. ونحن نعرف أن ميثوس بينداروس يشدد أيضاً على هذه النقطة. فما تَلَقَّى بيلليروفون - الذي وُصف بهذه المناسبة بالقوي القدير karterós^(٥٥) الشكيمة من يد أثينة حتى قفز فوق الحصان بينجاسوس، وجعل - وهو يرتدي عدته العسكرية البرونزية - حصانه يؤدي «خطوة رقص عسكرية» enóplia paizein^(٥٦)، رقصة من نوع الپورهيك، وهي رقصة حربية كثيراً ما زعموا أن أثينة هي التي اخترعتها، وكانوا يرقصونها قبل أو بعد المعركة^(٥٧). وحصان بيلليروفون - على الرغم من أنه ينصاع طواعية لأوامر سيده - عندما يقوم برقصة حربية يجعل بريق البرونز الذي يتلألأ فيه الفارس أكثر إثارة للرعب. وهذه هي النظرة المتأججة التي تنظرها أثينة المسلحة تزداد تحديداً نتيجة الصرير الذي تحدثه الشكيمة، تلك الآلة التي ولدت من النار، والتي بفضلها تمنح القوة الإلهية نفسها السيطرة على العنف الغاشم للحصان كما خلقه پوسايدون.

ونصل من خلال العلاقات المختلطة بين الحصان والشكيمة إلى تصور مُعَيَّن للشكيمة، لهذا الشيء التقني، هذه الآلة التي تروض الحصان، كما نصل إلى تعريف أول للذكاء الذي تستخدمه أثينة في تأثيرها على الحصان. ففي استطاعتنا الآن أن نحاول تحديد كيف تتخذ القوتان الإلهيتان الموجودتان في ميثوس بينداروس مواقعهما الواحدة تجاه الأخرى في علاقتهما المرجعية المشتركة بالحصان. وعلى مستوى ميثوس بينجاسوس نجد الأنصبه الخاصة بأثينة وپوسايدون على التوالي مرسومة بوضوح، ونجد وسائل العمل مبينة بوضوح. الميثوس كله تهيمن عليه أثينة «ربة الخيل»، أثينة هيپيا، التي أصبحت عندما دخلت المجال الثقافي

الكورينشي «أثينة ربة الشكيمة»، أثينة خالينيتيس. بهذه الصفة اتخذت أثينة ربة الخيل بالكامل جانب الشكيمة، الخالينيتيس. ونحن نعرف ذلك على نحو أفضل، بخاصة بعد أن بين بحث ممتار أن الأسطورة الكورينثية عن اختراع الشكيمة هي حدث محدد في تاريخ التقنيات. وهذا هو ن. يالوريس N. Yalouris يتلقف الافتراض الذي طرحه فيلاموفيتس Wilamo-witz^(٥٨) واقترح فيه اعتبار الفارماكون प्राو «العقار المروض» pharmakon प्राु اختراع شكيمة أقل بدائية، واستطاع يالوريس^(٥٩) أن يبين من خلال بحث تنميطي أنه إذا كانت أجزاء السرج المختلفة قد صورت في كل أنحاء بلاد الإغريق بغير عناية على المصورات السابقة على القرن السادس قبل الميلاد، فإن هذه الأجزاء نفسها قد صورت في كورينثيا على العكس من ذلك بالعناية أعظم العناية، بالإضافة إلى أن النقود التي سكّت في كورينثيا آنذاك تؤكد وجود عبادة أثينة ربة الشكيمة منذ القرن السابع. يبدو إذن أن تصوير أثينة ربة الخيل في كورينثيا واكب إنجاز غمط شكيمة أكثر فعالية كما واكب تطويراً متميزاً للمعارف الخاصة بالخيل. ظهرت أثينة ربة الشكيمة في مجتمع يهيمن عليه الباختياد، طبقة أرستقراطية من ملاك الأرض لها نفس طبيعة الرجال أرباب الخيل hippeis والخيالة hippobótai، الذين تقوم الشواهد على وجودهم في مدن مختلفة في ذلك العصر^(٦٠). قامت عبادتها في شريحة اجتماعية، هي شريحة «سادة الخيل»، الخيالة، كان الحصان، هذا الحيوان الذي خلقه بوسايدون، بالنسبة إليهم آلة حرب، وقيمة اقتصادية، ودلالة كرامة اجتماعية وعلامة نفوذ سياسي. وبعض الممارسات المتبعة في هذا الوسط من الأشراف والأرستقراطيين يمكن أن تُبرر دون جهد تَمَيُّز ربة ذات شكيمة. مثلاً في ملحمة الأرجونوتية - ملاحي أرجو - نجد ياسون المرة تلو المرة يقدم إلى ضيفه هدية عبارة عن شكيمة حصان ثيسالية^(٦١)، وهذا هو «القائد» كيمون Kimôn الأثيني عشية «واقعة» سالاميس Sal amis يقدم على هيكल أثينة قربانا هو شكيمة حصان^(٦٢).

على المستوى التقني وهو مستوى خالينيتيس أي ذات الشكيمة يمكن تعريف عمل أثينة على نحو أفضل إذ لا بد بالضرورة من مقابله بعمل هيفايستوس الخصب. فالشكيمة التي ولدت من اللهب هي درة من درر الحداد يمكن أن ينسبها هيفايستوس لدهائه الميتيسي الخاص. ومع ذلك فميثوس بينداروس لا يدع مجالاً للشك في هذه النقطة: الشكيمة التي تعطيها أثينة لبيليرفون لا تعتبر منتجاً من منتجات التعدين، لا تعتبر درة من الدرر التي أحيها هيفايستوس بما بثه فيها من قوته الصانعة الدييورجية؛ إنما يتمثلها الفكر على أنها شيء تقني يسمح بالسيطرة على حيوان لا يمكن التنبؤ بردود فعله. إنما يكمن في هذا النموذج الميثي

لهذه الآلة سر أسلوب التدخل التخصيص بأثينة، فأثينة هي القوة التي تمنح البشر على هيئة آلة قوة تقنية وسحرية معاً للهيمنة على الحصان من حيث هو الحيوان الذي خلقه پوسايدون. وعلى هذا يتحدد على الفور دون ما جهد نصيب پوسايدون. الحصان مخلوق من مخلوقات پوسايدون بكل القيم التي تبيّنّاها في پيجاسوس: سمات قوته الجهنمية، وقوته الحربية، وبحميته، أي بكل ما يتطلب على نحوٍ ما تدخل شكيمة. في مواجهة سيد الخيول هذا «پوسايدون» يبدو نصيب أثينة «صناعياً» على نحو مزدوج، أولاً لأنها قوة متجهة نحو «الصناعة» التي هي في وقت واحد دهاء ومهارة تقنية، وثانياً لأنها تعمل عملها من الخارج وعلى نحو مؤقت يؤثر على شيء ملموس ليس ملكاً لها، لأنها تظهر دائماً «بجانب آخر»، بجانب بيلليروفون وبجانب پوسايدون هيببوس .

وقد يكون من الضروري أن نستبعد منذ الآن تفسيراً يمكن أن يفرض نفسه بسهولة على أساس أن أثينة ربة الشكيمة يبدو من الضروري ربطها بعلاقة مع بعض معطيات تاريخ التقنيات؛ فتكون أثينة في معناها هي الثقافة التي تروض الحصان ضد الطبيعة التي رسمها پوسايدون في هذا الحيوان نفسه. مثل هذا التخطيط التفسيري لا يقيم وزناً لعدد من سمات پوسايدون الهامة على المستوى الميثي وعلى المستوى الثقافي جميعاً. فهو بصفة خاصة لن يسمح لتقديم تفسير للسبب الذي يجعل العربة التي كدن الخيل إليها تنتمي أيضاً إلى پوسايدون. فنحن نجد في الإلياذة (٦٣) ما يعني أن پوسايدون علم أنطيلوخوس «فن الحرب بالعربات والجياد» ، علمه كل أساليب استخدام العربة والخيول (٦٤). ثم إن البطل نفسه، عندما دُعي في نهاية المغامرة، إلى أداء يمين علني يستشهد فيه پوسايدون، وضع يداً على الخيل، أما اليد الأخرى فأمسك بها بقوة سوط قائد العربة (٦٥). ونذكر أخيراً أن الجياد دُفع بها تكريماً لپوسايدون إلى مياه الديني Diné في أرجوليس Argolis مجللة بطقوما (٦٦).

ولكن من الخطأ أيضاً أن يذهب ذاهب إلى وضع أثينة وپوسايدون في علاقة مباشرة في مرحلتين مختلفتين من مراحل تاريخ الحصان، إحداها هي مرحلة العربة التي تميز العالم الموكيناوي (Mykênai)، والثانية مرحلة تطوير فن الخيل الذي انتشر في بلاد الإغريق في مطلع الألفية الأولى بواسطة الشعوب الحيالة (٦٧). حتى إذا قام دليل على أن الشكيمة أداة جاء تطويرها في مرحلة الترويض الذي يميز استخدام الحصان حيواناً مسرجاً للركوب (٦٨)، فإن أثينة لا يمكن قصر سلطتها على مجرد علاقة متميزة بشكيمة حصان الركوب (٦٩)؛ فسلطانها أوسع من ذلك بكثير، فهو يشمل - علاوة على الحصان - العربة وخيول السباق المكذنة.

وسنوافق راضين على أن الفكر الديني لا يعكس تاريخاً تقنياً يأتي پوسايدون وأثينة لإظهار تطورات المتابعة.

* * *

هناك عدد من المصورات الميثية والموروثات الأسطورية والمعطيات الثقافية التي تجمع في مشاهدنا أثينة وپوسايدون والحصان، تضع بين أيدينا طائفة من المواقف التي نستطيع من خلالها أن نختبر تعريف وسائل العمل الخاصة بكل قوة من هاتين القوتين الإلهيتين. نستخلص من هذه الطائفة من المواقف أو الحالات ثلاثة أمثلة:

- شعائر أونخيستوس Onchestos

- أسطورة أريون Arion

- قصة سباق إيريكثيوس Erechtheus واسكليميس Sklemis.

أما المثل الأول فهو حالة «شعائر أونخيستوس» التي ستتيح لنا أن نحدد على نحو أفضل أساليب تدخل پوسايدون هيبيوس، لأن الشعائر البوئيتية العجيبة «نسبة إلى بوئيتيا Boiotia حيث مدينة ثيبة» أدخلت تمييزاً قاطعاً بين الخيل المكدة من حيث هي مجموعة من الخيل وبين قائد العربة من حيث هو قائم بدور القائد. و«الأنشودة الهوميروسية إلى أبوللون» هي التي تحكي بالفاظ كثيراً ما نجدها كالألفاظ الممارسة الشعائرية المستخدمة في أونخيستون (٧٠): «من هناك، مندفعاً إلى أمام، أيها القائد أبوللون، بلغت أونخيستوس، ساحة پوسايدون الرائعة. هناك يلتقط المهر، الذي روض حديثاً، أنفاسه neodmès polos، على الرغم من أنه يظل حاملاً ثقل العربة. ومهما يكن قائد العربة من الخدق، فهو يقفز إلى الأرض، ويقطع الطريق سيراً على الأقدام. وما تجد الجياد نفسها بلا يد تمسك زمامها، حتى ترج هيكل العربة وقد خلا، رجاً مدوياً. فإذا تحطمت العربة في الغابة المليئة بالشجر، ضمد القادة جراح الجياد، تاركين العربة مائلة tà de klinantes eosin. هذا ما كان القانون الإلهي منذ الأصل يسمح به للبشر hos gàr tà pròtisth' hostie. كان الداعي يدعو الرب، وكان الرب بما أوتي يحمي عندذاك العربة diphron de theou tòte moira phulássein. «وقد ألقت تحليلات ج.رو G. Roux الضوء في براءة على معنى الاختبار الذي كان يخضع له الجواد الحديث الترويض في بلد مربى الخيول هذا. عند مدخل غابة پوسايدون المقدسة القائمة على ربوة يهبط القائد من العربة إلى الأرض ويترجل، مهما كانت مهارته، ويترك الجواد الفتى تحت الشجر. وهناك احتمالان، ثانيهما هو وحده الذي ورد وصفه صراحة، ولكنه يفترض وجود الاحتمال

الأول (٧١). فإما أن يحفظ الجواد هدوءه، وقد ترك لشأنه، على الرغم من صخ العربة، وغياب القائد، فيجتاز الغابة دون عائق، ويقود العربة إلى بر الأمان، < هذا هو الاحتمال الأول >. وإما أن يضطرب الجواد نتيجة حريته، ويجن من أثر صخ العربة وقد خفت وخلت من راكبها، فيعض على الشكيمة، ويرطم العربة في الأشجار، < وهذا هو الاحتمال الآخر >. في إحدى الحالتين يثبت الحصان أنه قد روض بما فيه الكفاية ليحتمل صخ العربة ويستأنف طريقه دون أن تمسك بزمامه يد. في الحالة الثانية يظهر المهر أنه حيوان عصبي هائج مثل تلك المهار التي تجفل أمام جارها أو تدع ظواهر المباغلة تزعجها (٧٢). في هذه الحالة الأخيرة، عندما يفزع الحصان سريعاً، يُدعى الرب پوسايدون : فالعربة - لا نعني الهيكل، بل الخيل المكذنة - تحت حمايته.

في شعائر أونخيستوس نجد حقل عمل پوسايدون يتحدد بثلاث سمات هامة.

- نلاحظ أولاً أن كل شيء يجري خارج، أعلى هامش عمل قائد العربة. فقائد العربة يغادرها، وتبقى هناك خيول مكذنة مجردة من كل ما يمثل الإنسان الواقف على العربة.

- ونلاحظ ثانياً أن الاختبار يجري في مكان يغمره الرعب حيث يمكن أن يصاب الحصان بخوف عارم: وقائد العربة يغادرها في الوقت الذي تلج فيه الخيل غابة پوسايدون المقدسة.

- ونلاحظ ثالثاً وأخيراً أن ما نتطلبه صراحة من پوسايدون، ليس أن يهدي الخيل المكذنة الطريق المستقيم، ولا أن يهب الحصان المكذن القوة والسرعة اللتين تسمحان له بالانتصار على الآخرين في السباق أو في الحرب. كان تدخل پوسايدون أكثر تحديداً: كان على رب أونخيستوس أن يحمي الخيول المكذنة (٧٣)، وكانوا يدعونه ليحمي العربة من خطر عرفنا من قبل تهديده في مصورات تاراكسيپوس المختلفة، تاراكسيپوس مرعب الخيول، أي الشخص الذي هو الوجه الآخر لپوسايدون هيپيوس.

وشعائر عبادة تاراكسيپوس (٧٤) هي تلك التي تقوم بينها وبين شعائر أونخيستوس التوافقات أكثر التوافقات. فغابة پوسايدون مكان له نفس طبيعة منعطف دروموس Drómos. والاختبار في أوليمبيا وفي أونخيستوس واحد؛ إما أن يبقى الحصان هادئاً، فيدور الدوران في غير خوف كما يجتاز الغابة دون أن يرتاع؛ وإما أن يستبد به الخوف deîma فيقلب قائده ويحطم هيكل العربة. هناك نموذج واحد يُعَلِّمُ پوسايدون في أونخيستوس وتاراكسيپوس في أوليمبيا.

ولكن هناك بعض الفروق بين هذا وذاك علينا أن نستخرجها: العربات في أوليمبيا عربات يركبها قادة، بينما العربة في أونخيستوس خالية من قائدها. ونلاحظ من ناحية أخرى أنهم

في أوليمبيا كانوا يرفعون الدعاء إلى تراكسيپوس قبل سباق العربات، بينما كانوا في أونخيستوس يكلون إلى پوسايدون حماية العربة بعد نهاية الاختبار. وقد يبدو هذا الاختلاف الأخير هيناً، ولكنه يكشف عن سمة جوهرية تسم دور پوسايدون. وإذا كانت شعائر أوليمبيا وشعائر أونخيستوس مهيكلتة على النحو نفسه، فإن الزمنية الخصيصة بهما لا تفصلهما بعضهما عن البعض، بل تصنع بينهما تكاملاً وثيقاً. فمن الممكن اعتبار شعائر تراكسيپوس وشعائر أونخيستوس بمثابة «مقدمة» و«خاتمة» منسك واحد. في الشعائر الأولى يقدمون القرابين إلى تراكسيپوس أي إلى پوسايدون هيپيوس قبل السباق راجين أن يحرس الخيل المكدة. أما في الشعائر الثانية فيبتهلون إلى پوسايدون «بعد» الاختبار لكي يرعى الخيل المكدة التي رُوِّعت.

هكذا يتحدد حقل عمل پوسايدون «رب الخيل» على نحوين، يتحدد أولاً بناء على البديلين اللذين يقوم عليهما الاختباران: إما أن يظل الحصان هادئاً وإما أن يتخذ الشكيمة بين أسنانه. ثم يتحدد حقل عمل پوسايدون بعد ذلك بدقة بناء على النموذج الزمني الذي ترسم خطوطه من خلال مقارنة الاختبارين. فپوسايدون يُدعى قبل أو بعد السباق، وليس في أثنائه، ولهذا فهو يبدو أنه يلعب دوراً سلبياً في جوهره. فهو موافق على ألا يرعب الخيل المكدة، وعلى ألا يُظهر في مخلوقه القوة المزعجة التي تجيش فيه، ولكن پوسايدون مع هذا كله لا يمنح السيطرة على الحصان والعربة. كانوا يدعونه قبل أو بعد السباق، فكان موقعه «في هذه الناحية» من مستوى العمل الذي لاحت لنا أثينة ممثلة له. «في هذه الناحية» من كل ما يعني السيطرة على سباق الحصان.

أما المثل الثاني فهو حالة «أسطورة أريون» التي تدور حول الحصان أريون Arion، والتي ستُبَيِّن لنا بناء على خيل مكدة ميثية، كيف تتحدد وسائل عمل أثينة ووسائل عمل پوسايدون كل على حدة. مثل هذا المشروع البحثي يمكن أن ينفطر عقده: أليس أريون حصاناً فريداً لا نظير له، وأليس هو علاوة على ذلك حصان ركوب؟ وهو من حيث نسبه يشبه پيجاسوس، كما يشبه الأخ أخاه. وهو مثل پيجاسوس من مخلوقات پوسايدون، فقد ولد عن عشق پوسايدون هيپيوس لديميتير إرينوس Démèter Erinús ذات الرأس الحصاني (٧٥). وأريون حيوان خارق للمألوف، إنه «منظر مدهش للبشر»، بحسب تعبير أنتيماخوس Antimakhos في ملحمة «التيبيادة Thebais» (٧٦)، يلعب الحصان أريون دوراً حاسماً في مشهد من مشاهد «التيبيادة Thebais»: فهو الذي يعيد على ظهره

أدراستوس Adrastos الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد الكارثة الذي مني بها أهل أرجوس أمام ثيبة Thébai^(٧٧). ولبيان انتماء الحصان أريون إلى پوسايدون نرجع إلى شهادة تفرض نفسها، هي مشهد أنطيلوخوس Antilokhos في الأثنشودة ٢٣ من «الإلياذة». رأينا أن أنطيلوخوس كانت لديه خيول أقل سرعة من الخيول المنافسة، ولكن بفضل الدهاء الميتيسي الذي علمه إياه الشيخ نيسطور Nestor ضمن الفوز في سباق العربات. عَلِمَ أنه إذا نجح في استغلال ضيق الطريق في حمل منافسه على الالتواء، ليسبقه ويتجاوز المنعطف، فسيفوز، وقد وعده نيسطور بأن خيوله الأقل سرعة ستسبق الجياد الأكثر سرعة: «ولن يكون هناك من يستطيع أن يغلبك ويسبقك، حتى ولو دفعوا على أثارك بأريون Arion، حصان أدراستوس Adrastos السريع المنحدر من أصل إلهي»^(٧٨). يظهر التضاد هنا واضح المعالم بين خيول أنطيلوخوس التي يدفعها دهاء قائدها الميتيسي، وأريون، الحصان القوي، السريع سرعة الريح، الحصان پوسايدوني الخالص.

في الدائرة الملحمية وفي الملحمة الهوميروسية، يظهر أدراستوس على هيئة الخيال المحتطي صهوة أريون^(٧٩). ولكن هناك ماثورات أخرى، متأخرة عن هذه فيما يبدو، نرى فيها أدراستوس على هيئة قائد عربة كأي بطل آخر من أبطال الملحمة. وتصف «ثيبادة Thebais» أنطيماخوس

Antimakhos الكولوفوني «من كولوفون Kolophon» خيل أدراستوس المكذبة، وهما حصانان: الأول اسمه أريون والآخر اسمه كايروس Kairós^(٨٠) ويمكن أن نترجم مدلول كايروس إلى = اللحظة السانحة والفرصة العابرة. فإلى امتياز أريون، إلى قوة الحيوان پوسايدوني أضيفت مقدرة الثاني على المناورة، وفنه الجوهري في السباق، ألا وهو تحين الفرصة السانحة «كايروس» kairós، والتفزز في اللحظة الحاسمة^(٨١)، باختصار مجموعة الصفات التي يدل عليها الدهاء الميتيسي، هذا الدهاء الميتيسي الذي يحدد فن سائق العربة وسيطرة القائد^(٨٢). في هذا الجمع تحت نير واحد بين أريون وكايروس نجد أنفسنا سائرين إلى تبين سمتي الحصان اللتين تترجمهما على المستوى الإلهي قوة پوسايدون ودهاء أثينة الميتيسي. وهناك نص تراثي في Etymologicum Magnum^(٨٣) يبدو أنه يؤكد هذا التفسير. كان هناك مكان مشهور في كولونوس Kolonós يسمى كولونوس هيبيوس فيه من ناحية هيكل مشترك لپوسايدون هيبيوس وأثينة هيبييا، وفيه من ناحية أخرى معبد هيري مخصص لأدراستوس بصحبة ثيسيوس Theseus وپيريثويس Pirithoüs وأوديبوس Oedipous. وكانوا يقولون إن هذا المكان هو الذي رفع فيه أدراستوس، وهو يفر من الموت، الدعاء صريحا

إلى القوتين المختصين بالخييل، پوسايدون هيبيوس وأثينة هيپيا، أن يساعدها. دعاها جميعاً لأن تضافرهما الإلهي كان بطبيعة الحال متضمناً بلا شك في تضامن الحصانين أريون وكايروس. أما علاقة التضاد بين پوسايدون وأثينة التي لاحظناها في حكاية پيجاسوس، وحده، بما هو حصان پوسايدون الذي روضته شكيمة أثينة، فنحن نلتقي بها في هذه المرة في حكاية أدراستوس يمثلها حصانان. ومن البديهي أن هذا التباين في الصياغة تربطه علاقة بالطريقة المختلفة لاستخدام الحصان: فپيجاسوس حصان ركوب؛ أما أريون وكائيروس فيمثلان الخيل المكدن الذي يجر العربة.

ومن هنا ، وعلى مستوى العربة، وفي سياق يبدو فيه نصيب پوسايدون أعلى هيمنة، نسأل عن مسار خط التحديد الفاصل بين ما يخص پوسايدون وما يخص أثينة؟ إلى جانب الحل الذي يقدمه لنا اختراع أدراستوس، هناك حل أكثر اتساعاً وبلا شك أكثر عمومية ينبهنا إليه مؤرخ من القرن الثاني قبل الميلاد، هو مناسياس Mnaseás الپاتاري <Patara> (٨٤). في معرض الحديث عن فن العربات الذي زعم أهل ليبيا أنهم اكتشفوه، يقول مناسياس إن الليبيين يزعمون، علاوة على ذلك، أنهم تعلموا من پوسايدون فن كدن الخيل إلى العربات háрма zeûxai وتعلموا من أثينة فن قيادة الخيول المكدنة heniocheîn. هناك خط فاصل بين مجالين: العربة بالخييل المكدنة من شأن پوسايدون الذي يوصف بأنه hippodrómios (٨٥) و zúgios (٨٦)؛ أما فن قيادة الخيل والعربة فمن شأن أثينة. ونسأل على نحو أدق : عم يدل عمل القائد heniocheîn؟ في فن قيادة العربات، ليست الشكيمة هي التي تعطي القائد السيطرة على العربة: عمل الشكيمة هنا أقل أهمية بكثير من عملها في فن ركوب الخيل حيث تُوجَّه الحصان الذي يمتطي صهوته خيال. ومع ذلك فليس اللجام henia من حيث هو شيء تقني هو الذي نتعرف إليه في اشتقاق فعل heniocheîn «يقود العربة». نصيب أثينة ليس ضيقاً، إنه يغطي كل منظومة أفعال القيادة التي ينبغي على قائد العربة أن يكون متمكناً منها: اللمحة، رد الفعل السريع، الانتباه الحاد إلى تصرفات الخيول المباغطة، إلى تفاوت شكل الأرض، إلى كل العوائق التي يمكن أن تفسد مشوار العربة ولكن القائد الأريب الحصيف hippómetis يمكنه أن يستغلها لتفيده أحسن الفائدة.

هذه المواقف الخاصة بالخييل التي قد يلوح فيها پوسايدون وأثينة في حالة من التنافس تقدم لنا المثل على الأساليب المختلفة التي يسعى الفكر الديني من خلالها إلى الإشارة إلى التعارضية والتكاملية بين قوتين تتدخلان في نفس المجال بوسائل عمل متميزة. ولقد استخلصنا إلى الآن ثلاثة أنماط:

- إذا كان الأمر أمر حصان ركوب فالحيوان من شأن پوسايدون أما الشكيمة فمن شأن أثينة ؛

- إذا كان الأمر أمر خيل مكدنة إلى عربة ، فإما أن تكون كل قوة من القوتين يمثلها حصان من الحصانين،

- أو يكون الحصانان المكدنان جميعاً تحت هيمنة پوسايدون ، ويعمل القائد بوحى من أثينة.

هذا النمط الأخير كما استخلصناه يسمح لنا من الناحية العكسية بأن نرى على نحو أفضل في حالة شعائر أونخيسستوس أن قوة پوسايدون المؤثرة على الخيل المكدن يحددها انسحاب القائد. والموقف الثالث المختص بالخيل والذي بقي علينا أن نفحصه سيبين لنا طريقة رابعة لتحديد الخط الفاصل بين القوتين في عملهما على شيء واحد ملموس.

في الملحمة الهائلة ذات الثماني والأربعين نشيداً والتي ألفها نونوس Nonnos البانوبوليسي «پانوبوليس Pannopolis الاسم الإغريقي لمدينة أخميم المصرية» تمجيداً لديونيسوس في مطلع القرن الخامس الميلادي، يصف النشيد ٣٧ المباريات الجنازية التي جرت بعد موت إوفيلتيس Opheltés صريعاً بعد الضربات التي سدها إليه ديرباد Dériade ملك الهند. يتواجه في السباق متنافسان يسيطران على المغامرة كلها، هما: إيريكثيوس Erech-theus واسكليميس Sklemis. أولهما وهو إيريكثيوس، الذي تحميه أثينه، يقود حصانين مكدنين هما اكسنثوس Xanthos وپوداركي Podarké؛ وثانيهما وهو اسكليميس من نسل پوسايدون يقود العربة فوق البحر. في المسار المستقيم المؤدي إلى الوصول يتقدم اسكليميس، فحصانهما هما الأسرع. وإيريكثيوس يتبعه، وكل منهما يدعو القوة التي تحميه، اسكليميس Sklemis يدعو پوسايدون، سيد كل العلم المختص بالخيل hipposúnes ku- bernetera^(٨٧)؛ وإيريكثيوس يستنجد بأثينة التي تدفع الخيل إلى الأمام^(٨٨). منذ هذه اللحظة يصبح السباق معركة بين الدهاء والقوة. إيريكثيوس الذي يحتكم على دهاء متموج aiolómetis^(٨٩) يدبر مناورة خبيثة^(٩٠)، قَلَّ حُبُّهَا أو كَثُرَ، مَكْنَتُهُ من الفوز على حصاني غريمه المكدنين الأسرعين. فقد ضرب بسوطه ضربة دفع بها حصانيه إلى مستوى عربة اسكليميس، ثم شد بيده اليسرى لجامي غريمه شدة عارمة، واستفز بيده اليمنى حصانيه استفزازاً شديداً متوالياً. واستغل إيريكثيوس تقدمه الطفيف فدفع عربته مباشرة أمام عربة اسكليميس ؛ وعرقله بلفة ملتوية؛ وهكذا فاز الدهاء الميتيسي. وانتصر خيل أثينة المكدن

على خيل پوسايدون. ويهدف الفصل كله إلى إظهار تفوق الخيل المكدن الذي استطاع قائده - بدون أن يضع ثقته في قوة حيواناته - أن يحقق فائدة كبرى من أخطاء غريمه ومن ظروف السباق. وهناك بيتان من الملحمة يلخصان الاختلاف بين أثينة وپوسايدون: «ذكاء قائد مليء بالدهاء الميتيسي هو عجلة القيادة الحقيقية التي توجه العربة pedálion diphroio» (٩١).

هذا المثل الأخير الذي يستند إلى صيغة جديدة تماماً - هي عربتان تتواجهان، بدلاً من حصانين يتعاونان في جر عربة واحدة - يدعم كل الدعم اختلاف وسائل العمل وهو الاختلاف الذي على أساسه يقوم الثنائي أثينة وپوسايدون في مجال الخيل (٩٢).

عندما يتواجه أثينة وپوسايدون بوساطة كائن ملموس - هو الحصان المكدن أو الممتطي - فإنهما يكونان أبعد من أن يختلطا في وضع واحد مبهم هو وضع «سيد الخيل» (٩٣) يكون مشتركاً بينهما، بل يتمايزان تمايزاً واضحاً بناءً على شكل تدخل كل منهما في حقل عمل واحد. ولقد بين لنا ملف أثينة هيبياً كاملاً أن نصيب أثينة يتمثل في السيطرة، السيطرة على الحصان بالاستعانة بأداة مزودة بالفعالية، والسيطرة على قيادة العربة، سواء كان الأمر أمر قيادتها على مسار مستقيم دون التواء أو حيدٍ عن الطريق، أو أمر استغلال اللحظة المناسبة، أو اهتبال الفرصة. كلها سمات تترجم في هذا السياق المختص بالخيل دور دهاء أثينة الميتيسي وذكائها الذي يتصف في أن واحد بأنه دهائي وتقني وسحري. في مواجهة هذه القوة التي تمنح السلطة على الحصان والعربة، يثبت پوسايدون ذاته بما هو سيد الخيل، ولكن سيادته تقف من حيث المبدأ عند ذلك الحد الفاصل الذي تبدأ عنده الصنعة سواء كانت تلك الخاصة بالشكيمة أو بقائد العربة. وپوسايدون، بما هو سيد الحصان، على هواه، يضبط حمية مخلوقه أو يطلق ما به من عنف. ولكنه يظهر دائماً على هيئة المالك الحريص، القابض على حقوقه. وإذا كان پوسايدون ينزل عنها أحياناً عن طيب خاطر فإنه لا يحب لامتيازاته أن تُغتصب. وتأتي جزئية في ميثوس پيجاسوس لتبين أن أثينة تعرف تماماً هذا السمة من سمات پوسايدون: ففي الوقت الذي تخرع فيه الشكيمة، تلك الآلة التي تسمح لبيليريفون بالسيطرة على ركوبته، نراها تُذكره وقد أظلمته بحمايتها بأنه ينبغي عليه بادئ ذي بدء أن يمجّد پوسايدون «المروض Damaños» (٩٤)، بأن يقدم إليه الحصان المسرج الملجم المزود بالشكيمة التي اخترعتها، ويتقرب إليه بأضحية هي ثور أبيض (٩٥). هكذا تتصرف أثينة تتصرف الصائب الكامل الصواب: فتعطي لپوسايدون ما لپوسايدون.

الباب الثامن

زاغة البحر

في أغلب المجالات التي تشهد ممارسة عمل أثينة. نجد عدداً معيناً من الوقائع الشعائرية، والحكايات الميثية والمصورات تسمح بأن نتبين، في لمحة أولى، تصويراً تقريبياً لهذه القوة الإلهية، سواء كانت هي أثينة المحاربة المربعة ذات العين البرونزية، أو كانت هي أثينة مروضة الخيول، مخترعة شكيمة الخيل، أو كانت هي أثينة العاملة الخبيرة بشغل النسيج.

أما أن تكون أثينة التي يبدو أننا نتأهب لتقديمها، أثينة بحرية، فهذا مسمى ينضوي على المخاطرة ليس فقط من حيث إظهارها على هيئة غريبة، بل على هيئة توشك ألا تقوم لها قائمة. أما إظهارها على هيئة غريبة فلأن البحر ليس على ما يبدو مجالاً يمكن أن تنافس أثينة فيه بوسايدون، كما نافسته في مجال العربة والحصان. وأما إظهارها على هيئة توشك ألا تقوم لها قائمة فلأنه ليس هناك شعائر هامة تقدر أن أثينة ربة بحرية يفرضها ميثوس كبير فرضاً حقيقياً. ولكننا إذا فحصنا الموضوع بمزيد من التدقيق اكتشفنا في عمل أثينة طائفة كاملة من التدخلات تقع في إطار البحر والملاحة. فعندما قرر تليماخوس في «الأوديسا» أن يخرج للبحث عن أوليسيس، كانت أثينة هي التي جهزت الرحلة وقادت السفينة. كذلك بالنسبة إلى رحلة «الأرجونوتية» «ملاحي سفينة أرجو» كانت هي التي بنت السفينة، واختارت الريان وخفت لمساعدته في لحظة عبوره ممراً خطيراً. وبصفة أكثر عمومية نلاحظ أن أثينة هي التي اخترعت أول سفينة عرفها البشر، سواء ألت إلى داناؤس Danaos أو كانت مركب ياسون ورفاقه «الأرجونوتية»، وهناك أخيراً عدة إشارات إلى أن هناك أثينة غريبة تحمل اسم طائر بحري هو زاغة البحر aithuia.

انطلاقاً من هذه المعطيات الأخيرة، وبغية البحث في تحديد دقيق لطبيعة هذا الطائر البحري، سيمكننا أن نرسم الحدود الأولى للمجال الذي ستدخل فيه السمات المختلفة التي تتسم بها أثينة بحرية. في الصفحات الأولى من كتابه «وصف بلاد الإغريق Peri hegesis

tes Hellados ، يذكر پاوسانياس Pausanias أن هناك على ساحل ميجارا Megara رأساً skópelon يسيطر على البحر: هو مكنم Athena aithuia أثينة الزاغة ^(١). وفي المكان نفسه قبرٌ دفن فيه پانديون Pandion وهو أحد ملوك مدينة أثينا ^(٢). ونجد فيما كتبه الفقيه المعجمي هيسوخوس Hesykhios ملحوظة موجزة تفيد في إكمال إشارة پاوسانياس: عندما طرد الميتيونيد Métionides پانديون Pandion وشتتوا أبناء الأتيكا Attika ، اتخذت أثينه هيئة طائر الزاغ aithuia لكي تحمل الملك المخلوع إلى ميجارا Megara متوارياً تحت جناحيها ^(٣). ولما لم نجد في التراث الأتيكي ولا في التراث الميجاري ما يمكننا من كشف غموض هذه البقايا المتبقية عن ميثوس ملكي، فليس أمامنا من سبيل إلا السعي إلى معرفة سمات الربة القابعة على رأس ميجارا من خلال دراسة المصورات المختلفة التي تصور هذا الطائر البحري والتي تمنحه اسمه وشكله.

ولقد ترك لنا علماء الطبيعة وعلماء الطيور وعلماء المعاجم القدامى وثائق عديدة ومنوعة تعطينا الحق في رسم صورة للزاغة التي لا ينقصها شيء جوهري، إلا التحديد الدقيق للفصيلة التي ينتمي إليه هذا الطائر. والمحدثون مثلهم مثل القدامى لا يزالون يترددون بين فصائل مختلفة من طيور الماء التي تتراوح بين الغاق le cormoran وبين زاغة البحر la corneille ، مروراً بالزُمَج المفضض la mouette argenté والعُرَّة la foulque والكروان le courlis والجَلَم le puffin والغطاس le grèbe والزُمَج الغواص la mouette plongeuse ^(٤). هذه الحيرة لا يرجع السبب فيها فقط إلى طبيعة الوثائق الخاصة بالكائنات الحية التي نشأت كلها بعيداً عن معايير التصنيفية. بل ترجع بقدر أكبر إلى أن السمات المميزة لفصائل الطيور المتقاربة أشد التقارب قد محتها الصورة الموحدة لسلوك طائر كان الإغريق يعتبرونه الصورة النمطية الواحدة لمجموعة من طيور الماء، مثل láros, dúptes, eroidiós, aithuia ^(٥). فما هي السمات الجوهرية لسلوك الطائر المسمى "أيثويا" aithuia (= زاغة البحر) الذي سنسميه <في النص الفرنسي> بدافع التسهيل corneille de mer وهي ترجمة حرفية للاسم الإغريقي ko-rone thalássios الذي يستخدمه العديد من فقهاء المعجمات ^(٦)؟ هذا الطائر أولاً طائر أليف ولصيق بالجنس البشري في ممارسته المزدوجة للصيد والملاحة. وتذكر بعض الموروثات أن زيفان البحر ^(٧) كانت فيما مضى بشراً اخترع الصيد في البحر. فلما تحول هؤلاء البشر إلى طيور أقاموا على مقربة من الموانئ والمدن على شاطئ البحر. وزاغ البحر بُرِّي مائي في آن واحد، ولهذا فهو برمائي مزدوج، يتوزع بين البر والبحر، وبين الماء والهواء. والزيفان التي تعيش على رعوس البر التي يضربها الموج، تتمشى بخطى بطيئة على الشريط الضيق من

الأرض الرطبة التي تفصل وتربط اليابسة بحركة المياه. وهي لكي تنال السمك الذي تتغذى عليه، تغوص في وسط الموج، وعندما تظهر حاملة غنيمتها، يبدو عليها كأنها تصعد من قلب دوامات الزيد.

والزاغة بما هي مطبوعة بالقيمة الدلالية التي تمنحها موقع الوسيط في قلب مثلث العناصر: "الأرض - الماء - الهواء"، مهياة على نحو فريد للتعبير المتداخل عن جوانب مختلفة من عالم الملاحة. فزاغة البحر، من حيث هي طائر بحري يبرح الأرض لينطلق في الفضاء البحري ثم يعود إلى الساحل مرة أخرى، تبدو نظير الملاح. وهذا هو أراتوس Aratos في كتابه «الظواهر Phainomena» يشبه الملاحين في البحر بزيغان البحر التي ترمي في أجواف الأمواج وتركب اللجج^(٨). وأرتيميدوروس Artemidoros في كتابه «مفتاح» (تفسير) الأحلام، بالفرنسية: Clé des Songes «أصل العنوان بالإغريقية - Onei-rokritika» يقول إن رؤية زاغة البحر في المنام ينبيء باحتراف الملاحة وبالمعرفة الكاملة بأمر البحر: ومن يرى مثل هذا المنام لن يمخر عباب البحر إلا ويجد سندا من علامات اهتداء «تدله على الطريق»^(٩). ولكن في الوقت الذي تدل فيه زاغة البحر على الملاح، نرى أنها يمكن أن تدل على مركب سباق، وعلى الحد بين الأرض والماء والسماء، فيقولون: هذه السفينة زاغة البحر^(١٠). في هذا الفضاء الثلاثي نفسه تأتي النبوءة التي يعبر عنها هذا الطائر البحري: «إذا لقيت زاغة البحر سفينة، وانقضت في أثناء طيرانها لتغوص وسط الماء، فهي تنذر بخطر مستطير. أما إذا مرت من فوق السفينة، أو حطت فوق صخرة، فتلك على العكس، بشرى بملاحة سعيدة^(١١)». إننا نرى هنا حركة مزدوجة: من ناحية عندما يغطس الطائر في البحر، فهو يضم السماء والماء، وينذر بالعاصفة، على نحو ما نجد صراحة في شواهد عديدة أخرى^(١٢)؛ ومن ناحية أخرى عندما يحط الطائر على رأس البر فهو يربط الماء والأرض، وينبئ هكذا بعبور عادي من نقطة على الأرض إلى نقطة أخرى من خلال الفضاء البحري الممتد.

وهناك فصل ميثي في «الأوديسا»^(١٣) يؤكد أهمية أيثريا aithuia زاغة البحر في مجال الملاحة. ففي اللحظة التي كانت فيها ملامح فياقيا «حالياً» جزيرة كورفو قد أوشكت على الظهور في الأفق، تعرض أوليسيس لغضب بوسايدون: فقد هبت الرياح عاتية، وتدافعت الزوابع، الواحدة في أثر الثانية، وهبطت ظلمة الليل من السماء، وغشى الغمام البحر والساحل، واختلط ماء السماء بموج البحر. في وسط هذه العاصفة، عندما ظن أوليسيس أنه

لا محالة هالك، أنقذته معجزة: فقد برزت إينو ليثوكوثيا «أي= الربة البيضاء» Inô Leu-kothea من بين زبد موجة، حاملة الوشاح الذي سيتيح لأوليسيس أن يبلغ أرض الفياقيين Phaiakes سالماً. وعندما عرّضت الربة البيضاء ليثوكوثيا أن تظهر لأوليسيس، اتخذت هيئة طائر فتحوّرت إلى أيثويا زاغة البحر^(١٤). في هذه الحكاية الأوديسية المبنية على التضاد بين الربة البيضاء ليثوكوثيا وبين بوسايدون، تحمل أيثويا زاغة البحر، بما هي قوة هائلة في ليل العاصفة، النجاة إلى الملاح الذي أشرف على الهلاك. وهناك تشديد خاص على معنى الفصل تمثله القيمة الطلسمية للوشاح الذي أتت به الربة البيضاء ليثوكوثيا، وهو الوشاح الذي حلا للإغريق أن يروا فيه الوشاح القرمزي الذي كان العارفون في ساموثراقيا يتشحون به لاتقاء أخطار البحر^(١٥).

ومهما يكن الاختلاف بين الربة البيضاء ليثوكوثيا Leukothea وبين أثينة في وسائل عمل كل منهما، فإن فصل الأوديسا هو النص الذي يتضح فيه بوضوح أي وضوح المعنى العام لتدخل أثينة أيثويا aithuia زاغة البحر في مجال الملاحة. وهناك تفسيران قديمان يتتبعان مسارها. التفسير الأول^(١٦) يعرض لنا في صورة التعليق اللغوي الفقهي الذي يدور حول الربة البيضاء ليثوكوثيا أيثويا Leucothea aithuia زاغة البحر، ويذهب إلى أن أيثويا زاغة البحر «حاملة النور» phosphoros فوسفوروس. فهي مثل «نجمة الصباح» تجعل النور ينبثق من وسط الظلمات. والتفسير الثاني^(١٧) يتركز حول أثينة أيثويا Athena aithuia زاغة البحر، ويذهب إلى أن هذه القوة الإلهية إذا كانت توصف «بأيثويا زاغة البحر»، فالسبب في ذلك «أن أثينة علمت البشر على طريقة هذا الطائر أن يبحروا على متون السفن: باجتياز البحر من طرف إلى الطرف الآخر». تعليم الملاحة، فتح طريق على البحر، الإتيان بالنور في ليل العاصفة، تلك أساليب عمل قد تبدو لنا أشتاتاً وقد تبدو لنا لأول وهلة غير متوافقة مع أثينة الواحدة. ولكن الأمر غير ذلك، فأساليب العمل هذه توضح المعطيات الميثية والمأثورات الملحمية المتصلة بأثينة بحرية^(١٨).

في «الأوديسا» نجد تنظيم رحلة تيليماخوس كله تتولاه أثينة: فهي تختار سفينة ترمي مرساتها عند مدخل المرفأ؛ حتى إذا حانت ساعة القيام جلست عند مؤخر السفينة في المكان المخصص للريان، وأرسلت في هذه الأثناء الريح المواتية لمسار السفينة^(١٩). في ملحمة «الأرجونوتية» يتخذ عمل أثينة تقريباً نفس الملامح. فعن طريق تيفوس Tiphys، الملاح الممتاز الذي بعثت به إلى ياسون Jason، تقود أثينة على نحو مستتر، جانباً كبيراً من رحلة

ملاحى الأرجو البحرية - الأرجونوتية (٢٠). وفي المرحلة الأكثر خطورة، مرحلة اجتياز الصخور الرجراجة، تتدخل على نحو أكثر مباشرة، متبعة أساليب نعرفهما من خلال صياغتين مختلفتين للمشهد نفسه تتيحان لنا تحديداً دقيقاً كل الدقة. في قصة أبوللونىوس الرودسي «وهي قصة ملحمة في أربعة كتب بعنوان Argonautika أي "الأجرونوتية" أو "ملاحو سفينة أرجو"» (٢١)، في اللحظة التي أوشكت فيها السفينة على دخول «الممر الملتوي» (٢٢)، بين كومتين من صخور تتلاحم وتتباعد في حركة تبادلية، أمسكت أثينة السفينة، المعلقة بين الحياة والموت، ببسراها فانتزعتها من ضغط الصخور الرجراجة ودفعتها بيمينها إلى أمام، بسرعة كبيرة، في اللحظة الدقيقة التي لاح فيها أن طريقاً ينفتح في الحاجز الصخري. في هذه الصياغة الأولى يتلخص فعل أثينة كله في دعم عمل الريان نفسه. فنحن نرى أثينة ابنة زيوس تتدخل بالطريقة المفاجئة والفعالة التي تتدخل بها الربة البيضاء ليشوكوثيا، ولكن بينما تأتي هذه بنجاة مطلقة ومرصودة، نجد أثينة تدعم بحركتها عملاً عكفت على توجيهه من خلال الريان الذي منحته حمايتها. نجد أثينة تكف عن البقاء في الظل خلف الريان وتتقدم إلى أمام لتفتح له طريقاً، لولاها، لظل محظوراً عليه.

أما في الصياغة الثانية، صياغة «الأناشيد الأرجونوتية» المنسوبة إلى أورفيوس (٢٣)، فإن تدخل أثينة يتخذ هيئة تبدو في ظاهرها مختلفة. فعندما يصل ملاحو الأرجو إلى مواجهة الصخور القوانية الرجراجة، ترسل إليهم أثينة من فورها طائراً يحط على قمة الصاري. وفي لحظة بعينها يطير الطائر ويناور قريباً من الصخور متحيناً الفرصة لاجتياز الممر. ولكنه ما يكاد ينطلق، حتى تعود الصخرتان اللتين انفصلتا فتقترب الواحدة من الأخرى بسرعة تكفي لقطع طرف ذيله، ولكنها لا تكفي لمنع من الوصول إلى أويكساينوس پونتوس Euxeinos Pontos > «البحر الكريم» اسم على عكس المسمى وهو البحر الخطير "البحر الأسود". ويتبعها ملاحو أرجو ويتمثلون بمثلها، فيسلكون نفس السبيل، ويفلتون هم أيضاً من قبضة الصخور القوانية التي تنهزم وتندحر نهائياً فتثبت في مكانها وترسخ في البحر. هذا الطائر الذي أرسلته أثينة ليفتح الطريق أمام ملاحى الأرجو، والذي يؤدي الدور الذي تتولاه الربة نفسها كما جاء في صياغة أبوللونىوس الرودسي، هو الطائر البحري إيروثيديوس eroidiós (٢٤)، وهو على الأرجح طائر العرة، أي هو طائر من قبيل زاغ البحر la corneille de mer (٢٥). أما إن طائر الإيروثيديوس eroidiós هذا كان طائراً أليفاً إلى أثينة فهو ما تقدم الملحمة الهوميروسية إلينا الدليل عليه؛ ففي بداية النجدة الليلية التي راح ديوميديس Diomedes وأوليسيس يحاولان تقديمها ضد الخطوط الطروادية، كان ظهور طائر إيروثيديوس eroidiós (٢٦) هو

العلامة التي جاءت تبشرهم بعون أثينا ومساعدتها في مهمة لن يتحقق فيها النجاح إلا بالدهاء والتحايل (٢٧).

ولكن معنى الطائر لا يظل كما هو دون تغيير في النصين، فطائر الإيروثيديوس eroidiós يعني مجرد نبوءة بالنسبة إلى أوليسيس «في الملحمة الهوميروسية»، أما في الأنشودة الأورفيوسية فهو يعمل على مستويين متضافين، أولاً على مستوى النبوءة الفعالة، وثانياً على مستوى تقنيات الملاحة. فهذا الطائر الذي أرسلته أثينة عندما اندفع من خلال الصخور الرجراجة وأفلت بعد لأي من انطباق الصخور «ومن الموت» رسم في طيرانه خط السير الذي اتبعته سفينة الأرجونوتية. هذا الفصل يبدو مناظراً تماماً لفصل آخر من قصة أبولونيوس الرودسي عندما يطلق الملاحون الأرجونوتية طائراً يبين لهم كيف يشق الطريق من خلال الصخور الرجراجة (٢٨). فقد استجاب أحد ملاحي سفينة الأرجر للنصائح التي قدمها إليه العراف فحمل في قبضته حمامة طورانية، ووقف على مقدم السفينة، وطيرها على خط مستقيم إلى أمام بنفس الحركة التي ستقوم بها أثينة بعد قليل (٢٩) في الفصل نفسه، عندما يفتح الطريق، فتدفع السفينة من خلال «المر المعوج». ثم هذه الجزئية من ميثوس ملاحي الأرجو تأتي مبينة بدقة التوافقات بين السفينة وبين الطائر: فعند اجتياز المر، مثلما يفقد طائر العرة أو الحمام الطوراني بعض ريش ذيله الذي يشتبك في الصخور، كذلك سفينة ياسون «أرجو» تُجثث من مؤخرتها بضعة زخارف (٣٠). سواء كان الطائر طائراً بعثت به أثينة، أو كان بشيراً ينبيء بتدخلها، فطائر ملاحي أرجو مثله مثل زاغة البحر هو على نحو ما السفينة نفسها، أو هو على الأقل قرين السفينة. إلا أننا لا يمكننا أن نفهم لعبة الطائر والسفينة كلها فهماً كاملاً إلا بالاستناد مرجعياً إلى تقنيات ملاحية معينة في الحضارة الأنتيكية. فالطائر عندما يفتح الطريق لسفينة الأرجونوتية لا يكون مجرد نبوءة بالمعنى الديني للفظه، بل هو أيضاً، وعلى نحو متكامل، أداة ملاحية ووسيلة ملاحية لا ينفصل بعضهما عن البعض (٣١).

في بلاد الإغريق القديمة، وفي بلدان العالم الاسكنديناقي وفي بلاد ما بين النهرين، كان إطلاق الطيور وسيلة مألوفة في الملاحة (٣٢). ففي عصر لم تكن البوصلة قد عرفت فيه بعد، كان الملاحون يحملون معهم طيوراً يطلقونها عندما يريدون معرفة اتجاه البر. تلك حقيقة تقنية تتبع معرفة جانب كبير عن وضع طيور معينة في ميثاث البحر والملاحة. وليس من شك في أن هذه المعطيات تفيدنا فائدة حاسمة في سعينا من أجل تحديد أثينة أيثويا aithuia زاغة البحر: فهي تسمح بتوضيح أفضل للعلاقة التبادلية بين مستوى أيثويا aithuia زاغة البحر وبين قيادة السفينة. لا يمكن إذن أن نحصر الطائر الذي أرسلته أثينة إلى ملاحي أرجو بحسب

الصباغة «الأورفيوسية» في مجرد علامة دينية: فسلوكه يطابق النموذج الذي لاح لنا أنه ينبغي بتدخل أثينة كما رأينا في صباغة أبولونيوس. الموضوع في كلتا الحالتين هو موضوع قيادة السفينة وفتح طريق لها في البحر.

هذا التضامن الذي تنعقد عراه بين أثينة والقيادة في مجال الملاحة البحرية لا يتخذ معناه الحقيقي إلا بعد فك شفرة الساحة البحرية التي تمثل إطار تدخلات أثينة ابنة زيوس وميتيس. ما هي الصورة التي كان الإغريق يتصورونها عن الملاحة من خلال خبرتهم الدينية بالبحر؟ هناك ثنائيان من القوى الإلهية يتيحان لنا أن نرسم هذه الصورة عندما نتتبع مسار خطوط قدرتهما. الثنائي الأول پونتوس Pontos وپوروس Poros القائم تحديداً في العالم البحري ، أما الثنائي الثاني فهو توخي Tykhe وكايروس Kairós ويشمل مجاله نطاقاً أوسع، ولكنه راسخ رسوخاً قوياً في مجال الملاحة.

أما پونتوس Pontos ، «البحر» ، اليم المالح، فهو قوة إلهية أولانية للبحر المديد، للصفحة الهائلة التي لا حدود لها إلا السماء والماء. وپونتوس ذو الألف مسار، بما هو امتداد مزعج محير غامض مفعم بالأسرار، يبدو على هيئة طريق لا يكاد يظهر حتى ينمحي المرة تلو المرة، إنه ممر لم يرسم، وسبيل لا يكاد يفتح حتى ينقل (٣٣). في هذا الامتداد المختلط الذي تتخذ كل رحلة من خلاله هيئة اجتياز مفازة مجهولة تظل على الدوام ممتنعة على المعرفة، يسيطر عليها الحراك في أخص صوره. والبحر الذي تقلبه الرياح إذ تخترقه، ويشيره تدافع الموج جيئة وذهاباً، هو أكثر الأماكن حركة، وتغيراً، وتحوراً. وهناك طائفة من التعبيرات في اللغة الإغريقية تسجل تشابكاً هذه السمة الأساسية للبحر الذي سيرمز إلى الصبرورة والنشوء بالنسبة إلى تيار كامل من الفكر. يتدحرج كالاسطوانة kulindeîsthai (٣٤)، من هنا، من هناك، من شمال إلى يمين، من أسفل إلى أعلى (٣٥) énthā kaí énthā, áno kai káto، يهب عاتياً، يتدافع في اتجاهات متضادة állo't'alloiâ (٣٦)، يقلب، يطرح، يدهور metabállein، metatrépein (٣٧)، كلها استعارات وكنائيات تحدد طبيعة البحر پونتوس .

ولقد وصف البحر بأنه بلا مخرج apeiron، على الأرجح لأنه كان من المحال اجتيازه من أوله إلى آخره، فوجد عديله متمثلاً في پوروس Poros ، القوة الكوسموجونية المعروفة منذ عصر ألكمان Alkman (٣٨). كان پوروس Poros يعني أولاً المخاضة، المعبر المائي المفتوح من ناحية، فإذا هو يعني المسار، الطريق الذي ينبغي على الملاح أن يشقه لنفسه في البحر. هذه اللعبة التي يلعبها پوروس وپونتوس، تعبر عنها الميثاث الإغريقية عن البحر في حكايات

مشيرة تحكي رحلات أوليسيس أو ملاحى أرجو، من خلال الصخور الرجراجة أو الصخور الكالحة، سواء كانت Plagktai أو Kuáneai أو Sumplegádes^(٣٩). كل هذه المواضع في البحر تقدم نفس منظر الصخور الضخمة، والرجراجة، والمتحركة التي لا تكف عن التحرك أفقياً ورأسياً. صورة فضاء تختلط فيه كل الاتجاهات، فيتبادل اليسار واليمين، والأعلى والأسفل المواضع بلا انقطاع دون أن يثبت أي منها على حال قط. فليس من قبيل المصادفة أن يتمركز واحد من التدخلات الكبرى لأثينة على الأفق الخاوسي للصخور المتحركة: ففي اللحظة التي يمر فيها الريان بخبرة البحر البونتوس pónτος المخيفة، البحر الذي لا سبيل إلى اجتيازه، تأتي أثينة فتقدم إليه مساراً، وترسم له طريقاً پوروس póros هو في آن واحد مخرج وطريقة للخروج مما لا مخرج منه aporia وهي الحال التي يفرق فيها البحر البحارة والملاحين.

أما هاتان القوتان الكوسموجونيتان، توخي Tykhe وكايروس Kairós، في علاقتهما المتكاملة، فهما ترسمان بتحديد أكبر محيط مجال الملاحة، ونمط النشاط البشري الذي يجد السبيل إلى ممارسة وجوده. في الفكر الإغريقي الأرخائي، تبدو توخي على هيئة قوة إلهية مختلطة وغامضة^(٤٠). وتوخي - بما هي ابنة أوقيانوس وتيثوس، وبما هي ربة بحرية وأخت ميتيس - على صورة البحر^(٤١)، فهي تعني التغير والتحرك. وعلى نحو أكثر دقة - وهذا هو وجهها السلبي - توخي تحدد ناحية كاملة من الحالة البشرية من خلال التصويرات المتضادة للفرد، تتلاطمه اللجج، متقلباً مع هبوب الرياح، متدحرجاً دون توقف، من هنا تارة، ومن هناك تارة أخرى. ولكن توخي لا تعكس فقط صفحة البحر المتغيرة. فلها صفحة أخرى إيجابية تقابل الأولى: إنها توخي التي تمسك الدفة بيدها وتقود السفينة مطمئنة نحو الميناء. في موروث تراثي كامل تعبر توخي ضمناً عن فرصة الفوز، عن بلوغ الهدف، عن تحقيق النجاح^(٤٢). هذه هي توخي عند بينداروس في الأنشودة الأوليمبية الثانية عشرة، تعطي السفينة، وتتناول الدفة من بين يدي الريان^(٤٣). وهذه هي توخي عند ألقمان، ابنة پروميشية Prométheia التي تضمن النجاح بفضل فن التنبؤ، البروميشية «وهذا هو المعنى الحرفي للكلمة» prométheia التي تمنح السيطرة على الزمن وعلى الأشياء^(٤٤). ومهما يبدو لنا الوجهان مختلفين، متعارضين فإن وجهي توخي هذين لصيقان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، مثل وجهي هيرميس المزدوج^(٤٥). وتكاملهما تنفك شفرته من خلال العلاقة التي تجعل نشاط الملاح لصيقاً بالفضاء البحري لا ينفصل عنه. وكما أن فن التنبؤ يتطور بين بني البشر على خلفية مستقبل مجهول معتم مستغلق، كذلك فن مسك الدفة لا يعمل عمله إلا في إطار اختلاج البحر وما يعتمل فيه من حراك. لا يمكن أن تفصل حركة الدفة عن حركة الأمواج.

وتوخي هو التي جعلت المستقبل المجهول المستغلق يلحق بمجال الأشياء الممكنة. وهنا، عند هذه النقطة، نجد توخي تتجاوز مجال الملاحة وتخرج على نطاق القوة الإلهية البحرية: وتصبح توخي نموذجية في الإحاطة بكل شكل من أشكال العمل البشري.

هذا الاتساع نفسه يطبع بطابعه المكون الثاني من الثنائي توخي كايروس، ألا وهو كايروس Kairos، وكايروس معناها الفرصة المواتية ^(٤٦)، ويأتي تشابك كايروس ليضاعف من تشابك توخي. وكايروس ليس قوة بحرية حقيقية مثل توخي، ولكنه يقيم علاقات متميزة مع المجال البحري. ولقد أمدتنا الحفائر الإيطالية في فيليا «مدينة Elaia الإغريقية القديمة» بالأدلة وهي آثار عليها نقوش ولها مدلول ثقافي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس ق.م. تشهد على وجود ثلاثي بحري يضم كايروس الأوليمبي يكتنفه پومپايوس Pompaïos وزيوس أوربوس Oúrios ^(٤٧). من بين هذه القوى الثلاث - نجد پومپايوس مجرد مرافق باهت، وزيوس أوربوس هو بلا شك أشهرهم : إنه زيوس رب الأنسام المواتية «وهو المعني الحرفي لكلمة أوربوس» ^(٤٨). وهناك مزار من مزاراته، زعموا أن ياسون أسسه ^(٤٩) كان يقوم على الشاطئ الأسبوي من البوسفور، بوسفور ثراقي Thrake ^(٥٠). وكان الملاحون، قبل القيام برحلة عبر البحر القاتم «الأسود» Póntos Áxeinos، يذهبون إلى هناك ويقدمون ضحية على أمل أن يكون البحر كريماً معهم، وأن يصبح بفضل ربح مواتية من زيوس بحراً كريماً Póntos Eúxeinos ^(٥١). ولكن النسمة oúros التي يبعثها زيوس إلى الملاحين ليست فقط ريحاً حاملة للفلك، بل إن اللفظة تعني أيضاً بالانسياب الاستعاري لحظة القيام ^(٥٢)، والفرصة المواتية التي ينالها الملاحون لينطلقوا مستبشرين إلى البحر ^(٥٣). والربط بين زيوس أوربوس Oúrios وكايروس يتخذ مزيداً من الدلالة. وأرسطوطاليس ^(٥٤) يبين أنه ليس في الملاحة معرفة عامة تشمل كل الحالات الخاصة، ليست هناك معرفة يقينية بكل الأنسام التي تشق مياه البحر. والبحر پونتوس يظل بالنسبة إلى أوسع الرابنة خبرة دائماً هو «المجهول». وامتياز الريان لا يقاس بسعة معرفته، بل يُعرف من قدرته على التنبؤ والاكتشاف المسبق لفخاخ البحر التي هي أيضاً الفرص التي يعرضها على ذكاء الريان. وهناك قصيدة كاملة من قريض ألكايوس Alkaïos تعالج موضوعاً محورياً هو أن السباق في البحر يتم على الأرض اليابسة ^(٥٥). زيوس أوربوس Oúrios يمكنه أن يرسل ريحاً تتيج القيام. ولكن لا بد للريان لكي يفيد منها أن يتنبأ بها ويرصدها. فربط زيوس أوربوس Oúrios - الذي يمثل الفرصة المقدمة - بكايروس الذي يعني اللحظة الملائمة التي ينبغي أن يهتبلها الريان عندما يكون قد عرف يتبين عن بعد الفرصة التي ستقدم إليه لكي يمارس صناعته ومهارته ^(٥٦) téchne. هكذا

نرى كايروس البحري كما اكتشف في فيليا Velia، يعضده زيوس أوربوس، يظهر على هيئة انعكاس توخي القرينة، على مستوى الزمنية المحدود. وسواء كوّنت توخي وكايروس ثنائياً أم لم يكونا، فإنهما كلاهما يبرزان سمة جوهرية من سمات الملاحه: التواطؤ الضروري بين الريان وبين العنصر البحري.

هكذا نجد - من بونتوس إلى كايروس، من الشكل الكوسموجوني العالي، شكل البحر المالح، إلى القوة التي أتت متأخرة، قوة الزمن الحادث - أن كل التمثيل الديني المصور للملاحه يتركز حول نمط الرجل الذي أدركنا من قبل قرابته بأثينة في مناسبات خدماتها المختلفة، ألا وهو الريان، والريان شخصية مركزة بالنسبة إلى الفكر الإغريقي، يفرض نفسه بخصلة كبرى وهي أن الدهاء الميتيسي كان نصيبه. استقرت منذ الإلياذة استقرار البديهية أن الدهاء الميتيسي وحده هو الذي يتيح للريان على الدفة أن يقود السفينة خير قيادة على الرغم من الريح (٥٧). وفي كورس «مسرحة» «أنتيجونه» الذي خص به سوفوكليس «الإنسان»، ذلك الحيوان البشري الذي نجح باختراعاته، وحيله، ووسائله في الانتصار على القوى الطبيعية، وضع سوفوكليس الملاحه على رأس قائمة منجزات الكائن الزاخر بالموارد والإمكانات والذي يعرف كل الطرق pantopóros (٥٨). أن تجد سبيلاً póros - طريقاً أو مخرجاً أو وسيلة -، أن تخاتل الريح، أن تكون دائماً يقظاً، أن تتنبأ بأسرع فرصة للتصرف، كل هذه الأفعال، كل هذه المناورات - هذه الحيل الآليات الميخاناى mechanai كما يقول الإغريق - تتطلب ذكاءً متعدد الأوجه، تتطلب الجنومه «ذكاء» gnome پولوبولوس «الواسع الحكمة» polúboulos الذي يستشفه بينداروس لدى الريان (٥٩). فالريان الذي يواجه البحر، الذي يواجه مكاناً «ترى فيه لحظة واحدة نسمات معاكسة تهب من جهات السماء المضادة» (٦٠)، لا يمكن أن يسيطر عليه إلا إذا أثبت هو نفسه أنه يتسم بمقدرة شبيهة على التحور، واتخاذ القيم المتعددة.

التنبؤ والاحتراز، اثبات اليقظة، قيادة السفينة القيادة المستقيمة، هذه بعض السمات الجوهرية لدهاء الريان الميتيسي (٦١). وهذا هو أفلاطون يسجل أنه ليس هناك ريان يمكنه أن «يعرف سر غضب الريح أو مواتاتها» (٦٢) ولهذا ينبغي عليه أن يظل بلا انقطاع يقظاً و«ألا يدع جفنيه أبداً تخلدان للنوم» (٦٣). وأفلاطون نفسه يكتب أيضاً «إذا أراد الريان حقيقة أن يكون ماهراً في قيادة سفينته، ينبغي عليه بالضرورة أن يركز كل اهتمامه على الجو، وفصول السنة، والسماء والنجوم والرياح» (٦٤). ورئس الدفة - مثله مثل داناؤس Danaos أول

ملاح وريان حسب حساب التوقعات *prónoos* ^(٦٥) عليه أن يكون قد وزن كل هبة، وأن يكون كلاعب النرد الماهر ^(٦٦) : عليه أن يتنبأ بهبات الريح، وأن يواجه الدهاء بدهاء مثله، وأن يتحين الفرصة الخاطفة ليقلب ميزان القوى. ورأس الدفة وقد ألقى به إلى البحر، وغاص في حراك البحر، يفيد من ذكائه كله ليصحح انحرافات السفينة بحركات الدفة وأن يوجه مساره مهتدياً بنقاط الاهتداء التي ترسمها له النجوم على قبة السماء ^(٦٧). التوجيه، تصويب المسار، القيادة المستقيمة، *ithúnein* هذه هي التعبيرات العادية في معجم الملاحة، وعاديتها تُبرز في فن الريان أهمية مشروعه الذي هو كله مهارة في التنبؤ بالطريق بقدر ما هو المقدرة على تركيز النظر على النهاية النهائية للرحلة ^(٦٨). من خلال طريق كله انحناءات، ومسارات مائلة، ودوائر معوجة، رسمتها حركات البحر ونزوات الريح، وعلى الذكاء الملاح أن يعرف كيف يقود السفينة قيادة مستقيمة، دون انحراف أبداً عن الطريق التي تدبرت مقدماً أن تتبعه ^(٦٩). ونحن على بينة من أن كل تدخلات أثينة هي في جانب الريان، في جانب نصيبه النشط في الملاحة، وذكائه الدهائي والتقني، وهي أمور تجدد فيها أثينة - من حيث هي ابنة زيوس - بحق انعكاساً لدهائها الميتيسي.

ولكن لنترك إلى حين فضاء البحر ولنعد إلى الأرض اليابسة، وعلى وجه الدقة إلى هذا الجزء من الفضاء الذي تجري فيه تجربة سباق يتواجه فيه أشد الرجال سرعة. هنا نلاحظ أن تدخلات أثينة في هذا المجال أكثر سفوراً منها في كل المجالات الأخرى. وليست أثينة - على شاكلة هيرميس أو هيراكليس - قوة دينية لصيقة بحلبة الرياضة ^(٧٠). ومع ذلك فهناك على وجه التحديد، في مكان المنافسة والمواجهة النضالية، يجد نموذج عمل أثينة المحدد في الملاحة مجالاً آخر للتطبيق يناظر المجال الأول.

وياوسانياس عندما جاس من خلال مدينة اسبرطة في القرن الثاني الميلادي، تبين البقايا الأثرية للدور المتفرد الذي لعبته أثينة في تجربة على أرض المباراة ^(٧١). كان هناك طريق يخرج من أجورا *Agora*، يسمونه *Aphetais* «خط الانطلاق»، وكان هناك في المنطقة المحيطة مباشرة، نصب لأثينة يوصف بلفظة *Keleútheia* كيليوثيا «ربة الطريق»، زعموا أن أوليسيس كرس التمثال به بعد فوزه في سباق الجري على القدمين الذي فرق طالبي الزواج من بينيلوبي *Penelope*. ويضيف پاوسانياس معلومة دقيقة، فيقول إن أوليسيس أقام لأثينة *Keleútheia* كيليوثيا «ربة الطريق» ثلاثة أنصاب متمايزة، منفصلة بعضها عن البعض الآخر. فما السبب في هذا التكريس الثلاثي؟ وما هي الخدمات التي قدمتها

Keleútheia كيليوثيا «ربة الطريق» إلى خطيب بينيلوبي المسعد؟ إن لفظة Keleútheia كيليوثيا (= الطريق) صفة غير مألوفة لأثينة. فهل المقصود أنها حامية الطريق، وهو المعنى الذي يدعونا إليه المدلول العادي لكلمة kéleúthos كيليوثوس «الطريق»؟ أم هل المقصود أنها حامية السباق، وهو المعنى الذي يدعونا إليه السياق الأسطوري في مجموعته (٧٢)؟ ونظراً لعدم وجود أي نور يلقيه علم الاشتقاق ينير لنا الطريق (٧٣)، فإن معنى الصفة الشعائرية لأثينا لا يمكن إن نستخلصه إلا بطريقتين: أن نحاول من ناحية تحديد الصفة النوعية للعلاقة التي تقيمها أثينة بهذا النمط من الاختبار في المباراة، وأن نحاول من ناحية أخرى أن نحدد الصفة النوعية لطبيعة الروابط الامتيازية التي تربطها بأوليسيس. والحق أن السؤالين لصيقان لا يتفصل أحدهما عن الآخر. والملحمة الهوميروسية تقدم إلينا الدليل عندما تكشف التواطؤ بين أوليسيس وأثينة في مجال الاختبار في المباراة الذي يتمثل في سباق الجري على القدمين (٧٤). فعندما وجد أوليسيس - بمناسبة الألعاب التي أقيمت على شرف باتروكلوس Patroklos - أنه، وهو الواسع الدهاء، سيواجه أياكس Ajax، السريع، أحس بالحاجة إلى دعاء أثينة لكي تتولى الاختبار: «استجيب لي، يا أيتها القوية، وتعالى برحمتك لتقدمي النجدة إلى قدمي...». فلم تتأخر الاستجابة؛ وبثت أثينة في أوليسيس مزيداً من الهمة وأسقطت غريمه. «في نفس اللحظة التي أوشكا فيها على القفز لنيل الجائزة، انزلق أياكس في أثناء الجري - جعلته أثينة يتعثّر - في الموضع الذي افترشه روث الثيران الخائرة وقد عقروها لتكون أضاحي على شرف باتروكلوس». لم يشك أحد في فهم ما حدث، وكان أياكس أقل الجميع شكاً «في تدخل أثينة لتسقطه وتنصر أوليسيس الذي كانت معه دائماً تتولاه كما تتولى الأم ابنها»، فقال: «آه! لكّم عرفت «أثينة» كيف تجعل قدمي تعثران، الربة التي كانت هنا في كل وقت وأن، كالأم، بجانب أوليسيس، تحمل إليه النجدة!».

كان أوليسيس وأثينة متفاهمين تفاهم اللصوص في السوق. ولقد كانت أثينة هي التي حلا لها أن تذكر أوليسيس، في اللحظة التي كان فيها أوليسيس، دون أن يعلم، قد بلغ لتوه سواحل إيثاقه Ithakâ. اتخذت أثينة التي شاعت أن تجرب دهاء محسوبها شكل صبي، وكشفت له اسم البلد التي صعا فيها لتوه من غفوته (٧٥). وحتى لا يفضح أوليسيس نفسه، سارع ليخترع لها عدة أكذوبات جميلة: «فلم تكن الحيل الماكرة تعيي قريحته قط» (٧٦). واستمعت إليه أثينة مبتسمة: «أي مكار، أي لص، حتى لو كان إلهاً، يفوقك في كل صنوف الحيل الماكرة!... ستعود إلى البلد، ولن تفكر إلا في حكايات اللصوص، والأكاذيب المحيية إلى قلبك منذ الطفولة... حسبك هذه الحكايات! نحن اثنان صادعان باللعبة: حتى إذا عرفتُ

أنك أقوى أبناء الفانية في الحساب والكلام، فإن قريحة أثينة (دهاءها المبتيسي) وألاعيبها kérde هي ما يتباهى به الأرياب جميعاً...» (٧٧).

وفي اختبار السرعة نجد نفس السيناريو الذي وجدناه من قبل في سباق العربات. فأوليسيس مثله مثله أنطيلوخوس Antilokhos، أقل قوة من منافسه المباشر، ولكنه هو، لا أياكس، الذي حصل على الجائزة، كان أنطيلوخوس، قد تلقى نصائح أريية، ففاز بفضلها على الخيول الأسرع، لأنه عرف مسبقاً كيف يتوقع السباق. أما أوليسيس فقد انتصر بفضل تضافر الظروف التي يبدو - اعتماداً على الصياغة الهوميروسية - أنها اعتمدت على تدخل أثينة وحدها، ولكنها تترجم على المستوى الملحمي السمة المستغلقة التي تستعصي على التنبؤ والتي يتسم بها كل موقف مباراة، والفائدة التي يحققها الدهاء المبتيسي يقيناً. فإذا كان أياكس السريع قد اقترش روث البهائم، فمعنى هذا أنه لم يتنبأ بالعقبة التي لم يسع غريمه الذي حمته أثينة إلى تنبيهه إليها وجعله يتعاشاها، بل ساعد بلا شك على نشأة العقبة تحت قدميه. صحيح أن «أثينة جعلته يتعثر»، ولكن ليس هناك من يستطيع بدون الاستعانة بالدهاء المبتيسي أن يتنبأ بضيق الطريق على نحو يتيح الفرصة للتقدم على المنافس، أو أن يعرف مقدماً المنطقة الموحلة التي تجعل منافساً متقدماً تقدماً مفرطاً يتعثر وينزلق. وأوليسيس إذ كرس تمثالاً صنماً على شرف أثينة Keleúthcia كيليوثيا "ربة الطريق"، أراد في آن واحد أن يبرز مشاركة الذكاء مشاركة تضعهما معا تحت راية الدهاء المبتيسي (٧٨) وأن يشدد على الدور الذي ينهض به الذكاء الماكر في مباريات التنافس.

هذه الأثينة التي كانت صورتها موجودة قرب المكان الذي عرف باسم «خط الانطلاق»، هل يمكن أن تكون قوة «الانطلاق الناجح»، مثل الأثينة التي نعرفها من هذا النقش الأتيكي (٧٩) وتكون هي أثينة ربة الانتصار على الخيط الذي تحمل أياكس نفقاته في «الإلياذة»؟ هذا الموضع الذي يسمى أفيتايس Aphetais (٨٠) يشتق اسمه يقيناً من اسم خط الانطلاق أفيسيس áphesis في ساحة الرياضة الكلاسيكية. ولكن هناك سببان شعائريان يدعوان إلى عدم تمييز أية علاقة خاصة بين أثينة ربة الطريق و"الانطلاق" بالمعنى الضيق للكلمة. أولاً لحظة الانطلاق كانت في اسبرطة موضوعة رسمياً تحت حماية قوتين دينيتين آخرين هما : الديوسقوريان Dioskoroï «الأخوان كاستور Kastor وپولوديوكيس Polydeukes» اللذان كانا يوصفان بالأفيتيريونين «حماة الانطاق» aphetérioï (٨١)، وكان تمثالاهما يقومان على الأرجح عند مدخل «ساحة مارس» عند الاسبرطيين، وهي ساحة الدروموس Drómos (٨٢)

التي كان الشباب في زمن پاوسانياس لا يزالون يذهبون إليها للتدريب على السباق. وهناك علاوة على ذلك رواية تراثية يذكرها نفس الرحالة < پاوسانياس >، تقول إن الحامي عند الانطلاق إلى الاختبار الذي تواجه فيه خطاب بينيلوبي كان اسمه أفيتايوس Aphetaios^(٨٣)، وكان قوة تختص بالهمة والعزم، وزعموا أن تمثاله كان يقوم في نفس المكان الذي جرى فيه الاختبار. وإذا كانت هاتان الروايتان تبرزان أهمية الانطلاق في الفكر الديني، فإنهما تستبعدان أيضاً كل خلط ممكن بين أثينة < ربة الطريق >، وبين أن تكون ربة «للاتطلاق الناجح»^(٨٤)، ولكننا نجد في آيات الحمد التي يرفعها إليها أوليسيس جزئية توضح معنى هذا الصفة التي وصفت بها أثينة: فأوليسيس، الفائز في الاختبار، يخصص ثلاثة أنصاب متميزة بعضها عن البعض الآخر^(٨٥). هل هو حمد ثلاثي؟ أقرب الظن أن السبب هو أن كل ساحة سباق، كل دروموس، فيها ثلاث نقاط خطيرة kairoi، ثلاث فرص. هي في آن واحد، لحظات ومواضع.

أولاً: النقطة الأولى هي نقطة الانطلاق - áphesis - حيث يكون على المتسابق أن يشب بكل همة لكي يضمن لنفسه أفضل ميزة، في الخطى الأولى.

ثانياً: النقطة الثانية: هي المنعطف kámpton الكامبترون، حيث يكون على المتسابق أن يلف، نصف لفة لكي يعود من مسار مواز للأول. و«مفزع الخيل» في مضمار الخيل في أوليمبيا^(٨٦) يبين على أكمل وجه أخطار الدوران في المنعطف. اجتياز المنعطف ملتصقاً بالخافة. مس حدود المسار بكبح الحصان الأيسر ودفع الحصان الأيمن، دون الاشتباك بعربة منافس آخر: هذه المناورات تتطلب من القائد المهارة كل المهارة.

ثالثاً: النقطة الثالثة، وهي أيضاً اللحظة الحاسمة الثالثة وهي خط الوصول térma التيرما^(٨٧). ونهاية السباق يمكن أن تكشف كل التقديرات التنبؤية.

وأثينة كيليوثيا Keleútheia < ربة الطريق > في اسبرطة، بما هي حامية النقاط الثلاث، المواضع الثلاثة واللحظات الثلاث الحاسمة في السباق، لا تكتفي بالسير على الطريق بصحبة أوليسيس، بل هي تحكم مكان السباق، وتهيمن على الاختبار في كُلِّيته، لأن الدهاء المبتيسي يمنحها هنا، كما يمنحها في غير هذا المجال، امتياز التنبؤ بمجريات السباق وبتسييره من أوله إلى آخره. ولدينا وثيقة مصورة يمكن أن تأتي لتدلي بشهادتها عن حرص أثينة وأثره في مضمار السباق والمباراة، هذه الوثيقة المصورة هي اللوحة الحجرية المسماة «أثينة المهمومة»، المحفوظة تحت رقم ٦٩٥ في متحف الأكروبوليس، وفيها تظهر أثينة متعممة بخوذة،

وترتدي بردة الـهـيـپـلـوس، تتكى بيدها اليسرى على رمح، ويبدو عليها أنها تتأمل، تطامن برأسها، أمام «عمود». وقد حلا للباحثين حيناً من الزمن أن يروا فيها شكل «العقل» الإغريقي^(٨٨). ولكن هذا التفسير الهوماني والاستطيفي قد هزت أركانه مؤخراً دراسات مدققة معتمدة على علم الآثار قدمها ش. بيكار Ch. Picard^(٨٩) وف. شامو Fr. Cha-moux^(٩٠). والاثنان يتفقان على أن نقطة الارتكاز في تفسير اللوحة الحجرية هي معرفة معنى «العمود» العجيب القائم أمام أثينة. أما عندما يصلان إلى مرحلة التحديد الدقيق لكنه العمود، فإن الاختلافات بينهما تظهر للعيان. يذهب بيكار إلى أن هذا العمود هو علامة حدودية تعلم حدود المدينة. أما شامو فيذهب إلى أنه حجر من تلك الأحجار التي ترسم في ساحات السباق خطوط الانطلاق والوصول. في الحالة الأولى تكون أثينة المهمة هي أثينا Horia "هوريا"، ربة حربية، «تقف مائلة متكئة متأملة من أجل الدفاع العنيد عن أرضها». في الحالة الثانية تظل أثينة المتأملة أمام حجر الاستاد «حالة» دون أن تراودها أية هموم على الإطلاق: «إنها تستحضر في مخيلتها صروف السباق القادم وما تكتنفه من شكوك»^(٩١).

عندما ألحق شامو اللوحة الحجرية بسلسلة من المصورات فقد حدد نهائياً أن «العمود» لا يمكن إلا أن يكون علامة تحديد حجرية «ترمز إلى السباق الذي تهيمن أثينة عليه». ولكن الملف الكامل الذي أعدناه يباعد بيننا وبين أن نرى على اللوحة الحجرية المحفوظة في متحف الأكروبوليس أثينة تتأمل في شكوك تكتنف النصر، كما يتصور شامو^(٩٢). أثينة، يقيناً، «تأمل» لأن النصر يكتنفه الشكوك ولأن الألعاب تدور في مكان مفتوح، ولكنها في هذه الحالة «تأمل» بالمعنى الإغريقي لكلمة بتأمل medesthai التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنشاط العقلي للدهاء الميتيسي. أثينة التي تتكى على الرمح، وتطامن برأسها نحو الحجر الذي يعلم خط الانطلاق، كما تظهر على لوحة الأكروبوليس الحجرية ليست صورة «العقل»، بل صورة «الحرص» phrónesis "فرونيسيس"، إنها تسعى إلى التنبؤ بصروف السباق، وتنشغل «بالتفكير في السباق» الذي ستتولاه.

والأمور لا تجري في ساحة السباق على نحو يختلف عن الفضاء البحري. بل إن الفوز في السباق في البحر يتقرر على الأرض اليابسة قبل مغادرة الميناء^(٩٣). والفائز هو دائماً من لديه في جعبته من الحيل أكثر مما يمكن أن يتصور منافسوه. وإذا كان اختبار البطولة يبدو عليه أنه يجري فيما يشبه أن يكون ساحة مغلقة رسم الحكام حدودها، وجعل للأداء فيها قواعد لا بد من الخضوع لها، فإن كل نشاط مباراة - سواء كان اختبار سرعة أو سباق عربات

- يجري في مكان يناظر من وجهة نظر معينة مكان البحر. ومكان المباراة بنقاطه الخطيرة، ولحظاته الحرجة، هو المكان الذي تكون فيه التقلبات كلها ممكنة، وتكتنف الطريق الذي ترسمه قواعد اللعبة كل السبل التي يعرف الدهاء المتييسي كيف يشقها ويفتحها لنفسه. إنه مكان متحرك، كثير التحور يتخذ فيه تدخل أثينة بالضرورة الشكل الذي يمنحه لعب الدهاء المتييسي في الملاحاة لناورات التصدي لحركات البحر ونفثات الرياح.

لكي نحدد على وجه الدقة تعريف أثينة البحرية الذي كنا قد وصلنا إليه، نجد مقارنة تفرض نفسها بين أثينة ابنة ميتيس وبين القوى الإلهية المختلفة التي تتدخل مثلها في مجال البحر، إما بطريقة دائمة مثل پوسايدون، وإما بحسب الظروف مثل الديوسكوريين. ومن بين جميع القوى التي تشترك مع أثينة في مجال عمل يمكن أن تكون أشكال تدخلها فيه متميزة تفرق بعضها عن البعض الآخر، لا جدال في أن پوسايدون هو المنافس الذي يؤخذ بأكبر درجة من الجدد. لا يقتصر الأمر على أنه يعتبر في عالم الأولمبيين الإله الكبير للبحر^(٩٤)، بل هو في التراث «منقذ السفن»^(٩٥). والمقارنة الأولى بينهما «پوسايدون وأثينة» تقودنا إلى تبيان فرق جوهري في وسائل عمل كل منهما. عندما يظهر پوسايدون لينقذ السفن ويخف بالنجدة إلى الملاحين الذين يدعونه، فهو لا يبرز من وسط العاصفة، ولا يأتي ليساعد الريان، وليفتح له طريقاً من خلال الزوابع. بل يعمل بأسلوب يطابق سمته الأساسية بما هو قوة العنصر البحري: وهكذا نرى پوسايدون يهدئ عنف البحر. ويضع نهاية لغضب اللجج التي أثارها. والبحر يكف عن الهياج عندما يهدأ پوسايدون. وعندما كان البحارة يأتون ليعلقوا في نصبه واحداً من هذه النذور التي أخرجت لنا مكتشفات بينتيسكوفيا Penteskouphia منها عشرات القطع، فقد كانوا يفعلون ذلك طالبين منه عوداً سالماً، أو ليشكروه على رحلة بلا أخطار^(٩٦). أما أثينة فكانت تنهض بنصيب نشيط في الملاحاة، بالقدر الذي يبدو پوسايدون كأنه لا يلعب فيها إلا دوراً سلبياً في ظاهره.

نفس هذا التباين بين القوتين الإلهيتين نلاحظه في مجال مجاور يتواجه فيه الإثنان تواجهاً مباشراً: مجال الخيل، سواء خيل الركوب أو خيل الجر^(٩٧). والمقارنة يسهل إجراؤها لأن الفكر الإغريقي يحلو له أن يشدد على التطابقات بين السفينة والحصان^(٩٨)، وبين الدفة واللجام^(٩٩). في هذا المجال الآخر الذي تقابل فيه أثينة هيبيا Hippias پوسايدون هيببوس Hippios، نجد ميزان القوى يتحدد على مستويين متميزين: مستوى حصان الركوب، والثاني مستوى الجر الذي يتكون من العربة والخيول المكدنة.

وسواء كانت الحالة حالة حصان ركوب أو حصان جر، فإن خط القسمة بين القوتين - پوسايدون وأثينة - واضح. بل إن التضاد بين وسائل عمل كل منهما تبرزه جزئية شعائرية من مكونات ميثوس أثينة خالينيتيس Chalinitis «رية الشكيمة»: ففي اللحظة التي تقدم فيها أثينة إلى بيلليريفون الأداة الكامحة التي ستمكنه من السيطرة على حصان فائق الپوسايدونية، نراها تُذكر مَنْ تولت حمايته بأن عليه أولاً أن يرفع آيات الحمد إلى پوسايدون، وأن يعرض پيجاسوس Pegasos مزوداً بالشكيمة على مروض الخيول Damaios، وأن يقدم إليه أضحية عبارة عن ثور أبيض^(١٠٠). بهذه الطريقة، التي تبين بها أثينة على نحو واضح أن السيطرة على الحصان لا يمكن أن تتحقق إلا بموافقة «پوسايدون» سيد الخيل وبرضائه، تبين بصورة مؤكدة أسلوب عملها وأسلوب عمل پوسايدون.

والأضحية التي تقدم إلى پوسايدون في مجال الخيل لها ما يقابلها في أضحية أخرى تصدر عن نفس النية، وتقدم إلى نفس القوة الإلهية، ولكنها هنا في مجال الملاحة. في التراث الأرجونوتيكي نجد پوسايدون إله البحر الكبير هدف علامات إجلال مختلفة يخصصها الملاحون الأوائل، ويرفعونها إليه بطريقة لها دلالتها، فهم يرفعونها إليه عند طرفي رحلة الملاحة، أي عند الانطلاق وعند الوصول. في إحدى المأثورات^(١٠١) نقرأ أن ملاحي الأرجو كرسوا ساحة مقدسة لپوسايدون عند مدخل البحر الضنين Póntos Axeinos «البحر الأسود، الذي كانوا يسمونه البحر الكريم Póntos Euxeinos على عكس تصورهم الفعلي»، متوسلين إلى رب السفن أن ينجيهم من حركة الصخور الرجراجة المتلاطمة. وبالمقابل عندما يعود هؤلاء الملاحون أنفسهم من مهمتهم يقدمون إليه سفينتهم في نصبه الكورنثي على البرزخ الإيستموس^(١٠٢). وهناك مأثورة أخرى تشهد عليها قصيدة فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus^(١٠٣)، وَرَدَ فيها أن ياسون، قبل ركوب السفينة، قدم علناً إلى پوسايدون وزيفوروس Zephyros وجلاوكوس Glaukos أضحية تتمثل في ثور مُحلى بأشرطة رقيقة قرمزية اللون، كما ضحى ببقرة فتية على شرف ثيتيس. في أثناء هذه التضحية توجه ياسون إلى پوسايدون ليقدم إليه بكلمات الاحترام والإجلال السفينة الأولى التي تهبأت لتعبر البحر: «صفحاً، يا من تهيمن على اللجج المزیدة، يا من تحيط الأرض قاطبة بمياه البحر. إنني أعرف أنني أول إنسان من البشر يغامر بسلوك طريق محظور علينا؛ وأعرف أنني أستحق أن أكون لعبة العواصف...» وبعد أن ألقى ياسون مسئولية جراته على پيلياس Pelias، أنهى صلاته

بهذه الكلمات التي تحدد بدقة شديدة الأسلوب التخصيص لعمل پوسايدون: « فاقبل هذه السفينة... فوق أمواجك ولا تملأها بالفضب. » ويسري على السفينة ما يسري على الحصان: قبل استخدام أي منهما لابد من العمل على استمالة پوسايدون ونيل رضاه. وپوسايدون في المجالين، مجال الخيل ومجال السفن يتسم بنفس السمات: وكما أنه رب الخيل، كذلك هو يمارس على البحر وعلى السفن سيادة مفعمة بالريبة.

ولا تنتهي المقارنة بين المجالين، مجال الخيل ومجال السفن عند هذا الحد؛ بل من الممكن دفعها إلى أمام، انطلاقاً من أضحية ياسون التي قدمها إلى پوسايدون. ونحن نلاحظ أنه كما أن بيلليروفون قدم إلى پوسايدون حصاناً مزوداً بالشكيمة تم ترويضه برعاية أثينة، كذلك السفينة التي قدمها ياسون لپوسايدون كانت دُرّة نفذتها أثينة. والتراث الإغريقي كله يشهد على ذلك. ففي قصة آپوللونیوس الرودسي نجد «أثينة» ابنة زيوس وميتيس تترأس مراحل البناء المختلفة؛ والنجار أرجوس يتلقى الأوامر منها ^(١٠٤)، وكانت الربة أثينة نفسها هي التي تختار الأشجار التي نمت فوق ربوة پيليون Pelion ^(١٠٥)؛ وهي التي تقطعها وتجهزها بالبلطة، وتضع العروق المتناظرة drúchoi ^(١٠٦) التي تمسك هيكل السفينة أزواجاً، وهي - ختاماً - التي علمت أرجوس فن استخدام المسطرة في قياس العوارض الخشبية ^(١٠٧). ونجد أثينة في ميثاث أخرى تلعب دوراً لا يقل حسماً؛ فإذا قال قائل إن داناؤس Danaos هو الذي صنع أول سفينة، فما كان ذلك إلا بنصح من أثينة ويعون منها ^(١٠٨).

فالمقارنة بين الحصان وبين السفينة تؤدي إلى معرفة وجه جديد لتدخل أثينة في مجال الملاحة. ثم إننا نلاحظ أن هذه المقارنة تؤدي إلى إكمال وتحديد أكثر دقة لأسلوب عمل أثينة في مجال الخيل. ولقد بدا لنا على المستويين اللذين ميزناهما - وأولهما خيل الركوب وثانيهما العربة وخيل الجر - أن خط التحديد الفاصل بين أثينة وپوسايدون يتبع مساراً خصيصاً بكل منهما. والواقع أن عمل أثينة على مستوى العربة التي يجرها الخيل أكثر تعقيداً مما كنا نتصور: فهو لا يقتصر على قيادة العربة والخيل، بل يتسع ليشمل تصميم وصناعة هيكل العربة والأجزاء الخشبية المختلفة. و«الأنشودة الهوميروسية إلى أفروديتي» تذكر أن أثينة هي أول من علم التجارين صناعة العربات وعربات النقل المحلاة بالبرونز ^(١٠٩). فيما يتعلق بالعربة والسفينة، يبدو إذن أن اختصاص أثينة مزدوج يشمل فن البناء وفن القيادة جميعاً.

البناء والقيادة هذان نموذجان من العمل نجد أنفسنا مدفوعين أكثر فأكثر إلى اعتبارهما دالين على التباعد أكثر منهما دالين على التشابه. ولكنهما في نظر الإغريق يمثلان أنشطة تتيج تناظراً كبيراً. وهناك إشارات مختلفة متصلة بأثينة تسمح بأن تغترف منها الدليل على ذلك. ففي قصة أبوللونيسيوس الرودسي، نجد تيفوس، ريان السفينة، بعد اجتياز سومبليجاديس Symplégades «تمر الصخور الرهيبة»، سعيداً بالإفلات من تصادم الصخور الرجراجة ونجده يرد الفضل كله إلى أثينة التي دفعت السفينة فعلاً في اللحظة الحاسمة. ومع ذلك فلم يكن هذا الوجه من عمل أثينة هو ما استحسن تيفوس الإشادة به. إنه يشكر أثينة «ربة» البناء، أثينة التي أحكمت ضم القطع الخشبية معاً ضمّاً صلباً بالاستعانة بالخوابير^(١١٠)، كأنما لم يكن هناك فرق حقيقي بين هذه الأثينة وتلك، بل كان بينهما مجرد تناظر، هذا التناظر الذي يشبته شارح قديم عرفنا أهميته في تعريفه أثينة الأثوريا الزاغة aithuia. فشارح لوكوفرون، صاحب الحاشية، قبل أن يشرح أن أثينة توصف بأنها «زاغة البحر» لأنها علمت البشر أن يبحروا وأن يشقوا لأنفسهم في البحر طريقاً، يبسط تفسيراً آخر يربطه ربطاً وثيقاً بالتفسير الأول : لقد وصفت أثينة بالزاغة aithuia «لأنها هي الحرص، فرونيسيس phrónesis، الذي يبني السفن»^(١١١). والمعنى واضح: إذا كان النشاطان - البناء والقيادة - ينسبان هنا إلى أثينة واحدة، هي أثينة «ربة» البحر ذاتها، فإنما يرجع ذلك إلى أنهما كلاهما ينتميان إلى نفس نمط الذكاء الذي يميز أثينة، إلى دهائها الميتبسي أو حرصها.

قُطاع الشجر، النجارون، بناء السفن، كل هؤلاء فنيون كانوا في التراث ينعمون بحماية أثينة وحظوتها. ونحن نعرف في الملحمة الهوميروسية ميلها العظيم إلى تيكتون هارمونيديس Tektôn Harmonides، النجار، ابن فني التراكيب المحكمة «الذي كانت يدها تعرفان كيف تصنع الروائع من كل صنف»: وتيكتون هذا هو الذي أنشأ tekténasthai سفن باريس Paris «المسمى» ألكسندر^(١١٢). هل يقطع هذا النجار صالبة السفينة قطعاً صحيحاً مستعيناً بالخيط؟ إذن فقد أفاءت عليه أثينة من فضلها فمئحته مهارة شغل الخشب^(١١٣). هل المطلوب صناعة محراث، وتعشيق الخشب المقوس في الكعب وضبطه في القصبه؟ تلك إذن مهمة «خادم أثينة» ينهض بتنفيذها^(١١٤). وكما علمت أثينة عمال الخشب كيف يصنعون سفينة أو محراثاً، كذلك علمتهم فن صناعة العربات وعربات النقل.

وسواء كان الأمر أمر صناعة عربة أو محراث أو سفينة فإن اختصاص أثينة يشمل كل مراحل شغل الخشب: قطع الأشجار، مسح الألواح، توضيب قطع الهيكل الخشبي المختلفة، كل العمليات التي تتطلب نفس الدهاء المييتيسي. وقد جاء في الملحمة بالفعل «أن القوة ليست هي التي تصنع قاطع الأشجار الجيد، بل الذي يصنعه هو الدهاء المييتيسي» (١١٥). وكل نجار في البداية قاطع أشجار، يبدأ باستخدام البلطة في قطع الأخشاب التي اختارها بنفسه في الغابة (١١٦). فعندما قررت أثينة أن تصنع سفينة الأرجونوتية، فقد حرصت أول ما حرصت على الذهاب إلى بيليون لتجهز الخامات. فلما تم قطع الأشجار، بدأ إعداد الألواح وضبط سمكها (١١٧). وهناك موروث ميثي في الأغاني القبرصية بثبت أن تلك مهمة تولتها أثينة. ولقد جاء في التراث أن القنطور خيرون عندما صنع الرمح العجيب الذي تسليح به بيليوس قبل أخيليس بدأ بقطع شجرة الدردار التي اختارها خاماً؛ وهيفايستوس الحداد زود الخشب بطرف معدني وحوله إلى سلاح حرب؛ أما أثينة فقد تولت بعناية مسح وسنفرة خشب الرمح (١١٨). وبعد الفراغ من مسح الأخشاب وتجهيز الخامات، كان النجار صانع السفينة أو العربة أو المحراث يقوم بالتوضيب والتعشيق والتثبيت بالخوابير (١١٩). ومن العمليات المنتشرة أوسع الانتشار في صناعة السفن في بلاد الإغريق، عملية تتلخص في الابتداء عند صناعة جسم السفينة بتثبيت الحواف بطريقة العاشق والمعشوق والخوابير (١٢٠). في هذه المرحلة البالغة الأهمية من مراحل صناعة السفن نرى أثينة تترأس العمل بحسب ما جاء في «الأرجونوتية»: «فبينما أخذ أرجوس في تثبيت الحواف بالخوابير، كانت أثينة تنفث في السفينة قوة إلهية» (١٢١). إذن كل عمليات شغل الخشب ترد مجتمعة ومتراطة بعضها ببعض في تصوير ميثي لأثينة البحر التي ترسخت صانعة للسفن.

ولكن هذه العمليات في تتابعها المتدرج يتولاها شخص يتميز بنفس المهارة في فن قيادة السفينة وفي فن بنائها على السواء. هذا الشخص الذي تحميه أثينة هو البطل الذي يجسم بالنسبة إلى الإغريق كل الدهاء المييتيسي الإنساني. ذلكم هو أوليسيس. فمنذ أن قررت الآلهة أن يرحل عن الجزيرة التي حبسه فيها كاليپسو Kalypsô، شرع في بناء سفينة: فقطع عشرين شجرة بالبلطة، وهذبها بمهارة؛ وبعد ذلك قام بتقطيعها بعناية على الخيط؛ وفي النهاية ثبت الحواف بطريقة العاشق والمعشوق (١٢٢). فلما نصب الصاري ونشر القلع على هذه السفينة التي بناها بما هو معلم نجار، «جلس أوليسيس إلى الدفة وقاد السفينة رياناً قديراً، دون أن تأخذ جفنيه غفوة قط، وكانت عينه ثابتة على نجوم الپلياديس الشريا السبع ونجمة الكلاف التي لا تغيب إلا متأخرة، ونجمة الدب التي تسمى أيضاً العربة وهي النجمة التي لا تفوص

قط في حمامات المحيط الأوقيانوس، بل تدور في مكانها تترقب الجوزاء أوريون Orion (١٢٣). وفي أعماق أعماق الليل، في تلك الليلة التي يسميها إيسخيلوس «أم الكرب بالنسبة إلى الريان الحريص» (١٢٤)، قاد أوليسيس السفينة بدهاء ميتيسي يساوي دهاء الميتيسي في بناء سفينته.

ويمكننا مع ذلك أن نحاول التحديد بدقة أكبر لنبين كيف يمكن لنشاطين متميزين أشد التمايز مثل النجارة وقيادة السفن أن يتم التفكير فيهما من خلال نموذج عقلي واحد. في سجل العمليات التقنية التي يقوم بها النجار والتي نوهنا بها أغفلنا عملية تحتل مكاناً هاماً في شغل الخشب، ألا وهي: عملية استخدام الخيط الذي يمكن من قطع العروق والألواح مستقيمة (١٢٥) «يخط الخيط مستقيماً على الخيط» *epi státhmen ithunein* تلك عبارة متوارثة في الأدب الملحمي تصور النجار الماهر (١٢٦) وبناء السفن القدير (١٢٧). فالخيط هو صورة من صور الاستقامة (١٢٨)، «الخيط الذي يستخدم في قطع صالبة السفينة قطعاً مستقيماً على يد نجار خبير يعرف فنه حق المعرفة بإلهام من أثينة» (١٢٩). والتعبير «يخط الخيط مستقيماً» *ithunein* الذي يعرف عمل الخيط إذ يرسم طريقاً لا يلتوي إلى يمين أو شمال، هو في اللغة الإغريقية أيضاً تعبير اصطلاحي فني يستخدم في مجالين تبييناً من قبل توازيهما الوثيق: من ناحية مجال الملاحة حيث يدل على مسار السفينة التي يقودها الريان بفضل الدهاء الميتيسي، كما تقول الإلياذة: «على خط مستقيم في البحر من خلال الرياح والمد والجزر» (١٣٠)؛ ومن ناحية ثانية مجال قيادة العربة التي يعرف قائدها، المتمكن من الدهاء الميتيسي، كيف يقودها قيادة مستقيمة نحو الهدف، دون أن يحيد عن الطريق أبداً (١٣١). من خلال واقع الألفاظ الذي عرضناه يبدو أن الدليل يقوم على أن النجار عندما يصنع عربة أو سفينة، يستخدم نفس نمط الذكاء الذي يستخدمه الريان والسائق عندما يقودان، هذا يقود السفينة في البحر، وذاك يسوق خيله المكدنه إلى العربة على الطريق.. ومن هنا فإن تصوير أثينة ليس فيه فارق بين البناء والقيادة، بين أن تقطع صالبة السفينة مستقيمة على الخيط وبين أن تقاد السفينة مستقيمة في البحر. ولما كانت السفينة والعربة مشاركتين معاً في ذكاء أثينة التقني، فإنهما يبدوان على هيئة أداتي فعل أكثر مما يبدوان على هيئة أداتين مصنوعتين.

وهناك سمة من سمات مفردات الدهاء الميتيسي يمكن أن تبرهن على الوجه المزدوج لعمل أثينة. فمن بين التعبيرات التي تستخدمها اللغة الإغريقية للدلالة على مفهوم التدبير،

التخطيط، التأمل، نجد تعبيرات تلجأ إلى صور من صيد الحيوان وصيد السمك، فيقولون يضفر حيلة metin plékein كما يقولون يصنع بالضفر جابية أو فخاً لصيد الحيوان؛ ويقولون ينسج خطة metin huphainein كما يقولون ينسج شبكة لصيد السمك أو لصيد الحيوان^(١٣٢). ولكن هناك تعبير ثالث ينافس التعبيرين السابقين هو ينجر حيلة tek-tainesthai metin^(١٣٣). وهذا الفعل "ينجر" tektainesthai فعل يدل على شغل الخشب ونشاط النجار. فالمحتال يدبر أو يصنع الحيلة كما يصنع القطار الخشبية المختلفة التي تكون الفخ وتشكل أداة الخديعة. من هذا القبيل حصان طروادة الشهير، فهو في وقت واحد حيلة حربية أوحى بها أثينة إلى أوليسيس، وأداة خشبية صنعها إيببوس Epeios بمعونة الربة نفسها^(١٣٤). في السفينة وفي العربة - وهما من منتجات ذكاء أثينة وأدواته - نجد نفس الدهاء المبتسقي الذي يصمم ويصنع بنفسه الأدوات التي تخدم مشروعاته وتحققها. وهناك «قصيدة قصيرة من النوع المسمى» إيببجراما تذكر اختراع السفينة، فتقول إن أثينة هي أول من صممها «حرفياً = تأملها» médesthai^(١٣٥)، هي التي أنشأتها بعملية ذكاء وفي الوقت نفسه بنشاط له طابع تقني.

في ختام هذه المقارنة والمعارضة بين أثينة وبين پوسايدون في المجال المزدوج الخاص بالسفينة والحصان، نجد أنفسنا منقادين إلى تأكيد الدور الإيجابي المضاعف الذي تتولاه أثينة، وهو على عكس ما اختص به پوسايدون من دور تغلب عليه السلبية في أغلب الأحوال، ويبدو محصوراً في ممارسة سيادة توشك أن تكون إسمية. ومع ذلك فلا بد لنا - قبل أن نعرف نهائياً بمسار هذا الخط الفاصل بين قوتين إلهيتين متنافستين - بأن نختبره بعرضه على عدد من المواقف الميثية أو الثقافية التي يبدو أنها تكذب هذا التحليل تكديماً عنيفاً، قل هذا العنف أو زاد. ألسنا نرى پوسايدون في الفصل الذي أداره هوميروس في فيثاقيا يتخذ هيئة الإله الكبير الذي يحمي أمة من الملاحين والمعداوية؟ ألسنا نجد في نُصب على رأس سوؤنيون Sounion وثيق الصلة بريان ميثي اسمه فرونتيس Phrontis أي الحريص الأريب؟ وأخيراً ألسنا نرى پوسايدون في التراث الأرجونوتي أبا لأنكاوس Ankaios الذي ترسخت شهرته رسماً للدفة حتى استحق أن يخلف تيفوس، الذي كانت أثينة تحميه، فيجلس إلى الدفة في سفينة ياسون طوال النصف الثاني من الرحلة؟

أما الفصل المتصل بفيثاقيا «جزيرة عند مدخل البحر الأدرياتيكي هي الآن كورفو» فهو يقع في نطاق حلقات تدخّل ليثوكوثيا Leukothea. ولقد تمكن أوليسيس بفضل الطلسم

الذي أحضرته «زاغة البحر» من بلوغ أرض الفيثاقيين Phaiakes والإفلات من غضب
 پوسايدون. وكان رعايا ألكينووس Alkinoos يصورون على أنهم ملاحون رائعون وأنهم ممن
 يحميمهم پوسايدون. وكانت مدينة فيثاقيا المفتوحة على البحر أهلة بالملاحين الذين لم يكن
 يحلو لهم أن يتكلموا عن شيء إلا الصواري، والمجاديف، والسفن البديعة (١٣٧)؛ وكانت
 شوارع فيثاقيا تغص بالعمال الفنيين الذين يصقلون المجاديف، والذين يصنعون أدوات السفن،
 والقلوع والحبال (١٣٨). وكان احترام أهل فيثاقيا ينعكس على كل شيء حتى في أسمائهم
 التي كانت مشتقة من البحر والبحارة ومئن السفينة وظهرها ومقدمها ومؤخرها، وقد ترجم
 بيرار V. Bérard بعضها حرفياً إلى الفرنسية «من قبيل أبو مركب، الريان، البحار، البحاري،
 أبو قلع، أبو مجداف الخ» (١٣٩) Dugaillard, Vitenmer, Laviron, Lenoche, Del-
 ... aproue, Dubord, Delamare, Dularge إنه شعب من متعهدي السفن ومن البحارة
 المتمكنين من العمل بالمجاديف. ولكن الشغف المطلق بالملاحة ليس هو السمة الوحيدة التي تميز
 أهل فيثاقيا عن غيرهم من البشر. كانوا يعيشون في عزلة ويمتأى عن الناس بما يوحي بأنه لم
 يكن هناك شعب تعامل معهم، ولكن أهل فيثاقيا كانوا في الحقيقة بشراً عاديين، ينعمون
 بطبيعة الحال بالألفة مع الآلهة الذين كانوا يأتون ويجلسون إليهم في أيام الأعياد
 والولائم (١٤٠). ولكن إذا كان الآلهة جميعاً دون تمييز يقيمون في فيثاقيا كما يحلو لهم، فلم
 يكن لأي منهم نصب أقيم في أجورا Agora (١٤١) إلا لواحد فقط هو: پوسايدون، الذي هو
 القوة الإلهية التي أنجبت جنس ألكينووس ومنحت أهل فيثاقيا ميزة اجتياز البحار. على
 أرض فيثاقيا هذه بدت سيادة پوسايدون ثابتة لا جدال فيها.

ولكن هناك ربة أخرى قد تنافسه هذا الوضع، إذا نحن صدقنا على القراءة التي لم يذهب
 إليها أحد من قبل في فهم الأبيات الأربعة الخلافية المكروسة لمدح رعايا پوسايدون: «كما أن
 رجال فيثاقيا يفوقون بقية الرجال في إطلاقهم سفينة سريعة في البحر، كذلك نساجات فيثاقيا
 يَفْقُن «في هذا الفن» كل النساء. لأن أثينة منحتهن sphisin معرفة الأشغال الجميلة وميزة
 الأفكار الأريية» (١٤٢). هل كانت سيادة أثينة تقتصر على النساجات، كما يبدو من مدلول
 العبارة الأخيرة - التي استخدمت في الحديث عن بينيلوبي، فوصفتها بأنها ماهرة بفضل من
 أثينة في نسج القماش قدر مهاراتها في تخريج الأفكار الأريية (١٤٣) - أم هل كانت حماية
 أثينة تمتد لتشمل سواء بسواء النساء العاملات في حرفة النسيج والرجال الملاحين المدهشين من
 أهل فيثاقيا (١٤٤)، وهو ما قد توحي به التوافقات التي ذكرناها من قبل بين أثينة وبين
 الربابنة؟ وعلى الرغم من أن هذا التفسير الثاني يبدو مغرباً فلا بد من استبعاده لسببين.

السبب الأول هو أن عمل أثينة كله كان يدور على هامش فيثاقيا. فقبل أن يضع أوليسيس قدمه على أرض فيثاقيا، ظهرت أثينة مرة لكي تسد الطريق على الرياح التي أطلقها بوسايدون لمهاجمة سفينة عدوه: فبعثت ربح بورياس Boreas قوية مكنت أوليسيس من بلوغ الساحل (١٤٥). وما كاد أوليسيس يبلغ ساحل فيثاقيا حتي أخذت الربة أثينة - التي حمته - نفسها بالتحفظ أشد التحفظ. فرفضت أن يراها أوليسيس رأي العين، ولم تشأ أن تتصرف على المكشوف، ونأت بنفسها «احتراماً لعمها <بوسايدون>» (١٤٦). فلما أوصلت أوليسيس في حمايتها إلى قصر ألكينووس، اختفت وعادت إلى مدينة أثينا ودار إيريكثيوس Erekhtheus (١٤٧). وهناك معلومة طبوغرافية تترجم أكمل ترجمة العلاقة التي قامت بين أثينة وبين بوسايدون في المجال الفيثاقي: فبينما هيمن نُصْبُ بوسايدون على أجورا والمدينة، لم يبق لأثينة من مكان خاص بها إلا غابة مقدسة متواضعة (١٤٨) كانت إلى تواضعها تقع خارج المدينة على هامش مدينة ألكينووس.

يضاف إلى هذا السبب الأول سبب ثان يؤكد المسافة التي تباعد بين أثينة وبين أهل فيثاقيا، وتوضح على نحو حاسم علاقة أهل فيثاقيا برب البحر الأكبر <بوسايدون>. كان أهل فيثاقيا، بما هم ملاحون ومعداوية، يمتلكون سفناً خارقة للمألوف، في روعة سفينة ديونيسوس Dionysos: كانت أسرع من الجناح أو من الفكرة تتقدم دون ارتجاج واصطدام؛ «حتى إن الصقر، وهو أسرع الطيور، لم يكن يستطيع اللحاق بها...» (١٤٩). ولم يكتف بوسايدون بمنح هذه السفن السرعة، والعجلة في التحرك على صفحة البحر، بل أعطاها ما هو أكثر من ذلك؛ لقد أعطاها امتياز «اجتياز هاوية البحور الكبرى» laítma még'ekperóosin (١٥٠). فلم تكن سفن أهل فيثاقيا، وقد غشتها الغيوم والأنواء، تجتاز فقط هاوية البحر «دون أن تخشى قط الإصابة بعوارية أو التعرض لتيه»، «بل كانت موهوبة ذكاءً، تستطيع من تلقائها أن تكشف الكامن من رغبات البشر وأفكارهم» (١٥١). وبينما كانت الملاحه التي يتولاها البشر تتطلب دوماً تصحيح المسار اعتماداً على الدفة، كانت سفن أهل فيثاقيا تبهر «بلا ريان وبلا دفة» (١٥٢). فمنذ أن أعطى بوسايدون سفن أهل فيثاقيا امتياز هاوية البحر، لم تعد بها حاجة إلى استخدام الدهاء مع الرياح ولم تعد بها حاجة إلى أن تعمل حساباً للزوابع: فقد تحول البحر بالنسبة إليها من هاوية لا سبيل إلى اجتيازها إلى فضاء مألوف مجرد من كل غموض. ولما كان فن الملاحه قد أصبح عديم القيمة في فيثاقيا نتيجة الامتياز الذي نالته السفن وعرفت به كل طرق البحر، لم يعد لأثينة ودهائها المييسي ما يعملونه. وإذا كان «أهل فيثاقيا قد تفوقوا على البشر جميعاً فأطلقوا في البحر» (١٥٣)

سفينة سريعة»، فلم يكن ذلك إلا بفضل من پوسايدون الذي كانت لديه القدرة على أن يمنح سفنهم معرفة فطرية بغيابات البحر، كما كانت لديه القدرة على أن يجردها منها فجأة، عندما يمتلكه الغضب، فيحول السفن الأسرع من الصقر إلى قطعة من الحجر الغشيم أو من الصخر الثقيل الضارب بجذوره في المياه^(١٥٤). هذا المثل الفينائي لا ينال من تحليلنا لوسائل العمل المخصصة بأثينة وپوسايدون، بل يدعمه بدعم قيم لأنه يبين أن قدرة پوسايدون الكبرى - حتى إذا ظلت دون تقسيم، أي إذا ظلت على نحو ما موكلة إلى نفسها - تعمل فيما وراء وفيما أمام مجال قيادة السفن، أي دون مساس بمنطقة عمل أثينة.

يضاف إلى هذا الموقف الأول، الذي يترسخ فيه پوسايدون على أساس استبعاد أثينة استبعاداً كاملاً، موقفان آخران نجد فيهما الإلهان - پوسايدون وأثينة - يتواجهان على نحو أكثر مباشرة في مجال توجيه السفن وقيادتها. أول هذين الموقفين تتصل أسبابه في الطرف الأقصى من أتیکا، عند رأس سوعونيون. في مواجهة البحر يقوم معبد لپوسايدون يهيمن على الموقع، طوله ٣١,١٥ متراً وعرضه ١٣,٤٨ متراً^(١٥٥). وشهرة رأس سوعونيون قديمة قدم ملحمة الأوديسا^(١٥٦). فعندما وصل أسطول مينيلاس إلى مشارفها، عائداً من طروادة، إذا بريانه فرونتيس - وقد أصابته سهام إپوللون في أثناء الملاحاة - يفقد الدفة من بين يديه. وعقد مينيلاس العزم على أن يدفنه؛ فأغرق سفنه ورفع إلى فرونتيس ميتاً آيات التكريم الجنائزية، وجرى هذا على الأرجح فوق اللسان المكرس لپوسايدون. ومنذ سنوات عندما عاد ش. پيكار Ch. Picard^(١٥٧) إلى الحفائر التي قام بها العلماء الأثريون الإغريق، وأجرى في الموقع تحليلاً لها، وجد من الحجج الصائبة ما أتاح له التعرف إلى نصب لفرونتيس في مبنى صغير يقع على حدود ساحة پوسايدون المقدسة. ومن هنا فإن رأس سوعونيون يبدو أنه يقدم مثلاً على الاشتراك الوثيق أخص الوثوق بين پوسايدون وبين رأس دفة يكفي اسمه - فرونتيس يعني الحريص الأريب - برهاناً على أنه يمتلك ذكاءً مناوئاً لن يعدم الجدارة بأن يكون ممن شملتهم أثينة بحمايتها. تقول ملحمة الأوديسا عنه: «لم يكن له نظير في قيادة سفينته من خلال الزوابع»^(١٥٨).

وتبين بقية هذا الفصل في الأوديسا على نحو أفضل تميزاً هذا الريان. فمنذ حرم مينيلاس عون فرونتيس ونجدته، وجد نفسه، دون أن يدرك ما يحدث له، قد وقع في الفخ الذي نصبه له زيوس. ففي أثناء الالتفاف حول رأس ماليا، فوجئ الأسطول بعاصفة دبرها له زيوس، ملك الآلهة^(١٥٩). وتحطمت سفن عديدة، وتشتت سفن أخرى حتى وصل بعضها إلى

مصر حيث وجد مينيلوس نفسه محصوراً قد أحاط به رب من الأرباب سد عليه الطريق *édese keleúthou* (١٦٠). ويبدو واضحاً أن مينيلوس، وقد خلف فرونتيس وراءه في رأس سوعونيون قد فقد الدهاء الميتيسي الذي ما كانت السفن بدونه تستطيع أن تجتاز الزوابع (١٦١). فهل يعني هذا أن نستنتج أن هذا الرب البحري - الذي بدا لنا حتى الآن غريباً كل الغرابة على كل شكل من أشكال الدهاء الميتيسي - صادراً علي نحو ما هذا الذكاء الملاحى؟ لا بد من إجراء فحص أكثر تدقيقاً للمعطيات الثقافية في سوعونيون لصرفنا عن هذا الاستنتاج. والحق أن موقع سوعونيون لم يكن خالصاً لپوسايدون وحده. وپاوسانياس (١٦٢) يكتب أن الملاحين عندما كانوا يصلون إلى حيث يرون أتيكا، كانوا يكتشفون أولاً من البحر نصباً صغيراً يقبع على مرتفع: ذلك هو نصب أثينة سوعونياس *Souniás* «نسبة إلى سوعونيون» الذي عثروا عليه على بعد ٥٠٠ متر تقريباً من معبد پوسايدون، فوق تل قليل الارتفاع. وعندما أجرى علماء الآثار حفائر في هذه المنطقة أخرجوا وثيقة تحدد سمات أثينة سوعونياس *Souniás*. هذه الوثيقة عبارة عن لوحة صغيرة من الخزف المصور هي لوحة نذّر تمثل سفينة يسوقها ريان ملتج، يجلس، ويمسك الدفة بيده (١٦٣). حتى إذا تردد متردد في اتباع رأي بيكار الذي يميل إلى أن يرى في هذه اللوحة الصغيرة «تذكراً لموت فرونتيس»، فقد ثبت بالوثائق أن الريان المعتبر بطلاً في رأس سوعونيون متضامن مع أثينة ومشارك لپوسايدون.

وينبغي أن نلجأ في تحديد موقف فرونتيس من القوتين الإلهيتين البحريتين - پوسايدون وأثينة - إلى التناظر مع وضع ريان أسطوري آخر. فهناك ماثورة أحدث من الملحمة الهوميروسية تذكر أن ريانا اسمه كانوبوس *Kanôpos* أو كانوبوس *Kanôbos* خلف فرونتيس علي أسطول مينيلوس الرودسي وكان هو الذي قاده حتى وصل به إلى مصر وهناك أصابه موت مفاجئ، فتحول إما إلى نجم مضيء لا يراه إلا البحارة الذين يمخرون عباب البحر من رودس إلى مصر، أو إلى النجم الأنور في برج أرجو، وهو النجم الذي يمثل في السماء دفة سفينة الأرجونوتية (١٦٤). وتعتبر أسطورة كانوبوس *Kanôpos* في إيجازها أكمل تعبير عن العلاقة الوثيقة بين الملاحة والفلك: فالريان الميثي تحول إلى علامة من هذه العلامات المضئية التي يستطيع الريان التقدير أن يرسم بناء عليها طريقه في البحر. وكانوبوس *Kanôpos* هذا هو نفسه الذي يحدثنا عنه تاريخ معبد أثينة لينديا *Lindia* في رودس ذاكراً أنه أهدى دفة سفينته - لا إلى الربة الوحيدة التي تحمي ليندوس *Lindos*، والتي تحمي الربانة كذلك - بل إلى «أثينة وپوسايدون» مجتمعين *tai Athanaiai kai Poteidani* (١٦٥).

ولا يمكن - سواء في رودس أو في رأس سومونيون - أن يكون للاشتراك الوثيق بين أثينة وپوسايدون مع ريان إلا معنى واحد: هو التعبير عن أنه لا يمكن لأي ريان أن يمارس مهارة هي من شأن أثينة أساساً، دون أن يعترف في نفس الآن بنصيب پوسايدون من السيادة، وهو نصيب يظهر في الصورة العادية لپوسايدون سيد البحر الذي يحمل فوق ظهره السفن التي يركبها البشر. فمهما كان قرونطيس وكانوپوس تحت حماية أثينة، فلا بد لهما من التعامل مع پوسايدون، وإذا كان پوسايدون يستطيع أن ينكر أثينة، فهي لا تستطيع أن تستبعد شريكها القوي، بالمقدار الدقيق الذي لا يستطيع به الذكاء الملاح أن يعمل عمله دون عون من عنصر ينتمي أساساً إلى السيادة الپوسايدونية.

هكذا نجد أثينة وپوسايدون - سواء في رودس أو في رأس سومونيون - يظهران على هيئة قوتين إلهيتين توأمتين، تتمايز الواحد عن الأخرى تمايزاً واضحاً، ولكنهما تتعاونان تعاوناً فعالاً وضرورياً. في الموقف الأخير الذي بقي علينا أن نتفحصه نجد هاتين القوتين تتواجهان على نحو مباشر، قلت المباشرة أو زادت، في مجال قيادة السفينة. وكما أن الأناشيد الديونوسية تحكي عن سباق عربات بين متنافسين أحدهما قائد يتبع أثينة والآخر قائد يتبع پوسايدون^(١٦٦)، كذلك قصة الأرجونوتية «لأبولونيوس الرودسي» يبدو أنها تقيم تعارضاً حقيقياً^(١٦٧) بين الريانيين اللذين تتابعا على السفينة أرجو، بين تيفوس - الريان الذي اختارته أثينة وأرسلته - وبين أنكاپوس - ابن پوسايدون الذي عهدت بالدفة إليه بعد موت تيفوس فجأة عقب اجتياز الصخور الرجراجة مباشرة. وأنكاپوس - دون أن يكون بالمعنى الدقيق منافساً لتيفوس - يظهر في هيئة منافس في فن قيادة السفن ظهوراً يزيد وضوحاً ما ورد في قصة الأرجونوتية من مدح لمعرفة الملاح ومهارته في توجيه الدفة^(١٦٨).

ريان پوسايدون من ناحية وريان أثينة من الناحية المقابلة: هل المواجهة بين تصرفات هذا وتصرفات ذاك يمكن أن تؤدي إلى تصحيح هذه أو تلك النقطة من خط التقسيم الذي رسمناه بين القوتين الإلهيتين البحريتين؟ ويمكننا أولاً أن نلاحظ ملحوظة أولى: الإلهان يظهران لدى من يحمونهما بطرق مختلفة. بينما تدفع أثينة تيفوس إلى اللحاق بالأرجونوتية لكي يمسك الدفة، بينما تقف هي إلى جانبه لتدعم عمله من أجل اجتياز الصخور الرجراجة، لا يتدخل پوسايدون في أية لحظة لصالح الريان الذي نجد ما يغرينا باعتباره «ريانه». كانت هيرا، لا پوسايدون، هي التي حثت أنكاپوس على أن يتولى مهمة تيفوس. أما في الفقرات الدرامية فأرجوس أو ياسون أو الديوسكوران أو تريتون وأبوللون أبجليتيس Aiglètes هم الذين يأتون

لتخليصه من المأزق ولتقديم العون إليه. لم يطلب أنكايبوس ولم يتلق عوناً من أبيه الرباني. عندما نتبين هذا الاختلاف بين أثينة وپوسايدون تظهر لنا الاختلافات بين الربانيين واضحة جلية. فبالقدر الذي يترسخ فيه ريان أثينة على هيئة الرئيس الحقيقي للسفينة إلى الحد الذي يغطي فيه أكثر من مرة على ياسون أمام رفاقه، بالقدر نفسه يبدو أنكايبوس باهتاً، عديم الأهمية، تتجاوزته في أغلب الأحيان الأحداث التي لم يستطع قط أن يتنبأ بها.

ومنذ بداية قصة «الأرجونوتية» ، نجد تيفوس على هيئة الربان القدير: الماهر في التنبؤ prodaenai بتغيرات الجو وتقلبات الريح، القادر كذلك على حساب مساره tek-mérasthai طبقاً لموقع الشمس والنجوم^(١٦٩). كان هو الذي يعطي إشارة الانطلاق ويقود المناورة لكي يضع السفينة في البحر^(١٧٠). كان طوال الجزء الأول من الحملة ينهض مبكراً مع نجم الصباح ، ويرصد الرياح المواتية، ويحث الملاحين الأرجونوتية على ركوب السفينة^(١٧١). كان دهاؤه المبتيسي وحرصه phradmosúne^(١٧٢) هما اللذان يرسمان مسار الحملة. وعند مدخل البوسفور كانت مهارته في المناورة هي وحدها التي تتيج له أن يشق لنفسه طريقاً وسط الأمواج الهائلة التي تهدد بالإطاحة بالأرجونوتية^(١٧٣). وظهرت براعة تيفوس على نحو أكثر وضوحاً في اجتيازه الصخور الرجراجة. وأعطى تيفوس، كما أوصاه العراف فينيا Phineus ، أولاً الأمر بإطلاق حمامة طورانية ليختبر بطيرانها طريق السفينة^(١٧٤). فلما تم له اجتياز الممر، أمر البحارة بأن يشدوا على المجاديف ويندفعوا بين الصخرتين، في اللحظة التي كانتا فيها قد بدأتا تتباعد من جديد. وفي وسط الممر تماماً، في اللحظة التي أتت فيها أثينة تدعم عمله خفية، كان تيفوس واعياً بما فيه الكفاية ليتفادى في آخر دقيقة لجة هائلة انقضت نحوهم^(١٧٥). حتى إذا دلف تيفوس إلى أويكساينوس پونتوس Euxeinos Pontos «البحر الكريم» ، والمقصود البحر الأسود، وقد حوروا اسمه إلى العكس على سبيل الاستمالة» ، تملكه سرور حقيقي على عكس القلق الذي تملك بحارة الأرجونوتية: وشجع ياسون، وقوى عزيمته الطاقم، وأعلن ما أدهش الجميع ألا وهو أن الحملة أصبحت منذ تلك اللحظة مضمونة النجاح؛ فقد تحققت نبوءات فينيوس؛ وأصبح الطريق بعد اجتياز الصخور الرجراجة مفتوحاً^(١٧٦). وما مرت هنيهة حتى اختفى تيفوس فجأة^(١٧٧).

أما في حالة أنكايبوس فيظهر في المشهد^(١٧٨) نمط ريان مختلف كل الاختلاف. ليس من شك في أنه كان يملك طائفة من المعارف في مجال الملاحة، وليس من شك أيضاً في أنه كان يعرف كيف يمسك الدفة، ولكن أنكايبوس لم يكن يتنبأ قط، ولم يكن يتخذ قراراً في أي وقت،

ولم يكن بوجه السفينة حقاً بحال من الأحوال. فلما ظهرت العقبة الأولى في الرحلة، عندما حان حين المرور من أويكساينوس پونتوس Euxeinos Pontos «البحر الكريم»، والمقصود البحر الأسود» إلى المرحلة التي تؤدي إلى كولخيس Kolkhis «حيث الجزة الذهبية» اتخذ أرجوس مكان أنكا يوس ليقود المناورة (١٧٩). وفي رحلة العودة كان أرجوس هو الذي بين للأرجونوتية الطريق الذي يتبعونه (١٨٠). ومنذ ذلك الحين اكتنفت مسار السفينة الأرجونوتية سلسلة من التدخلات العجيبة الإعجازية. فعندما أرادت الربة هيرا أن تبين للسفينة اتجاه إيستروس Istros، رسمت في السماء خطأ كبيراً مضيئاً (١٨١). وبعد مقتل أفسورتوس Apsyrtos كشف العرق النبوي المكفت في جسم السفينة أن على الديوسكورين أن يتضرعوا إلى الآلهة لتفتح للسفينة طرق أوسونيا Ausonie الموصلة إلى أرض كيركي Kirke (١٨٢). وفي مرة أخرى عندما أوشكت الريح أن تحيد بالحملة عن الطريق في قلب المحيط الأوقيانوس، تدخلت هيرا من جديد، تدخلت مباشرة وبمزيد من القوة، فدفعت السفينة إلى الوراء ورددتها إلى الطريق الصحيح (١٨٣). في كل هذه الظروف نجد أنكا يوس مثل الغائب، لا يلعب أي دور. بل لا يتدخل عند اجتياز خاربيدا Kharybde وسكوللا Skul-la، وتمسك ثيتيس السفينة وتقذفها في الممر مستفيدة من سكون الريح الذي أحدثه تواطؤ هيفايستوس وأيولوس Aiolos - تواطؤ سيد النار وملك الريح (١٨٤). وبقيّة الرحلة تشهد كذلك على عجز أنكا يوس. ففي اللحظة الذي ظهرت فيه البيلوپونيز «شبه جزيرة المورة» للأبصار، هبت عاصفة جديدة ألقت بالأجرونوتية إلى بحر ليبيا وجنحت بهم قبل «خليج» سيرته، في قلب منطقة مهجورة. هنا كانت الأمور قد تجاوزت كل حد. وفاضت عينا أنكا يوس بالدمع وهو يبلغ الأرجونوتية أنه يتخلى عن منصبه ويرفض قيادة السفينة (١٨٥). منذ تلك اللحظة لم نعد نسمع عنه شيئاً. ويكتنف نهاية الرحلة تدخلان كبيران من لدن قوى إلهية. فقد تدخل تريتون Triton عندما صعد من أعماق البحيرة التي تتسمى باسمه، وقاد السفينة ممسكاً بالدفة حتى بلغ بها الموضع الذي تتفرق فيه المياه في البحر (١٨٦). كذلك تدخل أبوللون أبجليتيس Aiglètes عندما أضاء نوراً وهاجاً في ظلمات ليلة عاصفة، وأنقذ هكذا الأرجونوتية من الضياع الكاتولاس katoulás (١٨٧).

من أول الملحمة إلى آخرها يتناقض ريان پوسايدون أشد التناقض مع ريان أثينة. فأنكا يوس على نقبض تيفوس لا يبين في أي لحظة أنه يحتكم على أي قدر من الدهاء المبتيسي. وكلما تقدمت الحملة، ظهر عجز أنكا يوس واضحاً جلياً، حتى يجد نفسه مدفوعاً إلى التنحي بسبب انعدام الكفاءة. ولكن من بين فصول الملحمة هناك فصل يبين أفضل من الأخرى بوضوح حدود

عمل هذا الريان पोसाيدوني الأصل: دوره هو الدور الذي انتهى إلى الديوسكورين ليتولى سفينة الأرجونوتية. حدها القطاب الخشبي النبوي، عرق الخشب النبوي، فعندما وصلا جزر ستويخاديس Stoikhades ثبتهما في منصبيهما الجديد ملك الآلهة الذي وكل إليهما مهمة إنقاذ السفن التي تتعرض للخطر (١٨٨). ويختلف أسلوب تدخل الديوسكورين أوضح الاختلاف عن أسلوب أثينة. الديوسكوران «منقذا السفن» يظهران في السماء، وينيران من فوق الصواري. فالديوسكوران حاملان النور phosphóroi ، وهما يهدئان رياح العاصفة ويُهبطان أمواج البحر (١٨٩). وهناك شعيرة بؤديها من يحتاج إلى ظهورهما من الملاحين تتمثل في قيام الملاحين بتقديم أضحيان من الحملان البيضاء على مؤخر السفن المعرضة للخطر (١٩٠). وتلك شعيرة موازية ومقابلة للشعيرة التي يخص بها الأثينيون رياح العاصفة، فقد كانوا عندما تتهددهم عاصفة يضحون على الساحل بحمل لونه أسود. ففي إحدى الحالتين تهدف الشعيرة إلى تهدئة السحب المعتمة، التوفوس، وتحويل الرياح الغاضبة عن طريق تقديم ضحية سوداء اللون، لا تقدم إلا إلى القوى الجهنمية. وفي الحالة الأخرى تهدف الشعيرة إلى دعوة الديوسكورين إلى إضاءة نور في العاصفة وهو نور تلمح إليه مسبقاً الأضاحي الحيوانية المقدمة بلونها الأبيض الفاقع. هذا الأسلوب الذي يعمل به الديوسكوران حدد بلوتارخوس أصالته على نحو ممتاز: «أنهما لا يبحران مع البشر، وإنهما لا يقاسمانهم أخطارهم، بل يظهران في السماء فهما المنقذان.» (١٩٢).

كان من الضروري أن نلف هذه اللفة عن طريق الديوسكورين لنقتنع بأنه ليس هناك منافسة بين تيفوس وبين أنكاياوس يمكن أن تحدث صدى يشير إلى منافسة محتملة بين पोसाيدون وبين أثينة على مستوى قيادة السفن. الريان الوحيد الذي يمكنه أن ينتسب إلى पोसाيدون يجد نفسه مضطراً إلى أن يكل أمر نجاة سفينته إلى رعاية الديوسكورين. بعبارة أخرى: أنسب نقطة للمقارنة بين تيفوس وبين أنكاياوس هي نفسها النقطة التي تنحل فيها بوضوح ما بعده وضوح شفرة الاختلاف بين وسائل عمل الديوسكورين وبين وسائل تدخل أثينة. وكما بدا على الفيقائيين أنهم نعموا بما أغدقه عليهم पोसाيدون، كذلك وبالقدر نفسه ظهر أنكاياوس على هيئة المحروم، كان رباناً مسكيناً، لا يرجو شيئاً إلا عون الديوسكورين. صحيح أن سلطان पोसाيدون بلا حدود على البحر، ولكنه لا ينطبق، لا على الريان ولا على فن إدارة الدفة، بل هو يشمل ما قبل وما بعد هذا المستوى التقني: ما قبله عندما يحلو للرب पोसाيدون أن يهيج أو يهدئ العنصر البحري؛ وما بعده عندما يمنح سفن الفيقائيين معرفة كاملة بالطرق والغيابات في البحر تجعل الدفة وفن القيادة بلا فائدة.

وأثينة ربة البحر، بما هي «زاغة البحر» مثل الربة البيضاء، الليثوكوثيا، لا تحمل إلى الملاح لمجاة مطلقة وعجيبة غامضة؛ كذلك عملها لا يترسخ في لعبة تضاد الأسود والأبيض التي تميز تدخل الديوسكورين^(١٩٣). وسواء وقفت بجانب الريان لتفتح له طريقاً على البحر أو أطلقت الطائر أداة فعالة تؤدي إلى اجتياز الغيابات، فأثينة تظهر في العالم البحري بممارسة ذكاء ملاحى يعرف كيف يرسم طريقه مستقيمة على البحر بمخاتلة الأنسام وحركة الأمواج. هذا الذكاء العملي المخاتل يلوح تقنياً لا ينفصل عن التقنية، وهو يظهر في فن قطع الأجزاء الخشبية قطعاً مستقيماً على الخيط، كما يظهر في الفن التكميلي القائم على ضمها مضبوطة بعضها إلى البعض لصناعة السفينة التي هي أداة الملاحة. في مجال العمل هذا الذي تشترك فيه أثينة مع پوسايدون وليثوكوثيا والديوسكورين، تتميز أثينة بميزة تفرقها عن كل القوى البحرية الأخرى ألا وهي المقدرة المتساوية على البناء وعلى قيادة السفن، وتلك هي السمة التي يُعرف بها أسلوبها في التدخل على مستوى الملاحة.

الباب التاسع

قدما هيفايستوس

التيلخينيون Telkhines ^(١) حدادون، معدنون لهم نظرة قاتلة، وهم سَحَرَة دائماً يضرُون. وهم قوى أولانية تتبع التقاليد الرودسية، ولهذا فهم في قلب طائفة من المصورات الميثية تعرضها على الترتيب التشكيلي فصول مغامراتهم في رودس وفي كيوس، وعلى الترتيب النمطي. مجموعة الترابطات والعلاقات التي تربطها، من ناحية بالقوى الإلهية التعدينية المجاورة وهي: السينتيون والداكتوليون والكابيري وهيفايستوس، وتربطها من ناحية ثانية بالقوى الإلهية الأولانية للعنصر البحري: پروتيوس Proteus وثيتيس Thétis وپساماثي Psamathe. ويمكننا من خلال الشبكة الميثية التي تسجل فيها التيلخينيون أن نستخلص بعض جوانب التعدين من حيث هو شكل من النشاط كما نستخلص في الوقت نفسه بضعة سمات للحداد من حيث هو نمط من الرجال: هناك صلات التعدين بالنشاط الزراعي؛ وهناك علاقات الحداد وشغل المعادن بالبحر، ومكانته، وقواه، ووظيفته الكوسموجونية؛ تمثيل العامل المعدن؛ وأسلوب تصرفه، شكل أعضائه، أدوات التناول. ودون أن ندعي هنا أننا سنبسُط المقومات المختلفة للخطاب الميثي المخصص للأنشطة التعدينية، قد اخترنا أن نشدد على نموذج حيواني يضم السمات الجوهرية لميثوس التيلخينيين على نحو تكاملي، ويسمح في الوقت نفسه بتوضيح ناحية كبرى من تصوير الحداد في بلاد الإغريق الأرخائية العتيقة: هذه الناحية هي مورفولوجيا أعضائه السفلى. عندنا كتاب للمؤرخ اللاتيني سويتونيوس <Tranquillus Suetonius> عن الكلمات الجارحة التي يستخدمها الإغريق، وهو الذي أعطانا أوفر بيانات عن التيلخينيين ^(٢). في هذا الكتاب المتبحر الذي كتبه بالإغريقية الرجل المسئول عن المكتبات الإغريقية الرومانية في عصر هادريانوس، نجد سلسلة كاملة من الإشارات تشدد على توافقات هذه القوى الإلهية التعدينية مع العالم البحري: التيلخينيون أبناء البحر؛ مغامراتهم تتموقع على جزر مثل رودس وكريت؛ وهم يبدون على هيئة كائنات برمائية تتخذ في محوراتها مظهر الحيوانات البحرية: «إنهم يشبهون الشياطين حيناً، والبشر

حيناً آخر، وقد يشبهون الأسماك، وقد يشبهون الشعابين. « ولكن نص سويتونيوس لا يقتصر على هذه الإشارات ذات الطابع العام، بل يضم ألواناً من التدقيق أكثر عجباً. ونحن دون أن ندخل في تفاصيل المشكلات النصية التي تطرحها كتابة هذه الشهادة^(٣)، يمكننا أن نلخصها بهذه الكلمات: بعض التيلخينيين لا أذرع لهم ولا سيقان، وأصابعهم غشائية كأرجل الأوز. ويقال إن نظرتهم براقّة، وحواجبهم سوداء^(٤). وإذا كانت سمتا النظرة والحواجب تحيلان بدهاء إلى القوة السحرية للتيلخينيين، فإن سمتي الأذرع والسيقان بتكاملهما ترسمان صورة حيوانية تشهد في وضوح على قدرة التيلخينيين على التحور - وبعبارة أدق تشهد على الأشكال الأخيرة التي ذكرها سويتونيوس : الأسماك والشعابين. وبعبارة «كائنات مجردة من الأذرع والسيقان» *ácheires kai ápodes* كانت تعني بالنسبة لعلماء الطبيعة القدامى سمة مميزة للأسماك، هذه الحيوانات التي جسمها جذع متمد من الرأس إلى الذيل^(٥). ولكن الكائنات السمكية الشكل لها كذلك بين أصابعها غشاء «مثل الأوز»؛ فأصابعها الغشائية إذن مركبة مباشرة على جذعها. وهناك حيوان واحد يطابق هذا الوصف تماماً، وهو : عجل البحر *le phoque* هذا الحيوان الثديي السمكي الشكل ذو القدمين القصيرتين اللتين تتخذان شكل الزعنفتين بكل منهما خمس أصابع محاطة بالجلد. والسمات السلوكية لعجل البحر، ومكانه في سلم الحيوانات، وميزاته المكرسة، كلها عناصر تؤكد التطابق الذي نقترحه، وكلها أوجه تسمح بتحديد التيلخينيين سواء في دورهم من حيث هم قوى إلهية أولاتية، أو في وظيفتهم من حيث هم معدّنون.

وعجول البحر ثدييات برمائية من ذوات الأقدام الزعنفية، متكيفة أوضح التكيف مع الحياة المائية البحرية، شكل جسمها مغزلي، ورأسها أقرب إلى التفطح، وجوارحها الأمامية قصيرة وقليلة الخلوص، والخلفية لا تتبع جسمها إلا سلبياً. وهي في أعيننا حيوانات غريبة، ولكنها في الزمن الأنتيكي كانت على العكس تكون أمة كبيرة منتشرة انتشاراً واسعاً في البحر المتوسط وفي بحر إيجه. والشواهد متاحة: منذ ما كتبه سترابون *Strabon* وديودوريس *Diodores* وأجاثارخيديس *Agatharchides* عن جُزُر عجول البحر، وكثرة هذه الثدييات في البحر الأحمر - إلى الأساطير العديدة التي تدور حول عجل البحر، سواء في الملحمة الهوميروسية أو في مجموعة «الكورانيديات». ويتفق الملاحون والمتخصصون في الملاحة في العصور القديمة على أن اختفاء عجول البحر من البحر المتوسط حدث في وقت ليس بعيد: ففي بداية القرن «العشرين» كانت هذه الحيوانات البرمائية لا تزال تشتي ناحية رأس فيجالو *Fégalo*، وظل بعضها حتى هذه السنوات الأخيرة يلم بسواحل الجزر المهجورة فتفاجئه السفن العابرة^(٦).

في التراث الإغريقي ينتظم نموذج عجل البحر حول سمتين جوهريتين في تصرف هذا الحيوان: وضعه البرمائي وطبيعته بالأرجل الزعنفية. وبعبارة أخرى طريقة حياته، وخصائصه المورفولوجية، وهذان وجهان من عجل البحر متضاقران تضافراً وثيقاً، كما يبين مقارنة نصي أرسطوطاليس. في كتابه تاريخ الحيوان يصف أرسطوطاليس عجل البحر على اعتبار أنه حيوان برمائي: «فهو من ناحية لا يستنشق الماء، بل يتنفس، وينام ويضع صفاره على البر، ولكنه يظل قريباً من الشاطئ، وكأنما هو يدخل في عداد الحيوانات المزودة بالأرجل، وهو من ناحية ثانية يقضي أغلب وقته في البحر، يحصل منه على طعامه، ومن هنا وجب أن نسلكه في عداد الحيوانات البحرية.» ^(٧) فعجل البحر مقسم بين البر والبحر، يفضل البقاء على البر، على تلك الشريحة من الأرض المطلّة على البحر، وهو لا يمكنه أن يعيش هذا الأسلوب المزدوج من الحياة إلا عن طريق الإفادة من الميزات المورفولوجية التي تمكنه من الانتماء إلى نوع الأسماك وإلى نوع الحيوانات البرية في وقت واحد. وهذه هي النقطة التي يشدد عليها أرسطوطاليس في مقاله عن أجزاء الحيوان: «إذا نحن اعتبرنا عجول البحر من الحيوانات المائية، وجدنا أن لها أرجلاً؛ وإذا نحن ألحقناها بالجنس البري، وجدنا لها زعانف، لأن أرجلها الخلفية تشبه زعانف السمك تماماً.» ^(٨)

هذا الأسلوب المزدوج الذي تتخذه عجول البحر في حياتها تحدده موروثات مختلفة بدقة. نجد أولاً القصص التي توات من أرسطوطاليس إلى إيليانوس Elianos والتي تدور حول تعليم عجل البحر الصغير ^(٩). هكذا يحكي بلوتارخوس كيف يجري تعليم صفار عجول البحر الحياة البرمائية: «عجول البحر تضع صغارها على اليابسة؛ وتقوم شيئاً فشيئاً باقتيادها إلى البحر، وجعلها تتذوقه، ثم تعود أدراجها بعد ذلك. وتكرر هذا الإجراء عدة مرات إلى أن تعود الصفار وتقوي جرأتهم وتصل بهم إلى حيث يحبون البقاء في البحر.» ^(١٠) هذا الذهاب والإياب بين اليابس والرطب، هذا التنقل الدائم بين الأرض والبحر يترجم الطبيعة البرمائية لحيوان هو في وقت واحد بري وبحري. وهو يكتشف واحدة من الوظائف العظمى لعجل البحر في الموروث الإغريقي: ألا وهي تحقيق الوساطة بين اليابس والرطب، وربط العنصر البحري والعنصر الأرضي جميعاً. منذ فصل بروتوريوس في «الأوديسا» ^(١١)، تعتبر عجول البحر بالنسبة إلى الإغريق حيوانات طلعت من أعماق الغياهب البحرية وتمددت في تجويف المغارات على طول الشواطئ: فهي تمثل نوعاً من التفضيل للسان البر المبتل الذي يضم اليابس والرطب. على ساحل البحر *parà rhegmini thalásses* راحت عجول البحر التي تنتمي إلى شيوخ البحر تتمدد لتنام ^(١٢)؛ وعلى الشاطئ *epi rhegmini póntou* أتت *Psamathe*،

أخت ثيتيس، لتضع ابنا اسمه فوكوس Phôkos أي عجل البحر بعد أن اتخذت هي نفسها هذه الهيئة الحيوانية، هيئة عجل البحر، لتفلت من ضمة أياكوس Aeakus^(١٣). وعجول البحر البرمائية ذوات الأرجل الزعنفية لا تعيش فقط على السواحل في المغارات البحرية، بل هي تختار أيضاً الصخور التي يضربها الموج، تلك الصخور التي يسميها الإغريق سبيلاديس spiládes. وهذا التعبير هو الذي استخدمته هيرا في إشارتها إلى المكان الذي وضعت فيه ليتو Leto الطفل الذي لم ترض أية أرض باستقباله خوفاً من غضب هيرا: ولدت هيرا «في الموضع الذي تضع فيه عجول البحر صفارها، على الصخور الضائعة»^(١٤). هذا المكان هو جزيرة ديلوس، وهي جزيرة كثيرة الرياح، وصخرة يضربها البحر: بل إنها في التصوير الميثي أرض بغير جذور، جزيرة طافية^(١٥). كانت جزيرة ديلوس Délos في تصورهم تهيم فوق البحر، تعوم على هوى التيار، تدفعها ربح نوتوس Nôtos «الجنوبية»، أو ربح أوبروس Eu-ros «الشرقية». وعلى عكس الأرض، وهي الربة جايا «ذات الجنوب العراض» التي ثبتت جذورها في الأعماق متيحة للبشر مقاماً صلباً لا يرتج، نجد الجزيرة الطافية قطعة من الأرض نصفها غارق في الماء يخضع لحركة مزدوجة، أفقية ورأسية: فهي تارة ترتج من أثر الموج من الشمال إلى اليمين، ثم من اليمين إلى الشمال، وتارة تطفو من عمق البحار لتضيق من جديد في ضخامة الپونتوس «البحر». وبين الجزيرة الطافية وعجل البحر الذي يسكنها تناظر كامل: ففي الفكر الميثي كلاهما يتموقعان في منتصف الطريق بين الأرض والماء؛ وهما لا ينتميان انتماءً كاملاً لا إلى هذه ولا إلى ذاك؛ ولأنهما يربطان العنصر البحري والعنصر الأرضي سواء بسواء، فإنهما كلاهما يتوليان الوساطة بين العنصر والآخر.

ونموذج عجل البحر، هذا الكائن البرمائي، المزود بوضع مزدوج أعمق الازدواج، نموذج حيواني يخضع لتوجه مزدوج ومتفارق: تجاه الأرض والبشر الذين يسكنونها، وتجاه البحر والقوى المعادية للإنسان. ولدينا سلسلة مزدوجة من الموروثات تناولت على نحو متواتر وجهتي أسلوب حياة عجل البحر وهي تؤكد هذا الاختلاف في السلوك لدى حيوان واحد: بعضها يشدد على التوافقات بين عجل البحر والجنس البشري، وبعضها تشدد على قوته المتمثلة في «عينه الشريرة».

وإذا كان عجل البحر يبدو مقطوعاً عن العالم البشري نتيجة لحالته الحيوانية ونتيجة لطبيعته المائية في آن واحد، فإن عجل البحر يرتبط بهذا العالم البشري بعلاقات عديدة: بخصوصيات فسيولوجية معينة أبرزها علماء الطبيعة؛ وشغفه بالحياة في القاع على الأرض

اليابسة التي يختلف إليها الصيادون؛ وأخيراً بشبهٍ مثيرٍ معين بالأسلوب البشري الذي وجد صده في تراث فولكلوري طويل. وفي كتابه «تاريخ الحيوان» ترجمه يوحنا البطريق إلى العربية بعنوان «طبائع الحيوان» يبين أرسطوطاليس التوافقات بين عجول البحر وذوات الأربع، وعجول البحر مثلها تلد وترضع صغارها، ويشدد أرسطوطاليس مراراً على ما بين عجول البحر - هذه الثدييات البرمائية - وبين البشر من تشابه: فعجول البحر من ناحية تلد في أي وقت من العام «مثل البشر»؛ ويقول من ناحية ثانية إن أنثى عجل البحر إذا كانت أعضاؤها التناسلية تشبه «سمكة» الجلاخ «بالإغريقية batos بالفرنسية truite»، فهي فيما عدا ذلك «تشبه المرأة». وينبغي أن نقرب من ملاحظات علماء الطبيعة هذه، الموروثات التي خلفها الجغرافيون عن علاقات التقارب التي يقيمها البشر من أهل السواحل بينهم وبين عجول البحر. فهذا هو أجاثارخيد في وصفه لجزيرة الفوقي «عجول البحر» الواقعة عند طرف البحر الأحمر، على طول ساحل الإخثيوفاجيس Ichthyophages «أكلة الأسماك»، يحكي في إعجاب عن علاقات حسن الجوار التي تقوم بين هذه البقاع: «يبدو أن نوعاً من السلام الأبدي قد انعقدت أواصره بين البشر وعجول البحر. فالبشر لا يلحقون أبداً ضرراً بعجول البحر، وعجول البحر من جانبها تمتنع عن كل ما يؤذي البشر. وكل جنس منهما يحترم أرض الآخر، والجنسان جميعاً يعيشان في وفاق لا يلحظه الإنسان إلا نادراً بين جماعات البشر المتجاورة» (١٧).

في هذا السياق نفسه ينبغي علينا أن نضع الحكاية الطريفة التي أوردها إيليانوس El-ianos عن الفراميات بين عجلة من عجول البحر وصائد الإسفنج: «عشتت عجلة من عجول البحر ذات يوم رجلاً يجمع الإسفنج، فخرجت من البحر، وضاجعت الرجل في مغارة بحرية. وكان هذا الصياد أشد الرجال قبحاً؛ ولكنه كان في عيني عجلة البحر يجلوه أندر جمال في الوجود» (١٨).

هكذا نجد عجل البحر وهو اللصيق بعالم البشر بسمة من سمات أسلوب حياته، يستطيع أيضاً بتكوينه المورفولوجي أن يقدم سمات شبيهة أكثر دقة بالجنس البشري. في مجموعة «الكورانيديات» نجد علاماته الفارقة مسجلة على النحو التالي: «عجل البحر حيوان جميل جداً، له أيد بشرية الخ» (١٩). ويتفق مع هذا الوصف ما لاحظته أرسطوطاليس: «رجلاه الأماميتان تشبهان اليدين» (٢٠). وعندما نصل إلى القرن السابع عشر نجد الرحالة الفرنسي تيفينو Thévenot عند مروره بساحل سينا في مواجهة جزر عجول البحر القديمة ينشغل بنوع

معين من السمك بسميه أهل المنطقة الإنسان البحري. «هذا السمك طويل وجسيم، وليس له من شيء خارج المألوف إلا يذان هما فعلاً مثل أيدي الإنسان مع فارق هو أن الأصابع ملتصقة معاً بغشاء مثل رجل الأوزة، وجلد هذا السمك يشبه جلد الشاموا»^(٢١). لن نتوقف في هذا الوصف الذي نشر في باريس في عام ١٦٦٤ فقط عند الإشارة إلى الأيدي البشرية التي تحدثت عنها «الكورانيديات» وعند كلمات المقارنة التي ساقها سويتونيوس في ملاحظته على التلخينيين - «أصابعهم ملتصقة بغشاء مثل الأوزة»، بل نوقف كذلك عن اسم «الرجل البحري» الذي يطلقه أهل المنطقة على هذا السمك. والرجل البحري وعجل البحر نوعان يذكرهما بلينيوس القديم Plinius secunsus «في كتابه Naturalis Historia» أحدهما بجانب الآخر في قائمة الوحوش البحرية التي وضعها^(٢٢). جنسان يمكن للكاتب المشتغل بالحيوان أن يذكر المزيد من أوجه القرابة بينهما. جنسان بدأ التنويه بالتوافقات بينهما في الفصل الذي يدور حول مينيلوس وشيخ البحر في الأوديسا. والحق أن بروتيس إذا كان انخدع بمظهر عجل البحر الذي اتخذ مينيلوس ورفاقه عندما لبسا الجلود التي سلخت لتوها عن هذه الوحوش البحرية، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن الفرق بين الإنسان وبين عجل البحر من السهل تجاوزه. والشبه الذي يمكن أن يقوم بين عجل البحر وبين الإنسان شبه كبير يزيد من حجمه أن عجل البحر الذي يقيم في البحار يحمل في ذاته سرائر مظهر بشري^(٢٣).

وإذا كان عجل البحر يرد في جانب من الموروثات حيواناً محباً للبشر يعيش على حاشية البشرية، فإنه يرد أيضاً في جانب آخر منها حيواناً كارهاً للناس، يعيش بعيداً عنهم في أعماق البحر، وينخرط في سلك الحيوانات النجسة والشريرة^(٢٤). وعندما يبرز هذا الوحش من أعماق البحر السحيقة فإنه يبدو كأنما أتى من وراء الكون: فهو يحمل على بدنه رائحة نفاذة، هي رائحة الفياهب؛ وهو يبعث رائحة موت لا يمكن أن تغلبها وأن تطردها إلا الأمبروسيا ambrosia، رائحة حياة الخالدين^(٢٥). وعجل البحر بما له من سمات خثونية «أرضية» جهنمية تضافي على خصائصه الفسيولوجية لوناً من الشر، يتخذ هيئة عدو الجنس البشري. ويحكون عنه أنه إذا أوشك على الوقوع في الأسر يتقيأ منفحته ويتخلص من منيه. وهو يفعل ذلك ليحرم الناس من مواد عظيمة القيمة: فمنفحته تشفي الصرع، ومنيه يشفي الضعف الجنسي^(٢٦). وعندما يذكر إيليانوس في كتابه «تاريخ الحيوان» هاتين الفعتين اللتين يأتيهما عجل البحر، يضيف الملحوظة التالية: «نعم، هذا الحيوان له، بتدبير من زيوس، عين شريرة báskanos»^(٢٧) وهذا الدور الذي أنيط بعجل البحر لا يخلو من الخلط: فازدواجية صفة النظرة، تضم إحداث الشر والوقاية منه، هكذا توصف نظرتة بأنها شريرة báskanos

ولكنها تجمع في ذاتها بين إحداث الشر بمجرد التطلع ، وبين الوقاية baskánion واتقاء النظرة الشريرة، وقد أدى هذا إلى أن عجل البحر أو أي جزء منه مهما صغر استخدم حجاباً له فعالية أكيدة تتناسب مع عظم قوة الشر في نظريته. ونحن نجد في تصنيفات بلوتارخوس و«الكورانيديات» و«جيوبونيك» Geoponica قائمة كاملة بأجزاء عجل البحر المختلفة التي يمكن أن تستخدم أحجية وظلاسم^(٢٨): فقلب عجل البحر عندما يثبت فوق الصاري، يقي السفينة من كل خطر؛ وشعر أنفه الصلب يحقق النجاح أروع النجاح؛ وأظافر أصابعه تقي من كل سحر، وتشفي من كل مرض، وتبعد كل عمل شرير. وإلى جانب هذه الميزات التي يشارك فيها عجل البحر عدداً كبيراً من الحيوانات الأخرى، فهو مشهور بأنه يتنبأ بالظواهر الجوية وبصرفها، مثل الرعد والبرد والعاصفة. والرأي عند بلوتارخوس أن جلد عجل البحر لا تصيبه الصواعق أبداً؛ ونقرأ في «الكورانيديات» أن الإنسان إذا سَمَرَ جلد عجل بحر إلى مؤخر سفينة فلن تصيبها صاعقة أبداً؛ وفي مجموعة «الكورانيديات» نفسها نقرأ أن جلد عجل البحر يصرف الرعد والأخطار والشياطين. ونجد في «جيوبونيك» في ثلاثة مواضع أن جلد عجل البحر أكثر الوسائل فعالية لحماية الكروم وحقول القمح والأراضي المزروعة من أضرار البرد.

وعجل البحر غامض غموضاً ازدواجياً مضاعفاً: في مسلكه المزدوج، في «ازدواجيته» حيال البشر؛ في أسلوب حياته، أحياناً بري، وأحياناً بحري. وينبغي أن نضيف إلى هذين النمطين من الغموض الازدواجي نمطاً ثالثاً: الاقتدار إلى اليقين بشأن حيوان يدخل في أن واحد في عداد السمك وفي عداد ذوات الأربع. هذا الشكل الثالث من الغموض الازدواجي تظهر سماته في مسلك عجول البحر العجيب، كما تظهر في أطرافها العجيبة. أما أن مسلكها عجيب، فلأنها وهي حيوانات مائية، كما لاحظ أرسطوطاليس، لها أرجل، ومن حيث هي ماشية من ذوات الأربع أطرافها زعانف. وعجل البحر لا يمشي، بل يبدو عليه أنه يزحف، فهو يسير إلى الأمام منزلقاً، ويتقدم متموجاً، بحركة كأنها ثعبانية، فهو يضع أطرافه الأمامية على جنبه ويحدث بجسمه انقباضات وانتفاضات متكررة. ولم يتخلف علماء الطبيعة القدامى عن ملاحظة وتسجيل المسلك الخسيس العجيب الذي تسلكه عجول البحر في استخدام زعانفها، هذه «الزعانف التي تخدمها في البحر <للعوم> تقوم منها الأرجل على الأرض فتزحف بها»، هذا ما دونه بلينيوس القديم^(٢٩)؛ أما أرسطوطاليس فيسجل أن «عجل البحر ينزلق على المنحدرات بدلاً من أن يمشي، نظراً لعجزه عن الاعتماد على قدميه^(٣٠)». في فصل من كتاب «تاريخ الحيوان» خصصه أرسطوطاليس لأساليب الحياة المختلفة، نجده بعد

أن يذكر أن من بين الحيوانات الأرضية، حيوانات تطير، وأخرى تتحرك على الأرض، ومن بين تلك التي تتحرك على الأرض ما يمشي، ومن بينها ما يزحف، وما يتحرك بتموجات، ينتقل إلى ملاحظة أن بعض الطيور «أرجلها ضعيفة» kakópodes وأنها لذلك تسمى «كسيحة» ápodes. وعندما يصل في عرضه إلى هذه النقطة يضيف ملحوظة عن عجل البحر: «كذلك عجل البحر له أرجل ضامرة» kekoloboménoi pódes^(٣١). والفعل koloboûsthai المستخدم للتعبير عن ضمور الأرجل هو نفس الفعل الذي استخدمه أرسطوطاليس في نفس الكتاب لتحديد شكل الأسماك: «ليس لها سيقان، ولا أذرع، ولا أجنحة؛ كل جسمها عبارة عن جذع ممتد من الرأس إلى الذيل؛ وأجزاءها الخارجية ضامرة» kek-olóbotai^(٣٢). وعجل البحر مضمّر في أجزائه الخارجية «فعجل البحر هو أشبه ما يكون بذئ أربع ضامر hóspēr peperoménon... tetrapoun أطرافه وُصفت بعناية بهذه الكلمات في كتاب «تاريخ الحيوان»: «بعد لوح الكتف مباشرة لمجد الرجلين الأماميتين مثبتتين، شبيهتين بيدين، مثل يدي الدب، فلكل منهما خمس أصابع، ولكل أصبع ثلاث سلاميات treis kampás، وظفر ضئيل. والقدمان الخلفيتان لها خمس أصابع ولها سلاميات وأظافر، كلها تشبه ما يناظرها في الأماميتين، والقدمان الخلفيتان قريبتا الشبه شكلاً بذيل الأسماك»^(٣٣). في هذا الوصف، وفي النصوص الوصفية السابقة، يقع التركيز في المقام الأول على نواحي الغموض الازدواجي في عجل البحر؛ فهو تارة من ذوي الأربع، وتارة أخرى من الأسماك؛ تارة له قدمان ويدان، وتارة بلا ذراعين وساقين. حالات من عدم اليقين في استخدام المفردات تترجم بأمانة الغموض الازدواجي الذي يحيط بحيوان يتردد بلا نهاية بين وضع السمك ووضع ذي الأربع المزود بأقدام وأرجل مثل الحيوانات الماشية على الأرض، والمحروم في نفس الوقت من الذراعين والساقين شأنه شأن الحيوانات البحرية. ونجد في المقام الثاني أن نفس الوصف يبين بوضوح شديد أن الغموض الازدواجي حيال نوع الحياة الذي حُص به عجل البحر يجد التعبير الكامل كل الكمال عنه في مورفولوجيا الأطراف الذي يميز الأقدام الزعنفية البرمائية. هذه الأعضاء المتعددة المرافق، هل هي أيد، أم أرجل، أم زعانف؟ هذا لغز يظل دائماً مفتوحاً: أتكون هذه الأرجل زعانف، وهذه الزعانف أيد؟ هل هو ذو أربع له زعانف، هل هو سمك له أيد، هل هو نوع من البشر بلا ذراعين وبلا ساقين، أو إنسان سمك، أو سمك من ذوات الأربع، كل هذه التعريفات الممكنة التي يوحى بها كلام أرسطوطاليس تبين بما فيه الكفاية أن صورة عجل البحر تتأرجح بين ثلاثة حدود: سمك - ذو أربع - إنسان يضافي جهده على نموذج الحيواني رسماً وتصويراً لا نظير لهما. والسمة الثالثة التي يتسم بها وصف

أرسطوطاليس أطراف عجل البحر هي الأهمية التي يخص بها أرسطوطاليس مفهوم الالتواء: فكل اصبع من أصابع الرجلين الأماميتين ومن أصابع الرجلين الخلفيتين، لها ثلاث سلاميات «تمكنها من التلوي»؛ وشكلها يوحي بمظهر ذيل السمك الملتوي . فعجل البحر بناء على هذه أو تلك الخاصية من خاصيات أطرافه كائن ملتو؛ وهذه السمة الجوهرية لشكله العام تؤكدنا حركته العرجاء، وزحفه المتعرج إلى أمام، ومسيرته الملتوية.

وفي الوصف الكامل إلى حد بعيد الذي نقله إلينا سويتونيوس نجد التلخينيين - وقد أوتوا القدرة على التحور المتعدد - لم يخضعوا للتحور إلى شكل حيواني واحد: فهم تارة يشبهون الشياطين، وتارة يشبهون البشر، وتارة يشبهون السمك. فهئة الحيوان البرمائي ذي الأرجل الزعنفية التي يمكن أن يتخذها التيلخينيون ليست الهئة السمكية الوحيدة التي كان يمكن أن يتحور إليها هؤلاء الحدادون البحريون. فإذا جاز اعتبار عجل البحر بمثابة شكل متميز للتيلخينيين، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن هذا النموذج الحيواني كان يتيح لهؤلاء الحدادين المُعدّنين البحريين فرصة الكشف عن السمات الجوهرية لشخصيتهم الميثية. والحق أن هناك ألواناً من التشابه المنصبة على نقاط جوهرية بين نموذج العجل البحري في الفكر الإغريقي وبين تصوير التلخينيين في الميثات ^(٣٤). فالتلخينيون مثل عجول البحر يترددون بين وضعين، وضع البشر ووضع السمك: فمن حيث هم أول سكان جزيرة رودس «أصلهم من البحر»، بزغوا من البحر، «وسينتهون إليه عندما» يلقي بهم إلى البحر أبناء الشمس. وبعبارة أكثر دقة نقول إن دورهم في الموروثات الميثية الرودسية يجعلهم وسطاء بين البحر والأرض، كقوى غيبية لا تنفصل مهمتها كلها عن تصوير رودس في صورة جزيرة طافية، صورة أرض نصفها يختلط بماء البحر. ونخلص أخيراً من الموروثات الميثية الرودسية إلى أن التلخينيين الحدادين المُعدّنين بما هم أول بشر نزلوا رودس، يعتبرون كائنات تحمل العين الشريرة: فنظرهم تفسد كل شيء، وهم صنّاع سموم من مزيج من الجذور النباتية، وهم ينشرون في الأرض ماء ستوكس الذي يصيب الأرض بالجفاف، وهم يجتذبون البرد والثلوج والعاصفة إلى حيث يرومون، فهم يمارسون على الظواهر الجوية نفس السلطة التي اعترف بها التراث لعجول البحر.

من هذه المقارنة السريعة يمكننا أن نستخلص نتيجة مفادها أن النموذج الميثي لمُعدّني رودس يجمع كل السمات المفهومية التي بدت لنا ضرورية في تعريف عجل البحر. ومع ذلك فهذه النتيجة تتطلب تحفظاً مزدوجاً: إذا كان النموذج الحيواني للحيوان البرمائي ذي الأرجل الزعنفية يلقي الضوء على التيلخينيين بسماتهم كشياطين بحرية وكائنات أولانية، فإنه لا

يبدو عليه أنه يقدم صلات دقيقة جداً بالوظيفة التعدينية لنفس هذه القوى الغيبية. أضف إلى هذا أن سمة مهمة لنموذج عجل البحر، هي الطبيعة الغريبة لأطرافه، لا يبدو أنها تجد لها مقابلاً في تصوير التيلخينين. والحق أن هاتين النقطتين لا تنفصلان الواحدة عن الأخرى، ولا بد من أن يجري تحليلهما مواجهةً. فالسمة الأخيرة للنموذج الحيواني هي بالفعل التي تحيط تشابكياً وبأكثر إصابة بصفة الحدادين التي يتصفون بها.

وللوصول إلى استجلاء هذه العلاقة بين الأطراف الغامضة الازدواجية لعجل البحر وبين نشاط التيلخينين التعديني، ينبغي أن نلجأ لطريق التفاني بفرض نفسه، هو نموذج حيواني آخر يجمع في عناصره التكوينية توافقات صريحة بين مورفولوجية أطرافه ونشاط الحداد التقني. هذا النموذج الحيواني الآخر الذي يتميز في آن واحد بغرابة أطرافه وباشتراكه مع المعدن، هو الكابوريا «السرطان البحري» karkinos، الوحش البحري الذي يشترك مع الكابيري Kabiri ومع هيفايستوس جميعاً اشراك تواطؤ. وهناك تفسير لغوي كتبه هيسوخوس يقرر فيه بالفعل التساوي التالي: «ما الكابيري Kabiri إلا كابوريات kar-kinoi، وهي حيوانات يعظمونها في ليمنوس Lemnos تعظيماً خاصاً، حيث يعتبرونها آلهة. ويزعمون كذلك أنها أبناء هيفايستوس^(٣٥)». والكابيري قوى غيبية بحرية لها وظيفة تعدينية - ولدت من اتحاد هيفايستوس وكابيرو Kabeirô، ابنة بروتوس Proteus ملك عجول البحر - الكابيري بشخصونها على أنها الحيوان الذي يضم على نحو وثيق جداً البحر والتعدين: وكاركينوس karkinos وهو اسم الكابوريا بالإغريقية، يعني كذلك كماشة الحداد^(٣٦). وهكذا تبدو صورة هذا الحيوان القشري البحري، في نظر الإغريق، لا تنفصل عن صورة الآلة التي تطيل يدي الحداد وتسمح له بأن يعالج المعدن الذي يسخن إلى التوهج.

والكابوريا - مثله مثل عجل البحر - حيوان برمائي: «وهو يقضي حياته قرب اليابسة؛ ويتنقل فوق الأرض؛ ويعشش في جحور^(٣٧)». ولكنه على عكس عجل البحر لم يكن يُنظر إليه غالباً كوسيط بين الماء والأرض. وتتمركز أصالته في مجال آخر، هو مجال أطرافه، وطريقة مشيه، وفي شكل أرجله، وشكل كلاباته. ولدينا مثلاً وصف الكابوريا ذي الذيل الصلب págouros: «وحش له سيقان ملتوية rhaiboskele، وكلابتان dichalon، يدفن نفسه تحت الرمل ammoduétan، يمشي القهقري opisthobámon... وهو عوأم يستخدم ثمانني أرجل oktápoun néktan^(٣٨)». الكابوريا إذن وحش له سيقان ملتوية، يرد في تراث كامل حيواناً لا يمشي مستقيماً إلى أمام، بل يمشي بالورب، ويتقدم في اتجاه مائل katà

diámetron. يقول أرسطوطاليس إن كل الحيوانات تتحرك بنفس الطريقة؛ فهي تتقدم بالورب، سواء كان لها أربع أرجل أو أكثر، فتضع على التوالي الرجل الأمامية اليمنى على الأرض، ثم الخلفية اليسرى، وهكذا دواليك. كل الحيوانات لها رجلان قائدتان، كل الحيوانات باستثناء الكابوريا. فله أربع أرجل قائدة (٤٠) وهو يمشي منحرفاً إلى جانب eis tò plágion (٤١). والمثل السائر الإغريقي يطابق وصف العالم الطبيعي: «إنك لن تجعل الكابوريا يسير مستقيماً أبداً» (٤٢). وتثير مشية هذا الحيوان المتعدد الأرجل القلق الذي يزيده أن هذه الأرجل معوجة وأن له من أمام درقته كلابتين هائلتين. والأطراف الأمامية والخلفية عند الكابوريا متميزة بعضها عن البعض تميزاً واضحاً، على عكس عجل البحر. والكلابتان تمكّنانه من المسك مسكاً مخيفاً، أما الأرجل فتتيح له التنقل على الأرض. فأطراف الكابوريا متنوعة في وظائفها، وهي تتعارض فيما بينها على نحو آخر، تتعارض من حيث توجهاتها. «فكلابتا الكابوريا لا تستخدمان في المشي، بل في القبض والمسك كما قد تفعل الأيدي؛ ولهذا السبب تنثني هاتان الكلابتان في عكس اتجاه الأرجل، فالأرجل تنثني إلى الداخل، والكلابتان إلى الخارج- tous mèn...epi tò koilon, tous d'epi tò peripherès kámpitousi kai he- lissousi (٤٣). الكابوريا وقد أوتي القدرة على المشية الموارية التي تضم اتجاهين، الأمام والخلف، يحدث في بنيته المورفولوجية تركيباً مزدوجاً للأضداد. فأرجل الكابوريا بدلاً من أن تكون متجهة قليلاً إلى الخارج، تتجه إلى الداخل، والرجل اليسرى تلتوي إلى اليمين، واليمنى إلى اليسار. ويضاف إلى هذا الالتواء المزدوج في الأعضاء السفلى، وهو التواء يحيط بالاتجاهين المتضادين جميعاً، توجه مزدوج في نموذج متناسق يحيط بالكلابتين اللتين تعيد حركتهما في الاتجاه العكسي حركة الأعضاء السفلى. فالنموذج الحيواني للكابوريا يحقق في أطرافه وفي مشيته جميع كل الاتجاهات: الأمام والخلف، اليمين واليسار.

سيقان معوجة، مشية موارية، اتجاه مزدوج ومتفارق - كل هذه السمات التي لاح لنا أنها تميز الكابوريا تذكر على نحو ملح بأشهر الحدادين الإغريق، هيفايستوس، الإله الداهية (٤٤) الذي يشبهونه بالكابوريا تحديداً في جزيرة ليمنوس. ولنا أن نلاحظ من خلال التراث الأدبي أن المظهر الفيزيقي لهيفايستوس. الرب الحداد المعدّن، يتحدد بثلاثة نعوت: كوللوس = معوج > kullós (في الكلمة المركبة <ذو الساق المعوجة> kullopodion) و cholós و amphiguééis. وهذه النعوت الثلاثة جميعها تنعت أطراف الحداد، النعت الأول يدل تضامنياً على الشكل المنحني، والنعت الثاني cholós يدل على الطبيعة المبتورة، والثالث am-phiguééis يدل على التوجه المزدوج إلى اتجاهين متعارضين. وذو الساقين المعوجتين Kul-

lopodion هو هيفايستوس برجليه الملتويتين وأطرافه المعقوفة ^(٤٤). في المفردات الطبية كلمة kullós التي تعني مقوس تضاد كلمة blaisós التي تعني منبعج ، مثل الالتواء إلى الخارج ويقابله الالتواء إلى الداخل ^(٤٥). ولكن فيما وراء هذا التخصص في لغة الأطباء، فكلمة kullós تعني القدم الملوية كما تعني اليد الملوية، وكما تعني الكف الملوية المقعرة التي كانت تذكر الإغريق بكلاية الكابوريا ^(٤٦). وعبارة Karkinoûn tous daktúlous تعني تقويس الأصابع، وعقفها للداخل، اصطناع يد الكابوريا - كما كانوا يقولون ^(٤٧). وهيفايستوس بما له من أطراف معوجة، يوصف بأنه مشوه خولوس cholós. وكلمة خولوس cholós عندما تستخدم وحدها تدل على كائن حي، مبتور، مقطع الأطراف، مشوه. أما إذا استخدم نفس النعت مع héteron póda فإن المعنى يكون "أعرج" ^(٤٨)، ومع tè cheira يكون المعنى "أكتع" ^(٤٩). وكما أن هيفايستوس ليس معوج الساقين بالمعنى التخصيص للكلمة، فهو كذلك ليس أعرج؛ إنه مبتور الساقين ^(٥٠) أو هو مبتور الأطراف السفلية ^(٥١). اعوجاج الأطراف وبترها، سمتان لهيفايستوس نكاد نجد لهما في النعت الثالث الذي ينعت به الإله am-phiguéeis. وتعني الكلمة عند ه. فوس H. Vos : «معوج الساقين» أما ل. ديروا L.Deroy فيحللها بما يعني: «من له موهبة الاتجاه المزدوج المتفارق» ^(٥٢). هذا النعت الهوميروسي يترجم على أدق وجه الخصوصيات المورفولوجية التي يختص بها هيفايستوس امتيازاً في التصويرات الخزفية التي ترجع إلى العصر العتيق، الأرخائي. فعلى عدد من الزهريات الخزفية - التي بينت ماري ديلكور Marie Delcourt أهميتها بالنسبة إلى تحليل هيفايستوس ^(٥٣) - نجد تشوه الحداد يصور بأشكال مختلفة يمكن تصنيفها إلى نموذجين متكاملين: من ناحية نموذج يبين أطرافه المنحنية، وقدمية المعوجتين، وساقيه الملتويتين؛ من ناحية أخرى نموذج التوجه المزدوج الذي تبينه إما قدمه اليسرى تتجه إلى الأمام، بينما قدمه اليمنى تلتوي إلى الوراء؛ أو يبينه وضع القدمين كعباً إلى كعب، إحداها تتجه إلى اليسار والأخرى إلى اليمين ^(٥٤)؛ أو يبينه التضاد بين الرأس المتجه إلى أمام والقدمين المتجهتين إلى الخلف.

وسواء كان هيفايستوس الحداد الميثي ذا توجه مزدوج أو كان ذي ساقين ملتويتين، فهو دائماً كائن ذو مسلك غامض مزدوج وأطراف غريبة. هذه السمة الأساسية للمعدن التي يكشفها على مستويات مجاورة النموذجان الحيوانيان اللذان لانا متضافرين تضافراً وثيقاً في التصوير الميثي للحداد، وهما: السرطان وعجل البحر - السرطان في ليمنوس متصلاً بالكابيري وعجل البحر في رودس متصلاً بالتيلخينيين ^(٥٥). وهكذا عن طريق

الالتفاف والاستعانة بالتناظر بين النموذجين الحيوانيين، نجد السمة الأخيرة لعجل البحر التي لاحظت كأنها لا تجد مقابلاً في ميثوس التيلخينيين اتخذ معناها كاملاً: هذه المشية المعوجة وهذه الأطراف الملتوية لرفاق شيخ البحر تدل تضافرياً على شيء هو الوظيفة التعدينية لهذه القوى الغيبية المحيرة. وعجل البحر بمضيتة الملتوية يأتي مثل الكابوريا ذي المشية الموارية ليوضح سمة أساسية للحداد: صفة الغموض الازدواجي التي تتصف بها الأطراف والتي هي العلامة الدالة على إله مثل هيفايستوس الذي يظهر دهاؤه الميتيسي، وأفكاره العليمة وذكاؤه المبدع هكذا على المستوى التصويري بالشكل الغريب الفريد المفروض على قدميه. ولم يكن السبب في إصابة هيفايستوس بالعجز والتشوه - كما اقترح البعض^(٥٦) - هو أنه تعلم السحر. فالعالم الإغريقي لا يبدو عليه أن أخذ بمثل التشويهات البترية التي يصاب بها السحرة في بعض المجتمعات الأسترالية أو الجرمانية، وإذا صح أن الأمازونات^(٥٧) تشوه أبناءها الذكور بأن تحطم ركبهم أو حراقفهم، فإنهن يفعلن ذلك لمنعهم من تدبير شيء ماكر ضد نسايتهم وليكرهوا هؤلاء المشوهين على ممارسة الحرف الظاعنة فيكونوا حدادين وأساكفة، وهي - في مجتمع تمارس فيه النساء وحدهن الحرفة الحربية - حرف تدل على العبودية والعجز للذين بقيا من نصيب الرجال.

العكس هنا هو الصحيح، ففوة هيفايستوس هي التي يبرزها امتياز بهوبة الاتجاه المزدوح المتفارق. فمن أجل السيطرة على القوى المتحركة الرجراجة المناسبة كالنار والرياح وخام المعادن التي يقيس الحداد قدرته بناء عليها، فإن ذكاء هيفايستوس ودهاؤه الميتيسي لابد أن يكونا أكثر حركة، وأكثر أشكالاً، وأن يضمنا في ذاتهما إلى أقصى حد من الشدة مقومات الاعوجاج والالتواء التي يحتكم عليها الكابوريا وعجل البحر، هذين الوحشين اللذين يغوصان نصفاً في العنصر البحري الذي يبدو أن التعدين لدى الإغريق عقد معه منذ القدم علاقات عميقة بالغة العمق.

القسم الخامس

الخلاصة

الباب العاشر

الدائرة والقيـد

في مملكة الآلهة الخاضعين لسلطة زيوس الرائقة نجد أن الدهاء الميـتيسي - إن جاز لنا التعبير - أكثر الأشياء توزعاً بالعدل في الدنيا. ولا يرجع السبب في ذلك إلى أن الدهاء الميـتيسي - مثله مثل البداة التي منحت بالتساوي لكل سكان الأوليمبوس - بل يرجع إلى أن توزيع السلطات بين أفراد مجمع الآلهة البانشيون المختلفين يستتبع على نحو لا سبيل إلى تحاشيه نوعاً من تبعثر هذا الشكل من الذكاء. والدهاء الميـتيسي بما هو متعدد الأشكال والتنوع يجد نفسه مطلوباً للتطبيق في مجالات المعرفة العديدة التي يختص بها الآلهة. ولكن هذا التبعثر يتوازى مع تحديد متضافر للدهاء الميـتيسي الذي يجوز لكل واحد أن يحصل عليه. وإذا كان زيوس هو صاحب النصيب الأوفر منه، فليس القصد من ذلك أن يستخدمه على هواه على حساب الآخرين الذين هم بالقياس إليه أقل حظاً من الدهاء الميـتيسي : فقد تغير وقت كرونوس ولم يعد من الممكن أن يأخذ أحد السيادة على الآلهة «من زيوس». بل العكس هو الصحيح، لقد تدعمت سيادة زيوس بكل دهاء العالم لا شيء إلا لأنها تحملت بعبء جعل كل القوى الإلهية الأخرى تحترم الحدود التي منحت له في تنظيم الكون. ولا يستتبع ذلك أن يكون جميع الآلهة مزودين بقليل أو بكثير من الدهاء الميـتيسي. فلا ديميتير ولا پوسايدون ولا أرتيميس ولا أبوللون يشاركون فيه بنصيب، وكذلك ديونيسوس الذي يأتي من السحر والألاعيب بما لا يتصل بالدهاء الميـتيسي الخالص. ولو جرى تحليل شامل لبنيات مجمع الآلهة لما وجد سبيلاً إلى إنكار هذا التقسيم الأساسي بين الآلهة أصحاب الدهاء الميـتيسي، والآلهة الآخرين. ولكننا في متابعة بحثنا سنجد ما يغرينا بالاهتمام في المقام الأول بتحديد الاختلافات التي تتصل أسبابها في داخل المجموعة المكونة من الآلهة أصحاب الدهاء الميـتيسي.

والواقع أنه من خلال أساليب الدهاء المبتسقي تتضح معالم الانحرافات والاختلافات بين وسائل العمل المفضلة لدى كل قوة في قلب الولاية التي يبدو على هذه القوة أو تلك أنها تحكمها بناء على نفس الحقوق التي تدعيها لنفسها القوة التي تنافسها منافسة مباشرة، سواء كان الأمر أمر المعارف التقنية بالنسبة إلى أثينة وهيفايستوس، أو كان على مستوى مختلف تماماً هو علاقات الحب بالنسبة إلى هيرميس وأفروديتي. والموروث الأورفيوسي الذي يزعم أن هيفايستوس وأثينة تلقيا على المشاع من الكوكلوپيس الولاية على الفنون^(١) لا يعني أن ولاية البعض تطابق ولاية البعض الآخر تطابقاً كاملاً، وكأنما قام ثلاثي عمال الصاعقة والرعد، في الأجيال التالية، بالتزول عن مكانه لثنائي من إلهين خبيرين بكل المعارف التقنية. في ميثاق الاستيلاء على السلطة التي تشهدنا على الكوكلوپيس نجد الكوكلوپيس أساساً صناع السيادة الموكلين بتزويد زيوس بأسلحة ذات طبيعة سحرية لا تكاد تختلف عن التمكن من النار، تلك النار المربعة والمُفلجة التي ليست قوة تقنية بقدر ما هي وسيلة خالصة للتقييد وللتمكن من الغريم^(٢)، بينما نجد في جيل الأولمبيين هيفايستوس وأثينة مسئولين عن مجموع الأنشطة التقنية التي تمثلها في عالم البشر مجموعة متنوعة كبيرة من أسرار الصنعة، ابتداءً من التعدين والفخار، وصولاً إلى النسيج وإلى شغل الخشب، مروراً بمهارة قائد العربة وفن ريان السفينة وطريقة معينة في استخدام الأسلحة. وفي الحالات التي تجد فيها أثينة نفسها مرفوعة إلى موقع مهيمن، من حيث هي ربة «حامية للمدينة»، كما هي الحال مثلاً في احتفال الأباتوريين Apatouries - احتفال كل من ينتمون إلى سلالة واحدة - يحدث أن يشغل هيفايستوس كل الساحة المتاحة فيتحول من سيد نار التعدين إلى مخترع نار المدنية، نار المطبخ، ونار القربان التي ما كان يمكن أن تسقيم حياة البشر بدونها^(٣)؛ ولكن القاعدة العامة كانت تتمثل في أن في كل المناسبات التي تلتقي فيها أثينة وهيفايستوس، ترسم حدود صلاحية الواحد الفاصلة فلا تتعدى حدود صلاحية الآخر. ولقد رأينا شكيمة الحصان، وهي أداة تقنية تنتمي صناعتها بالنار إلى فن الحداد، ولكن تطبيقها على الحصان الذي خلقه پوسايدون اختصت به اليد التي تعرف فن السيطرة والتسيير المستقيم. في مجال الحصان وقيادته تتدخل سيادة أثينة من خلال الفعالية التقنية والسحرية للشكيمة التي يفرضها الفارس على ركوبته. ولكن أسلوب العمل هذا الذي هو خصيص بأثينة، لا تستطيع أثينة ممارسته إلا بالتواطؤ مع رفيقها هيفايستوس. وإذا كانت الشكيمة، الأداة المعدنية، قادرة على كبح عنف الحصان وصُرعته، فإنما يرجع ذلك إلى أنها ولدت من اللهب، ولما كانت من إنتاج النار التعدينية التي تستمد منها قدرتها المزدوجة على التقييد بمسكة سحرية وعلى اليقظة الدائمة التي لا نوم معها أبداً.

ولنقرأ مقولة بيلوتارخوس: «لا شيء يشبه الكائن الحي أكثر من النار»^(٤)، فهي تعبر عن بديهية بالنسبة إلى الفكر الإغريقي، بديهية تبرر توافقات هذا العنصر - النار - مع هيفايستوس ومع هيرميس جميعاً. فدهاؤهما الميتيسي يتحدد بالنسبة إلى النار وقوتها الحيوية التي يتولى كل واحد منها توجهاً نوعياً بالقياس إليها. فهيفايستوس في نشاطه من حيث هو حداد إله لا ينفصل عن النار، ولكن هذه النار التي لا ينفصل عنها هي نار تصهر الخام وتسمح بصناعة سبائك المعادن. ونار كور الحدادة من حيث وظيفتها نار لا تخمد. وهيفايستوس لا يلهو عندما يولد النار من الحك الصبور الخشبة بخشبة؛ وقوة هيفايستوس تتألق في سيطرته على المنافيخ التي تعظم عنف النار أو تخفضه. ولجد هيفايستوس في العرين الذي ذهبت إليه ثيتيس لتبلغه بطلبها أسلحة جديدة لابنها، يبدو لنا في هيئة من قبيل سيد الرياح؛ يكفيه أن يأمر منافيخه بأن تنفخ، فإذا هي على التو: «تطلق نفثة حارة ومتنوعة pantoie في خدمة الصانع، سواء أراد التعجيل أو لم يرد، بحسب ما يطلبه هيفايستوس وبحسب تقدم شغله»^(٥). والنار، مثلها مثل الدهاء الميتيسي، كائن متنوع pantoios، فهي تستطيع أن تكتسي بكل الأشكال، سواء منها المفزعة إلى أبعد حدود الفرع، والأليفة إلى أبعد حدود الألفة، فتعض بسن غاشمة كل ما يأتي ليلعق ألسنة اللهب الصغيرة. ولكن هذه النار المتعددة الأشكال - وهذا وجه آخر من دهائها الميتيسي - تعرف كيف تلين لمتطلبات شغل التعدين، فتتخذ انحناءات الزمانية التي تحكم العملية التقنية، وتخلق هكذا الحلبي المتألقة، والعقود المنمقة، الدايدالا daidala «بدائع الحلبي» التي تكشف بسناها المتلائي، وثرأ ألوانها، وفتنتها اللاتهائية عن الحياة التي تنبض فيها، كما تكشف عن «الأفكار العليمة» التي راودت الصانع الذي أبدعها. ونار هيرميس إذا قيست بنار هيفايستوس الصناعية قد تبدو هينة. ولكنها نار تنضج اللحم، والرائد مكلف بإشعالها. ولكن هذه النار الغذائية يتولى دهاء هيرميس الميتيسي إطلاقها من الحركة السريعة التي تتحركها قطعتان من الخشب، والدهاء الميتيسي هو الذي اخترعها في الليل، عند العودة من سفرة بين الأدغال والزراعات. وما استخدم الدهاء الميتيسي هذه النار، حتى تخيل أن يخفي آثارها^(٦). هذه النار نار متحركة، مثل هيرميس، تولدت جنسياً، مثل إله كولليني Kullène «فقد ولد هيرميس في كهف فوق جبل كولليني».. وهو يبرز في ساحة مكشوفة تجتازها قوة عابرة، وهو إله لا سبيل إلى الإمساك به، مراوغ ومتمكن من التصرف للتخلص من المآزق، يتضاد مع الحداد القوي «هيفايستوس»، قائم في ورشة حدادته، بجانب النار التي لا يتنقل من حولها إلا في تشاقل، دائراً من منفاخ إلى منفاخ^(٧). هذه العقلية التخلصية التي تميز هيرميس الداهية

polúmetis يستخدم الإغريق في تحديدها كلمة تضم معاً فكرة النار وفكرة حركة اليد الخاطفة البارة: purpalámes^(٨). في الكتاب الذي خص به سويتونيوس الكلمات الجارحة نجد هذه الكلمة purpalámes تدل على اللثيم، أي المكّار الواسع المكر panurge^(٩) أما الفقهاء المعجميون مثل هيسوخوس وباوسانياس، فالكلمة تعني لديهم المخاتل poikilos، الشخص الذي يفهم باللمحة والذي يستطيع بحركة خاطفة أن يخترع التوليفة المناسبة: لماح كالنار palamómenos isa puri^(١٠). في النشيد الهوميروسي الذي يحكي فيه هيرميس كيف أخفي في الليل ثيران أبوللون، يظهر هيرميس كأنه نار خاطفة شيطانية لفرط توثبه وروعة مهارته. ويبدو أن دهاء الميتيسي يتركز من خلال سلسلة من الصور والمقارنات في لهيب نظرتة.

وهو قد ولد صباحاً، وعزف القيثارة Kithara ظهراً^(١١)، وسرعان ما أصبح ذكاًؤه لماحاً لا يقارن إلا بالومضة التي تطلقها نظرة^(١٢). وفي أثناء الليل اختلس قطع أخيه أبوللون، وعندما عاد ليندس خلسة في الأقمطة التي تركها في الصباح، على أمل أن يضل انتباه أبوللون، كان مثل جمر متأججة من البلوط الأخضر تغطت برماد كثيف^(١٣). ونجد في قصة الأحداث التي يرويها أبوللون على نحو مهيب أمام الآلهة المجتمعين، أن الظلمة في العرين ازدادت كثافة، بل كانت من العمق بحيث أن النسر بعينه الشاقبة لم يكن ليستطيع أن يرى فيها شيئاً. وإنما اشتدت كثافة الظلمة لكي تبرز على نحو أشد الوميض الذي تطلقه عين هيرميس، هذا الهيرميس الذي تظاهر بأنه غرق في سبات لذيد، بينما كان في الحقيقة واعياً، حذراً، يقظاً كل البقطة^(١٤)، منشغلاً كل الانشغال بالتجميع والتأمل وابتداع الحيل، حتى إنه كان يلجأ مراراً إلى استخدام يده في دعك عينيه ليخفف ما فيهما من التأجج وليخفي نارهما فقد كان من الممكن أن يكشف وميضهما نارهما حتى عمق مخبأه المظلم^(١٥). وكأنما كان رب الليل هذا - الذي كان يعرف أكثر من غيره أن يُخفي وأن يتخفى - لا يمكن أن يكشفه شيء إلا نأجج دهائه الميتيسي.

كان في استطاعة أبوللون أن يجر أمام الأوليمپوس أخاه الصغير «هيرميس» الذي استمر بغمز بعينه ويرقص حاجبيه^(١٦). ولكنه يضطر إلى أن ينزل لأخيه هيرميس عن الامتيازات التي سيكون على دهائه الميتيسي أن يقرها له في عالم الآلهة. ولقد تم تقسيم السلطات بين الأخوين بسهولة لأن مجاليهما إذا تداخلا في بعض النقاط فإن أحدهما صاحب دهاء ميتيسي، والآخر لا يستخدمه.

في منظومة مجمع الآلهة المرتبة لم يعد الدهاء الميئيسي يرد إلا لكي يبرز الانحرافات، ويوزع المعارف ويرسم حدود السلطات بين الآلهة. وإذا ينبغي على الباحث، أن يخرج على نحو ما، خارج الخطاب اللاهوتي الذي تُحكى في إطاره بغالبية الميثاث الإغريقية عن الآلهة، عندما يبحث عن الحكايات والقصص التي يدور فيها الحديث عن المواجهات بين القوى الإلهية التي لن تسعى أبداً إلى التشكيك في نظام العالم، بل تسترسل في استعراضات احتفالية لسلطات كل واحدة. وإذا أخذنا من حيث المبدأ بأن كل إله يقيد يعرف كذلك أن يفك القيد وأن مسكّة كل إله لا يمكن أساساً وتعريفاً أن تفشل، فإن المنازلة بين آلهة أوتيت دهاء ميئيسياً متساوياً تشبه جري كلب كيفالوس Kephalos وراء ثعلب تويميسي Teumesse: فقد كان هذا الكلب يجري بسرعة لا ينافسه فيها أحد، ولكن الثعلب كان أيضاً يجري بسرعة لا تسمح لأحد ببلوغه (١٧). ولبيان ما تتسم به هذه المواجهات من عدم الجدوى، وإظهارها بمظهر التسلية الخالصة، كان من الضروري تخيل مواقف يضمن فيها الحق لأحد الطرفين فوزاً عابراً، أو يتيح له على الأقل فرصة قصيرة يمارس فيها على واحد من منافسيه سلطته في التقييد والسيطرة.

في حكاية من هذا النوع غنى الشاعر ديمودوكوس Demodokos على شرف أوليسيس أمام الفيثاقيين ما يلي: أفروديتي استخفت بهيفايستوس «زوجها» وخانتها مع آريس Ares فانتقم هيفايستوس من العاشقين بأن جعلهما يعانيان تكبيل قيوده (١٨). وهناك مثل سائر يقول إن قيد هيفايستوس يوصف به كل أمر لا مهرب منه áphukta (١٩). ولكن سلطته السحرية المكبلة عندما تيج لنفسها خربة الحركة تكشف في عملية التقييد عن السمات الجوهرية التي تمنح الدهاء الميئيسي انتصاراته وفوزه.

أخبرت «الشمس» «هيليويس» هيفايستوس أن زوجته أفروديتي تخونه في فراش الزوجية، فسارع إلى ورشة حدادته ليصنع سلاسل لا تلين، وقيوداً لا يستطيع أحد أن يفكها desmoi árhektoi, álutoi. وما كاد يفرغ من صناعة الفخ teúchein dólōn، الذي وضع جزءاً منه على شكل دائرة أحاطت بأرجل السرير chée désmata kúkloi hapánteí، وعلق الباقي في السقف، مثل نسيج العنكبوت، خفيفاً، رقيقاً لا يستطيع حتى عين إله أن تكشفه (٢٠). ولم يعد أمامه إلا أن يتظاهر بأنه مسافر إلى ليمنوس، فوق العاشقان في الفخ: «وقعت عليهما القيود» (المعدنية) التي صنعها هيفايستوس بصنعتة ومهارته téchne، وحرصه العظيم polúphron: فلم يعد في مقدورهما أن يتحركا، ولا أن يرفعا ذراعاً أو ساقاً؛ وفيهما آنذاك

أنهما لا يستطيعان الفرار *oukétí phuktá* (٢١) ، كان الزوج يعرف الحقوق، فدُعي الآلهة إلى إثبات حالة الخيانة الزوجية. وارتفعت ضحكات الآلهة الساخرة، وثالت نكاتهم. وأعجب الحضور "بشغل" هيفايستوس، وحيكه *téchnai* (٢٢)، بالفخ الذي نصبه، وبمهارته في صناعة القيود التي لا تنفك. وانطلق مثل بين الآلهة، فيه السخرية من تفاهة أريس المهزوم، وفيه امتداح دهاء هيفايستوس الميتيسي: قد يسبق الأبطأ الأسرع أحياناً. «هاهوذا هيفايستوس، هذا البطيء *bradús* يمسك أريس وهو أسرع *okútatós* الآلهة المقيمين على الأوليمبوس. بمهارته *téchne* يفوز الملتوي *cholós*» (٢٣). كان أريس في لعبة الأسرع يخرج فائزاً، ولكن علاقة القوة تنقلب انقلاباً فظيماً نتيجة لأعيب هيفايستوس: فيتحقق فوز مذهل لا يشير من الدهشة أقل من رؤية أنطيلوخوس في سباق العربات يتقدم على مينيلائوس صاحب الخيل الأسرع، ولا أقل من اكتشافنا في جسم الضفدعة البحرية البطيئة أشد البطء *bradútatos* أعضاء قنص خاطفة تجعل منها أسرع الحيوانات المائية *táchistos* (٢٤). كان أريس سريع الذراعين والساقين كما يليق برب الحرب، ولكنه لم يكن مشهوراً بمكر وخديعة: بل كان غشياً لا ظل لدهاء ميتيسي لديه. والقيود التي أطبقت عليه وأسرته مكبلاً بجانب أفروديتي لم تكن الوحيدة التي بات عليه أن يعاني من قضائها (٢٥): لقد وقع غنيمة بائسة في شبكة هيفايستوس. لم تكن الغنيمة الحقيقية التي أمسكها الحداد هيفايستوس هي أريس، بل كانت زوجته أفروديتي الخائنة التي كانت في حد ذاتها قوة دهاء وخداع: كان دهاؤها الميتيسي المتعرج *aiolómetis* (٢٦)، وحذقها في نصب الفخاخ *doloplókas* (٢٧)، ورغبتها التي لا ترتوي غلتها في الخيانة والغواية (٢٨) هي الحصل التي جعلت من أفروديتي ربة بخشاها الآلهة كما بخشاها البشر (٢٩). وكانت أفروديتي، مثلها مثل إيروس - وهو حفيد ميتيس - تحب الصيد، ونصب الفخاخ والإيقاع في شباكها بالضحايا الذين تسلط عليهم أشرتها، وأعمالها السحرية، ومطارحاتها الغرامية فتجعلهم عاجزين *amechania* (٣٠). حتى زيوس نفسه، بما أوتي من دهاء عظيم، عرفت أفروديتي كيف تغرر به وتملكه، على الأقل عندما وافقها، وعندما استرسل في ملاحظات أفروديتي الذهبية استرسالاً لا يفتقر في أحيان كثيرة إلى الرغبة،

وليس من شك في أن أفروديتي بدت في هذا الوضع أقل مهابة. فقد جردتها رغبة الصباغة إلى مضاجعة أريس وأوقعتها هكذا في فخها هي، إذ أفقدتها عابراً تلك البقطة التي يصبح كل دهاء ميتيسي بدونها نصف مشلول أو نحو ذلك. والقيود «المعدنية» التي صنعها هيفايستوس لتكبلها من النوع الذي يتطلبه أسر قوة دهاء. وهذا هو الدور الذي لعبه هيرميس

في هذه الواقعة التي تلقي الضوء على سمة من سماته الجوهرية. لم تكن المصادفة يقيناً هي التي وضعت في المقدمة بين الآلهة الذين تجمعوا حول الفخ الذي انقلب على أفروديتي. وقد داعبه أبوللون في هذا لأن الجميع كانوا يعلمون الميل الذي يراود هيرميس حيال أفروديتي، فقال له: «ما من شك في أنك كنت ستضع نفسك راضياً في هذه القيود الوثيقة لتنام في سرير بجانب أفروديتي الذهبية.» (٣١) وكثيراً ما نجد في شعائر الزواج في بلاد الإغريق هيرميس وأفروديتي شريكين، هيرميس يقتاد الزوجة من بيت أبيها إلى بيتها الجديد، وأفروديتي تحفز المعاشرة الجنسية، التي بدونها يظل الانتقال من نار بيت إلى نار بيت آخر غير ذي جدوى (٣٢). أضف إلى ذلك أنهما يمتلكان معاً كلمات الغش التي تخدم الغواية مثل الدهاء (٣٣). أما الإجابة التي يرد بها هيرميس على سخرية أخيه «أبوللون» فلا تقتصر على الاعتراف بعلاقاته المتميزة بأفروديتي، بل تبرزها فتضعها تحت عنوان القيود البالغة الإحكام التي لا يتقدم ليتكبل بها إلا إله قادر على التقييد، يتمنى أن يؤتى أشباهها: «فيا ليت قيوداً أبيريونية apeirones عدتها ثلاثة أضعاف هذه تضمني، إذا أتيح لي أن أنام بجانب أفروديتي.» (٣٤).

فما هي السمة الفريدة التي تتسم بها هذه القيود التي يطلبها هيرميس لتضمنه ضمة وثيقة إلى أفروديتي؟ كانت القيود قد وصفت من قبل بأنها لا تنفك، وبأنها سلاسل لا فرار منها، فإذا هي توصف هنا بأنها "أبيريونية" apeirones وكلمة apeiron اختلف في شرحها الشراح، فالبعض رأى فيها صورة القيود اللانهائية، والبعض الآخر فضل التشديد على أنها تعني ما لا يحصيه العد. ولكن معنى عبارة القيود الأبيريونية apeirones واضح منذ پورفوروس Porphurios وشروحه الهوميروسية (٣٥). ولقد بدأ هذا الفيلسوف الأفلاطوني المحدث بملاحظة أن معنى كلمة apeiron لا يمكن أن يكون "مالاً يحصيه العد"، لأن هذه الصفة «العددية» للقيود قد تحددت في "عدتها ثلاثة أضعاف هذه" tris tóssoi. ثم بين پورفوروس بعد ذلك أن مفهوم apeiron هو وصف لقوة هذه القيود التي تحيط بكل الاتجاهات والتي ليس لها نهاية péras ولا بداية arché. هذا الشرح لا غموض فيه: إذا كان هوميروس قد اختار النعت apeirones ليصف السلاسل التي لا تنفك álutoi، فإنما يرجع السبب في ذلك إلا أن هذه القيود دائرية énkukloi، على هيئة الحلقات، ولأنها تحبس من تمسكه في دائرتها. وهكذا فإن وضع المشكلة يكون على النحو التالي: هذه القيود "الدائرية" التي صنعها هيفايستوس والتي تستطيع أن تكبل إلهاً متحركاً وداهية الزمن الذي يرغب هذا الإله ليكون أكثر قرباً من أفروديتي، وليظل أسيراً لها، ما هو معناها في الإطار الكلي

لأعمال وأشكال الدهاء الداهية؟ ما هو المكان الذي يمكن أن يحتله في حقل الدهاء المييتيسي مفهوم من قبيل "اللامحدود" أبيريون apeiron بمدلوليه: القيد والدائرة؟

ولكي نرسم صورة أولى لما كان الإغريق يميلون إلى تسميته "اللامحدود"، ولكي نتبين على الفور عدداً من الخطوط الأساسية التي تتخلل الحقل الدلالي لأبيريون apeiron، يمكننا، دون أن نقع في فخاخ قراءة اشتقاقية، أن ننطلق من الجدل الذي أثاره اللغويون حول هذه الكلمة^(٣٦). ويبدو أن التحليل اللغوي الذي يربط قَدْرَ كلمة apeiron بكلمة péras تتأرجح بين حلين:

- الحل الأول أن تكون البادئة النافية a- مربوطة بكلمة péras

- الحل الثاني أن تكون نفس البادئة النافية a- مربوطة بالجذر *per (peráo, peiro, peraino) الذي يعني العبور والاختراق.

بالنسبة إلى المعنى الاشتقاقي لكلمة péras - وله شواهد أخرى في الإغريقية متمثلة في الصيغتين المنافستين peiras و peirar لمجد علماء الهيلينستية واللغويين منقسمين مرة أخرى:

- بعضهم يميلون إلى «حد، طرف، نهاية»

- والبعض الآخر يرون أن المعنى الأساسي لكلمة péras هو «قيد».

وفي أثناء جولتنا خلال هذه الشروح، المنصبة على كلمة يُغذّي تشابكها الدلالي الاختلافات في القراءة، اخترنا أن نبرز توجهين كبيرين في الحقل الدلالي الذي تشغله الكلمتان apeiron-peiras :

- توجه يدور حول مفهوم الطريق

- وتوجه آخر يدور حول مفهوم القيد.

وألغاب التداخل بين «السير في طريق» و«تقييد» هي التي ستحدد وضع apeiron ، «اللامحدود»، بين الأدوات الإدراكية التي يستخدمها الذكاء العملي.

وليس هناك أدنى شك في أن التوجه الأول هو، من بين هذه التوجهين، أكثرها وضوحاً في الرسم، في تاريخ كلمة peirar الذي بدأت دراساته ج. بيورك G. Björk وش. كان Ch. Kahn . ومفهوم «السير في الطريق» المتضمن في peirar بالمعنى العادي للحد يفترض وجود تنظيم معين للمكان. بهذا المعنى الأول تستخدم كلمة peirar في أغلب الأحيان مع

فعل حركة، ولكنها لا تدل بحال من الأحوال على حدود ثابتة ولا خط تقسيم فاصل ثابت؛ بل تدل دائماً على الحد الأبعد، على النقطة التي يبدأ بعدها الخواء. وهناك إشارة في كتاب «الخطابة» <الريطوريقا> لأرسطوطاليس تسمح بتحديد دقيق لتصور المكان مرتبطاً بهذا «الحد» peirar، يقول أرسطوطاليس: «في اللغة القديمة (٣٧) كلمة peirar (وهي صيغة متبادلة للفظه [peiras] لها معنى tékmar أو [tékmor]، أي علامة، إشارة، دليل.» وكان من الضروري أن يتم في عام ١٩٥٧ اكتشاف «كوسموجونية» لألقمان (٣٨)، مكتوبة في اسبرطة الأرخائية <العتيقة> للإفادة من الترادف الذي كشف كتاب «الخطابة» عن وجوده بين «حد» و«إشارة».

وألقمان يضع بالفعل عند بدايات الكون قوة يسميها تيكمور Tékmor، أي دليل، تلعب برفقة پوروس Póros، أي طريق، دور الخادم لدي ثيتيس Thétis ربة البحر الكبيرة. في حالة أولانية - تحكمها قوة أعماق بحرية رأينا توافقاتها مع الربة ميتيس - يبدو أن تيكمور Tékmor أي الدليل وپوروس Póros أي الطريق يتوليان مهمة تبديد الظلمات التي يجسمها سكوتوتس Skótos وفتح الطرق التي ستأتي منها الشمس سائرة حاملة ضياء النهار، بينما تنتشر دروب البروج المنيرة على قبة السماء. في المكان البحري الذي يمارسان فيه سلطاتهما نجد تيكمور Tékmor أي الدليل وپوروس Póros أي الطريق يحددان عمل ذكاء يتولى كاملاً مهمة الإفلات من تيه عالم يسيطر عليه الاضطراب والارتباك. وكلمة پوروس الطريق Póros التي تنتمي هي أيضاً إلى العائلة الدلالية لكلمة peráo التي تعني العبور والاختراق تدل على التخطيط، الترتيب، الإجراء الذي يخترعه الدهاء الميتيسي ليفتح لنفسه طريقاً؛ أما كلمة تيكمور Tékmor، الدليل، التي لا تعني فقط الغرض المستهدف، ولكن الخطة، والدواء الذي يعالج موقفاً صعباً، فهي مفهوم مبني على تضافر ثلاثة مجالات متميزة ولكنها متكاملة وهي: الملاحة، الفلك، التخمين والتنبؤ. في مجال الملاحة كلمة تيكمور Tékmor تعني نهاية الرحلة، نقطة الأفق التي توجه مسار السفينة؛ أما في الفلك المبتدئ الذي يتضمنه على ما يبدو فن الريان، فنفس الكلمة تدل على موقع النجوم الذي ينبغي على السفينة أن تضبط مسارها عليه. ولكن هذين المستويين لا ينفصلان عن مستوى ثالث: الإبحار اتباعاً لنقاط اهتداء ثابتة في السماء يعني أيضاً - بالنسبة إلى تراث مبني كبير تمثل ملحمة الأرجونوتية فيه منتهى الإبداع الروائي - الثقة في الإشارات التي ترسلها الآلهة والتي يقوم عراف بدور الوسيط فيكشف الغطاء عنها. كانت العرافة تكشف للملاحين العلامات المنيرة التي يستدلون بناء عليها على مسارهم، أي أنهم يتعرفون على العلامات،

ويختارون نقاط الاهتداء على نحو يمد معبراً بين المشهود والفيبي. وسياق رحلة عبور البحر الخطيرة هو بالضبط السياق الذي يتوثق فيه على أوضح وجه الترادف القديم بين peirar و tékmor الذي يحدثنا عنه أرسطوطاليس. في تراث الأرجونوتية، ملاحى سفينة أرجو، في لحظة الإقلاع للقيام برحلة بحرية يصفونها في أغلب الأحيان بأنها كانت أول رحلة بحرية، يوجه ياسون في حضرة رفاقه جميعاً، إلى أبوللون صلاة حافلة يذكره فيها بالوعد الذي قطعه عراف ديلفوي Delphoi يوم أن ذهب يطلب النصيح بشأن المهمة التي فرضها عليه عمه الحقود. كان أبوللون قد وعده بأن «يرسم الطريق» من أجله. وتعبير «يرسم الطريق» يرد مرتين، كل مرة في صياغة مختلفة، فمرة: تكون الصياغة «يدل على بيثيراتا peirata <علامات> الرحلة»^(٣٩)، ومرة أخرى تكون الصياغة «يبين پوروي póroi <طرق> البحر»^(٤٠). أما آل póroi فهي طرق الملاحة، الطرق التي وعد أبوللون بفتحها من خلال خضم المياه التي لا تعرف الكرم؛ ولكن هذه الطرق يدل عليها إله ديلفوي على النحو الذي يليق بعراف تستخدم عبارته - على ما جرت به التقاليد - إشارات، فهو يبين مسار السفينة استناداً إلى نقاط اهتداء، إلى peirata، إلى شواخص منيرة أو نقاط على الأفق كل نقطة منها تلحق بها التي تليها كالمراحل حتى نقطة النهاية النهائية لرحلة ملاحى الأرجو. فالكلمة تدل على النقطة المحدودية، كما تدل على نقطة الاهتداء، والمسار، فكلمة peirar تنتمي مثل مردافتها ték-mor لمفردات المصطلح البحري.

وهناك فصل آخر من مغامرات ياسون يربط الصيغتين، بل يربطهما مباشرة. فقبل أن تحاول سفينة أرجو اجتياز البوسفور، وقفت في ثونيا، على السهل الشرقي من ثراقيا. هناك كان فينيوس Phineus يتربع على تخت الحكم، وفينيوس هو العراف الذي أذنب إذ استغل علمه استغلالاً سيئاً فأبلغ البشر بالخطط التي دبرها زيوس. وعوقب فينيوس Phineus بأن كُف بصره، وقضي عليه ألا يأكل من الطعام إلا ما كان كربه الرائحة، قد نجسته الهاربيات Har-pyia، فالتمس الملك الأعشى الخلاص بأن قدم إلى بحاري الأرجو بيانات دقيقة للوصول إلى كولخيس Kolkhis <في آسيا الصغرى> وترتبط بها أسطورة الجزة الذهبية و اجتياز ممر الصخور السوداء. وقال ياسون وهو يشكره، «لقد شرح <فينيوس> للملاحين تفصيلاً حد peirar رحلة العبور والدليل tékmara^(٤١)، مما سيمكن رفاق السفينة أرجو من العبور بين الصخور <الرجراجة> وبلوغ peráo البحر الواسع póntos^(٤٢). كلمة تيكمار Tékmara - الدليل - تعني وسيلة اجتياز <الممر المنحرف>^(٤٣) بين الصخور الرجراجة: وطيوان حمامة من نوع الحمام الطوراني تطلق أمام السفينة تؤدي بالنسبة إليها دور النبوءة. أما فيما يختص

بلفظة *peirar* «حد» فهي تدل في آن واحد تضافرياً على الشخصوس التي تعلم مسار العبور وعلى الطريق الذي تفتحه السفينة لنفسها في الفضاء البحري الذي تدل عليه كلمة *póntos* البحر الواسع. أما كلمة *peirar* فتآلفاتها مع السير *póros* يبرزها استخدام الفعل *peráo* أي "يعبر"، وهكذا فإن كلمة *peirar* تتضاد مع *póntos* ، البحر من حيث هو امتداد عميق الغياهب ، خاؤسي، خال من الطرق، من حيث هو مكان كان الإغريق يصفونه باللفظين *ápeiros* و *apeiritos* لا لأنه بلا حدود أو بلا خط فاصل، ولكن لأنه الامتداد الذي لا يمكن أن يعبره *peráo* أحد من طرف إلى طرف، فهو مكان لا يمكن اجتيازه، وما يكاد طريق يرتسم فيه حتي ينمحي ويزول من فوق صفحة المياه الناعمة، وهي صفحة لا تتكرر مرتين أبداً.

والتوجه الثاني الذي يخترق الحقل الدلالي لكلمة *peirar* يظهر بمظهر هدف أكثر تركيزاً. فمعنى «قيد» يفرض نفسه فوراً بالنسبة إلى عدد معين من الاستخدامات يبدو سياقها غير مختلف عن التعدد الدلالي لمفهوم «قيد» في الفكر الإغريقي. في فصل الخاص بالسيرينيات *Seirênes* يجعل أوليسيس الرفاق يربطونه ربطاً وثيقاً إلى صاري السفينة؛ ويقيدون ذراعيه وساقيه بالقيود *dein*؛ وقد سميت هذه القيود التي علقت بالصاري *peirata* أو *desmoi* (٤٤). ويظهر هذا الترادف نفسه في قصة أبوللون الذي يحكي نشيده الهوميروسي عن طفولته العجيبة : فأبوللون الذي كان كأخيه هيرميس ينمو نمواً «فائقاً» تراه العين، ويتغذى على الأمبروسيا، عندما كان رضيعاً كبير بسرعة حتى إن أقمطته *stróphoi* سرعان ما كانت تضيق عليه فلا تحيط به، بل كانت كل اللف التي يلف به «تقصر عن ملاحقة نموه» تنصرم بعد قليل. في هذه القصة تستخدم الكلمتان *peirata* و *desmá* للتعبير عن الرباط والقيود (٤٥). ونفس كلمة *peirar* في الصيغة *péras* تدل في المصطلح الطبي على طرف الرباط، على القطعة من النسيج التي تحيط بجرح أو تحمي عضواً (٤٦). ولقد تعلق عدد من علماء الهيلينيستية بأهداب هذه «الخبرانية التلقائية» التي نقدها من قبل بينثينيست *E. Benveniste* متناولاً عدداً كبيراً من محاولاتها التوليف الدلالي المفتعل (٤٧)، فاعتقدوا أنهم وجدوا في المعنى المحسوس والتقني لكلمة *péras* - وهو: شريط، حبل - الدليل على أن المعنى المجرد وهو «حد، حدود» استخلص انطلاقاً من استخدام «بديهي» لكلمة *peirar* بمعنى قيد أو عقدة. ولكن آخرين، وهم فلاسفة أكثر حصافة، مازالوا يوغلون في الاشتقاق حتى تبيينوا المعنى المجرد في قلب المعنى المحسوس. وتبينوا أن كلمة *peirar* لا تدل على القيد أو العقدة، بل تدل على طرف أو نهاية الحبل (٤٨). ونحن، الذين

نقبل بأن «معنى» أي شكل لغوي يتحدد بناء على مجموع استخداماته، نرى أن المشكلة ليست هي استنباط معنى من معنى آخر، ولكنها هي أن نفهم أي فط من العلاقة كان من الممكن أن يقيمة الإغريق بين «طريق» و«قيد»، وكيف أن معنى «يقيد» peirar هو في ظاهره معنى مختلف عن معنى «يسير» الذي تفرضه بعض السياقات، ولكنه يمكن أن يمثل تنويعاً للمعنى الأول. في الحقل الدلالي لكلمة peirar هو الحقل الذي تجد فيه هذه الأسئلة أجوبتها: فنمط معين من الطريق يمكن أن يتخذ هنا شكل قيد يغفل، وبالمقابل، عملية التقييد تستعير هنا أحياناً شكل العبور أو السير.

بعض استخدامات پوروس póros تعتبر مثلاً على النمط الأول من العلاقة. فكلمة póros من حيث هي الطريق المرسوم على بحر لا يستطيع أحد اجتيازه يمكن أن تعني أيضاً عبور نهر، أو عبور مخاضة أو عبور جسر لا يمكن عبور النهر بدونه، أي أن النهر يكون بدونه نهراً لا يمكن اجتيازه أي بوصف بأنه أپيراتوس apératos^(٤٩). وعندما قرر كسرى اجتياز مضيق هيليسپونت Hellespont (الاسم القديم لمضيق الدردنيل) لكي يستعبد الإغريق، تفتق كبرياؤه المفرط عن مشروع إنشاء جسر يظل طريقاً مفتوحاً في البحر، ويرسم على صفحة اللجج المتغيرة دوماً طريقاً ثابتاً لا يتحرك. واعتمد مشروع الجسر على المعرفة التقنية للمهندسين الذين أنيط بهم تصميمه وضمان تنفيذه. وتمثلت الوسيلة التي تخيلوها لعبور مضيق هيليسپونت Hellespont (الدردنيل) في «آلة» عبارة عن عدد هائل من السفن قيدوها الواحدة الأخرى بسلسلتين مدوهما بين الشاطئين^(٥٠). هذا المر póros الذي صنعه الفرس البيا لربط وتكبييل البحر، هو في حد ذاته «قيد»، «نير ركب حول رقبة البحر»^(٥١). وعندما يقوم خيال داريوس الذي يستحضره الكورس في مسرحية «الفرس» لإيسخيلوس بشجب الحماقة المجنونة التي ارتكبها «الملك الكبير»، فإن لومه الأكبر انصب على أن كسرى أراد «أن يوقف مسار هيليسپونت المقدس بأغلال العبيد» وأن «يسلك فيه أصفاً مطروقة بالمطرقة»^(٥٢). وهيرودوتوس يستخدم نفس التعبيرات: لقد قام مهندسو «الملك الكبير» بتقييد وتكبييل المضيق (الدردنيل) zeugnúnai tòn póron، فلما هبت عاصفة عارمة ومزقت الجسر ونشرت أشلاء على اليم، فقد فكت lúein العاصفة - بحسب تعبير هيرودوتوس - ما جرؤ البشر في جنونهم المتعالي - على تحميله بالأغلال^(٥٣). وتعود صورة النير نفسها في الفصل الذي يثبت على نحو قاطع جنون ملك «الفرس» الهمج: لقد أمر كسرى للانتقام من هيليسپونت بأن تجلد بالسوط ثلاثمائة جلدة وبأن يُلقي في البحر سلسلتان pe-déonn zeûgos^(٥٤). وما دام هيليسپونت قد جرؤ على نفص النير، فقد ضرب مثل العبد

المتنرد، وكانت السلسلتان اللتان ألقيتا في المضيق تؤكدان إرادة "الملك الكبير" في أن يقيد ذراع البحر وأن يجعل منه طريقاً ثابتاً ومقهوراً.

وإذا كان من الممكن أن يعتبر الممر أو المسار من قبيل القيد الذي يغل، فإن مقلوب هذه الصورة يمكن أيضاً في الفكر نفسه. فعندما أعطى أوليسيس الأمر بتقييد ذراعي وساقَي ميلاتشيوس راعي الماعز الذي خانه لصالح الخطاب، فقد استخدم تعبيراً يتحول فيه القيد إلى مسار وعبور يلف الضحية: «لفوه بسلسلة مضافورة seiren dè ex autoû peirénante plektèn^(٥٥)» وكلمة peirainein التي تعني العبور تتخذ هنا معنى اللف، معنى تقرير سلسلة مضافورة من طرف الجسم المطلوب تكبيله إلى طرفه الآخر. والقيد عندما يمر حول الذراعين والساقين فإنه يرسم حركة دائرية الشكل، مقلداً على نحو تقريبي الأساور أو الخواتم التي اعتاد الإغريق أن يسموها «الخواتم اللامحدودة» ápeiroi^(٥٦). لأن هذه الأساور - كما يشرح أرسطوطاليس - لا تحمل حجراً أو فصاً، فهي لهذا بلا نهاية péras وبلا بداية arché: إنها دائرية بشكل كامل^(٥٧).

مع صورة القيد الذي يرسم طريقاً بلا حدود يبدو الحقل الدلالي لكلمة peirar أكثر تشابكاً مما لاح على التوجهين أنهما يبينان. كان التوجه الأول ينسب كلفة على التكاملية التضادية peirar-apeiron: كانت تدل على غط من الطريق المفتوح في مكان محدد، على الضد من مالا يمكن عبوره وما ليس له حدود نهائية apeiron، أما التوجه الدلالي الثاني، وهو القيد، فإن نفس الكلمتين peirar وapeiron لم تعودا تكونان ثنائياً متضاداً، بل هما يكونان تركيباً جديداً من كلمتين تدعم الواحدة منهما الأخرى على نحو ما لتوحيا بالصورة التناقضية peirar ápeiron أي القيد الذي لا يمكن عبوره والطريق الذي لا يمكن فكه.

ولكن هناك في الفكر الميثي الإغريقي مكان شبيه بالفضاء البحري حيث اللامحدود apeiron يتأرجع بين القيود التي لا يمكن لأحد أن يفكها وبين الطرق التي لا يستطيع أحد أن يسلكها. هذا المكان هو التارتاروس Tartaros، ولقد رأينا^(٥٨) كيف وصفه هيسيودوس، قائلاً إن الرياح العارمة تسكنه، وإن الدوامات تخترقه، وإنه مكان اضطراب كامل، مكان لا توجّه فيه، فقد تجرد من الاتجاهات الثابتة، ومن العلامات المنتظمة. وكما أن البحر الواسع امتداد لا يمكن اجتيازه ápeiros, apeiritos كذلك التارتاروس مكان فيه سندان قذف به من نقطة ما ولن يبلغ العمق أو الحدود أبداً، بل سيظل تائهاً في سباق لا ينتهي إلى

نهاية^(٥٩). ولا يعنى هذا أن التارتاروس لامحدود، بل هو كالبحر مكان لا يمكن اجتيازه، يستحيل عبوره من من طرف إلى الطرف الآخر. في التراث الأورفيوسي^(٦٠) ليس التارتاروس فقط بلا قاع، بل بلا علامات اهتداء، ولا يقبل مساراً محدد الاتجاه، وليس فيه *peirar*. والصفة *apérantos* التي تعني ما لا يمكن اجتيازه هي الصفة التي اختارها بروميشيوس عندما ذكر التارتاروس وقال إنه يود أن يكون مدفوناً فيه بدلاً من أن يبقى معرضاً للهواء الطلق تحت أعين أعدائه^(٦١). ولكن التارتاروس ليس فقط مستحيل الاجتياز، بلا طريق، بل هو كذلك في نظر بروميشيوس - في نفس النص - المكان «الذي وضع فيه الإنسان بوحشية على صلة بقيود من المحال فكها» *desmoi álutoi*^(٦٢). ونجد هاتين الناحيتين في صورة مختلفة اختلافاً قليلاً في التارتاروس الذي هدت أم هيرميس ابنها به، ثم هدده به أخوه بعد هروبه، فالأخ يذكره بالظلمات التي لا مخرج منها *améchanos*^(٦٣) والأم تحدثه عنف القيود التي لا يمكن فكها *améchana*^(٦٤). وكأنما امتاز مكان التارتاروس، لكي يصبح من المحال اجتيازه، بامتياز التقييد والغل إلى الأبد، ونحن بالفعل نجد في ثيوجونية هيسيودوس، أن التارتاروس هو المكان الذي يزج فيه بالآلهة المغلوبة، تلك التي غلبها زيوس والتي غلبها كرونوس. هذا هو المصير الذي صار إليه التيتان *Titanes* الذين قهرتهم نار السماء وضربات الهيكاتونخيريس : فهام أولاء بتوارون في الظلام ويحملون الأغلال^(٦٥). ومن قبل لقي الهيكاتونخيريس نفس المصير: فقد قيدوا بقيود شديد وزج بهم في التارتاروس^(٦٦). وولوج هذا المكان الذي لا يستطيع أحد أن يجد له منه مخرجاً، مهما أوتي من الدهاء المبتيسي، كان يعني بالضرورة أن يجد نفسه مغلولاً بأشد القيود قسوة^(٦٧). وبالمقابل كان الخروج منه بمنة من إله سيد، كان يعني الإفلات فوراً من الأغلال ورؤية القيود تنفك. فكل أولئك الذين أخرجهم زيوس من غيوم التارتاروس، بعد فوزه على كرونوس، حررهم في نفس الوقت من الأغلال سواء في ذلك الهيكاتونخيريس أو أخوة كرونوس^(٦٨). لم تكن هذه الأغلال القاسية التي لا يمكن فكها هي القيود التي يكبل بها السجانون أسراهم. فالتارتاروس الذي يشبه البحر الفسيح مكان لا يمكن اجتيازه، إنه *apérantos* أو *apeiron*، وهو ليس فقط سجنًا من المستحيل الفرار منه. بل هو نفسه مكان مقيّد يختلط امتداده بالقيود التي لا يمكن أن تحل. التارتاروس مكان بلا مخرج، ليس به شخوص أو علامات تسمح بعبوره، فهو يبدو على الفور على هيئة القيد الهائل، الذي لا نهاية له، ولا حدود بالنسبة إلى من يجد نفسه محبوساً في عالمه. إنه *peirar ápeiron* بالمعنى المزدوج الذي تبيّنناه وذكرناه من قبل «أي القيد الذي لا يمكن عبوره والطريق الذي لا يمكن فكها»، ولما لم يكن فيه أي اتجاه، فليس من سبيل إلى

عبوره، أو اجتيازه، ولكنه من الناحية الأخرى، بالنسبة إلى من يكون قائماً فيه، في هذا الوسط الذي هو على نحو ما عكس المكان المنظم، مكان لا سبيل إلى الخروج منه أبداً؛ فيبقى من فيه محبوسين بداخله إلى ما لا نهاية، مثل آريس وأفروديتي في قيود هيفايستوس التي تُحل.

وانغلاق القيد دون ما حدود لا يتخذ فقط بالنسبة إلى الإغريق شكل التارتاروس الرهيب الذي تستأنفه بعض مصورات هاديس Hadès «إله الموت» التي تمثل ضيوفه عاجزين عن الإفلات من أغلاله السحرية. وهناك شيء تقني مطمئن ومألوف يجسم مفهوم القيد الدائري، وهو الشبكة التي تستخدم في صيد الحيوان وصيد السمك، والتي نوهنا منذ البداية بأهميتها بالنسبة لمفردات الدهاء الميتيسي^(٦٩): وسواء كنا حيال شراك أو شباك أو أحابيل أو جوابي، وبغض النظر عن سُمك الخيوط، أو اتساع الفرز، فإن الشبكة عبارة عن منظومة من القيود المنسوجة أو المضفورة، وتكوينها المعماري يجعل منها الشكل الأعظم للقيد، سواء من منظور المقيّد أو المقيّد. ولهذا وصفت الشبكة بالحق كل الحق بأنها apeiron، لامحدودة ودائرية. وهناك قصيدة لإيبوكوس Ibykos تصف إيروس Erôs وهو يصيد الحيوان، عينه سوداء، ونظرتة مغرورة، يكثر الحيل والإغراءات: وهو صياد بارع أي براعة، فهو يدفع غنيمته مباشرة إلى «شباك» أفروديتي التي «لا مخرج منها» apeirona diktua^(٧٠). ولنستشهد بالصورة التي خص بها هيسودوس المرأة الأولى، پاندورا Pandora، التي ابتدعها دهاء زيوس الميتيسي القوي المكين، يقول إنها «فخ وعربلا مخرج» -dólos aipùs am- échanos^(٧١). لا جدوي من مقاومتها. وأفروديتي Aphrodite توصف بأنها «لا تقاوم» -ámachos^(٧٢)، والغنائم التي وقعت في الشباك توصف بأنها ضربها الذهول -am- échania^(٧٣) وتملكها الدوار illigos^(٧٤) بشراسة تحاكي ما يجري على سكان البحر الذين مسّهم مسّ عابر هين من «سمكة» الرعادة «التي تصعق من تمسه» فخروا صرعى، ومفلوجين، وكانوا كالأسرى المكبلين بالأغلال الثقيل^(٧٥). هذه الشبكة الدائرية هي التي سيأسرون فيها ويقتلون غالب الطرواديين، الرجل الذي استخدمه الليل وسيد الآلهة لرمي الشبكة المحيطة -ste- ganòn diktua^(٧٦) على أسوار المدينة، شبكة الوبال الواسعة التي ألقت بهم، رجالاً وأطفالاً، في قيود العبودية^(٧٧). في الثلاثية المسرحية «أورستيا» Oresteia لإيسخيلوس يضم دهاء كلوتايمنيسترا Klytaimnêstra مختلف تنوعات القيد المضفور. وكلوتايمنيسترا - مثل بينيلوبي التي منت عليها أثينة فجعلتها ماهرة في النسيج وماهرة في تدبير المكيدة - تعرف كيف تدبر الفخ وكيف تنسج الغلالة التي ستستخدمها في صيد الحيوان^(٧٨). هكذا

يتداخل صيد الحيوان، وصيد السمك، والنسيج بعضه في البعض دائماً. وهذه الشبكة تنصبها كلوتايمنيسترا بعناية، بالإغريقية = peristichzei وهذا الفعل هو الفعل التقني الذي يدل على عمل صياد الحيوان الذي ينصب شراكه مستخدماً حراباً يصفها صفوفاً^(٧٩). وعندما وقع أجائمنون في الشبكة، فقد كانت شبكة لصيد السمك^(٨٠). بلا مخرج، فما استطاع «الفرار، وما استطاع تفادي الردى». وهذه الشبكة التي تستخدم لصيد السمك والتي تسمى أمفبليسترون amphiblestron هي نوع من الطرحة الشبكية يمكن أن يستخدمها صياد الحيوان الذي يقف لفريسته بالمرصاد ويرمي الطرحة الشبكية عليها باليد^(٨١). وهي كما نتبين من اسمها تحيط من كل جانب amphibállein أو periibállein^(٨٢). ولكن عندما ذكرت أليكترا وأورستيس Orestês على قبر أبيهما الشبكة المحيطة ápeiron «التي فتكت به»، فقد أسمياها «سلاسل غير ذات برونز» pédai... achálkeutoi^(٨٣)، وكان إيسخيلوس قد وصف الأغلال المعدنية التي صند بها هيفايستوس أعضاء بوميثيوس - على العكس - بأنها «شبكة» محيطة amphiblestra^(٨٤) لأن هذه السلاسل الفولاذية المحيطة kirkoûn التي تحيط بالذراعين والساقين^(٨٥)، والتي كبلت بوميثيوس في قيد دائري بالغ الشدة، لا يقارن به إلا التارتاروس الذي لا يستطيع أحد له اجتيازاً^(٨٦). يضاف إلى ذلك أن الفخ الذي نصبته لأجائمنون زوجته كلوتايمنيسترا Klytaimnêstra يتخذ شكل الغلالة أو القماش الرقيق النسج، هذه الغلالة التي تشبه الغلالة المرسومة على آنية خزفية في متحف بوسطن Boston^(٨٧) تحيط بهازم طروادة «أجائمنون»، المحبوس «في رداء لا مخرج منه» ápeiron húphasma^(٨٨) يسلمه لضربات أيجيستوس Aigisthos «عشيق زوجته الذي سيجهز عليه»، هذا الرداء الذي يستحيل الفرار منه يشبه الرداء المخضب بدم نيسوس Nessos غمامة الموت nephéle، الذي ألبسه هيرقليس «وقضى عليه»، وكانت تلك مكيدة من القنطوريس^(٨٩).

قيد دائري، ودائرة مقيّدة، هكذا تكون شبكة صيد الحيوان أو السمك، وهي ليست هكذا في نسيجها فحسب، في التداخل المحكم، قلّ هذا الإحكام أو كثر، بين عُقْدَها وَغُرْزَها. بل هي كذلك أيضاً في العديد من استخداماتها التقنية. ولقد بينّا من قبل أن صيادي السمك يمسون أنواعاً بعينها من السمك بالإحاطة الدائرية بها، بتطويقها. فما يكادون يحددون رصيفاً حتى يشرعون في رمي شباكهم من بعيد ثم يقتربون في السكون أشد السكون حتى تحيط الدائرة بالسمك kuklósosin. فإذا انقلبت الدائرة على السمك، أعطى الصيادون إشارة الصراخ والطجيج فيندفع السمك هائجاً مجنوناً في الشباك المنصوبة. الإطباق والإحاطة الدائرية

kukloûn, perikukloûn, sugkukloûsthai^(٩٠) مصطلحان تقنيان يدلان على هذا النمط من الصيد الذي تجعل الشبكة من نفسها في أثناء تقدمها قيداً محيطاً ودائرة ليس إلى اجتيازها من سبيل. وهذان المصطلحان يستخدمان في المجال العسكري حيث تستلهم بعض خطط الحرب البحرية مباشرة العمليات التي اخترعها الصيادون. في معركة سالاميس Sa-lamis البحرية <ضد الفرس>^(٩١) ناور الإغريق كما يناور الصيادون عند صيد سمك التونة^(٩٢): فاستدرجوا أسطول الأعداء داخل المضيق، وهناك انحشرت السفن فيه، وأعاق بعضها بعضاً؛ فأحاط بها الإغريق دائرياً، وقفلوا الشبكة، وأصبح الفرس مثل السرب الهائل من سمك التونة عندما يقع في فخاخ المزرابة. مقلت الكلمة الفرنسية: la madrague^(٩٣)، وما أشبهها بالجابية الهائلة التي يخرج منها الصيادون عند ثذ السمك، فينهالون عليه ضرباً بالمطارح^(٩٤). أما في معركة أرتميسيون Artémision <ضد الفرس> فكانت المناورة على عكس هذه. فقد بقي الإغريق ساكنين وأحاط أسطول كسرى بهم من كل جانب، ولكن في اللحظة التي اصطفت فيها السفن الفارسية على هيئة الهلال، كما يقول هيرودوتوس، متأهبة لتقفل الدائرة، اندفع الإغريق إلى الأمام ليعطموها الفخ. كان الإغريق على عكس سمك التونة، الذي أجمع القدامى على أنه بطيء الفكر، عاجز عن اتخاذ قرار جريء^(٩٥)، فقفزوا قفزة واحدة خارج الشبكة، منافسين في ذلك الأسماك التي تحدث عنها أوبيانوس Op-pianos، قائلاً إنها عندما توشك على الوقوع في الفخ، تتخيل ألف حيلة للخروج منه^(٩٦). في المعارك التي تجري في البحر، تتمركز لعبة الدهاء حول شكلين يشلان المناورتين الكلاسيكيتين في هذا النوع من الحرب وهما: periplous و diéklous^(٩٨) حيث يتبادل المكر العمل مع الحركة الدائرية.

في حالة periplous أي الالتفاف يقوم الأسطول وقد اصطف على هيئة خط بالدوران حول العدو مع العمل على تضيق الدائرة؛ ويتحين اللحظة التي يمتلك فيها الاضطراب سفن العدو المتدافعة بعضها ضد البعض الآخر لكي تباغتتها وتهاجمها بشوكة المقدمة. هذه هي مناورة المخطط الحربي الأثيني فورميون Phormion في موقعة باتراي Patrai في أغسطس من عام ٤٢٩ قبل الميلاد^(٩٩). فعندما ظهر الأسطول الأثيني كونت السفن البيلوپونيسية وحداتها على هيئة دائرة كبيرة حتى لا تتعرض للهجوم فرادى. ولكن فورميون تنبأ برد فعل الأعداء؛ ففرض عليهم المكان واللحظة اللذين اختارهما، لأنه كان يعرف أن الريح التي تهب من الخليج في تلك الساعة ستزيد من الاضطراب الذي سيحدثه أسطوله الذي تحرك راسماً دوائر حول السفن البيلوپونيسية «فحصرها في مكان محدود بأن ظل يقاربها ويحاذيها

موحياً بقرب الهجوم المدبر». واستطاع أمير البحر الأثيني بعشرين سفينة مثلثة «ترييرية - tri-êrês لها ثلاثة صفوف من المجدفين» أن ينتصر على سبع وأربعين سفينة فيلوبيونيسية، وإذا كان الأسطول الأثيني الصغير قد انتصر على أسطول يزيد على ضعفه، فلم يكن الفضل في ذلك مجرد مناورة منظمة كمشهد الباليه، يعرفها الغريمان كلاهما على أحسن وجه. وإنما يرجع الفضل في النصر إلى المخطط العسكري ومهارته في التنبؤ بمراحل الإحاطة الدائرية وفي فهم خاطف للمناورة التي ستجعل الدائرة من المحال تجاوزها.

أما الحالة الثانية في الحرب البحرية وهي diékplous فإنها تترك مكاناً كبيراً أيضاً للذكاء المناور. وكلمة diékplous تعني في أساسها الدقيق «وسيلة الخلاص». مثلاً: عندما دفعت العاصفة سفينة الأرجونوتية إلى رمال بحيرة تريتونيس، ظهر الإله تريتون Tritôn على السطح ووعد ياسون - في مقابل الحصول على الكرسي المثلث الأرجل الخاص بعرفاء ديلفوي Delphoi - بأن يريه الممر للخروج من الرمال ويريه الطريق الذي ينبغي عليه ومن معه من الملاحين أن يسلكوه في رحلتهم. فالإله تريتون - مثله مثل آلهة بحريين آخرين - يكشف للملاحين الذين انسدت أمامهم السبل عن «وسيلة الخلاص»، عن الطريق póros أو المخرج diékplous^(١٠٠). ولكن من الناحية التقنية الـ diékplous وسيلة أعمق فكراً. في هذه الحالة ينتشر الأسطول على صف واحد، بحيث تكون مقدمات السفن ناحية العدو، ويكون على كل سفينة مثلثة أن تنزلق من بين سفيتين معاديتين محاولة أن تحطم بعض المجاديف. وعندما تتم السفينة المثلثة اختراق خط العدو، يكون عليها أن تدور حول نفسها نصف دورة وأن تستغل ارتباك العدو فتهاجمه من الجانب أو من الخلف. ولكن هذه النصف دورة المفاجئة، هذا الانقلاب، الذي يؤدي بالعدو حسب الخطة إلى الارتباك، ولكن العقل الذي يفكر على نحو أقل روتينية يمكنه أن يتنبأ به وأن يجد فرصة لإيقاع العدو في الفخ الذي نصبه. هذه هي الخطة التي دبرها بالفعل هيراقليديس Herakleidês المولاسي Mylasa والتي كانت النموذج الذي اتبعه الماساليوتيون ليلحقوا هزيمة نكراء بأسطول قرطاجنه في الحرب البونوية الثانية. كان الماساليوتيون Massaliotes يحذرون القرطاجنيين. «والواقع أن الفينيقيين عندما كانوا يتصدون لسفن مصطفة على خط مواجهة اعتادوا أن يندفعوا بسفنهم نحو العدو اندفاع من يريد ضربه بشوكة المقدمة. ولكنهم لم يكونوا يهاجمون عندئذ، بل كانوا يخترقون خطه، ثم يدورون نصف دورة diekpleúsantes epistréphein، وينقضون على السفن المعادية في اللحظة التي تكون فيها من الخلف، بالقلوب plagiais. ولما كانوا يعرفون من التراث أسرار المعركة التي

جرت في أرتميسيون، وخطط لها هيراقليديس Herakleidês المولاسي، وهو رجل فاق ذكاؤه agchinoia آنذاك ذكاء معاصريه، ولهذا صف الماساليوتيون سفنهم على خط المواجهة الأول، وأمروا بأن يدعوا في الخلف على مسافات محسوبة سفناً احتياطية. فإذا اجتاز القرطاجنيون الخط الأول، كان على السفن الاحتياطية، دون أن تتحرك من موضعها المحدد لها، أن تهاجم السفن المعادية في اللحظة المناسبة eukairos، عندما تسير فيظهر جانبها (١٠١)، كان هذا هو ما فعله هيراقليديس Herakleidês المولاسي.

أما المعركة بين القرطاجنيين والماساليوتيين فقد اختلفت أوضاعها. في الوقت الذي ظن فيه القرطاجنيون أنهم يباغتون الماساليوتيين بانقلاب مفاجئ، وجدوا أنفسهم يقعون في الفخ، ويتعرضون للهجمات التي قرر رجال مارسيليا أن يقوموا بها في تلك اللحظة بالضبط. هكذا انقلب دوران السفن الذي علق عليه القرطاجنيون أملهم في خداع أعدائهم، وأصبح ريباً عليهم هم. لقد أحاطت بهم حلقات «غرز» شبكة دائرية فأصابتهم بالعجز. كان هيراقليديس He-rakleidês المولاسي هو الرجل الذي لجح لأول مرة في الضرب بالشبكة هذه الضربة الجميلة (١٠٢)، وحقق شهرة أي شهرة في كل ربوع كاريا Karia «على ساحل آسيا الصغرى» بفضل الهزيمة المنكرة التي أوقعها في الجيش الفارسي. كان قد علم أن الأعداء يتحركون شرقاً إلى نهب المدينة، فنصب كميناً بالليل على الطريق الذي قرروا أن يسلكوه (١٠٣)؛ وأبى الجيش الفارسي. سواء على الأرض أو في البحر، بالكمين الليلي أو بالمعركة على سطح مياه الفضاء المتحرك. كان هناك ذكاء واحد يعمل عمله، يجمع معاً مرونة القيد وقوة الدائرة، ويضم غدر الأخطبوط إلى دهاء الثعلب.

ولكن إذا كانت الشبكة المتموجة هي أكمل أشكال الدهاء المبتيسي جميعاً، فإن توليفة الدائرة والقيد ترد في طائفة من الحركات والأشياء التقنية التي تعتبر في آن واحد منتجات وأدوات الذكاء الماكر. ينطبق هذا على بعض الفخاخ مثل الشوستراپ chausse-trappe «كما يسمونه بالفرنسية» الذي تقتنص به الوعول. ونسيج هذا الفخ يصنع من البلوط الأخضر المقشور القلفة، وله تيجان مدورة، وله خوابير خشبية وخوابير حديدية على التبادل معشقة في الغطاء المضفور. وهناك من حول التاج جبل مضفور له عقدة منزلقة ربطت فيه كتلة خشبية ثقيلة. كذلك هناك أغصان مبرومة وحلفاء مضفورة تختلط وتتداخل في الفخ المصنوع بدهاء من أجل الإيقاع بالوعول التي تغلبها الغفلة فتضع حافراً في هذه الدائرة المقيّدة (١٠٤). وشغل السلال الذي يضفر السلال هو الشغل الذي يظهر فيه على نحو بالغ الوضوح ابتلاع القيد

والدائرة. وتعود ملاحظة هذا الشغل إلى هيبوقراطيس Hippokratês مؤلف رسالة Du Ré-gime. يتحدث فيها عن السلالين plokeis الذين يقومون في أثناء عملية التصفير بالتقدم في شغل السلة دائرياً kúkloi، وبدلاً من السير في الشغل من البداية إلى النهاية كما هي الحال في الأشغال الأخرى، فعندما ينتهون يرجعون إلى البداية، أي أنهم يسرون من البداية arché إلى البداية arché^(١٠٥). وعلى النحو نفسه في النسيج، في شغل الصوف، نجد خيوط السلسلة عندما يتم غزلها بالمغزل، تنضفر مع السداة لتكوّن النسيج في مجموعه، ولكن شغل النساج يقوم على الذهاب والرجوع، بينما شغل السلال يسير بحسب تخطيط دائري كامل الدائرية يسوق البوص المبروم دون أن يلتقى أبداً أية حدود غير نقطة البداية. وذلك سير نموذجي يذكّر بالشكل الفائق لتلك الحلبي التي لا نهاية لها ولا بداية، وهي أساور وخواتم دائرية كاملة الدائرية لا يقطعها حجر أو فص. ومن أجل صناعة مثل هذه الحلبي أمضى هيفايستوس تسع سنوات في قاع البحار بصحبة ثيتيس Thétis وأورونومي Eurynomé ليصل إلى التمكن من شغل المعادن^(١٠٦). ومن بين روائع daidala دهائه الميتيسي نجد عقوداً hórmoi وأسلاكاً معدنية معدة لكي تلف حلزونياً حول الأذرع والرقبة -gnamptai hé- likes^(١٠٧). وتلك روائع شكلها الدائري أو المنحني يؤكد التشابه مع الفخ الذي صنعه هيفايستوس للإمساك بأفروديتي وأريس؛ فهي كلها منتجات دهاء ميتيسي واحد. وليست قيمة الطلسم التي تضيفها على هذه الخواتم وهذه العقود لألة المعدن وثررة الموتيفات المحفورة إلا شكلاً آخر من القوة السحرية التي تمتلكها شبكة القيود التي لا فكاك منها والتي صنعها هيفايستوس الصانع الديمورجي نفسه. ولأن شبكة هيفايستوس قيد بجيش بقوة الحياة في أشد صورها فهي لا تعرف لها من حد آخر إلا فلك دائرة مقفلة على فريستها. وسواء كان القيد الدائري شبكة أو حلقة فإنه لا يفعل - برفضه لكل حدود تفرض على تحوراته العديدة - أكثر من تصوير سمة جوهريّة من سمات الدهاء الميتيسي. ويقدر ما تكون الغلالة والشبكة المنسوجة بدهاء كلوتايمنيسترا الميتيسي فخاً «لا مخرج منه» على صورة المرأة الماكرة التي يصفها كورس «مسرحة» «أجاممنون» بأنها «حية لها رأسان» «رأس من كل ناحية» - هذه الأمفيسباينا amphisbaina تنتهي ببدايتها^(١٠٨) مثل روائع هيفايستوس التي يبدو أنها تشبه صانعها في هذا الذي بدا لنا أنه يحدد على نحو بالغ التطابق الدهاء الميتيسي للحداد: دائرية المشية والاتجاه المزدوج الذي تتجهه أطرافه المعوجة والمنحنية^(١٠٩)، وهو ما يسجل على أرض الواقع تخطيطاً موسوماً يبدو مثل الأساور والخواتم «اللامحدودة» بلا نهاية وبلا بداية.

ولكن هيفايستوس ليس الإله الوحيد المقيّد الذي ترسم لنا آثاره صورة اللامخرج -apei-ron. وإذا كان هيرميس قد وقف في الصف الأول من المتفرجين الذين دعاهم الزوج المهان <هيفايستوس ليشهدوا زوجته الآثمة وعشيقتها في الفراش> فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أنه عليم بالأعمال الملتوية والمعوجة وأن دهاء المييسي - مثل هيفايستوس - يخلف وراءه آثاراً لا ينجح واحد من ملاحقيه لا في حل شفرتها ولا في تجاوزها، بل هي تفرقهم في الدهول وتتركهم حيارى. وسرقة بقر أبوللون تكشف التوافق العميق بين ذكاء هيرميس والسلاسل «اللامحدودة» التي تمنى كل التمني أن يقع أسيراً لها. واستخدم هيرميس كل ما أوتي من مواهب الدهاء dolié téchné لكي يحو آثار حوافر البقر ويقلب أرض المدق^(١١٠). فما كاد يفصل عن بقية القطيع الحيوانات التي اختارها حتى عمل على قلب الأثار، وهي عملية يصفها "النشيد الهوميروسي" على مدى بضعة أبيات وصفين بينهما اختلاف خفيف. في الوصف الأول نجد هيرميس يدفع أمامه البقرات، ويغير الأثار ichné apostrépsas، قالباً علامات الحوافر antia poiésas hoplás، راداً تلك التي في الأمام إلى الخلف، وتلك التي في الخلف إلى الأمام tàs prótas ópisthe, tàs d'ópithen prótas. وبينما كان يدفع الحيوانات أمامه، ويقلب بالسحر آثار حوافرها كان هو نفسه يمشي «في الاتجاه العكسي» émpalin^(١١١) - أما في الوصف الثاني فنجد البقر هو الذي يمشي في الاتجاه العكسي، ويلف رأسه ناحية الراعي الذي يقودها مصطنعاً مشية «مقلوبة» epistropháden^(١١٢). ويبدو أن المقصود أن هيرميس كان يسير وقد لف رأسه ناحية حيواناته، ولف قدميه إلى الاتجاه العكسي، على النحو الذي اتخذته آثار الحيوانات بالسحر في الوصف الأول. الفرق الوحيد بين الوصفين هو الاتجاه الفعلي للبقر فهو يسير في أحده مطمئناً في الاتجاه الذي اختاره هيرميس وقد أناط بالسحر إنجاز الباقي، وفي الآخر يستسلم البقر لتجربة غير مألوفة فيسير القهقري ويوفر على راعيه «المشية المقلوبة». أياً كان الأمر فقد كَوّن هيرميس وأبقاره ركباً ذا اتجاه مزدوج متفارق تتركز غرابته كلها في صورة ظلية محيرة لشخص يتجاذبه العلو والهبوط في اتجاهين متضادين، بالضبط مثل هيفايستوس ذي الاتجاهين المسمى amphiguéis.

هذه الآثار المزدوجة هي الفخ الذي دبره هيرميس. لقد أصبح الطريق الترابي بالنسبة إلى ضحاياه مضطرباً كل الاضطراب: فأثار الحوافر والأقدام مقلوبة في الاتجاه العكسي، تقود من يقصها إلى الناحية المضادة لتلك التي سلكها القطيع المسروق، وهي ترسم مساراً لا يؤدي من بداية إلى نهاية، بل لا يعرف له من حد إلا نقطة الانطلاق. وتشتد حدة الغموض المزدوج الذي يحيط بهذه العلامات نتيجة لتشديد القصة على إظهار اجتماع المتضادات في آثار الحيوانات

وفي آثار هيرميس سواءً بسواء. هذا القلب المزدوج يشير ذهول ورعب قصاصي الأثر الذين دفع بهم أبوللون في أثر سارق البقر عندما يكتشفون فجأة «أن الذهاب إلى أمام يذهب إلى الخلف» وأن «المتضادات تتداخل بعضها في البعض الآخر» *tà d'aû enanti'alléloisi sump* [eplegména] (١١٣). ولا تقف هذه الآثار المزدوجة والفظيعة التي اخترعها دهاء هيرميس الميتيسي عند حد تقليد دهاء الأرنب البري الذي يسمي الصيادون فعلته الماكرة «تبطين الطريق» ويقصدون بذلك أنه يعود فيطأ آثاره رجوعاً حتى يضل الكلاب التي تقتفي الأثر (١١٤). فإحداث التداخل بين الأمام والخلف يستخدم فيما يستخدم الذكاء التقني للسُّلال ومهارة صياد الحيوان فمن أجل تسبير الحيوانات المسروقة، صنع هيرميس لنفسه *diaplékein* نعلين عجيبين، خارقين للمألوف *thaumatà érga*، بأن ضفر *summisgon* أغصان الطرفاء «اسم الشجرة بالفرنسية *tamaris*» وأفنان نوع من الريحان «بالفرنسية *myrte*» (١١٥). في هذا المجال الذي يتخذ فيه الصيد أو السرقة شكل مباراة نجح الدهاء الميتيسي عند هيرميس لا يفرق في أية لحظة الخطط البالغة الذكاء عن القدرة على إبرام الألياف النباتية وتضفير الفخاخ التي تريد نصبها (١١٦). وهيرميس عندما يحدث التداخل بين الأمام والخلف، ويضفر الاتجاهين المتضادين أحدهما في الآخر، يسجل على التراب وعلى الرمل الشكل الموصد لهذه الآثار التي لا يمكن أن يتتبعها أحد، والتي تجعل من المحال الإمساك به، في نفس الوقت الذي تلقي فيه بمن يحاول فك الشفرة إلى الحيرة والعجز. وأبوللون يقر بذلك أمام الآلهة فيقول إن هيرميس لا يمكن الإمساك به *améchanos*، ولا يمكن ترويضه؛ وإن كل الحيل التي تستخدم ضده مصيرها الفشل لا محالة (١١٧). هذا الإله الذي لا تستطيع أية سلسلة أن تقيده والذي سعت أمه وأبوه إلى تخويفه، فهددته أمه بقيود موصدة لا تنحل *améchana* (١١٨)، وهدده أبوه بظلمات في التارتاروس لا مخرج منها *améchanos* (١١٩). وأبوللون لا قدرة له على تنفيذ تهديده. فعندما اغتاظ للإطاحة باثنين من حيواناته، وشرع في تكبيل أخيه هيرميس وتطويقه *peristréphein* بقيود شديدة *karterà desmá*، وجد نفسه أمام منظر تركه مشدوهاً مرة أخرى. فأفنان الأرث «اسم الشجرة بالفرنسية *gattilier*» التي كان المفروض «أن تصبح قيداً شديداً مضفورا» أن تغل المذنب تغلغلت داخل الأرض، وكونت جذوراً، وتكاثفت *es-tramménai* بعضها في البعض الآخر، ووصلت دون ما جهد إلى قطع أبوللون وأبقار (١٢٠). هنا يقدم هيرميس المشهد النادر للدهاء الميتيسي الذي يضفر قيوده من أجل متعة الإبهار. وبينما تنسج أفنان الأرث شبكة حية «من النبات الحي» تحت بصر أبوللون المتصلب، كانت عين هيرميس الخبيث تتأجج بنار الدهاء الميتيسي. والقيود التي تنحل من تلقاء ذاتها، مثلها مثل

الأثار المزدوجة المتداخلة، تشكل عملية دهاء سحري تضاف إلى المغامرات الأخرى لدهاء هيرميس الميتيسي. هذا المشهد المدهش يثير لدى المشاهد شعوراً بالانشداد، نوعاً من الانبهار والدوار، مثل الذي كانت تشيرهُ الأسئلة ذات الألغاز التي كان سقراط يوجهها إلى محدثيه فيظنون في حيرة لا يعرفون ماذا يقولون وقد تردوا إلى موقف لا مخرج منه ووقعوا في حالة نفسية «تنجم عن تساوي استدلالين متضادين» (١٢١). كل هذا يدخل في عداد تشابك الاتجاهات المتضادة، التي رسمها دهاء هيرميس الميتيسي على أرض الواقع، فهي بالمعنى الخاص لغز يسميه الإغريق تارة ainigma أبنيجما وتارة جريفوس griphos (١٢٢) وهي نفس الكلمة التي تطلق على شبكة صيد سمك من نوع معين (١٢٣). لأن اللغز يتم ضفره مثل السلة أو الجابية. ويتحدث پلوتارخوس في حوار من حواراته عن الإسفنكس Sphinx الذي يضفر الألغاز ainigmata kai griphous plékousan (١٢٤) ويدبج الأسئلة التي وصفها سوفوكليس بكلمة poikila (١٢٥) أي مختلطة، مبرقشة، متلونة، متموجة. وبين نسيج بعض الألغاز، من بين أكثرها شهرة، تشابك الأشكال وبرقشة الألوان التي تضيفي على هذه الأسئلة الانتفاض المقلق الكامن في عبارة كأنها تجيش برعدة دائمة ولا تبقى أبداً على حال. فعندما يجد الكاهن پولويدوس Polyeidos نفسه يواجه اللغز الذي طرحته الكوريتيس Kourétes، وهو: «ما هي البقرة الثلاثية الألوان التي تنتمي إلى قطيع الملك؟ وماذا تشبه؟» يتبين أنه يواجه عبارة لا يمكن إدراكها فهي تتخذ كل الأشكال دون أن تظل أسيرة أي شكل منها أبداً. ويضع الكاهن نهاية لومضات المعاني الممكنة عندما يجيب: «هي توتة <ثمرت توت mûre>، تارة بيضاء، وتارة حمراء وتارة سوداء» (١٢٦). هذه الإجابة التي تخرجه من اللامخرج منه هي القبضة الأكيدة التي سلسل بها عبارة اللغز المتموجة المنتفضة.

وتشابك الحدود المتضادة يعطي انتفاضة اللغز أقصى شدته: «رجل لم يكن رجلاً، رأى ولم ير طائراً لم يكن طائراً، حط على خشب لم يكن خشباً، رمى ولم يرم، حجراً، لم يكن حجراً» (١٢٧) هذا هو اللغز الأطفالي عن الخصي الذي صوب حجراً خفافاً على خفاش حط على قشة لم يكن يراها جيداً. وهو مثل على الكلمات المزدوجة المعنى التي تتيح لأفلاطون تحديد حقل الرأي، الدوكسا dóxa، هذا العالم الوسيط الذي يشترك في آن واحد في الوجود واللاوجود، حيث يتداخل ويختلط المظلم والمنير، ويتشابك الحق والباطل تشابكاً وثيقاً. (١٢٨) هذه العبارات «التي ليس لها رأس وذيل، بل لها رأسان»، العبارات ذات الرأسين التي تُجاذب في الاتجاهين المتضادين epamphoterizein (١٢٩) والتي يسميها آخرون «عبارات الكابوريا» (١٣٠) لأنها معوجة لا تسير أبداً مستقيمة إلى الهدف، هي فخاخ وعتها ودبرتها

كائنات ذوات دهاء وذكاء، مثل اسفنكس ثيبة، في العالم الميثي، ومثل كليوبولينى، ابنة حكيم من الحكماء السبعة، هو كليوبولوس Kleoboulos، في عالم أقل إحداثاً للحيرة^(١٣١). فبينما كانت السائلة التي طرحت الأسئلة على أوديپوس وحشاً ثلاثي الهيئة تطابق معرفته المتشعبة هيئته الثلاثية التي تجمع بين المرأة والأسد والطائر، كانت كليوبولينى Kleobuline ابنة الحكيم كليوبولوس Kleoboulos التي صورها پلوتارخوس في «وليمة الحكماء السبعة»، بنتاً صغيرة فاتنة تجرى إلى ثاليس Thalês لتعانقه، وتتسم بذكاء لامع حتى إن أباه، كما يشرح ثاليس، أسماها أوميتيس Eumètis - أي ميتيس الطيبة - نظراً لمهارتها في حل وطرح الألغاز، وهي مهارة لا يفصلها ثاليس عن الذكاء الذي أثبتته كليوبولينى نفسها في مجال السياسة^(١٣٢). ومعرفة أوميتيس مزدوجة: فهي تعرف كيف تضفر الكلمات الغامضة التي تحمل معنيين، وتعرف كيف تجمع الضدين وكيف تشابك المعنيين، ولكن دهاها الميتيسي في المقابل يتيح لها أن تجد الكلمة أو الإجابة التي تفرض صوتاً واحداً على الخطاب المتعدد الأصوات والأشكال، وأن تعمل عمل القيد السحري فتفرض الصوت الواحد على ما تضمه العبارة المتنوعة على الفهم من أوجه محيرة أشد الحيرة. وابنة كليوبولوس Kleoboulos مثل إلهات البحر التي تحمل أسماء ثيتيس ونيريس وميتيس وتشارك في معرفة عرافية وموهبة التحور. ولكن القوة الإلهية لديهن كثيراً ما تفشل عندما يتصدى لهن بحركة سحرية كائن أكثر دهاءً عرف كيف يتحين فرصة مباغتتها، أما أوميتيس التي تعرف كيف تحل الكلمات الغامضة المزدوجة المعاني كما تعرف كيف تضفرها، فإنها تمتلك - مثل هيفايستوس وهيرميس - الامتياز المزدوج المتمثل في أنها في آن واحد قيد ودائرة: فهي من خلال الألغاز تمد الدائرة اللانهائية لأشكالها المتغيرة، وهي من خلال إجاباتها النبيلة ترسم من حول السائل الدائرة الموصدة التي لا سبيل إلى اجتيازها نفس الدائرة التي يعقدها حول الآلهة الهاربة ذراعاً الإله المنتصر على اللغز المنضمين كالمنجلة.

* * *

بدون التواطؤ الأساسي بين القيد والدائرة لا يستطيع الدهاء الميتيسي أن يمارس ذاته كامل الممارسة. فالذكاء الماكر لكي ينشر كل مقوماته يحتاج إلى التبادل الدائري بين المقيّد والمقيّد. ولكن هناك مفارقة في الكشف عن ديناميكية الدهاء الميتيسي في مقابل يدبرها إوليمبي مخدوع لكي ينتقم لنفسه. فمنذ اليوم الذي استقرت فيه سيادة زيوس نهائياً تعدلت لعبة الدهاء الميتيسي على نحو جذري، حيث ابتلع زيوس زوجته الأولى الإلهة ميتيس، وبهذا

محا زيوس بضربة واحدة لصالح لنظام ثابت مستقر هذا الجزء الذي لم يكن من الممكن التنبؤ به من الاضطراب الذي كان يشير الثورات والصراعات بين آلهة زمان مضى. منذ فعل زيوس ذلك لم تعد هناك مغامرات، ولا مفاجئات؛ لم تعد هناك انقلابات يجد سيد القيود نفسه بعدها نفسه مقيداً. وإذا أُلح الآلهة الآخرون على زيوس أن يوزع بينهم التشريفات والامتيازات، وزع المعارف مُعرّفة في حرص والسلطات محددة بعناية. هكذا نجد الاضطرابات التي كانت ميتيس تولدها عندما كانت منضوية لنفسها تُنحى عن عالم آلهة الأوليمپوس الذي شمله النظام. ويرجع الفضل إلى حرص زيوس في أن زوجته الأولى لم تعد تستطيع أن تهدد النظام الذي أقامه وبخاصة لأنها كانت مضطرة إلى ضمان استقراره واستمراره. فزيوس، سيد العالم الجديد، لم يرتكب خطأ نبذ ميتيس إلى هذه الناحية أو تلك قبل أو بعد حدود مملكته، بل ابتلعها فدمجها بهذا الابتلاع في سيادته هو. واحتفاظ زيوس بميتيس في داخله يسمح له بأن يتدبر مسبقاً كل صنوف الدهاء التي يمكن أن يكرها في الأزمان القادمة بشر أو آلهة أو وحوش مجهولة. إن زيوس، قاهر كرونوس، إذ افتتح عالماً يتمتع فيه كل واحد بامتيازاته دون خوف من أن يتجرد منها أبداً، أسس في الوقت نفسه القانون الذي يبرر الممارسة الدائمة الثابتة لسيادته؛ لقد صادر لصالحه القوة الوحيدة التي كان يمكن أن تشكك في تقسيم السلطة، وأناط بها مهمة الحفاظ على منظومة الانحرافات الخلاقية التي تمثل على نحو ما مجمع الآلهة - الپانشيون - خاضعاً لسلطانه. منذ ذلك الحين لم يعد الدهاء الميتيسي إلا مكوناً في بعض المعارف أو في بعض السلطات التي تتولاها مجموعة صغيرة من الآلهة تتجه أنشطتهم وظيفياً نحو المجالات التي يعلو فيها قدر هذا اللون من الذكاء. في هذه اللعبة الجديدة للميتيس يكسب الأوليمپيون في كل الحالات بالضرورة. وهذا هو أوليسيس يسمع هذا المعنى تذكره به أثينة عندما ابتسمت لرؤيته يدبج أكاذيبه موجهة إلى أول قادم دون أن يشك في أن أثينة - ابنة ميتيس - نصبت له لتوها فخاً إذا اتخذت قناع شخص (١٣٣). والمعركة بين إله وبشر غير متكافئة بالضرورة، حتى إذا كان هذا البشر واحد من أهل الأرض «يساوي دهاؤه الميتيسي زيوس» (١٣٤).

أياً كان الأمر فعالم البشر الجياش بالأمور البشرية هو العالم الذي ينعم فيه الذكاء الماكر بكل امتيازاته. هذا الذكاء الماكر المشغول بالضرورة يجد نفسه بلا انقطاع يواجه أحداثاً جديدة، ومواقف غامضة تحتمل معنيين؛ وهي إذ يترص بها ما لا يمكن التنبؤ به ينبغي عليها أن تكون من اليقظة والمهارة في التحور المتعدد بحيث تحول لصالحها القوى الماكرة التي تدبر لتقلب عليها فخاها وشباكها. لا مكان هنا أبداً للعبة الدائرية بين المقيّد والمقيّد. بين المقيّد

والمقيّد ونوع الرجال ذوي الدهاء لم يكف عن الزيادة منذ القائمة التي وضعت بسرعة في الإلياذة ليهتدي بها أنطيلوخوس^(١٣٥). فإذا كان الدهاء الميتيسي لقاطع الشجر، قد لحق به منذ وقت مبكر دهاء النجار، ثم دهاء الملاح، فإن مهارة قائد العربة ليست إلا شكلاً خاصاً من الذكاء يتطلبه كل موقف مباراة من أي بطل، وحرص الشيخ نيسطور الذي يعطي الجماعة أفضل الآراء يستبق مباشرة مهارة السياسي وهو الرجل الذي يعرف كيف يكون في أقصر وقت أصح رأي عن عن أوسع احتمالات المستقبل. ودون أن نتكلم عن صياد الحيوان وصياد السمك، لم يعد ينقصنا لإكمال القائمة إلا الطبيب والمخطط الحربي والسفسطائي - وهم الأنماط الثلاثة من الرجال ذوي الدهاء الميتيسي الذين يقارنون في أغلب الأحيان في الفكر الإغريقي بالريان الذي يقود السفينة القيادة المستقيمة في البحر على الرغم من العواصف. من النجار إلى الجنرال، من السياسي إلى الطبيب، من الحداد إلى السفسطائي نجد السمات الجوهرية للدهاء الميتيسي هي هي حتى نهاية الثقافة الأتيكية. إنها هي التي سمح لنا الفصل الخاص بأنطيلوخوس باستخلاصها في الملحة الهوميروسية. أما بالنسبة إلى السفسطائي والطبيب والسياسي فليس لهم من مجال عمل إلا الصيرورة، إلا التحول وإلا ما لا يبقى أبداً شبيهاً بذاته؛ وليس المرض والخطاب قوتين أقل عدوانية وإقلاقاً من البحر والنار أو المعدن المنصهر؛ ومواجهتهما تتطلب دائماً التنبؤ بالفرصة الخاطفة الهاربة التي تتيح خداع القوى المتعددة التحور. والانتصار الوقح الذي حققه أنطيلوخوس عندما تقدم على جوادي مينيلوس الأكثر سرعة، لا يفترق عن «القوة الرائعة» للسفسطائي^(١٣٦) الذي يلقي خطابين متضادين عن كل مسألة وينجح في جعل الخطاب الأضعف هو الخطاب الأقوى، الخطاب الذي يتمكن على عكس المتوقع من الغلبة بقبضة لا سبيل إلى مقاومتها.

على مدى ما يزيد على عشرة قرون نجد نموذجاً واحداً، بسيطاً إلى أبعد حدود البساطة، يشهد على مهارات، وتصرفات، ومهارات متنوعة تنوع النسيج والملاحة والطب. وهكذا ظل الذكاء العملي الماكر منذ هوميروس إلى أوبيانوس تحت كل أشكاله يمثل معطى دائماً مستمراً من معطيات العالم الإغريقي. ومجاله إمبراطورية، والإنسان الحريص، الرجل ذو الدهاء الميتيسي، سيتخذ في وقت واحد عشرة أوجه مختلفة، متجسماً في الأنماط الرئيسية للمجتمع الإغريقي، من قائد العربة إلى السياسي، مروراً بصياد السمك، والحداد، والخطيب، والنساج، والريان، وصياد الحيوان، والسفسطائي، والنجار، والمخطط الحربي؛ حاضراً دائماً في كل مكان، ولكنه مع ذلك غائب غياباً عجيماً، على الأقل في التاريخ المألوف لدينا. وليس من شك في أنه قد يبدو من قبيل المفارقة أن شكلاً من الذكاء - رأينا كم هو أساسي، وكم هو

واسع التمثيل في مجتمع كالمجتمع الإغريق القديم - ظل على نحوٍ ما غير معترف به. وتزيد دهشتنا عندما نذكر أن فيلسوفَي القرن الرابع - أفلاطون وأرسطوطاليس - لم يتقاعسا عن التنويه به، وتفصيل سماته وتحديد صفاته. وإذا استطاع مستطيع أن يحمل شهادة زيوس إصر السكون الذي خيم على الآلهة ذوي الدهاء الميتيسي، فبالى من تتجه شكوكنا في بحثنا عن التهم النظير البشري، الإنسان الحريص، الإنسان ذا الألف شكل؟

وليس البحث في هذا الموضوع بحثاً تافهاً كما قد يبدو، لأنه يقود، أولاً على خط مستقيم إلى الفلاسفة الذين يهتمون اهتماماً شديداً ومبرراً بأوجه المعرفة المختلفة. ففي تحليلهما لما أسميناه حتى الآن الذكاء العملي ميّز أفلاطون وأرسطوطاليس صفتين رئيسيتين ليستا جديدتين كل الجدة تنضمان معاً لترسماً أنسب نموذج مفهومي لإثبات أن الدهاء الميتيسي يخطو خطيئاً ملتوية، وأنه ينطلق مباشرة إلى الهدف سالكاً أقصر الطرق، أي طريق اللف والدوران^(١٣٧). أول صفة من هاتين الصفتين العقليتين تبين العلاقة الضرورية بين حركة الذكاء وبين سرعة عمله، هذه الصفة هي الأجخينويا agchinoia «الألمعية» التي يشدد فيها على اللمعة والحدة. وأفلاطون يشرح في «خارميديس» Kharmides^(١٣٨) أن صاحب الألمعية هو الذي يتصرف على نحو بالغ الحفة وبالغ السرعة لاستخلاص قراراته أو آرائه، سواء كان الأمر أمر تفكير أو أمر بحث عقلي. وأرسطوطاليس من ناحيته يشدد على أن هذا الشكل من الذكاء يمارسه صاحبه في وقت «أقصر من أن يُلاحظ» áskeptos^(١٣٩): لحظة خاطفة هاربة إلى درجة أنها تفلت من انتباه المترصد skopós حتى لو كان أشد الناس يقظة؛ وقتٍ مفرط القصر يشبه الشعرة التي بلغت من القصر حداً يستحيل معه قصها akarés^(١٤٠). خص أفلاطون هذا الذكاء الذي يمتاز بالحنفة كل الحفة والمرونة كل المرونة بمجال هو التفكير والبحث العقلي. أما أرسطوطاليس - فدون أن يناقض أفلاطون - فقد خص الأجخينويا agchinoia «الألمعية» بمجال تطبيق أوسع بكثير، حيث يتحدث عن «المعية» القابلة إذ تقطع الحبل السري: «قطع الحبل السري يتطلب من القابلة لونا من التفكير لا يخطئ الهدف المطلوب بلوغه ouk astóchou dianoiás. فلا يكفي أن تكون قادرة في الولادات العسيرة على أن تسعف المريضة الإسعاف الصحيح euchéreia، ولكن ينبغي أيضاً أن تكون ألمعية حتى تتقي ما قد يطرأ من أحداث pròs tà sumbainonta agchinoun وحتى تربط الحبل السري للطفل^(١٤١)» «معرفة» حركات اليد لا تكفي، بل تحتاج القابلة إلى خبرة^(١٤٢)، فبحسب ما إذا كان خلاص الجنين خرج في نفس الوقت معه، أو بقي في الداخل، وبحسب الوضع الذي يتخذه الطفل، تختلف حركات يد القابلة: ففي إحدى الحالات ينبغي أن يتم القطع في الداخل

بعد ربط الحبل السري؛ وفي حالة أخرى ينبغي فصل الحبل عن الخلاص بالاستعانة بخيط من الصوف والقطع من تحت الرباط. وعبارة أرسطوطاليس عن ذكاء متجه كله نحو حركة الأشياء والأعمال الجارية تجعلنا نظن أن مهارة القابلة لا تختلف عن ألمعية السياسي وأن نفس الذكاء الحاد المتوقع يمكن أن يكون مطلوباً على السواء في محارب ماهر في الخطط الحربية وفي قوة إلهية بحرية نسلها تناط به الأنشطة التعدينية. والواقع أننا نجد في تراث ليمنوس الميثي أن الكابيري - الآلهة الحدادين المولودين عن اتحاد هيفايستوس وكاييرو - من ناحية الأم أحفاد پروتيوس وربة اسمها أنخينويه Anchinoé^(١٤٣) : القوى الإلهية الصاعدة بالتعدين التي يربطها أهل ليمنوس بالكابوريا تنحدر من ناحية الأم من ربة تناظر ميتيس ولكنها ربة اتخذت قدرتها على التحور شكل ذكاء مرن مرونة رهيبة.

أن تكون بالمرصاد لكل ما يمكن أن يطرأ، هو أن تتزود بكل وسائل التنبؤ بحيل العدو، وأن تتخيل مسبقاً طرق الإمساك بها في شبكتك، كما فعل «القائد العسكري» هيراقليدس المولاسي في «معركة» أرتميسيون، ذلك الرجل الذي فاق كل معاصريه بألمعيته، عندما نجح في أن يحبس في دائرة محكمة سفن الأعداء في اللحظة التي كانوا فيها يظنون أنهم يفيدون من المفاجأة بإحداث العكس المقرر في المناورة من نوع اختراق خط العدو diékplous^(١٤٤).

في حديث الفيلسوفين «أفلاطون وأرسطوطاليس» الذي يدور حول حدة العقل، نجد الألمعية agchinoia على نحو ما لا تنفصل عن صفة أخرى للذكاء يأتمن عليها أرسطوطاليس القابلة التي يقول عنها «إنها لا تخطئ قط الهدف المطلوب بلوغه». هذه الصفة في شكلها الإيجابي هي الإصابة، هي صواب الرؤية eustochia. فالذكاء الحاد لا يقوم بدون هدف يُستهدف، إنه يتضمن استعداداً لبلوغ الهدف المستهدف^(١٤٥). وعبارة يتخذ هدفاً هي بالإغريقية stocházesthai^(١٤٦) وهو فعل ينتمي إلى مفردات القواس وصياد الحيوان. وأفلاطون عندما يتحدث عن الإصابة eustochia يشير عدة مرات إلى مهارة القواس الذي يوجه قوسه نحو الهدف^(١٤٧)؛ وعندما يدور الحديث عن مواجهة الخنزير البري، لا يتقاعس الفقيه المعجمي پولوكس، «يوليوس پولودويكيس Joulis Poludeukês» عن التشديد على فائدة النظرة الصائبة بالنسبة إلى صياد الحيوان الذي لا يمكن أن يأمل في إخراج الوحش مغلوباً من المعركة إلا بإصابته إما على مستوى عظم الكتف أو بدقة بين العينين^(١٤٨). في المجالات المختلفة التي يتدخل فيها الدهاء الميتيسي نجد النظرة الصائبة تكتسب من الأهمية قدر ما يكتسب تَوَثُّبُ الفكر. والصانع الفني الذي يبدع مصباحاً لا بد أن تكون له

نظرة صائبة (١٤٩) ولا بد للربان أن يكون قادراً على «التصويب الصحيح» (١٥٠) لكي يقود السفينة مباشرة إلى الميناء. وسواء كان الأمر أمر بممارسة طبية، أو مناورات عسكرية، فإن عمل القائد أو الطبيب يحدده دائماً الهدف المستهدف (١٥١)؛ هذا الهدف الذي ينبغي على الرجل السياسي هو أيضاً، إذا أراد أن يسوس المدينة، أن يستهدفه، دون أن يدع نظراته تعوم بأن يصوب في اتجاهات متعددة في آن واحد، بل يتبع طريقة اللجنة المركزية «للمدينة الأفلاطونية» «فلا يستهدف إلا هدفاً واحداً، على نحو يمكنه من تركيز كل مقوماته عليه إن صح التعبير (١٥٢)».

سرعة اللمحة وإصابتها: عندما أمسك أرسطوطاليس وأفلاطون بهذين المفهومين لتحديد السمة النوعية للدهاء المبتيسي فقد اختارا أن يشددا على طبيعة «الإصابة» للذكاء العملي وقاما على هذا النحو ببيان الوجه التنبؤي لنوع من المعرفة ارتسم مساره من قبل بكوسموجونية ألقمان مع تصوير ثيتيس، وهي قوة الفضاء البحري ومعها مساعداتها تيكمور Tékmor وهوروس Póros أي العلامة والطريق. والحق أن التنبؤ tekmairesthai هو - على طريقة الملاحين الذين يشقون في إشارات العرافين والعلامات المضيفة في السماء - فتح طريق بالاستعانة بنقاط اهتمام وتثبيت العينين على الهدف التي تقصد الرحلة الملاحية إلى بلوغه (١٥٣). والمعادل الذي يقيمه علماء المعاجم بين «يستهدف stocházesthai» و«يتنبأ tekmairesthai» (١٥٤) يبرره العرض الصريح لمعرفة تقريبية على هيئة رحلة طويلة عبر الصحراء éremos حيث الطرق لم تعد مرسومة، أو حيث ينبغي على الإنسان أن يخمن طريقه وأن يستهدف نقطة على الأفق البعيد. هذه المعرفة الملتوية والعرجاء هي تلك التي جعلها «كتاب عن الطبيعة» (عنوانه بالفرنسية Traité sur la Nature) الذي ألفه الكيميون الكروتوني Alcmeón de Croton في نهاية القرن السادس) قِسْمَةً بين البشر جميعاً، على خلاف اليقين الذي لا ينعم به سوى الآلهة سواء بالنسبة إلى الأشياء الغيبية أو بالنسبة إلى أمور البشر (١٥٥).

نأخذ من هذه المعرفة التنبؤية التخمينية التي تشارك بوجودها في مجموعة الأنشطة التي يسودها الدهاء المبتيسي مثلين سيسمحان لنا بأن نحدد بناء عليهما أوجه هذا اللون من المعرفة، وهما: الطب والسياسة. هذان مجالان يرتبطان بالنسبة إلى الفكر الإغريقي برباط التضامن الوثيق ومثلان، كلاهما، موضوع تفكير استمر على مدى الزمن وتناولهما التشكيل القائم على مفاهيم عقلية منذ مطلع القرن الخامس. في ذلك العصر لم يكن هناك معرفة بدا

عليها أنها بينت من التوافقات مع فن الملاحظة أكثر مما فعل الطب، وكان من الأمور العادية أن يقارن الريان القابض على دفة السفينة بالطبيب الذي يسعى إلى إنقاذ المريض من خطر المرض^(١٥٦). والواقع أن المرض كان في تصور الإغريق من قبيل *poikilon* الشيء المختل المتلون المبرقش^(١٥٧)؛ بمعنى أن القوى التي كان على فن الطب التصدي لها متعددة ومائجة^(١٥٨). و«كتاب الأوبئة» (عنوانه بالفرنسية *Traité des Épidémies*) يعرض قائمة حافلة بالمعطيات التي ينبغي على الطبيب أن يضعها في حسابه عندما يفحص مريضاً: «الطبيعة الإنسانية العامة، والطبيعة الخاصة بكل إنسان؛ المرض، المريض، العقاقير الموصوفة، الشخص الذي وصفها، وما يمكن أن يستنتج من الإنسان منها خيراً أو شراً؛ الحالة العامة للجو، والحالات الخاصة للجو، بحسب تنوع السماء والمكان؛ العادات وأساليب الحياة، أنواع الشغل، عمر كل فرد، العبارات، السلوك، صنوف الصمت، ضروب الفكر، أنواع النوم، أنواع الأرق، الصفات، لحظات الأحلام؛ حركات اليدين المضطربة، أحاسيس الأكلان، الدموع؛ نوبات التوتر، أنواع البراز، أنواع البول، أنواع البصاق، أنواع القيء؛ طبيعة الأمراض التي يتبع بعضها بعضاً؛ الرواسب الدالة على التدهور والأزمة؛ العرق والبرودة والرعدة والسعال والعطس والزغطة، الجشاء والتكريع، الغازات الساكنة «الفساء» والصاخبة «الضراط»، حالات النزيف والبواسير^(١٥٩)» وينبغي على الطبيب لكي يعرف اتجاهه في هذا العالم من الأعراض المتحركة أن يكون مالكا لكل مقومات ذكاء متعدد الأشكال يقابل عدوه الذي يمكنه أن يتخذ أشكالاً عديدة: ينبغي أن يظهر من القدرة على التوصل بالوسائل العديدة^(١٦٠) مثل بطل هوميروس الذي يلعب ألف لعبة. ويتوازي مع ذلك وجه جوهري من أوجه الممارسة الطبية هو التصرف بسرعة واطمئنان؛ وهناك عبارة محكمة تقول إن الطب هو فن تقدير سريع خاطف أوليجوكايروس *oligókairos*^(١٦١) وفرص التدخل فيه دائماً لحظية *oxús*. فلا يصح أن يُعالج ظهراً ما ينبغي أن يعالج صباحاً^(١٦٢). والطبيب كصياد الحيوان المترص عليه أن يتحين اللحظة الدقيقة التي يكون فيها تدخله حاسماً. ولكنه لا يستطيع أن يدرك فرصة انتهاء اللحظة المناسبة (الكايروس *Kairos*) والقبض عليها، والأخذ بناصيتها إلا إذا كان مزوداً على نحو كاف بكل المعرفة التي اكتسبت بالخبرة لكي يتنبأ ويستشعر الوقت الذي ستبزغ فيه اللحظة المواتية. فالمرض إذا كان قوة مزودة بالتحور، فإنه كذلك يخترقه إيقاع خاص به^(١٦٣) وتأتي في أثناء تطوره لحظة يحدث فيها تحول حاسم فيدور مسار الأشياء فجأة وينقلب: تلك هي الأزمة، وتلك هي الأيام التي توصف بأنها حساسة، وهذه هي النقطة الخاطفة التي يستطيع فيها احتيال الطبيب، هذا الكائن الضعيف، أن ينتصر على قوى المرض العدائية^(١٦٤).

والعلم الطبي يحتكم، لكي يوجه عمله، على أسلوب معرفي خصيص ، هو التشخيص، يضم ثلاث عمليات عقلية معاً:

- التفكير في الحالات الحاضرة

- مقارنتها بالحالات الماضية التي تقدم ظروفاً مشابهة

- استخلاص النتائج التي تسمح بالتنبؤ بكيفية تطور المرض (١٦٥).

ولكن الطبيب لا يتسم بسمة تنبؤية بناءً على قدرته على التأثير على الزمن فقط، فيكون كما يقول بينداروس *épiakairótatos* (١٦٦) على طريقة الريان الذي يمسك الدفة في بحر هائج مائج؛ إنه لا يبلغ هدفه المقصود إلا إذا تنبأ *tekmairesthai* (١٦٧) بطريقة مستعينة بكل العلامات التي تمكن قدرته على التوصل بالوسائل العديدة من معرفتها ومقارنتها واستخدامها أفضل استخدام. ينبغي كما تقول رسالة في الطب القديم *Traité de l'An-cienne Médecine* استهداف نوع من التقدير *stocházesthai métrou tinós* لأنه ليس هناك في هذا المجال عدداً ولا وزناً يتيحان بلوغ الحقيقة الدقيقة *akribés* (١٦٨). المحك الوحيد المقبول هو "الصحيح" *orthón* (١٦٩): «الطبيب يقوم بما هو ممكن؛ أما ما ليس ممكناً فهو ينصرف عنه؛ فإذا أفلتت منه عشرة، فهو قادر على تصويبها» (١٧٠). والطبيب كالملاح لديه من المهارة ما يمكنه من تفادي الكارثة في كل مرة عندما يضطره فنه الطبي إلى الاقتراب الشديد منها - وأفلاطون يقول إن الإنسان لن يستطيع أن يعرف سر غضب الرياح أو إقبالها (١٧١) - والطبيب محكوم عليه بأن يشق لنفسه طريقاً بأن يتنبأ به اعتماداً على الآراء *dóxois* (١٧٢).

نفس هذه المعرفة غير المباشرة والتي تحسس طريقها لنجدتها من نصيب هذا النمط الذي أسماه معاصرو أفلاطون وأرسطو «الرجل» «الحريص» *phrónimos* (١٧٣) وهو: السياسي. وكان السوفسطائيون الأول، أولئك الذين سبقوا جيل القرن الخامس الباهر، يتخذون في ممارساتهم العامة هيئة المتخصصين في العمل السياسي (١٧٤). هكذا كان منيسيفيلوس *Mnesiphilos* الذي جعله التراث أستاذ ثيميستوقليس *Themistokles*: «ورث عن سولون ما كانوا يسمونه "الحكمة" صوفيا *sophia*، أي المهارة السياسية *deinóteta politiken* والذكاء الذي يسود العمل *drastérion súnesin*» (١٧٥) وعندما اتجه السعي إلى نصب فخ في سالاميس *Salamis* «اسم الجزيرة حالياً سالامينا *Salamina*» للأسطول الفارسي، كان منيسيفيلوس هناك حيث اتخذ سمات المستشار الحكيم (١٧٦)، لكي

يهمس إلى ثيميستوقليس بما أسماه إيسخيلوس في حكايته «حيلة رجل إغريقي» (١٧٧). أما في رواية هيرودوتوس فإن السوفسطائي نفسه «منيسيفيلوس» يبدو صنواً صريحاً لذكاء ثيميستوقليس، هذا الرجل الذي كان معاصروه يلقبونه بأوليسيس لما عرف به من الحرص الشديد *phrónesis* (١٧٨). كان ثيميستوقليس، مثل بطل الأوديسا «أوليسيس»، «يتشكل بالشكل» «الذي تتطلبه الظروف» (١٧٩)؛ كان في المجلس وفي اللجان الخطيب الذي يعرف أحسن من أي إنسان آخر كيف يتواءم مع الزمن والمكان ومستمعيه وكيف يجيب في كل مناسبة على خير وجه (١٨٠). وكان ثيميستوقليس يجمع إلى هذه الصفات حساً سياسياً يفوق المؤلف: «كان بارعاً، حيال المشكلات الفورية، في اتخاذ الرأي أفضل الرأي، بفضل تفكيره البالغ السرعة، وكان فيما يتصل بالمستقبل يعرف كيف يكون أصوب رأي عن أبعد الاحتمالات. فإذا كانت مسألة بين يديه، عرف كيف يعرضها؛ وحتى إذا لم تكن له بها خبرة، كان حكمه عليها صحيحاً؛ أخيراً، إذا كانت الميزات والمثالب ما تزال متوارة في علم الغيب، فقد كان يعرف أفضل المعرفة كيف يتنبأ بها. وجماع القول هو أن هذا الرجل بمقومات طبيعته وبالقليل من الجهد الذي كان يحتاج إليه، كان لا نظير له في ارتجال ما ينبغي عمله» (١٨١). «توثب العقل، صواب النظرة، ذكاء فوري في الاحاطة بالموقف الجديد: هذه هي قيم "الحريص" المقتنة، ولكنها تجتمع هنا في رجل واحد ساد معاصريه - في رأي ثوقيديديس - Thoukydês - ببصيرته السياسية. أن يكون أصوب رأي عن أبعد الاحتمالات هو ما عبر عنه» ثوقيديديس Thoukydês مؤلف كتاب «حرب البيلوبونيسوس» «المورة» بقوله «إنه الذي يتنبأ على خير وجه» *áristos eikastês* (١٨٢). والمعرفة التنبؤية التي يدل عليها هنا فعل *eikázein* تعمل عملها بالتوصل بمقارنة تسمح بإدراك حادث مجهول بالاستعانة بتشابه بحادث مألوف. وعند أرسطوطاليس «إصابة النظرة» *eustochia* تحقق نفس الهدف: إنها تسمح بتخمين تشابه بين أشياء تلوح لأول وهلة مختلفة (١٨٣). وهي عملية عقلية تتموقع في منتصف الطريق بين الاستدلال بالتشابه وبين المهارة في حل شفرة الإشارات التي تربط ما يُرى بما لا يُرى، المشهود بالغيب. وأفقها الزمني هو بالضبط ذلك الأفق الذي يكتشفه منذ ظهوره في «الإلياذة» شخصُ الناصح الأريب. قد يكون هذا الناصح الأريب هو بوليديماس، أو نيسطور أو هاليثيريس، ولكن القاعدة تبقى هي لا تتغير، وهي: أن ترى في آن واحد أمامك وخلفك *háma prósso kai opisso* (١٨٤)، والقاعدة تعني أن تكون لديك أولاً خبرة بالماضي لكي تستطيع أن تخمن ما سوف يحدث، ولكنها تعني أيضاً تقريب المستقبل بالأحداث الماضية، والسير من نقطة في الأفق إلى نقطة أخرى من خلال الغيب. كما يفعل

العرافون من جانبهم بوسائلهم الخاصة، وهم أناس حدد أوريبيديس Euripides معرفتهم في زمانهم على أنها مهارة في التنبؤ، في eikázein^(١٨٥) في أن تكون أصوب رأي عن أبعد الاحتمالات.

وإذا كانت هذه المقارنة الأخيرة تبين أهمية الذكاء التنبؤي في فكر القرن الرابع، فإنها كذلك تبين قيمة الأحكام التقييمية المتضادة التي يمكن أن تكون الإحاطة التقريبية بها موضوع هذا الذكاء. وعند أوريبيديس أن العراف الأتيكي الذي تلهمه الآلهة قد أميط عنه اللثام: فلم تعد موهبته الشهيرة في رؤية الغيب إلا فن التخمين الصحيح. أما ثوقيديديس Thoukydidês فيعجب أعظم الإعجاب بشيميستوقليس وذكائه السياسي، لأنه وهو مؤلف كتاب تاريخ حرب البيلوبونيسوس Peloponnêsos يرى أن التاريخ لا ينبغي له أن يكتفي بأن يكون الذاكرة الجمعية للأعمال الماضية التي شهدتها المدينة، وإنما ينبغي عليه مثل العمل السياسي الذي يتخذه له نموذجاً أن يهدف إلى ذكاء أكثر حيوية يحيط بالحاضر وكأنه يمتد نحو التنبؤ بالمستقبل^(١٨٦). والفلاسفة الذين حددوا في العصر نفسه الصفات العقلية للإنسان ذي الدهاء المبتيسي، لم يمتنعوا عن تكوين أحكام عن هذا الأسلوب من المعرفة، وأثنى لهم هذا وهم يتصدون لمهمة تتضمن هيكلاً طبقياً منظومياً لمختلف العلاقات بين الوجود والمعرفة. وموقف أفلاطون من هذه النقطة موقف أساسي رئيسي. وهو دون مواربة يدين المعارف والتقنيات التي تعتمد على الذكاء التنبؤي. في «محاورة جورجياس» يؤثم الخطابة التي تدين بنجاحها إلى الحُدى واللمحة، ويحكم على الخطابة بأنها ليست فناً، وليست معرفة وليدة العقل^(١٨٧). أما محاورة «فيليبوس Philêbos» فهي أشد حسماً، حيث تميز من بين المنتجات البشرية تلك التي تعتمد على معرفة غير يقينية، وتلك التي تنتمي إلى الدقة: فهناك الفنون التنبؤية من ناحية، وهناك من الناحية المقابلة المنتجات التي يتناولها الحساب arithmós والمقياس métron والوزن stathmós^(١٨٨). لا يكون الشيء جزءاً من العلم الدقيق، ولا ينتمي إلى مجال الحقيقة إلا إذا كان قابلاً للمقياس. وإذا كان أفلاطون يستثني فن العمارة عن تقدير لآلاته الخلابية وهي المسطرة kanón والمخرطة tómos والبرجل diabêtes والخيط státhme^(١٨٩)، فهو ينبذ بعنف وشراسة الطب، والاستراتيجية العسكرية وفن الملاحة ناهيك عن فن الخطابة وألعاب السوفسطائيين. وأصبحت الصوفيا sophia هي الحكمة التأملية، ولم تعد معرفة يدعيها فني ماهر بالمعنى التقليدي منذ الملحمة الهوميروسية حيث كانت الصوفيا sophie تدل على معرفة منظمة لها قواعدها وعملياتها، تنتقل من جيل إلى جيل من جلال الاتحادات حرفية مثل الحدادين والنجارين^(١٩٠). هل هذه المعرفة العملية

يدينها أفلاطون صاحب «الجمهورية» وينبذها، جامعاً في حركة الاستبعاد نفسها العامل الفني الذي لا يملك إلا الممارسة اليدوية، و«الرجل» الذي يعرف قواعد فنه، الرجل الذي يسميه مؤلف كتاب «الطب القديم» «التقني» (١٩١).

وإذا كان أفلاطون قد عني كل هذه العناية بتفصيل مكونات الدهاء المبتيسي، فإنما فعل هذا لكي يعرض على نحو أفضل الأسباب التي تحمله على إدانة هذا الشكل من الذكاء. ويجد لزماً عليه أن يشجب في إسهاب ما تنضوي عليه العمليات الملتوية، والمسارات المعوجة وحيل التقريب من اليأس والعجز والضرر بخاصة. باسم حقيقة واحدة هي التي تؤكد الفلسفة لمجده يجمع الأشكال المختلفة للذكاء العملي في إدانته الواحدة والحاسمة. فالفيلسوف الذي يتخذ عن سيادة قرار التقسيم مسئول كذلك عن المَوْضَعَة objectivation العابرة الطيارة التي يمكن أن نقول إنها توحد الأشكال المتناثرة للدهاء المبتيسي وتجمعها في صورة واحدة تبرز خطوطها التحديدية عن المجافاة الوعرة للمعرفة الثابتة الدائمة التي تقرها ميتافيزيقا الوجود ومنطق الهوية.

وليس من شك في أن المنظومة الأرسطوطاليسية صححت التقسيم الذي قال به أفلاطون، حيث إننا تبيناً استناداً إلى أسباب صحيحة أن نظرية الحرص كما يعرضها أرسطوطاليس في كتاب «الأخلاق النيقوماخية» تتضمن تصميماً على الارتباط بتراث الخطباء والسوفسطائيين بالمعارف المختلفة الخاضعة للاحتمال والمتجهة إلى كائنات خاضعة للتغير (١٩٢). فلا جدال في أن أرسطوطاليس كان يرى أن نموذج الحريص phrònimos هو رجل السياسة، الرجل «الذي يعتمد نجاحه على اللمحة أكثر مما يعتمد على العلم الثابت الذي لا يتغير» (١٩٣)، الرجل الذي ينبغي على عمله المتجه إلى غاية أن يعمل دائماً حساباً للملازمة وأن يكون على بينة من أن عمله يجري في مجال لا يوجد فيه شيء ثابت أبداً. ولكن علينا أن نلاحظ شيئاً لا يقل نصيبه من الحقيقة عما ذكرنا لتونا وهو أن التحليل الأرسطوطاليسي يُعنى بتمييز الحرص phrònesis عن المهارة deinótes (١٩٤)، حيث يبين أن المهارة لا تقتصر لا على الحدس، ولا على النظرة الصائبة، وإنما هي نوع من المهارة المؤسسة على «التفكير بغية خيرٍ ما euboulia، وهي لهذا تختلف عن المقدرة «على فعل الأشياء موظفة لغرض مستهدف» (١٩٥)، وهي المقدرة التي يتحدد بناء عليها «نمط» الرجل الذي يسميه الإغريق panurge أي المكار اللثيم، الشخص الذي يتحلى بميزة مقلقة تتمثل في ذكاء مرن نرونة مفرطة.

وليس هذا هو التجاور الوحيد الذي يبدو أن «الحريص» في رأي أرسطوطاليس يخشاه،

فأرسطوطاليس - صاحب كتاب «الأخلاق النيقوماخية» - يلاحظ، وهو يشير إلى المعنى السوقي لكلمة الإغريقية أي حريص «ومن الناس من يصل بهم الأمر إلى حد وصف أنواع معينة من الحيوانات بأنها حريصة»^(١٩٦)، ولهذا فإن مسألة الفصل الجذري بين البشر والبهائم، بين العقلاء وغير العقلاء، الأحياء الذين ليس لديهم لوجوس^(١٩٧)، هي المسألة التي توشك أن توضع هنا موضع البحث مجدداً، ويدفع إلى ذلك على نحو أشد عمقاً أن النماذج الرئيسية الأساسية للدهاء الميتيسي، في صميم نسيج دلالتها، تتكون في مجال يتداخل فيها ذكاء الإنسان تداخلاً مستمراً مع ذكاء الحيوانات البرية والمائية في مواجهة أنشطة الصيد. وأياً كانت المخاطر، فيظل من الممكن بالنسبة إلى الفكر الأرسطوطاليسي أن تكون هناك معرفة تنصب على ما يفتقر إلى الدقة، حتى إذا لم يكن في مقدور هذه المعرفة وهي تطابق موضوعها إلا أن تكون مفتقرة إلى الدقة^(١٩٨). فإذا أخذنا بأن حقائق العلم هي بالضرورة وإلى الأبد كما هي^(١٩٩) فليس هناك ذكاء ذو صبغة عملية يطمح إلى بلوغ معرفة ثابتة: ليس هناك علم ممكن ينصب على ما كان من نوع «ما ليس محدداً». والرأي عندنا أن الفلسفة الأرسطوطاليسية، على نحو ما، ومع كل التخفظات التي أشرنا إليها لتونا، ترد الاعتبار إلى المعرفة الاحتمالية والذكاء الذي يعمل عمله بالأعيب اللف والدوران.

ولكن المشكلات التي يطرحها على تاريخ الذكاء هذا الحوار حول الدهاء الميتيسي لا يمكن حبسها داخل حدود مناقشة بين فيلسوفين من القرن الرابع الإغريقي. فالاختيارات التي اتخذت آنذاك كان لها أثرها القوي على مسار الفكر الغربي حتى إنها وجهت التراث التاريخي حتى العصر الحديث إلى طريق ضيق من العديد من النواحي. وإذا كان الحديث المتبحر في العلم الذي تحدث به عن الإغريق أولئك الذي أعلنوا أنفسهم ورثتهم، قد لزم الصمت ردهاً طويلاً من الزمن حول الذكاء المعتمد على الدهاء، لسببين أساسيين على الأقل هما :

أولاً: بلا شك لأن الهوة الفاصلة بين البشر والحيوانات لم يكن من الممكن من المنظور المسيحي إلا أن تزداد عمقاً، بحيث يبدو العقل البشري أكثر مما كانت الحال بالنسبة إلى القدماء منفصلاً بوضوح أكبر عن القدرات الحيوانية؛

ثانياً: أليست تلك أيضاً وخاصة إشارة إلى أن «الحقيقة» الأفلاطونية - التي نبذت إلى الظلام مستوى كاملاً من الذكاء بكل طرقه الخصبية في الفهم - لم تكف فعلياً عن مخالطة الفكر الميتافيزيقي للغرب؟

ملحوظة

تسهيلاً على القارئ يجدر بنا أن نذكر أن هذه البحوث التي تناولت مفهوم الدهاء المييتيسي الإغريقي، إذا كانت قد أجريت دائماً في تعارن وثيق بين المؤلفين اللذين يظهر اسمهما على هذا الكتاب، فقد كان يحدث أحياناً أن يظهر بعضها في طبعة أولى، غالباً ما كان يتولاها أحدهما، تظهر في المجلات العلمية الرصينة المختلفة. ولهذا فقد رأينا أننا لن نفعل شيئاً بلا فائدة إذا نحن أعدنا هذه القائمة التي رتبنا فيها البحوث بحسب التتابع

M. DETIENNE, « La Prudence d'Athéna », *La Parola del Passato*, 1965, p. 443-450.

J.-P. VERNANT et M. DETIENNE, « La Mètis d'Antiloque », *Revue des Études Grecques* 80, 1967, p. 68-83.

M. DETIENNE et J.-P. VERNANT, « La Mètis du renard et du poulpe », *Revue des Études Grecques* 82, 1969, p. 291-317.

J.-P. VERNANT, « Thétis et le poème cosmogonique d'Alcman », in *Hommages à Marie Delcourt*, Collection Latomus, t. 114, Bruxelles, 1970, p. 38-69.

M. DETIENNE, « Le Phoque, le Crabe et le Forgeron », in *Hommages à Marie Delcourt*, Collection Latomus, t. 114, Bruxelles, 1970, p. 219-233.

M. DETIENNE, « Le Navire d'Athéna », *Revue de l'Histoire des Religions*, 1970, 4, p. 133-177.

J.-P. VERNANT, « Mètis et les mythes de souveraineté », *Revue de l'Histoire des Religions*, 1971, 3, p. 29-76.

M. DETIENNE, « Athena and the Mastery of the Horse », *History of Religion*, 1971, p. 161-184.

J.-P. VERNANT, « L'Union avec Mètis et la royauté du ciel », in *Mélanges H. Ch. Puech*, Paris, 1974.

M. DETIENNE, « Le Lien et le Cercle », *Journal of Symbolic Anthropology* 5, 1974 (ni l'article, ni ce numéro ne sont jamais venus à notre connaissance).

Ces études, qui avaient déjà été conçues comme les chapitres d'un volume unique, ont été, en vue de cette publication, remaniées, complétées, et augmentées de développements inédits.

وجدير بالتنويه أن هذه الدراسات التي خططناها منذ البداية لتكون فصول مجلد واحد، قد تناولناها من منظور هذه الطبعة بالتعديل والإكمال والزيادة بإضافات جديدة لم ننشرها من قبل.

هوامش وتعليقات

المقدمة :

(١) كان أحدنا قد بين أهمية الدهاء la métis عند تحليل الفكر التقني: J.-P. Vernant, "Re-metis sur les formes et les limites de la pensée technique chez les Grecs", Revue d'Histoire des Sciences, 1957, p. 205-225, repris dans Mythe et pensée chez les Grecs 5, Paris, II, 1974, p. 44-64.

(٢) نستثنى كارلو ديانو في كتابه : Carlo DIANO, Forma ed Evento. Principi per una interpretazione del mondo greco 3, Vicenza, 1967, la métis فينومينولوجية فتبين عابراً في إطار المقابلة بين أوليسيس وأخيللوس بعض سمات الدهاء (انظر ص ٥٦ وما بعدها).

(٣) Françoise FRONTISI-DUCROUX, Dédale, mythologie de l'artisan en Grèce antienne, Paris, Maspero, 1975.

(٤) ساعدتنا فرانسواز فرونتيزي-ديكرو Françoise Frontisi-Ducroux وستيلا جورجوندي Stella Georgondi في تحسين هذه الطبعة الثانية، نشكرهما شكر الأصدقاء.

القسم الأول ألاعيب الدهاء

الباب الأول

سباق أنطيلوخوس

(١) U. von WILAMOWITZ, Die Heimkehr des Odysseus, Neue Homerische Untersuchungen, Berlin, 1927, p. 190, n. 1.

(٢) H. JEANMAIRE, "La Naissance d'Athéna et la royauté magique de Zeus", Revue archéologique, 1956, juil. -sept., p. 12-39.

(٣) نكتفي باختيار طائفة من أهم الألفاظ التي رأينا أنها تشترك في معنى الدهاء الميتيس وهي:

dólos et mêtis (Od., III, 119-122); dolómêtis (Il., I, 540; Od., I, 300; III, 198); polúmêtis et doliê téchnê (Hymne hom. à Hermès, 76; Od., IV, 455); agkulomêtês,

doliê téchnê, phrázesthai, kruúptein, lôchos, dólos (HÉS., Théog., 160-175);
phármaka mêtióenta (Od., IV, 227); mêtin huphainein (Il.,

VII, 324; Od., IV, 678) mêtis et kerdê (Il., X, 223-225; XXIII, 322; 515; Od., XIII,
299 et 303); polúmêtis et kerdaleóphrôn (Il., IV, 339 et 349); agkulomêtês et
haimúlai mêchanai (HÉS., Théog., 546-647; ESCH., Prom., 206).

(٤) نيسطور هو أول أصحاب الحل والعقد الممدونτες médontes فهو يقدم دائماً أفضل الآراء (انظر , XIV, Il.,
ameinona mêtin (107): «إنه يسبق الآخرين جميعاً، ويبدأ بمد خطوط مخططة» ... huphainein
(Il., VII, 324). mêtin ونطالع في الآيات من ١١٨ إلى ١٢٩ من النشيد الثالث بالأوديسا مدح
أوليسيس والإشادة بأن دهائه لا نظير له، ويؤدي هذا بنيسطور إلى التشديد على الجماعة ذات الذكاء،
الأريب الذي يرسى أساس تعاطفها المتبادل.

(٥) انظر . II., XXIII, 306 sq.

(٦) انظر . II., XXIII, 307-308: hippsúnas...pantoias.

(٧) في البيتين ٣١٠ و ٣١١، معارضة واضحة بين bárdistoi «أكثر بطناً» و aphárteroið «أكثر سرعة»
وفي البيت ٣٢٢ نجد الصفة hêssonas «أسوأ» التي تصف hippous تستدعي في الذهن الصفة
المقابلة «أحسن» التي لا ترد صراحة.

(٨) وأنطيلوخوس نفسه ليس مجرداً من الدهاء كل الدهاء، والبيت ٣٠٥ يلح في إبراز هذه السمة، حيث
يقول: « وهذا هو أبوه يقترب منه، وينصحه بما فيه خيره، على الرغم من أنه كان من قبل
حكيماً noéonti. وهناك ثلاثة نصوص أخرى تشير إلى نباهته (٤٤٠: pepnûsthai :
٥٨٦: pepnuménos : ٦٨٣: nóon). أضف إلى ذلك أن قائد العربة اسمه Noêmôn «حكيم»
(٦١٢).

(٩) تصرفنا في الصياغة كما فعل هـ. جانماير H. Jeanmaire الذي اتبعنا هنا ترجمته، فلم نترجم كلمة
mêtis بل تركناها بحرفها «ميتيس».

(١٠) الإلياذة II., XXIII, 322 وكلمة hêssonas تعني حرفياً «الأقل جودة»

(١١) هذه المناورة - يمكننا أن نقول "mêchanê" الحيلة - هي من قبيل الانتهاء إلى نتيجة ليست هي
التي تحسم الموضوع (انظر ملحوظات پ. شانتيرين وهـ. جوب على الإلياذة P. Chantraine et H.
(Goube, Homère, Iliade, Chant XXIII, Paris, 1964, 419-424

(١٢) انظر «حيل النساء ... métidas gunaikoboulousá في الحديث عن كلوتايمنيسترا (Esch.,
Chéoph., 626)

(١٣) ليس زيوس فقط صاحب دهاء mêtieta ، بل هو أيضاً داهية (Il., VIII, 22; mêstôr húpotos

XVII, 339 . ودهاؤه على قدر كل ألوان الدهاء الأخرى (راجع عبارة Diù mêtin atálanon, II,

169; 406; 636; X, 137 في الإلياذة

Esch., Prom., 206-207; 213; 219; 440; Apollod., I, VI,1; I, VI, 3; Nonnos, Dionys., (١٤

I, 481 sq. ويمكننا أن نتبين دور الدهاء الميتميسي في الأصل الأول لسيرة زيوس : Apollod., I, II,

1 وارجع إلى ما ذكره هيسيوذوس من قبل Hés., Théog., 471 et 496 وانظر فيما بعد ص

١٢٤-٦١.

I., XXIII, 319-325 (١٥

< Hés. >, Bouclier, 214-215 (١٦

I., VIII, 340 (١٧

I., XIII, 545 (١٨

(١٩) ونكتفي بذكر مثال واحد يؤكد فيه السياق على نحو طريف فكرة الثقل والكثافة التي تضمها كلمة

pukinós فنحبل القاريء إلى الأوديسا Od., IX, 445, إلى الحيلة التي دبرها أوليسيس لبفلت من

انتقام سيكلوب. فقد غاص تحت بطن أقوى الكباش، وتعلق بصوفه، فمر أوليسيس أمام ضحيته :

« كان كبشي آخر الخارجين، فتقدم يشقله صوفه وتشقله أفكاره الثقالة kai emoi pukinà phro-

néonti

II., XXIII, 415-416: technésomai êdè noésô, ... oudé me lései (٢٠.

Pind., Isthm., II, 22 (٢١

Paus., VIII, 25, 9 Antimaque, fr. 32 Wyss (٢٢

II., XXIII, 585 حيلة « قيدت » pedêsai عربة مينيلوس. (٢٣

II., XXIII, 590 (٢٤

(٢٥) II., III, 108-110. في تراث كامل نجد الشاب وقد أعوزه الدهاء الميتميسي، يتأرجع عقله على هوى

الظروف كما تتأرجع العربة أو السفينة التي يعوزها القائد الحريص أو الملاح الأريب، فتهم هنا وهناك

على هوى الخيول أو الرياح. أما الرجل فحال كحال قائد العربة أو الملاح، يتضمن الدهاء الميتميسي

بالنسبة إليه استمرار الاتجاه، وخط قيادة تحدد من قبل وجرى اتباعه بانتظام. صورة الشاب رهن

التغيرات، المتصف بـ«الخفة» يمكن أن نستشهد عليها بشيوجونية Theognis, 629 : «الشباب

والفرارة يجعلان عقل الإنسان خفيفاً epikouphizeî à وبأفلاطون، القوانين Platon, Lois, 929 c :

«خصال الشباب تتعرض بالطبع للتغير عدة مرات pollàs metabolàs... metaballein إبان

الحياة»؛ وبثيوفراستوس (Théophraste, ap.Stob., Anth., II (IV, 1, p. 340 Hense) : «من

الصعب أن نتنبأ بشيء عن الشباب في المستقبل؛ فسن الشباب سن لا يحيط بها التنبؤ
astóchastos، لأنه بلا انقطاع يتغير pollàs échousa metabolás وينجرف pheroménê تارة إلى
هذه الناحية وتارة إلى الأخرى állote ep'állo.

II., I, 343 (٢٦)

II., XVIII, 249: pepnumenos (٢٧)

II., XVIII, 250 (٢٨)

Sappho, fr. 16 in Lobel-Page, Poet. Lesb. Fr. (٢٩)

II., X, 224-226: brássôn te nóos, leptê dé te mêtis (226) (٣٠)

Thuc., I, 138, 3 (٣١)

(٣٢) يوصف پروميشيوس بأنه poikilos وaiolómetis (infra, n. 36, 37, 48)، بينما يوصف
إيبيمشيوس بأنه hamartinoos (Hés., Théog., 511). في كتاب «الأعمال» Les Travaux،
85-86 يوصف إيبيمشيوس بالعجز عن التفكير، والفعل المستخدم هو phrázesthai - وهو من
أفعال الدهاء الميتيسي.

II., XVIII, 314 (٣٣)

II., III, 202 (٣٤)

Od., VI, 234 (٣٥)

(٣٦) poikilométis أو poikilomètes صفة أوليسيس (II., XI, 482; Od., III, 163; XIII, 293)
وصفة زيوس (Hymn. Apoll., 322) وهيرميس (Hymn. Hermès, 155). و poikilóboulos هي
صفة أخرى وصف بها پروميشيوس (Hés., Théog., 521) وأوليسيس (Anth. Plan., IV, 300،
5) وهيرميس (Orph. Hym. 28, 3 Quandt).

(٣٧) أفروديتي توصف بأنها aiolómetis (Esch., Suppl., 1037) مثل پروميشيوس (Hés., Théog.,
511) وسيسيفوس (Hés., fr. 7, 4 R.). أما صفة aiolóoulos فتدّ عدة مرات في (Oppien,
Cyneg., I, 452; III, 139; IV, 25, etc.

II., VI, 289 et 294; Athénée, 48 b. (٣٨)

II., X, 75. (٣٩)

Tr. gr. fr. 419 Adeps. N2. (٤٠)

Pind., Pyth., IV, 249. (٤١)

(٤٢) المعاني المسلسلة اللفظي aiólos و poikilo بينتها بوضوح شروح هوميروس ودراسات المعجمات؛ انظر aiólos في قاموس. Lexicon des frühgriechischen Epos (1955), p. 329 => قاموس الملحمة الإغريقية المبكرة.

Esch., Prom., 495 (٤٣)

Aristote, Éth. Nic., I, 10, 1100 a 34 (٤٤)

Eur., Hélène, 711-712 (٤٥)

Plat., Rép., 568 d. (٤٦)

Plat., Théétète, 146 d. (٤٧)

Hés., Théog., 511 et Esch., Prom., 310. (٤٨)

Ésope, Fab., 37 et 119 (٤٩)

Arist., Cav., 758-759 (٥٠)

E. Benveniste, "Expression indo-européenne de l'éternité", Bull. Sté Linguistique (٥١)

38, 1937, p. 107 sq. وهناك مقترحات أخرى حول الأصل الاشتقاقي للكلمة. ففي رأي فرينكل

E. Fraenkel, Gnomon 22, 1950, p. 239 تعتبر كلمة aiólos صيغة تشديد، (F) de Fólos *

= de *uel: wälzen, drehen, wenden يلف، يدور، يحول. والكلمة وردت في لوحات كنوسوس

M. Lejeune, Noms propres de boeuf á Cnossos: المبكينة، وكانت موضوعاً لبحوث متعددة

P. Chantraine, "Notes d'éty" في 6-7 p. Rev. Ét.Gr. 76, 1963. وانظر "أسماء الثيران" =

mologie grecque", Rev. Phil. 37, 1963, p. 15; H. Mühlstein, "Le Nom des deux

Ajax", Studi micenei ed egeo-anatolici, II, Rome, 1967, p. 44-52.

L. Parmentier, Rev. belge de Philologie et d'Histoire I, 1922, p. 417 sq. (٥٢)

ID., ibid., p. 420 في شأن Xanthe وهو حصان محجل (II., XIX, 404) (٥٣)

II. J. Mette, s.v. ailélos, Lex, fr. Epos (1955), p. 329 (٥٤)

II., V, 295 (٥٥)

II, XXII, 509 (٥٦)

Od., XXII, 296-301. وفي هذه الحالة تكون aiólos oistros هي أثينة ابنة ميتيس (٥٧)

II, XII, 167 (٥٨)

Pind., Ném., VIII, 25 (٥٩)

٦٠. Eust., p. 1645, 3 sq. في شأن العلاقات بين Éole و poikilia أنظر التفسيرات الرمزية في

Jambl., Theol. arithm., p. 28, 11 de Falco.

٦١. Apollod., I, 3, 6; Hés., Théog., 886-900.

٦٢ خدمة dólos دخلت éperopeúein مينيلوس (II, XXIII, 605) وقيدت وغلت pedésai عربته (585)

٦٣ II, XXIII, 343

٦٤ II, XXIII, 343

٦٥ II., XXIII, 320

٦٦ II., XXIII, 426

٦٧ كلمة apheradéos التي ورت في البيت رقم ٤٢٦ من الإلياذة تذكر بها الصفتان paréoros و aesiphron في البيت رقم ٦٠٣. والصفة الأولى تعني الحصان الجامح، وتدل على سبيل الاستعارة على الطائش - بلا شك بالإشارة إلى العدو الأكثر اضطراباً والأقل ثباتاً لهذا الحصان (وهو ما يقترحه شانتيرين P. Chantraine وجوب H. Goube في تعليقهما على البيت رقم ٦٠٣ من الإلياذة). أما لفظة paréoros فتحيل إلى صورة العربة التي تتقدم على خط متلو (البيت رقم ٣٢٠). وهذه الصفة لها مذاقها الذي يزيد عندما نسترجع نصائح نيسطور إلى أنطيلوخوس والتي لم ينس أن يحدد فيها مقدماً علامات الطريق التي تسمح باتباع الاتجاه الصحيح II., XXIII, 323. (térma); 326 (séma... aripheradés). Cf. 358 (sémeme de tèrmat' Achilleüs).

٦٨ II., XXIII, 430 .

٦٩ II., III, 205-224

٧٠ Od., VIII, 494.

٧١ Od., VIII, 276 sq.

٧٢ Od., XII, 252.

الباب الثاني الشلب والأخطبوط

١ R. Keydell, s.v. "Oppianos", R. -E. (1939), c. 698-708 وأنظر المقدمة المخصصة لأوبيانوس

في Oppian, Colluthus, Tryphiodorus مع ترجمة إنجليزية لـ A. W. Mair, The Loeb Classical Library, Londres, 1928, p. XIII sq. وعلى سبيل التسهيل لن نفرق بين آثار

أوبيانوس وتلك المنحولة إليه. انظر في هذا الشأن: P. Hamblenne, "La Légende d'Oppien", *l'Antiquité classique*, 1968, p. 589-619 . وكلامنا هنا يدور حول كتابين فنيين لأوبيانوس كتاب صيد السمك Halieutiques وكتاب صيد الحيوان Cynégétiques.

(٢) Oppien, Hal., II, 52-55 في بعض المواضع استلهمنا ترجمة E. -J. Bourguin المنشورة في Cou-lommiers في عام ١٨٧٧.

(٣) ID., ibid., II, 128-130.

(٤) ID., ibid., II, 86-89. من ٩٩ إلى ١٠٤ اتباع لمقارنة مزدوجة، من ناحية بصائد الطيور وشرك العصافير؛ ومن ناحية ثانية الثعلب الذي يصطنع الموت. يعرف هذا النوع من الضفادع في التراث منذ أرسطوطاليس باسم الصيابة halieús . وهناك وصف تقنية صيده في Arist., H.A., IX, 37, 620b 10 sq; Plut., Soll. anim., 978 d' Antigone, Hist. mirabil., XLVII; Pline, H.N., IX, 143; Élien, H. A., IX, 24.

(٥) هذا هو التعبير الذي استخدمه Plut., Soll. anim., 978 a-b في الحديث عن سمك الحبار.

(٦) Oppien, Hal., II, 62 والملاحظة (p. 286) la note b de Mair

(٧) ID., ibid., II, 232-233 . والملاحظة (p. 304) la note a de Mair

(٨) في كتاب «ذكاء الحيوان» يبين لنا بلوتارخوس (بلوتارك) على لسان فايديموس الذي يقوم بدور المدافع عن ذكاء السمك، أسباب ضرورة البقظة بالنسبة إلى الحيوانات البحرية، مهما كان نصيبها من الدهاء، وكيف أن عليها أن تكون دائماً يقظة وعلى أهبة الاستعداد، فيقول: إن كل نوع له مزاياه وله نواحي ضعفه التي لا تكون واحدة حبال كل الأعداء الذين يتصدى لهم «والطبيعة إذ منحت الأسماك هذه البدائل وهذه الإمكانيات التبادلية في الهجوم والهروب قرنها وتعودها على استخدام كل مهارتها، وعلى إظهار كل ذكائها» (978 e)

(٩) Od., IV, 388 sq.

(١٠) Hésiode, fr. 33(a) et (b) Merkelbach-West

(١١) Oppien, Hal., III, 29-49.

(١٢) Oppien, Cynég., I, 81-109 . صورة صياد الحيوان ويشدد بته Bethe على طائفة من الصفات وبخاصة : ágropnos ...agonistés ...oxús , dromikós, elaphrós, kouphos, néos (شاب، خفيف، سريع، عداء، متأهب ... مناضل ... يقظ).

(١٣) Cf. eg. Il., XV, 642

(١٤) Platon, Lois, VIII, 832 e-833 a.

(١٥) Hymne homérique à Hermès, 80-83 ينسب ابتكار النعال البيضاء phaikades للرياضة

البدنية إلى هرمس، انظر: Ératosthène, fr. 9 Hiller.

(١٦) Nonnos, Dionys., XVI, 106 sq. Keydell.

(١٧) Callimaque, Hymne à Artémis, 16 Pfeiffer.

(١٨) Oppien, Hal., et Cynég., passim.

(١٩) Oppien, Cynég., I, 101-104; Hal., III, 426-431. في هذه المسألة ارجع أيضاً إلى أفلاطون :

Platon, Lysis, 206 a وأرسطوطاليس : Aristote, H. A., IV, 8, 533 b 15-18.

(٢٠) هذه هي كلمات أرسطوطاليس في فقرة يمكن أن تجد العديد من الأصداء في كتاب صيد السمك لأوبيانوس

(٢١) Plutarque, Sollert. anim., 976 c-d.

(٢٢) كان على دهاء أنطيلوخوس أن يلعب لعبة الطيش لكي يخدع مينبلاوس، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

(٢٣) انظر ما سبق ص ٢٣

(٢٤) Oppien, Hal., III, 45-46.. كذلك سوفوكليس Sophocle, Ajax, 879-880 يذكر صيادي السمك الذين يقضون الليل كله في رصد غنيمتهم .

(٢٥) Arist., H. A., IV, 10, 537 a 12 sq.

(٢٦) Athénée, VII, 320 a.

(٢٧) Oppien, Hal., II, 658-659 .

(٢٨) Il., XIV, 247-248; Sophocle, Antigone, 606 sq; Eschyle, Prom., Ench., 358.

(٢٩) Il., XXIV, 24; Od., I, 37-40; Hymne hom. à Aphrod., 262.

(٣٠) Pollux, On., V,

(٣١) ID., ibid., V, 24 (t. I, p. 267, I. 20 sq Bethe).

(٣٢) Oppien, Hal., III, 49 .

(٣٣) ID., ibid., III, 41. تنطبق الصفة نفسها على الأوديسا (٤١٩/١٥) و على «الفينيقيون»

(٣٤) انظر J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, Paris, 1965, p. 230.

- II., I, 311; XXI, 355; (Orphée), Lithica, 54. (٣٥)
- (٣٦) انظر ما سيأتي بعد ص ٤٩ وما بعدها.
- (٣٧) II., II, 173 وانظر ما سبق ص ٢٧-٢٨.
- (٣٨) Oppien, Hal., III, 41-43 .
- (٣٩) ID., ibid., III, 92
- (٤٠) Aristophane, Cavaliers, 758
- (٤١) Eschyle, Prom. Ench., 51.
- (٤٢) Plutarque, Sollert. anim., 979 a.
- (٤٣) Platon, Lysis, 823 d-824 a.
- (٤٤) Oppien, Hal., III, 338-370.
- (٤٥) انظر عن هذه السمكة النصوص التي جمعها ماير A. W. Mair (o. c., p. LIII-LVII)
- (٤٦) Oppien, Hal., III, 281 sq. وهناك مثل آخر على الدهاء dolophron في Hal., IV, 77 sq :
صيد سمك Le scare الاسكاروس (ببغاء البحر) الذي تُستخدم أنشاء طعاماً للذكر.
- (٤٧) Oppien, Cynég., III, 410 et 415-416.
- (٤٨) Oppien, Hal., II, 146-147.
- (٤٩) Oppien, Hal., II, 182 et 225 .
- (٥٠) Oppien, Hal., II, 176-168. المدونات التقنية التي نشأت حول ذكاء وعقل الحيوانات كانت
موضوع أبحاث جون ريتشموند John Richmond, "Chapter on Greek Fish-Lore", Hermes.
Suppl. 28, Wiesbaden, 1973.
- (٥١) Oppien, Hal., II, 107-118. انظر كذلك Garcia Gual, "El Prestigio del Zorro", Em-
erita, 38, 1970, 417-431.
- (٥٢) Oppien, Cynég., III, 449-460.
- (٥٣) Oppien, Hal., IV, 448-451.
- (٥٤) Aistophane, Lysistrata, 1270. انظر في موضوع الشعب نموذجاً للخداع J. Taillardat, Les
Images d'Aristophane, Paris, Paris, 1965, p. 227-228.
- (٥٥) Oppien, Cynég., III, 449 .

Alcée, 69, 7, p. 144 Lobel-Page. (٥٦)

Ésope, Fab., 119 (٥٧)

Ésope, Fab., 199 (٥٨)

Plutarque, Animine an corporis affectiones, 500 c-d. (٥٩)

Hésychius, s.v. Alopas; Arist., H. A., I, 1, 488 b 20; Pind., Pyth., II, 77. (٦٠)

Callimaque, Hymne à Artémis, 79 Pfeiffer. (٦١)

D. Page, Sappho and Alcaeus. An Intro- Alcée, fr. 69, p. 144 Lobel-Page. (٦٢)
duction to the Study of Ancient Lesbian Poetry, Oxford, 1955, p. 152 sq et Éd. Will,
Korinthiaka, 1955, p/ 381 sq.

(٦٣) Diog Laërce, I, 74; Strabon, XIII, 600; Plut., De Herod. Mal., 15. كما يذكر إ. ثيل
Éd. Will (o. c., p. 383) أراد البعض أن يروا في هذه الحكاية اقتباساً أخذ عن المعركة بين المصارع
ذي الشبكة والمصارع الذي كان ينازله. وتصوير الثعلب في العالم الإغريقي يوحى بأن الحكاية إما
قديمة وإما مأخوذة بأمانة عن الثعلب المكار بيتاكوس Pittakos.

(٦٤) الثعلب يعرف الكثير من الألاعيب. أما القنفذ فلا يعرف إلا واحدة، ولكنها مشهورة. « وإذا كان
هذا البيت الشعري قد سار مثلاً، فإنه يؤكد تعدد سمات الثعلب، ولكنه يؤكد كذلك حدود كل دهاء
ميتيسي مهما كانت مقوماته من الشراء. » في مواجهة دهاء الثعلب يبدو « علم » القنفذ فقيراً فقراً
عجيباً: فعند اقتراب الخطر، أياً كان، يلتف على نفسه، ويتكور ويدع كل أشواكه ناحية الخارج. ومع
ذلك فإن كل ذكاء الماكر بفشل: فقد وجد الثعلب سيده. انظر في موضوع هذين الشريكين

M. Bowra, "The Fox and the Hedgehog", Class. Quart. 34, 1940, p. 26-29

Élien, H. A., VI, 24. (٦٥)

(٦٦) Isthm., IV, 34 sq. أما الثعلب فلأنه يعلم - كما يقول بنداروس كيف يوارى أثره بألف ألعية
ملتوية all'allote patéon hodois skoliais يعتبر في نظر الأسد مثل الثعلب بالنسبة إلى النسر.
ومع ذلك ينبغي أن نذكر في عجالة أن خداع الذئب لا يمكن أن الخلط بينه وبين لؤم الثعلب: وهما
كلاهما من الحيوانات المفترسة، ولكن الذئب يهاجم صراحة دون استخفاء بين الثعلب يعمل في الظلام،
دون أن يكشف عن نفسه. وعلى هذا المستوى فإن التعارض بين الذئب والثعلب يناظر التعارض بين
الصقر والحداة (انظر Packart, II, 20, p.137, 1-3 et IV, 56, p. 279)

Pind., Isthm., IV, 45-47 (٦٧)

(٦٨) شراح بنداروس Les Scholies à Pind. Isthm., IV, 77 c (t. III, p. 234, 12-17 Drachmann)

يشددون على هذه النقطة : عن طريق هذا الانقلاب « يبدو أن الثعلب يعلم حيلة الحلبة pálaisma التي يتمدد فيها المصارع على الأرض فيكون غالباً بالحيلة téchnei، حتى ولو كان غريمه أقوى منه meizona.

Plut., De Soll. anim., 977 b. (٦٩)

Élien, N.A., IX, 12. Cf. Oppien, Hal., III, 144 sq, Pline, H. N., IX, 145 et Philé, De (٧٠ animalium proprietate, 1848-1853 (éd. Fr. Dübner: Poetae Bucolici et Didactici, Coll. Didot, Paris, 1846).

(٧١) في طائفة كبيرة من النصوص تنسب حيلة الانقلاب هذه إلى جنجباسة البحر scolopendre وأرسطوطاليس في كتابه «تاريخ الحيوان» Hist. anim., 621 a 6 sq يستخدم في معرض الحديث عن وصف ثعبان البحر نفس التعبيرات التي خص بها بلوتارخوس والبيانو ثعلب البحر : «بعد أن ابتلعت الجنجباسة السنارة قلبت باطن جسمها إلى الخارج حتى لفظت السنارة؛ ثم قامت بحركة عكسية أعادت باطن جسمها إلى موضعه.» ويقابل هذا النص الأرسطوطاليسي نصوص بلوتارخوس التالية: Plut., De sera num. vid., 567 b-c, et de Pline, H. H., IX, 145. والجنجباسات ديدان مائية كبيرة تشبه ديدان الأرض الحلقية . راجع: E. de Saint-Denis, Le vocabulaire des animaux marins en latin classique, Paris, 1947, p. 102 وهي أسماك يشبه شكلها في صورته الطبيعية وثاق مرن (انظر ما سيللي).

Oppien, Hal., II, 295. (٧٢)

Théognis, 215: polúpou ... poluplókou (٧٣)

Eur., Médée, 481: speirais ... poluplókous (٧٤) هذا الثعبان هو حارس الجزء الذهبية : وهو لا ينام

Trag. graec. fragmenta, Adesp., 34 N2: oikema kampais poluplókous (٧٥)

Platon, Phèdre, 230 a. - (٧٦) فيان F. Vian, "Le mythe de Ty-phé et le problème de ses origines orientales", dans Éléments orientaux dans la religion grecque ancienne (Bibliothèque des Centres d'Études supérieures spécialisés), Paris, 1960, p. 17-37 (particulièrement p. 24-26)

Oppien, Hal., II, 233: téchnés; 236: apâteisi; 239: dóloio ; 280 (٧٧) في صراعه مع سمكة المورينا (la murène).
tà d'aióla kérdea téchnes plázontai : 305: dolometa.

Oppien, Hal., II, 408 sq. (٧٨) والأخطبوط مثله مثل اللص (Hés., Trav., 605) hemerókoitos ومثل «نوام النهار» يظل يقظاً متنبهاً طوال الليل. في Etym. Magn., كلمة hemerókoitos معناها : ... اليقظ ليلاً. ويقظته مستمرة دائمة لا تتوقف. وليست هذه سمّة من سمات سلوك

الحيوان، وإنما هي تأكيد لصفة أساسية من صفات الدماء الميتيسي.

Théognis, 215-218; Pindare, fr. 43 Snell; Sophocle, fr. 286 N2.; Ion, fr. 36 N2; Antigone, Hist. mirab., L. (55). (٧٩)

(٨٠) في Quaest. Nat., p. 916 b. يطرح بلوتارخوس السؤال لمعرفة سبب تغيير الأخطبوط لونه: هل يفعل ذلك بسبب الخوف، أو الغضب أو المحاكاة؟

(٨١) أرجع إلى إيسخيلوس، حاملات القرايين Eschyle, Choéphores, 726-728 هيرميس هنا ينطق بالعبارة التي لا يدركها البصر áskopon épos والتي تنشر على العينون ظلمة الليل (الأبيات ٨١٦-٥١٨).

Oppien, Hal., II, 120; III, 156. (٨٢)

(٨٣) Tholós في Arist., H. A., 524 b 14; 621 b 27; Atén., 323 d; Pline, H.N., IX, 84; chole : dans Nicandre, Alexipharmaka, 472 Gow.

Arist., H. A., 524 a 15 sq. (٨٤)

Arist., H. A., 541 b 12 sq. (٨٥)

Oppien, Hal., III, 120; III, 156-164. (٨٦)

Plut., De Soll. anim., 978 d. (٨٧)

Oppien, Hal., IV, 147-162. (٨٨)

Théognis, 215-218 (٨٩)

Od., I, 1. (٩٠)

Eust., p. 1381, 36 sq. Cf. W. B. Stanford, The Ulysses Theme, Oxford, 1954. (٩١)

Arist., Thesmoph., 462-463. (٩٢)

Euripide, Phéniciennes, 494. (٩٣)

Eupolis, fr. 101 Kock, et Antisthène, fr. 26 (t. II, p. 277-278 Mullach). (٩٤)

(٩٥) عن مفهوم ephemeros نظر الدراسات الأساسية هي E. Fraenkel, Wege und Formen Frühgriechischen Denkens , 2. Auflage München, 1960, p. 23-39 et Dichtung und Philosophie , 2. Auflage München, 1962, p. 149.

Pind., Isthm., VIII, 14. (٩٦)

(٩٧) Plut., De Soll. anim., p. 978 e-f. عندما يرسم بلوتارخوس الصورة السيكولوجية للقائد

ألكيببياديس Alkibiades فإنه يشدد على القدرة الكبيرة التي أوتبها آل ألكمونيدي Alkméonidai «الأسرة النبيلة التي ينتمي إليها القارئ ألكيببياديس» على التكيف مع المواقف والبشر، والتوافق مع عادات وأساليب حياة الكائنات المختلفة أشد الاختلاف. ويضيف بلوتارخوس بعد ذلك هذه الجزئية: «كانت تلك عند ألكيببياديس حيلة لأسر الناس mechane théras anthropon». ولكن على العكس من التمييز الذي فرضه كتاب Soll. anim., p. 978 e-f نجد الحرياء - لا الأخطبوط - هي التي تؤخذ لمقارنة مسلك ألكيببياديس بما يقابله في عالم الحيوان.

(٩٨) مرادفات في لغة الحبال : H. Blümner, Technologie und Terminologie der Gewerbe und Künste bei Griechen und Römern, 2. Auflage, I, 1912 (réimp. Olms, 1969), p. 295.

(٩٩) Oppien, Hal., III, 347. Cf. J. Dumortier, Les Images dans la poésie d'Eschyle, Paris, 1935, p. 71 sq.

(١٠٠) Oppien, Cynég., I, 150. Cf. Od., IX, 427 et X, 166; Grattius, Cynegeticon, I, 38 sq (éd. R. Verdière).

(١٠١) Hymne homérique à Hermès, 75 sq avec le commentaire de L. Radermacher, Der homerische Hermes hymnus, Sitz. Akad. Wiss. Wien, Philos.-hist. Kl., t. 213, B, 1, Wien und Leipzig, 1931, p. 115-116.

(١٠٢) Aristophane, Ploutos, 1154.

(١٠٣) Schol. in Aristoph. Plout., 1153.

(١٠٤) Aristophane, Nuées, 450. Eustathe, p. 1353, 9 في strophaios هيرميس الملتوي الدوار يشبه صراحة بالملتوي stróphis

(١٠٥) Nonnos, Dionys., XXX, 108 sq Keydell.

(١٠٦) Schol. in Arist. Plut., 1153: ... strophaión... tòn eidóta sumplékein kai stréphein lógous kai mechanás.

(١٠٧) Platon, Rép., 405 c. Cf. Soph., Limiers, 362.

(١٠٨) Lucien, Demosth. Enc., 24, (t. III, p. 373 Jacobitz).

(١٠٩) Platon, Phèdre, 261 d.

(١١٠) Dion. Halic., Rhét., VIII, 15; Platon, Théétète, 194 b.

(١١١) Oppien, Hal., III, 80; Aristophane, Guêpes, 20; Athénée, X, 448 f sq.

- Aristophane, Oiseaux, 194. (١١٢)
- Diog. Laërche, I, 74; Strabon, XIII, 600; Plut., De Herod. Mal., 15. (١١٣)
- E.: Eschyle, Agam., 1380 sq. (١١٤)
 Vermeule, "The boston Oresteia Krater", Amer. Journ. Arch. 70, 1966, p. 1 sq, avec
 les remarques de H. Metger, Bull. archéol., Rev. Et. Gr., 1968, no 222.
- Od., VIII, 278-280. (١١٥)
- Od., XXII, 386: diktuon poluopón. (١١٦)
- Eschyle, Prom., 81. (١١٧)
- Eschyle, Agam., 1382. (١١٨)
- Aristophane, Guêpes, 699. (١١٩)
 kuloûn kuklein في المصطلحات العسكرية كلمة
 J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, 1965, p. 224.
 تعنيان "طوق" ، على نحو ما بين
- Od., XII, 252. (١٢٠)
- Hésiode, Travaux, 83. (١٢١)
- Eschyle, Agam., 1375-1376; R. Böhme, "Arkústata. Ein Tragödienwort", Die (١٢٢)
 Sprache 7, 1961, p. 199-212. .
- Od., XXII, 386 sq. (١٢٣)
- Il., V. 487-488: linon páragron (١٢٤)
 steganòn diktuon شبكة في وانا وقعت طروادة كلها
 Eschyle, Agam., 357-361. طوقتها
- Pind., Isthm., IV, 46-47. (١٢٥)
- Ion de Chios, fr. 81 von Blumenthal. (١٢٦)
- P. Vidal-Naquet, "Chasse et sacrifice dans l'Orestie d'Es- (١٢٧)
 chyle", in J.-P. Vernant et P. Vidal-Naquet, Mythe et tragédie en Grèce ancienne, p.
 135 sq.
- Sophocle, Antigone, 341-350; Euripide, fr. 27 N2. (١٢٨)
- Platon, Banquet, 203 b-e. (١٢٩)
- Metin huphainein: Il., VII, 324; IX, 93-95; 422; XIII, 303; 386; Od., IV, 678; 739; (١٣٠)
 (Hés.), Boucl., 28. Déolon huphainein: Il., VI, 187; Od., IX, 422; dōlon (ou: tech-
 nen) plékein: Esch., Choèph., 220; eur., Ion, 826; 1280' Théognis, 226 (doloplokia);

metin tektainesthai: II., X, 19. انظر أيضاً الأمثلة التي جمعها تايردا في كتابه السابق الإشارة إليه J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, 1965, p. 232-236 وهو يضيف إلى هذه الصور التقنية للضفر والنسج والبناء صور المطبخ في لغة أرسطوفانيس. والفعل kurkanân الذي يعني "يعد خليطاً" يستخدم فيها بمعنى «تدبير أمر».

(١٣١) في أعمال أفلاطون Platon, Lois, III, 678 et Politique, 283 b يضم فن الضفر plektiké تقنيات النسج huphantiké وتقنيات النجارة tektoniké. انظر P. M. Schuhl, "Remarques sur Platon et la technologie", Rev. Et. Gr. 66, 1953, p. 465-472 et R. Weil, L"Archéologie" de Platon, Paris, 1959, p. 65-66.

(١٣٢) أرسطوطاليس (Aristote), Mechanica, 847 a 22 sq.

(١٣٣) أرسطوطاليس (Aristote), Hist. anim., 620 b 25 sq.

القسم الثاني الاستيلاء على السلطة

الباب الثالث

معارك زيوس

(١) عن المجردات المؤلهة عند هيسودوس ارجع إلى B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1955, p. 65 sq. بعض الآلهة التي لها شعائر تحمل أسماء يمكن مقارنتها باسم ميتيس، مثل: Aidós, Pistis, Phóbos, Éros, Cháris انظر H. Usener, Mythe et pensée chez les Grecs 1, Paris, 1969, p. 52. عن المشكلة العامة الخاصة بالأسماء المجردة من حيث هي آلهة عند الإغريق والرومان انظر H. Usener, Götternamen, Versuch einer Lehre von der religiösen Begriffsbildung, Bonn, 1896, p. 364-375.

(٢) انظر "پروميثيوس مغلولاً" Promèthée enchaîné, 212-213 ولجد عند هوميروس نفس التضاد بين dólos من ناحية و krátos et bie من الناحية الأخرى. لوكورجوس الذي واجه في منازلة غريبة أرايثوس - الذي يصفه پاوسانياس بالداهية aner polemikós (VIII, 4, 10) - إذ فاجأه من الخلف في طريق شديد الضيق فلم يستطع أن يستخدم حريته الحديدية التي لا تُغلب لا تُغلب في Iliade, VII, 135 sq. فقتله بالدهاء لا بالقوة dóloi, oii ti kráteige ، بأن سبقه عن خيانة hupophthás . انظر Paus., VIII, 4, 10 : فقتله بالدهاء لا بالأمانة dóloi kai ou sùn toi dikajoi . انظر Od., IX, 406 et 408 انتصر أولبسيس على الكوكلوپيس «بالحيلولة لا بالقوة» dóloi oudè biephin . عن دور ميتيس ، واستخدام الخدع في المعارك الحربية انظر Od., III, 119-121 : على مدى تسعة أعوام حبس الإغريق أعداءهم في شبكة من الكمائن من مختلف الأنواع pantoioisi dóloisi ، ولكن لم يكن

هناك من يساوي أوليسيس في الدهاء الذي انتصر على أصحاب الخدع جميعاً *pantoioisi doloisi*.
 في الإلياذة II., III, 202 أوليسيس الداهية *polúmetis* يعرف كل الحيل وكل
 الأفكار الكثيفة *pantoioius te dólous kai medea pukná*.

(٣) *Aiolometis: Thógonie, 511; agkulometis: Théog., 546; Travaux, 48; aipométes: Prométhée, 18; dolophronéon: Théog.; poikilos: Théog., 511; Prom., 308; poi-kilóboulos: Théog., 521; polúidris: Théog., 616; sophistes: Prom., 62.*

(٤) "... *deinòs... heurein káx améchánon póron*", Esch., Prom., 59

(٥) *Théog., 547, 551, 555, 560.*

(٦) *Théog., 537, 565; Travaux, 48.*

(٧) حتى اشتقاق *prométhés* من *manthàno* يعني يتعلم ليس مؤكداً M. L. West, Hesiod, Theogony, 1966, p. 308 ؛ ولكن اتباع روح الإغريق يفرض التقريب نفسه بين اسم ابن Japet و *prométhés* أي بصير، *prometheia* بصيرة، استشفاف؛ وكذلك بين اسم أخيه *Epimetheús* و *epimétheia* الفكرة التي تأتي بعد تأن؛ انظر *Théog., 511 et 559; Travaux, 89; Eschyle, Supplantes, 700.*

(٨) *Théog., 887.*

(٩) *Ibid., 559' Travaux, 54.*

(١٠) *Théog., 900.*

(١١) *Promèthee, 101-103.*

(١٢) *Ibid., 908.*

(١٣) *Ibid., 927.*

(١٤) *Théog., 894* ونلاحظ في الفقرة كلها تكرار فعل *phrázo* = يتأمل (الأبيات ٨٩٢ و ٩٠٠) مرتبطاً بكلمة (891) *phradmosúne* = الحرص و (894) *periphron* و (896) *epiphron* = حريص.

(١٥) *Prométhée, 150, 402-405.*

(١٦) *Ibid., 762.*

(١٧) *Ibid., 170, 520-525, 769-770, 915..*

(١٨) *Ibid., 119 sq.*

(١٩) *Ibid., 219-220 et 439-440..*

Apollodore, I, 1, 1; 1, 1, 4; I, 2, 1. (٢٠)

Théog., 127 (٢١)

Ibid., 126. (٢٢)

Ibid., 127. (٢٣)

(٢٤) يمكننا أن نقارن البيت ١٢٧ : *pánton hédos asphalès aiei* لكل الأشياء مقراً مكيناً إلى الأبد «
(جايا) والبيت ١٢٨ *makáressi theois hédos asphalès aiei* «للآلهة السعداء مقراً مكيناً إلى
الأبد» (أورانوس) : انظر في هذه النقطة M. L. West (o. c., p. 193-194) الذي يبين أن العبارتين،
ليستا، كما زعم البعض أحياناً، غير قابلتين للتوفيق، حتى إذا كان معنى العبارة الأولى قد تحدد
بدقة في البيتين ١١٨ و ١١٩ اللذين يردان في كل المخطوطات. البيت ١٢٨ : *óphr'eie makáressi*
theois hédos asphalès aiei «حتى يكون للآلهة السعداء مقراً مكيناً إلى الأبد» - يشير في
رأينا إلى الوضع المستقبلي لأورانوس، إلى الوضع الذي سبصير إليه، ولا يشير إلى الحال المباشر كما
في البيت السابق : *hina min peri pánta kalúptoi* «حتى يغشاها قاطبة» - بل يشير إلى ما
سيكون في المستقبل عندما يصبح على النحو الذي قدر له سلفاً من الناحية الكونية والدينية: فوق
العالم السماء الثابتة الساكنة لكي تتخذ فيها الآلهة السماوية مكانها . انظر: Schol ad Hés. Th.,
128, p. 185 Flach والفعل *kalúptein* لا يعني في المقام الأول : يغطي كما يغطي الغطاء الإثاء،
ولكنه يعني = يغشى ويخفي. انظر: Théog., 539 et 541 : فلا بد إذن أن تكون هناك علاقة بينه
وبين الفعل *apokrúptein* في ١٥٧ : فلنكي يغشى رب السماء الأرض لا بد أن يمتد فوقها؛ وهذا ما
يورد في الأبيات ١٧٦-١٧٨، وفيها أورانوس «يرتبط بجايا ويمتد في مكان فوقها» *amphi dè*
Gaiei (...) *epéscheto kai rh'etanústhe pántei* هذا هو الوضع قبل تدخل كرونوس. وفي المقام
الثاني التعبير *hédos asphalès aièi* يفترض أن السماء تظل ثابتة ساكنة وأن رب السماء لا ينزل
بعد ذلك على الأرض جايا ليقترن بها؛ انظر في هذه النقطة - Odyssée, VI, 43 et Pindare, Né-
ho dè chálkeos asphalès «السماء الصلبة تظل مقراً مكيناً إلى الأبد» *méennes*, VI, 5-7
aièn hédos ménei ouranós. وشرح هيسودوس وضع أورانوس المزدوج هذا بجملتين متميزتين،
الأولى تبدأ بلفظة *hina* والثانية بلفظة *óphra* . ويمكن أن نلاحظ بعد ذلك أن الجبال *Oúrea* التي
تلدها جايا، مثل أورانوس، بدون معاشرة، أي بدون اتحاد مع إله ذكر، تعرف هي الأخرى بأنها مقر
طائفة معينة من الآلهة، هي النيمات التي لن يحكي هيسودوس عن مولدها إلا فيما بعد، انظر
البيت رقم ١٨٧ عن النيمات الميلينية.

Ibid., 176-178. (٢٥)

Ibid., 157: *pántas apokrúptaske* أي «غشاها جميعاً» . (٢٦)

(٢٧) استخدام الفعل *érchpmai* (*elthe dè núkt'epágon* «أتى جالباً الليل» يحمل ضمناً معنى أن أورانوس لم يكن يغطي الأرض بلا انقطاع؛ فهو «أتى» ليتحد معها. وهذا لا يعني أنه يكون في أوقات أخرى في مكانه بالسماء. وتبدو لنا الكلمة في نص هيسودوس لها معنى خاص يعطيه لها الإغريق عندما يكون المقصود العلاقات الحميمة الجنسية مع امرأة، على نحو ما نطالع في هيرودوتوس. *Hérodote, II, 115 et VI, 68*. والواقعة المتمثلة في أن رب السماء المعتمدة عندما يتحد بجايا «يأتي بالليل» تبين أنه - إذ لا يبقى باستمرار في مكانه - يمنع (*hemére*: 124) نور النهار من أن يخلف الظلمة بانتظام. ولهذا فهو إذ يغشى جايا، واذ يخفي أولاده في حجر جايا، لا يدعهم «يصعدون إلى النور» (١٥٧).

(٢٨) *Ibid.*, 160. جايا تن في داخلها، من الضيق، والمجلة والزحام *steinoméne*. انظر: *II., XXI, 220* «الإله النهر» سكاماندروس لم يعد يستطيع الاتسياب لأنه كان *steinomenos nekúessi* «مزحوماً» بالجثث التي ملأته، ومنعته من أن يصب في البحر، مثل جايا التي كانت مزحومة بأولادها الذين لم يكونوا يعرفون السبيل إلى مخرج.

(٢٩) انظر «ثيوجونية» هيسودوس: *Théog., 138. Kronos agkulometes : 18, 137, 168, 473, 495.*

(٣٠) نفس المرجع. *Ibid.*, 138.

(٣١) نفس المرجع. *Ibid.*, 177: *himeiron philótetos*. على العكس من ذلك جايا أنجبت جايا أورانوس *philotetos ephimérou* «دون الاستعانة بالحب العاطفي» (البيت ١٣٢). ولكن هذا الحب العارم بما اتسم به من تكرار مستمر وغياب المسافة بين القوتين المتقابلتين لم يسمح للاتحاد بأن يخرج إلى النور جيلاً جديداً. كان أورانوس برغبته المستمرة في الوصال *philotes* يقترب في آن واحد من القوة الأساسية لإيروس وأفروديتي، الربة التي كانت دائمة في صحبة إيروس وهيميروس، الحب والرغبة (البيت ٢٠٢) كما يقترب من الليل. والوصال يقيناً من امتيازات أفروديتي (البيت ٢٠٦)، ولكننا نجده في سلالة الليل النكراء (البيت ٢٢٤)، هذا الليل الذي ينشره أوروانوس لرغبته المستمرة في الوصال.

(٣٢) كره أورانوس أولاده منذ اليوم الأول (*ex arches, 156*)؛ ما كانوا يولدون حتي يوارثهم في غيابات جايا. ولكن هذه المعلومات لا يمكن التوفيق بينها وبين ما سيذكره الشاعر فيما بعد في فقرة أخرى وفي سياق مختلف هو سياق الصراع بين كرونوس وزئوس (٦١٧-٦٢٠). أما بالنسبة إلى الهيكاتونخيريس أصحاب المائة ذراع فعندما حقق أبوهم عليهم حسداً منه لما كان لهم من قوة لا مثيل لها، ونية وقوام، قيدهم بقيد شديد. وسنعود إلى تناول المشكلات المرتبطة بتقييد الهيكاتونخيريس الذي لا يرد في النص الذي نفسره. ولكننا نسجل هنا على عجل أن قوة الهيكاتونخيريس ونيبتهم وقوامهم لا يمكن أن تشير حسد أبيهم إذا كانوا أطفالاً حديثي الولادة. صحيح أن الآلهة تكبر بسرعة،

ولكن هيسودوس لا يغفل عن التشديد في حديثه عن زيوس على أن الوليد كان لابد أن تنمو قوته
وبنيته قبل أن يواجه كرونوس (انظر الأبيات ٤٩٢-٤٩٣).

(٣٣) نفس المرجع. Ibid., 165.

(٣٤) J. -P. Vernant, "Oedipe sans complexe", Raison présente, 1967, 4, p. 10-11 (=Mythe et Tragédie, p. 85-86).

(٣٥) انظر «ثيوجونية» هيسودوس: Théog., 207-210.

(٣٦) نفس المرجع. Ibid., 174. واري أورانوس جايا (kalúptoi, 127) واري أولاده (apokrúptaske, 157). وبالمقابل وارت جايا كرونوس (krúpsasa) ووضعت في كمين حبت سيأتي أبوه دون أن يشك في شيء.

(٣٧) نفس المرجع. Ibid., 160 et 175.

(٣٨) نفس المرجع. Ibid., 461-462.

(٣٩) نفس المرجع. Ibid., 466.

(٤٠) نفس المرجع. Ibid., 476 et 486.

(٤١) نفس المرجع. Ibid., 486. النص يتضمن theon protéroí basilei "أول ملك للآلهة". وعلى هذا النحو يفهمه مازون Mazon. ولكن ويست M. L. West في طبعته المحققة النقدية يقترح أن تكون العبارة theon protéron basilei أي = ملك الآلهة الأولين، موجهاً النظر إلى أن التبتان يسمون في نص هيسودوس protéroí theoi أي الآلهة الأولين (انظر البيت رقم ٤٢٤)، وأن "الملك الأول" عند هيرودوتوس «هيرودوت» هو ho protéron basileús (وهو تصحيح أخذ به بيمولر. انظر ويست في الكتاب المذكور ص ٣٠١).

(٤٢) انظر «ثيوجونية» هيسودوس: Théog., 471.

(٤٣) Pausanias, VIII, 36, 3; IX, 41, 6.

(٤٤) انظر «ثيوجونية» هيسودوس: Théog., 489-491.

(٤٥) نفس المرجع. Ibid., 494.

(٤٦) نفس المرجع. Ibid., 496.

(٤٧) نفس المرجع. Ibid., 495.

(٤٨) Apollodore, I, 2, 1. عند أبوللودوروس يقابل نضج télcios زيوس ما جاء عند هيسودوس ménos الأمير الشاب وأعضاؤه؛ أما دور ميتيس (٤٩٢-٤٩٤): بمرور السنوات نمت بسرعة حمية

فيذكرنا بدهاء ربا Rhea المبتسي (٤٧١)؛ علاوة على ذلك العقار السحري phármakon أو الشراب السحري يتصل هو أيضاً بالدهاء المبتسي وصنوف قوته؛ انظر الأوديسا، النشيد الرابع، البيت ٢٢٧، حيث جاءت عبارة عقاقير phármaka métióenta هيلينه القائمة على علم دهائي.

(٤٩) انظر «ثيوجونية» هيسودوس: Théog., 464: péproto; 894: heimarto.

(٥٠) نفس المرجع. Ibid., 891-893.

(٥١) تظهر القوى المسيطرة على الانتقام على وجه مزدوج وتصذر عن أصل مزدوج: فمن حيث صدرها عن جايا تمثلها الإيرينويس Érinyes؛ ومن حيث صدرها عن الليل Núx تمثلها الكيريس، الكيريات Kères وهي آلهة انتقام رهيبة والنيميسيس، النيميسيات Nèmesis. عن الإيرينويس، الإيرينويات elitópoinos أو nelitópoinos عند Ruhnken ارجع إلى-Ar (ORPHÉE), gonautiques, 1365. ويمكن الرجوع بصفة عامة عن جمع الإيرينويس -الإيرينويات - والكيريس

- الكيريات - معاً إلى M. L. West, o. c., p. 229, note au vers 217.

(٥٢) انظر «ثيوجونية» هيسودوس: Théog., 184.

(٥٣) نفس المرجع. Ibid., 493.

(٥٤) نفس المرجع. Ibid., 188-190.

(٥٥) نفس المرجع. Ibid., 205-206. - تعني كلمة *aphrós* في نفس الوقت الزبد الأبيض الذي يظهر على موج البحر والمني الذي طفا وانطلق من لحم أورانوس المقطوع انظر, *ap'athanátou chroòs ornuto*, Diogène d'Apollonie, fr. B 6 et A 24 in Diels- 191. عن العلاقة بين المني والزبد انظر -Kranz, FVS 7, II, p. 65 et 57; Hippocrate, De la génération, I, 2 et 3; Aristote, Gén- ération des animaux, 736 a 10-24; O. F., fr. 127 et 183 Kern. وكما أن الإيرينويس - الإيرينويات - أنتجت من الأرض من دم أورانوس، وهن بهذا قريبات الشبه بالكيريس والنيميسيس المتولدات من الليل، نجد أن أفروديتي المتولدة عن عضو أورانوس قريبة الشبه بالإيهام Apáte والحنان Philótes والكلام الكاذب المعسول Pseudeis lógoi وكلها تبدو كأنها من نسل مشثوم تولد عن الليل. هكذا ولد الفعل الإجرامي الذي ارتكبه كرونوس قوى إلهية على البر وفي البحر، تضاد بعضها بعضاً مثل الكره والحب، الصراع والاتفاق، ولكنها كلها مختلطة متداخلة، فالإيرينويس - الإيرينويات - وأفروديتي لهن ناحية بيضاء وناحية سوداء. انظر في شأن الإيرينويس، الإيرينويات Pausanias, VIII, 34, 3؛ أما أفروديتي فقد وصفت بأنها سوداء Melainis، وغويطة Muchia وروحية Eumenes.

(٥٦) عن الزمن الخادع انظر Kern: Chrónos apththitómetis ذو دهاء لا يفنى.

(٥٧) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 889-890. يقارن به ٢٠٥ (أفروديته). ٢٢٤ و ٢٢٩ (نسل الليل).

(٥٨) Apollodore, I, 3, 6. نفس استخدام فعل phtháno بمعنى يتقدم، يسبق في موضع آخر عند أبوللودوروس. Apollodore: I, 6, 1. تقدم زيوس بالكاد العمالة في التقاط العقار phármakon بواعز من جيا، ولو كان العمالة نجحوا في الاستيلاء عليه وتعاطوه لجعلهم مظفرين لا يهزمون. وهذا الفعل hupophtháno هو نفسه الذي نجده في الإلياذة Iliade, VII, 144 حيث يشير إلى أن لوكورجوس وجد وسيلة مكنته من قتل غريم له كان يخشاه على نحو خاص فتمكن منه «بالدهاء لا بالقوة» كما ذكرنا.

(٥٩) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 501-502؛ انظر شرح ويست M. L. West, o. c., p. 304

(٦٠) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 617-618.

(٦١) نفس المرجع Ibid., 504-506.

(٦٢) نفس المرجع Ibid., 501.

(٦٣) Ibid., 164: Paidés emoi kai patròs atasthálou... "أبناء خرجوا مني ومن أب غضوب..."

(٦٤) نفس المرجع Ibid., 167-170 et 178.

(٦٥) نفس المرجع Ibid., 208-210. اللعب بالكلمات يجري على مسترين: Titanes (Titènes) titaino, Titanes-tisis; cf, Sch. à 209, p. 187 et 231 Flach.

(٦٦) نفس المرجع Ibid., 337 sq.

(٦٧) ليست هناك إشارة إلى زواج إلا بالنسبة إلى برياريوس فقط، وهي أنه تزوج كومبوليوس ابنة بوسيدون (الأبيات ٨١٨-٨١٩) وليست هناك إشارة إلى نسل له.

(٦٨) Apollodore, I, 1, 1-6.

(٦٩) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 424 et 486؛ انظر شرح ويست M. L. West, o. c., p. 200 كلمة próteros تفترض وجود جيل سابق بالقياس إلى جيل لاحق هو جيل زيوس؛ الرب الأولمبي لم ينتزع من هيكاتي ما كانت قد حصلت عليه "مع الآلهة التبتان الأولين". ومعنى التعبير يتحدد في البيت التالي (٤٢٥): "tò proton ap'arches épleto dasmós" احتفظت بما كانت قد أعطيته أصلاً في التقسيم الأول.

(٧٠) پاوسانياس ينوه بالمأثور عن إبليس Elis والذي يشير إلى أن كرونوس كان ملك السماء الأول. ويكون زيوس قد تنازع مع كرونوس على عرش أولومبيا. Pausanias, V, 7, 9-10. في

أولومبيا Olympia على وجه التحديد كان جمع من الكهنة كل عام في الاعتدال الربيعي يقدم القرايين إلى الإله الأول، فوق قمة جبل كرونوس، وكان هؤلاء الكهنة يعملون لقب باسيليا Basilia أي "الملكيون" Pausanias, VI, 20, 1

(٧١) انظر ويست M. L. West, o. c., p. 306 et 213.

(٧٢) يبدو أن الكوكلوپيس عند هيسودوس يختلفون عن الرعاة الأفظاظ في الأوديسا التي تسميهم الملحمة بنفس الاسم، وهم كذلك عمالقة يبنون الأسوار في رواية تورتابوس C. Tyrée (fr. 9, 3, Prato)، ويشار إليهم أحياناً باسم Cheirogástores أو Egcheirogástores أي من لهم أذرع عند بطونهم (Scholie à Hésiode, Théog., 139; Hellanicos de Lesbos, fr. 88 Jacoby, Scholie à Aristide, LII, 10, p. 408 Didorf) عند هيسودوس الكوكلوپيس صناع في باطن الأرض يصنعون أسلحة السيادة السحرية، وتميزهم عينهم المدورة الوحيدة في جبهتهم، كما تميزهم قوتهم (is-chius, bie)، وكذلك مهارتهم (mechanai). أما الهيكاتونخيريس أصحاب المائة ذراع (انظر عن الاسم ويست M. L. West, o. c., p. 209 et 210) فلا يتميزون فقط بقوة هائلة، ونية رهيبة، بل يتميزون أيضاً بأذرعهم العديدة، ونشاط ومرونة (aissant, 150) لا تعرف التعب، مما يجعل من المحال الاقتراب منهم (إذا قرأنا الكلمة في البيت ١٥١ هكذا áplatoi) أو يجعلهم بلا شكل محدد أو غير قابلين للتقليد (إذا قرأنا الكلمة هكذا áplastoi). ويظهر المعنى الحربي لهذه الأذرع العديدة واضحاً خلال حرب التيتان. وهيسودوس يعيد استخدام في هذه الفقرة (الأبيات من ٦٧٠ إلى ٦٧٨ ومن ٧١٣ إلى ٧٢٠) التعبيرات التي استخدمها من قبل. "كان لكل واحد منهم مائة ذراع تنبثق رهيبة من أكتافهم". ولكن هذه الأذرع، أو على الأحرى هذه الأيدي cheires مسلحة بصخور سيَهْشُمُون بها التيتان (البيت ٦٧٥ والبيت ٧١٥). وفي صفوف الهيكاتونخيريس وفي صفوف التيتان يبين كل واحد ما يمكن أن تفعله القوة bie والأيدي cheires, 677. والتشابه من ناحية أخرى لاقت للنظر بين وصف الهيكاتونخيريس الأقوياء óbrimoi (البيت ١٤٨)، deinoi te krateroi المرعبين، الأشداء (البيت ٦٧) وبين وصف رجال من الجنس البرونزي وهبوا أنفسهم للعمل الحربي. هذا الجنس يوصف بالقوة والرعب deinoi te kai óbrimon (انظر Travaux, 145 قصيدة "الأعمال" لهيسودوس). ويلفت التشابه النظر على نحو أشد عندما نجد في الأبيات ١٤٨-١٥٠ من قصيدة "الأعمال" لهيسودوس نفس التعبيرات التي استخدمت في «ثيوجونية» لوصف الهيكاتونخيريس: «قوتهم شديدة، أذرعهم لا تُقهر، وهي متصلة عند الكتف بجسمهم القوي» وعلينا أن نحفظ التعبير الذي استخدمه هيسودوس في البيت ١٥٢ عند وصف موت هؤلاء المحاربين الذين قُذُوا من البرونز: cheiressin hupò sphetéreis daméntesò أذرعهم وهم ذاهبون إلى هاديس >إله الموتى<».

وهناك نص في «قوانين» أفلاطون (Lois, 795 sq.) يقدم إلينا تفسيراً جيداً لطبيعة الهيكاتونخيريس

ووظيفتهم. فأفلاطون يذكر أن الملاك الكامل لابد أن يكون أيسر أعسر قادراً على استخدام يمينه ويساره. «عندما تكون لديه القدرة على الضرب بيده اليسرى، فإنه يتفادى ألا تكون لديه سوى إمكانية رد عرجاء، بطيئة، غشيمة عندما يضطره الغريم إلى الدوران إلى الخلف للإفلات من هجمة عكسية. وينطبق القانون نفسه على استخدام الأسلحة الثقيلة والأسلحة من كل نوع: من كان لديه عضوان للدفاع والهجوم يفرض عليه هذا القانون ألا يترك أيّاً منهما بلا عمل وبلا تدريب. ولو ولد الإنسان مثل جيريون أو برياريوس لاستطاع أن يسدد مائة حربة بيديه المائة».

هذا التعمد الهائل في الأيدي والرؤوس عند الهيكاتونخيريس يذكرنا بموضوع المحارب المزدوج الذي لا يُقهر لأنه يجمع قوة رجلين. وهذه هي حال الموليونيدين «موليونيديس» Molionides، التوأمن اللذين لهما أب من البشر هو أكتور Aktor وأب من الآلهة هو بوسايدون (عن العلاقات بين الهيكاتونخيرى برياريوس والبحر وبوسايدون ارجع إلى ويست M. L. West, o. c., p. 210 et 379). ولقد قدمت الإلياذة من قبل الآخرين إذ هما مؤتلغان انتلاقاً عميقاً في قيادة العربة (XXIII, 638 sq et scholie). ويصفهما إيبكوس Ibycos بأنهما مؤتلغان يكوّنان معاً ما يوشك أن يكون كائناً واحداً اتصلت جوارحه بجسم واحد (Athénée, II, 58 a). هذا المحارب المزدوج لابد أنه كان رهيباً؛ ولكي يتمكن هيرقليس (هرقل) من قتله، اضطر إلى أن يباغته بالهجوم الغادر بأن نصب له كميناً حيث لم يكن أخذاً حذره. (انظر-Pindare, Olymp., X, 36-38; Pausanias, V, 2, 1' Apol-iodore, II, 7, 2). وهذه هي أيضاً حال جيريون Geryon الذي قبل عنه إنه ذو ثلاثة رؤوس (Hé-siode, Théog., 287) وثلاثة أبدان (Eschyle, Agamemnon, 870) اجتمعت فوق ساقين (Apol-iodore, II, 5, 10). وقبل إنه كانت له ست أيدٍ وعشر أقدام (Stesichore, fr. 6 Bergk)؛ ويضيف أرسطوفانيس - الذي يتحدث في مسرحية "الأخارنيون" عن جيرنيون - أنه كان ذا خوذات أربع، أي أنه كان بأربعة رؤوس على كل خوذة من خوذات القتال. ويظهر جيريون في الصور بأبدانه المتعددة تكسوها السراويل المصفحة من خوذات وآثاب ودروع ورماح. وعبارة أرسطوفانيس على لسان ديكياركوس موجهاً الكلام في سخرية إلى لاماخوس هي: «أم تريد أن تصارع جيريون له أربعة أعراف؟» والشارح يصوغها كما يلي: «أم تريد أن تصارع واحداً لا يُقهر akatamáchentos؟» وجورج دوميزيل Georges Dumézil الذي يدين له تحرير هذا الفصل عن الميثاث الإغريقية بالكثير، حتى وإن كنا افترقنا عنه عند جزئيات التفسير، أدرك تماماً هذه النواحي المتصلة بالسحر الحربي والتي تضيء على الآلهة المحاربة، علاوة على قوتها البدنية، كل أسلحة المايا maya ابتداءً من الدهاء ووصولاً إلى تعددية الأشكال وإلى موهبة التحور. ومما كتب: «ينبغي على المحارب أن يكون قادراً على الإفلات من القوانين، لا القوانين الأخلاقية فحسب، بل القوانين الكونية والفيزيقية ذاتها؛ وهو لكي يدافع عن النظام، عليه أن يكون في حال تمكنه من تجاوز هذا النظام والخروج منه - حتى وإن اضطر للمجازفة بالاستسلام إلى إغراء الهجوم عليه.» (انظر-Ordre, fantaisie, change-ment dans les pensées archaïques de l'Inde et de Rome - à propos du latin mos ", Re-

(vue des Études latines, 1954, p. 145). وقصة بيركلومينيس التي ستتاح لنا فرصة العودة إليها، تجسم هذا الموضوع، موضوع المحارب الذي أوتي القدرة السحرية على التحور. وسيحتاج هرقليس لكي يقهره إلى أن يقلب ضده، بمساندة أثينه، أسلحة الدهاء والخداع.

(٧٣) انظر المسرحية التراجيدية «بروميثيوس مغلولاً»، 145, 163, 942, 955, Prométhée enchaîné, 960.

(٧٤) كما أن جايا أخفت الصاعقة في البداية، الصاعقة التي أصبحت سلاح زيوس، كذلك كانت هي التي خلقت المعدن الأبيض وهو الصلب، والحرية التي أصبحت سلاح كرونوس (١٦١-١٦٢). أما بروميثيوس فهو الذي كشف للناس كل الكنوز التي كانت الأرض تخفيها: البرونز والحديد والذهب والفضة (Prométhée, 500 sq)

(٧٥) انظر «ثيوجونية» هيسودوس. Théog., 718.

(٧٦) التعبير pistoi phúlakes Diós بحسب ويست M. L. West لا يشير إلا إلى العون الذي قدمه إلى زيوس، لا إلى دورهم كحراس وسجانين. انظر العكس عند Tzetzés, Th., 277. بعد الالتزامات المتبادلة بين زيوس والهيكانخيريس الذين أخذوا واعتقلوا، لا نفهم لماذا يسكن هؤلاء التارتاروس إلا أن يكونوا حراساً. أو يكون علينا أن نقبل مع ويست M. L. West بأن زيوس نفاهم هم بدورهم. ولكن هيسودوس لا يقول شيئاً يحمل هذا المعنى.

(٧٧) Iliade, I, 402 sq.

(٧٨) Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957.

(٧٩) انظر «المجتثات الأورفيوسية» O. F., 178 et 179, p. 210-212 Kern.

(٨٠) انظر «ثيوجونية» هيسودوس. Théog., 678-682, 695-705, 839-952.

(٨١) نفس المرجع. Ibid., 632.

(٨٢) نفس المرجع. Ibid., 695 sq et 715.

(٨٣) نفس المرجع. Ibid., 711. التعبير ekleinthe máche لا بد من فهمه موصولاً بالبيت ٦٣٨ الذي يعارضه. لمدة عشر سنوات «بالنسبة إلى الجميع على السواء ظلت نهاية الحرب معلقة» izon télos tétato ptolémoio وكما ذكر ويست (o. c., p. 341) الاستعارة تنصب على ثقل ميزان كل معسكر من المعسكرين المتصارعين. الكفتان متعادلتان في البداية، ولكن عندما يحرك زيوس صاعقته، قبل كفة الميزان.

(٨٤) انظر «ثيوجونية» هيسودوس. Théog., 823-824.

(٨٥) Iliade, XIV, 73: ménos kai cheîras édesen.

R. B. Onians, *The Origins of European Thought*, 2.éd., 1954 (1re éd. 1951, p. 348, (٨٦ n. 1),

Iliade, XIII, 434 sq.; V, 385 sq; *Odyssée*, III, 269 et XVIII, 155-156. (٨٧

(٨٨ Apollodore, I, 2, 1. ينهض الكوكلوپيس هنا بمهمة الموزعين، إذ يقدمون إلى كل إله السلاح الذي يخصه والذي يحدد مجاله. بهذه السمة تقوم قرابة بين الكوكلوپيس وبين پروميشيوس الذي يشدد الميثوس الخاص به على دوره كموزع. انظر J. -P. Vernant, *Mythe et pensée chez les Grecs*, 5. éd., II, p. 9 sq.

(٨٩ پروميشيوس (الأبيات ٩٢٢-٩٢٥. نفس التأليف بين الصاعقة والشوكة عند پنداروس، Pindare, *Isthmiques*, VII, 59-106. زيوس وپوسايدون يتنافسان إلى أن يتحدا بثيتيس. وثيميس تحذرهما من أن النيريديس ثيتيس ستضع ثمرة هذا الاتحاد ابناً «ستكون لبده رمية ذات رهبة أشد من الصاعقة ومن الشوكة الهائلة» (٧١-٧٥). فلما عرف الملكان النبوءة اتفقا على التخلي عن مشروعهما كي تتزوج ثيتيس واحداً من البشر. وپروميشيوس في هذه الصياغة ليس هو العارف الوحيد بسر ثيميس-جايا. وقد أبدل التيتان صاحب الدهاء بنصيحة الإلهين اللذين «حفزتهما الحبيطة على الحيلولة دون إتمام هذا الاتحاد». كذلك نجد ائتلافاً وثيقاً بين صاعقة زيوس وشوكة پوسايدون في الإلبادة، النشيد ٢٠، الأبيات ٥٦-٥٨، وفيها نقرأ: زيوس يدوي من فوق، وپوسايدون يضرب الأرض من تحت.

(٩٠ *Iliade*, XIII, 434-437.

(٩١ نفس المرجع Ibid., V, 385 sq.

(٩٢ *Théogonie*, 726-753, Cf, P. Walcot, *Hesiod and the Near East*, Cardiff, 1966, p. 61.

(٩٣ نفس المرجع Ibid., 697.

(٩٤ M. L. West, o. c., p. 351.

(٩٥ Hymne Hom. Apollon, I, 335. انظر في المعنى نفسه الإلبادة، النشيد ١٤، الأبيات ٢٠٣-٢٠٤.

(٩٦ انظر كالليماخوس، حمام أثينية Callimaque, *Bain de Pallas*. للتعبير عن أن أثينة أصابت تيريسياس بالعمى عقاباً له على ما ارتكب من إثم إذ نظر إليها وهي تستحم - يستخدم النص التركيب التالي: «خطف الليل عينيه» (٨٢).

(٩٧ عن استحالة الإفلات من عين زيوس انظر «پروميشيوس» الأبيات ٩٠٢-٩٠٦. وهذا هو كورس «جنيات» الأوقيانيدات يتمنى ألا يلتقي حب واحد من كبار الآلهة عليهن عيناً لا سبيل إلى الإفلات منها áphukton ómma؛ ويضفن إلى هذه الأمنية قولهن إن تلك حرب مستحيلة لا يقدر عليها أحد

apólemos... pólemos، ولا مخرج منها لأحد ápora pórimos. ويختتم الكورس إنشاده بهذه الكلمات: «لا أرى سبلاً للإقلاط من دهاء زيوس المبتيسي.»

(٩٨) انظر: «ثيوجونية» هيسودوس Théogonie, 715-717

(٩٩) نفس المرجع Ibid., 838-839 نفس التأليف بين نظرة زيوس الحادة ودوي الرعد والصاعقة في الإلياذة، النشيد الثامن، الأبيات ١٣٢-١٣٣. هذه العلاقة الوثيقة بين قوة النظرة الخاصة بالإله السيد الملك وبين السلاح الصاعق الذي في حوزته لجدها بينة، دقيقة التحديد على نحو خاص في «بروميثيوس مغلولاً». عبارة ágrupnan bélos أي الضربة البقطة التي تمثلها صاعقة زيوس تقابلها gorgopon sélas ومضة النظرة المربعة التي تنبثق في برق estrapte (راجع اسم الكوكلوپيس استبرويس Steropès المشتق من estrapte) من عيني توفون. في تأجج هذه النظرة تعبير عن نية الوحش في أن يقلب بالعنف هيمنة زيوس (الأبيات ٣٥٦-٣٥٨). والمعركة يتواجه فيها، على نحو ما عين لعين، الإله السيد والمتمرّد الذي يريد أن يخلعه عن العرش. ولكن نظرة زيوس البراقة تتميز بنوع خاص من البقطة والحسم. وهذا هو توفون يقع ضحية عنف هذه النظرة التي كان يريد أن يصيب بها زيوس فينتهي به الأمر إلى الخضوع لـ «يد» سيد السماء: (353) pròs bian cheiróúmenon. والقراءة التي نعتقد أننا قادرون على إثبات قيامها بين عين زيوس ونار الصاعقة، قرابة طبيعية بقدر ما كان الإغريق يجمعون على تصور العين ذات طبيعة نارية. فأرسطوطاليس يقر بأن العين والرؤية في رأي جميع الفلاسفة ينتميان إلى النار (انظر De sensu, II, 437 a 19 sq). وكثيراً ما كان الأقدمون يتصورون النظر كالشعاع المنبعث من نار العين في اتجاه الشيء (إمپيدوقليس Empédocle, 45 b-c) وإمپيدوقليس يتحدث عن القبس الذي حفظته أفروديتي وحمته في مركز العين بأغشية مثل الملامات الرقيقة في السرير، فيسميه kouíre kúklops أي البنت الصغيرة أو البنت القاصر ذات العين المدورة (انظر Empédocle, fr. 415 (B 84), in Jean Bollack, o. c., t. 3, p. 324 sq). ولعلنا نسلك سبيل الصواب عندما نفترض مثلما افترض م. فان بيرج M. Van Berg في ندوة من ندواتنا في مدرسة الدراسات العليا، أن تكون هناك علاقة مباشرة بين عين الكوكلوپيس المدورة والوظيفة التي خصّهم بها هيسودوس من حيث هم أساطين نار التعدين، وصناع الصاعقة (انظر Théog., 141: teûxán te keraunón) خدمة لزيوس. ويتحدد الكوكلوپيس الثلاثة عند هيسودوس هكذا بالنسبة إلى الهيكاتونجيريس الثلاثة على أنهم أولئك الذين يعطون ملك الآلهة قوة العين والنظرة، إلى جانب أولئك الذين يعطونه قوة اليد والذراع.

(١٠٠) Épiménide, fr. B 8, in Diels-Kranz, FVS 7, I, p. 34.

(١٠١) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 839-868.

(١٠٢) Apollodore, I, 6, 3.

١٠٣) انظر بيندروس Pindare, Pythiques, I, 52 et 34-36.

١٠٤) انظر «الأوديسا» Od., VIII, 336.

١٠٥) انظر «الأوديسا» Od., XII, 164.

١٠٦) Prométhée, 353: pròs bian cheiroúmenon. عن استخدام الفعل cheiro الذي يعني يحرك باليد ويخضع ويكبح انظر Plutarque, Mor., 987 e, حيث يدل اللفظ مثل dāmni على استئناس الحيوانات المتوحشة التي تمكن البشر منها بالشباك والفخاخ págaïs à dólois. والهيكتاتونخيريس بأذرعهم المائة موهلون على نحو خاص ليُمِدُوا زيوس بالقُدرة echeirósanto. على الكبح cheiroun.

١٠٧) Prométhée, 365; Pindare, Olymp., IV, 11.

١٠٨) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 521-522. هذا العمود kion يذكرنا بعمود السماء في حالة أخيه أطلس Atlas، وبالعمود الذي أخضع توفون.

١٠٩) Prométhée, 152 et 1051-1052.

١١٠) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Théog., 529 وهذا القبول لا يعرضونه دائماً كشيء تلقائي بل ولا كشيء مقصود عن إرادة.

١١١) بناءً على ما كتبه هيسودوس: كبلهم أورانوس بالأغلال. أما في رأي أبوللودوروس: كبلهم أورانوس ثم كرونوس بالأغلال. وبعض النصوص المتأخرة تشير أيضاً إلى تحرير زيوس للتيتان. ولكن هذا الرأي يقوم على تفسير وعظي أخلاقي يهدف إلى إجلال عظمة ملك الآلهة. ويبدو عمله في هذه الصياغة رخيصاً في جوهره؛ فهو لا يفترض وجود مردود على الإطلاق. فلم تعد المشكلة بالنسبة إليه إقامة السيادة أو الحفاظ عليها، فقد أصبحت سلطته على العكس ثابتة متينة على نحو يتبع له أن يمنع نفسه ترف العفر حتى عن أولئك الذين كانوا منافسين مباشرين له. أضف إلى ذلك أن كرونوس والتيتان ظلوا ملوكاً بالنسبة إلى الفكر الديني عند الإغريق. ومن الصعب أن يتصورهم المتصورون مكبلين بالأغلال إلى الأبد، وبخاصة إذا علمنا أن بعض الروايات تجعل كرونوس يحكم جزيرة السعداء (انظر قصيدة «الأعمال» لهيسودوس Travaux, 169 a؛ أما حالة توفون فمختلفة تماماً، و«ثيوجونية» تعرضها بطريقة مشابهة تماماً لطريقة عرض حالة التيتان الذين يظلون في العبودية طالما بقي حكم زيوس، أي طالما بقي النظام. عن التيتان محررين انظر Pin-dare, Olymp., II, 77; Pythiques, IV, 291 وانظر كذلك هيسودوس، قصيدة «الأعمال» Travaux, 169 a-e في فقرة لا شك في أنها مدسوسة.

١١٢) انظر إيسخيلوس Prométhée, 167-170 وانظر كذلك ٣٧٥-٣٧٦ و ٥١٠.

١١٣) نفس المرجع Ibid., 509

(١١٤) نفس المرجع Ibid., 769-770.

(١١٥) ولنذكر رغم ذلك من أجل تحليل البنيات أن الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس كانوا من بعض النواحي يواجهون زيوس قبل أن يشتركوا معه. وهم في الحقيقة، من حيث هم جيل من الآلهة ومن حيث هم أقارب، ينتمون إلى التيتان ويعارضون الأولمبيين. وهكذا فإنهم ينتقلون من وضع بدائي يواجهون فيه زيوس إلى وضع ثان مكتسب يكونون فيه بجانبه.

(١١٦) Prométhée, 59 انظر كذلك البيتين ٤٧٠ و ٤٧١.

(١١٧) نفس المرجع Ibid., 512-513.

(١١٨) انظر «ثيوجونية»، البيت رقم ٧٦٥. في موضوع الموت من حيث هو قيد انظر الإلياذة النشيد الرابع، البيت ٥١٧ : الموت moira قيد ديوريس Diôres (...) والظلام غشا عينيه skótos óss'ekálupse. - في شأن التعبير moira thanatou انظر: Od., II, 100; III, 238; XVII, 327; Onians, The Origins of European Thought, 2. ed., p. 327 et sq.

(١١٩) Prométhée, 1020 ظل پروميتيوس متوارياً تحت ضمة الصخرة التي أحاطت به، وكان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يعود إلى النور من جديد.

(١٢٠) Apollodore, I, 7, 2; PAus., X, 4, 4; Callimaque, fr. 192 Pfeiffer; Eschyle, fr. 369 Nauck, 2. éd.; Aristophane, Oiseaux, 684; Héronidas, Mimes, II, 28-30; Philémon, fr. 89 Kapp; Stobée, Florilegion, II, 27; Etym. Magn., s.v. Ikonion, p. 471, 1 sq.; Ovide, Métamorphoses, I, 80 sq.; Servius, in Virgile, Eglogues, VI, 42.

(١٢١) Euripide, Ion, 452.

(١٢٢) Athénée, 674 d-e.

(١٢٣) نفس المرجع Ibid., 671 f.

(١٢٤) نفس المرجع Ibid., 672 a-673 b.

(١٢٥) نفس المرجع Ibid., 672 f.

(١٢٦) Hygin, Poet. astr., I, 15, p. 54 Bunte: "(Promethea) nonnulli etiam coronam habuisse dixerunt, ut se victorem impune peccasse diceret; itaque homines in maxima laetitia victorisque coronas habere instituerunt."

(١٢٧) كتبنا هذه السطور عندما أتبع لنا الاطلاع على دراسة أنجيلو بريليش Angelo Brelich الذي انتهى إلى نتائج تتفق إلى حد كبير مع النتائج التي انتهينا إليها: "La Corona di Prometheus", Hommages à Marie Delcourt, Coll. Latomus, vol. CXIV, Bruxelles,

1970, p. 234-242.

Apollodore, I, 2, 1. (١٢٨)

Od., IV, 400 et sq. انظر الأوديسا (١٢٩)

Diodore, III, 70. (١٣٠)

Nonnos, Dionys., XVII, 236-264. (١٣١)

Prométhée, 237. انظر مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس (١٣٢)

Ibid., 306 et 512-513. نفس المرجع (١٣٣)

Pythiques, II, 51. (١٣٤)

Louis Gernet, "Quelques rapports entre la pénalité et la religion dans la Grèce an- (١٣٥
cienne", L'Antiquité classique 5, 1936, p. 325-339 (- Anthropologie de la Grèce an-
tique, Paris, Maspero, 1968, p. 288-301). Louis Gernet عن كلمة

mésos التي وردت في البيت ٥٢٢ في «ثيوجونية» هيسودوس وعما إذا كان الأصوب إلحاقها
بپروميثيوس، لا يجعلها تدل على عذاب الخازوق، ولكن يجعلها تشير إلى وضع القعود. بالنسبة

إلى التفسيرات الأخرى للنص انظر M. L. West, o. c., p. 312

(١٣٦) Platon, Lois, 9, 855 c. ونلاحظ أن مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس تشدد على السمة
العنيفة لما ينزل پروميثيوس من عذاب؛ والإذلال يشتد إيلاماً عندما يكون علنياً على مرأى من
الجميع؛ راجع الأبيات ٩٢-٩٣، ١١٨-١١٩، ١٤٠، ١٥٥-١٥٩، ٢٤٤-٢٤٦، ٢٩٨-٢٩٩،
٣٠٢-٣٠٣، ٥٤٠-٥٤١، ٥٥٣-٥٥٤، ١٠٩٣.

(١٣٧) مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس، الأبيات ٣١-٣٢.

Iliade, VII, 118; XIX, 72; Od., V, 453; Sophocle, Oedipe à Colonne, 19 et 85; Eu- (١٣٨
ripide, Hécube, 1080 et 1150.

(١٣٩) انظر كذلك علاوة على البيت رقم ٣٢ البيت رقم ٣٩٦

(١٤٠) انظر لوي جيرني L. Gernet, o. c., p. 300-301.

(١٤١) وزع زيوس عند انتصاره الامتيازات والمناصب على الأولمبيين، بينما جرد التيتان من كرامتهم بما
فعلهم به من نقييد بعيداً عن العالم. انظر «ثيوجونيا» البيت ٦٢٩ و البيت ٨٨٥ من ناحية
والأبيات ٤٢١-٤٢٩ من الناحية الأخرى.

(١٤٢) عندما خلع زيوس كرونوس وقبده كان بذلك يجعل من نفسه أداة تنفذ رغبة الإيرينيات للانتقام من
أورانوس. وهذا هو ما يشتهه هيسودوس مرتين؛ في البيت ٢١٠ يبلغ أورانوس التيتان أن فعلتهم لن

تبقى بلا عقاب، وأن المستقبل سينتقم منها لا محالة؛ وفي البيت رقم ٤٧٢ يذكر أن أورانوس وجيا Gaia تأمرا مع ريا Rhéa ودهروا خطة تهدف إلى تحرير زيوس ومعاقبة كرونوس على ما تحمل به من ظلم الإيرينيات. وإذا كان المفروض أن يكون العقاب على قدر الخطأ، فلنا أن نفهم ما جاء في بعض الصياغات من تصور عقاب كرونوس على شكل الجريمة التي ارتكبها هو نفسه من قبل. ولكن السمة الثانوية والهامشية التي تتسم بها هذه الصياغات وهي تبدو كأنها نشأت في بيئات طائفية مثل البيئات الأورفيوسية سمة واضحة ظاهرة. ويذكر أبولونيوس الرودسي أن هناك جزيرة خبثت فيها المحشة التي اجثت بها كرونوس أعضاء أبيه التناسلية. ويضيف أن أمة الفيقائيين تولدت من دم أورانوس (انظر أبولونيوس الرودسي، الأرجونوتية Argonautiques, IV, 982-994). ويذكر الشارح أن الكايوس يتفق مع أكوسيلوس في القول بأن الفيقائيين أصلهم من قطرات الدم التي تساقطت من أورانوس (انظر Sch. Apol., IV, 992 = Alcée, fr. 116 Bergk, 96 Edmonds, 199 Reinach). ولجند لوكوفرون Lycophron في الأبيات ٧٦١-٧٦٥ من "أليكساندرا" Alexandra كما نجد الشراح في حواشيهم وتعليقاتهم على هذه الفقرة يذكرون هذه القبلة ولكنهم يبدلون أورانوس بكرونوس ويقولون إن زيوس قام هو الآخر بخصيه (انظر Scholies à Ly-cophron, Alexandra, 762, p. 243 Scheer). وعلى النحو نفسه يؤكد لودوس Lydus في "رسالة عن الشهور" أن أفروديتي تولدت من من أعضاء كرونوس الجنسية، ويضيف أنه يعني أنها تولدت من الزمن (apò tou aiðnos, 4, 64, p. 116, 21 sq Wünsch). والرأي عندنا أنه ليس من الممكن من أجل تفسير ثيوجونية أن نستخلص شيئا من هذه العبارات التي هو إضافات غريبة على التراث الميثي الذي سجله هيسودوس.

(١٤٣) Théog., 657 هيسودوس، "ثيوجونية"

(١٤٤) Ibid., 585 sq.; Travaux, 80 sq; Iliade, XIX, 127-129.

(١٤٥) انظر "Théog." هيسودوس، "ثيوجونية"، البيت ٥٠٢. ونلاحظ أن جايا في البيت ١٦٤ قد وصفت أورانوس بأنه atàsthalos «مفرور إلى حد الجنون».

(١٤٦) Ibid., 395-396 "أما أولئك الذين تركهم كرونوس بلا امتيازات أو إقطاع átimos, agéastos فقد التزم زيوس بأن يكتنهم من الحصول على الامتيازات والإقطاع فيما يقضي به العدل he thémis estin".

(١٤٧) هيسودوس، "ثيوجونية"، Ibid., 402 et 951.

(١٤٨) هيسودوس، "ثيوجونية"، Ibid., 46, 111, 633, 664.

(١٤٩) هيسودوس، "ثيوجونية"، Ibid., 885. وكذلك ٦١٢-٦١٤.

(١٥٠) Ibid., 397-398; Prométhée, 209 sq.

(١٥١) Marie Delcourt, Héphestos ou la Légende du magicien, p. 21-23, 25-26, 66-68.

الباب الرابع

الاقتران بميتيس

ملكة السماء

(١) انظر "ثيوجونية" هيسودوس Hésiode, Théog., 886: Próten (...) Metin, et 901: Deúteron Thémín. (...) وكثيراً ما نوه الباحثون بالبناء الثلاثي المتواتر لقائمة زوجات زيوس في صياغة هيسودوس ابتداء من البيت رقم ٩٠٧ (زواجه بأورونومي Eurynomé بعد ثيميس Thémis) إلى البيت رقم ٩٢٩ الذي يختم القائمة (باستثناء البيت ٩١٠-٩١١ أخرجهما مازون Mazon من عداد الآلهة). وتأسيساً على هذا المعنى فإن زوجتي زيوس الأوليين تكونان في السلسلة مجموعة منفصلة؛ فهما خارج التعداد الثلاثي للزيجات التالية عليهما. هذا الوضع المشترك يبرزه تطابق العبارة التي تنتهي بها كل فقرة من الفقرتين اللتين خص هيسودوس بكل واحدة منهما واحدة من اليتيميتيس وثيرميس: agathón te kakón te البيت رقم ٩٠٠ (ميتيس) والبيت رقم ٩٠٦ (ثيرميس).

(٢) انظر J.-P. Vernant, Revue des Études Grecques, 1963, p. XVII-XVIII; وانظر خاصة M. Detienne, Les Maîtres de vérité dans la Grèce archaïque, Paris, 1967, chap. III, p. 30-50: Le Vieux de la Mer.

(٣) انظر "ثيوجونية" هيسودوس Théog., 901-902.

(٤) انظر "ثيوجونية" هيسودوس Ibid., 904-906.

(٥) إذا نحن نظرنا إلى هذا الثنائي المكون من ريتين لا من حيث هما ريتان بل من منظور أنهما من البشر، جاز لنا أن نقول إنهما تتناولان على نحو متناظر وجهات متعارضة من العرافة. فنبوة ثيميس تعكس ضرورة الأحكام الإلهية التي لا رجعة فيها والتي لا يستطيع البشر أن يفلتوا منها. أما ميتيس فتشير في مشورة العرافة إلى ناحية الامتحان بين الآلهة والبشر، اللعبة الماكرة الخطيرة التي ليس فيها ثابت مسبقاً، والتي يكون فيها على طلاب المشورة أن يعرفوا كيف يسألوا في اللحظة المناسبة، وكيف يقبلوا أو يرفضوا كلام العرافة بل كيف يحوروا لصالحهم الإجابة التي قدمها الرب لصالح غرضهم.

وقد يتبع تفسيرنا للثنائي ثيميس - ميتيس فهم الجمع في پارثينيون Parthéneion <الشاعر> ألقمان Alcman بين أيسا Aïsa <=القدر> وپوروس <الطريق> Póros على اعتبار أنهما من الآلهة الأولاتية ويطلق عليهما اسم أقدم الآلهة: geraitatoï sion (= theon) أو daimónon geraitatoï

(اتباعاً لإعادة تكوين النص). ويرى فرينكل H. Faenkel في كتابه «أدب وفلسفة» Dichtung (lund Philosophie, 2. éd., 1962, p. 183-184 أيسا Aîsa «=القدر» هي مبدأ القدر من حيث هو جبر كامل، وأن پوروس Póros هي التعبير عن هامش المبادرة الذي يتيح المستقبل للذكاء الذي يستطيع استخدام الحيلة. والعلاقة بين أيسا Aîsa «=القدر» وثيميس علاقة بديهية، والعلاقة بين پوروس وميتيس علاقة صريحة حتى بدون شهادة أفلاطون. وجمع أيسا وپوروس في ثنائي قوتين متعارضتين متكاملتين يكافئ تماماً الجمع بين ثيميس وميتيس. ويصح أن نضيف هنا أنه إذا كانت الفقرتان الخاصتان بميتيس وثيميس تنتهيان بنفس العبارة agathón te kakón te «خيراً وشرّاً» فإن العبارة تتخذ في كل حالة معنى عكس المعنى في الحالة الأخرى؛ في حالة ميتيس يكون المعنى هو الخير والشر اللذين تحذر الربة منهما زيوس مسبقاً لكي يتجنباً ملك الآلهة لإيجاد الحيلة التي تمكنه من نيل الخير وتحاشي الشر؛ أما في حالة ثيميس فالمعنى على العكس هو التنبيه إلى الخير والشر من حيث أنهما قدر قدرته المؤثرات الثلاث من قبل على البشر المساكين (وأسماءهن تعبر بوضوح عن أن البشر الفانين ليست لديهم وسيلة على الإطلاق لرد القدر (أيسا) أو تحويله، ذلك القدر الذي حفظته للدهاء الميتيسي بناء على الامتياز الذي منحه إياهن زيوس - timen póre me-tieta Zeús .

Metieta: Théog., 56, 520, 904, 914; Travaux, 104, Metiôeis: Théog., 286, 457; Travaux, 51, 769.

(٧) انظر الحاشية المدونة على ثوجونية هيسبودوس : Planésas Schol. Hésiode, Théog., 886: oûn autèn ho Zeús kai mikràn poiésas katépien: فلما ضللها زيوس وصغرها «= جعلها تتخذ هيئة صغيرة» ابتلعها. والمخطوط وردت به كلمة pikràn التي قرأها بالي F. A. Paley et Goettling وجوتلينج على أنها mikràn. أم هل ينبغي علينا أن نتبع كوك A. B. Cook, Zeus. A Study in Ancient Religion, III, p. 744, n. 4. ونبقى على كلمة pikràn وفسرانها بمعنى مضاد السم وكان الإغريق يسمونه hierà pikrà ؛ أغرى زيوس ميتيس بأن تتحور وتتخذ شكل قطرات من سائل سهل عليه إساغته. وكأنا نجد هنا عنصر الابتلاع الذي عرفناه في حالة كرونوس ، ولكنه هنا معكوس: فقد جعلت ميتيس كرونوس يبلع عقاراً phármakon اضطره إلى أن يتقيا أولئك الذين كان يريد إبقاؤهم إلى الأبد في داخله. وهكذا يكون زيوس نجح في تحويل ميتيس إلى عقار phármakon وبهذا يستطيع ابتلاعها وإبقاؤها إلى الأبد في أحشائه.

(٨) انظر J. Schwartz, Pseudo-Hesiodica. Recherches sur la composition, la diffusion et la disparition ancienne d'oeuvres attribuées à Hésiode, Leiden, 1960, p. 343-356; Fragmenta Hesiodica, fr. 33 a et b, p. 22 et 23, Merkelbach-West; A. B. Cook, o. c., III, p. 743 sq.

(٩) SVF, II, 256 von Arnim = Galien, De Hippocratis et Platonis placitis, III, 8 (V, p. 351 Kuhn). في شأن قدم هذه الرواية وعلاقتها برواية ثيوجونية هيسودوس، انظر كوك A. B. Cook, o. c., III, p. 743, n. 9 وانظر بصفة خاصة كاوير S. Kauer وكتابه Die Geburt der Athena im altgriechischen Epos, Würzburg, 1959 = «مولد أثينة في الملحمة الإغريقية القديمة» .

(١٠) في هذه الرواية نجد هيرا في سعيها إلى الانتقام تنجب هيفايستوس الذي يفوق الآلهة جميعاً في المعرفة والمهارة التقنيين، بينما ينجب زيوس أثينة التي تنتصر في كل أشكال الذكاء العملي.

(١١) في النص عبارة polù dineúousan «بمعنى التقلب»، وهي التي يجعل بيرك Bergk منها polùdéné' eoûsan. وإذا نحن أبقينا على القراءة polù dineúousan فعلينا أن نفسر هذا التقلب بالإشارة إلى تحورات مبتس وتقلبها الدائم من شكل إلى شكل.

(١٢) كتب صاحب الحاشية: «كان لمبتس القدرة على التحور على النحو الذي تمناه.»

(١٣) أبوللودوروس Apollodore I, 3, 6.

(١٤) Thétis-Pélée: Apollodore, III, 13, 5; Pindare, Néméennes, IV, 62; Sch. Lycophron, Alexandra, 175 et 178, p. 85 et 88 Scheer; Sch. Apollonius de Rhodes, Argonautiques, I, 582; Quintus de Smyrne, La Suite d'Homère, III, 618-624; Ovide, Métamorphoses, XI, 235. Protée-Ménélas: Odyssée, IV, 383-570. Nérée-Héraklès: Apollodore II, 5, 11; Sch. Apollonius de Rhodes, Argonautiques, IV, 1396.

(١٥) أبوللودوروس Apollodore III, 13, 5.

(١٦) الأوديسا Odyssée, IV, 419-423.

(١٧) الأوديسا Odyssée, IV, 437 et 453: dólōs; 441, 465: lóchos. والدعة dólōs التي تخيلتها إيدروثيا هي أن تخفى مينيلائوس ورفاقه الثلاثة بتغطيتهم بجلود عجول البحر. عندما يتلبس هؤلاء البشر بجلود حيوانات بحرية مسلوخة لثروها، فقد يتلبسوا بشيء من شخصية غريمهم المائجة وينالوا هكذا نصيباً من دهائه المبتسي اللتوي (انظر الصفحات ٢٤٦-٢٦٢ من المصدر المذكور).

(١٨) الأوديسا Odyssée, IV, 410 et 460; dolie téchne: 455.

(١٩) الأوديسا. Odyssée, IV, 460.

(٢٠) انظر الأوديسا وانظر كذلك «ثيوجونية» هيسودوس. Odyssée, IV, 486; Hésiode, Théog., 233.

(٢١) الأوديسا. Odyssée, IV, 419 et 454: amphi dè cheiras bállomen.

(٢٢) أبوللودوروس. Apollodore III, 13, 5.

(٢٣) نفس المؤلف، المجلد الثاني. ID., II, 5, 11.

(٢٤) ID.: sullabon dè autòn koimómenon أمسكه بينما كان نائماً

(٢٥) الأوديسا. Odyssée, IV, 414 et 453.

(٢٦) الإلياذة. Iliade, XIV, 243-246

(٢٧) الإلياذة. Iliade, XIV, 247-248

(٢٨) انظر ما سبق ص ٥٦ وما بعدها.

(٢٩) قام أوتوس Otos وإيفيالتيس Ephialtês - إينا أليوس Aloeus - بتقييد الرب أريس Arès «هزاله الحرب مارس عند الرومان» وظل ثلاث عشرة شهراً حبساً في جرة من البرونز؛ ولو لم يجد هيرميس وسيلة لتحرير هذا الإله المتعطش إلى الحرب لهلك apólpito؛ وهو عندما خرج من سجنه كان منهك القوة وقد تضائلت قيمته (ede teirómenos). انظر الإلياذة. Iliade, V, 385-391

(٣٠) Orphicorum fragmenta, 2. éd., 148 et 149, p. 190 Kern; Porphyre, Antre des Nymphes, 16. phes, 16. وعلياً أن نلاحظ التعبيرات = phagon dolóessan edoden = بعد أن أكل طعام الخديعة (O.F., 148) و tón dià mélitos dólou = ضربة الخديعة المزوجة بالعسل (Porphyre, l. c.). انظر فاسينك J. H. Waszink, The dreaming Kronos in the Corpus Hermeticum, Annaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves 10, 1950 (Mélanges Henri Grégoire), p. 639-653.

(٣١) De defectu or., 420 a; De facie in orbe lunae, 941 f: desmòn gàr autoi tòn húpnon memechanesthai et tòn gàr húpnon autoi memechanesthai desmòn hupó tou Diós.

(٣٢) ثيوجونية هيسودوس. Théog., 856

(٣٣) F. Vian, Le Mythe de Typhée et le problème de ses origines orientales, in : Éléments orientaux dans la religion grecque ancienne, Paris, 1960, p. 17-37; P. Walcot, Hesiod and the Near East, Cardiff, 1966, p. 9-16.

(٣٤) F. Vian (o. c., p. 34) لاحظ بصفة خاصة: «أوليكومى Ullikumi عبارة عن كتلة من الحجر،

وهو أصم وأعمى، يشير الخوف فقط بضخامة كتلته. وهو بصريح العبارة مثل *Vrta* في الهند، رمز المقاومة السلبية: إنه قوة الخمود، إنه العقبة ... أما *توفويوس* «توفون» فهو نمط مختلف كل الاختلاف.

(٣٥) *ثيوجونية هيسودوس* Théog., 824

(٣٦) *ثيوجونية هيسودوس* Théog., 826-827.

(٣٧) *ثيوجونية هيسودوس* Ibid., 829-835.

(٣٨) *Ibid.*, 829-830: *phonai (...)* *pantoien óp' ieîsai*, أنطونينوس ليبيراليس، التحورات: Antoninus Liberalis, *Métamorphoses*, XXVIII, 1: *phonàs dè pantoias ephiei*.

(٣٩) أنظر نونوس «الشاعر المولود في أخيم»، وملحمته

Nonnos, *Dionysiaques*, I, 157-162; II, 250-257 et 367-370; Scholie à Eschyle, *Pro-méthée enchaîné*, 351; M. L. West على «ثيوجونية» هيسودوس Hesiod. *Theogony*, Oxford, 1966, p. 386 .

(٤٠) «ثيوجونية هيسودوس» Théogonie, 836-839.

(٤١) *Prométhée enchaîné*, 356-358; أنظر ما سبق ص ٩٠-٩١.

(٤٢) *Épiménide*, 11 fr. B 8, in Diels-K., *FVS*, 7. éd., II, p. 34; أنظر ما سبق ص ٩١-٩٢.

(٤٣) I, 6, 3.

(٤٤) نص هيسودوس يشدد على القرابة بين الهاوية الخاوية للتارتاروس، وطبيعة *توفويوس* «توفون» المضطربة المختلطة؛ أنظر «ثيوجونية هيسودوس»، البيت ٧٤٢ (التارتاروس)؛ الأبيات ٨٣٥-٨٣٢ (*توفويوس*)؛ الأبيات ٨٧٥-٨٧٦ (الرياح العاصفة).

(٤٥) أنظر «ثيوجونية هيسودوس» Ibid., 829-876.

(٤٦) أنظر «ثيوجونية هيسودوس» Ibid., 378-382.

(٤٧) أنظر ما سبق ص ٩٨ وما بعدها.

(٤٨) أنظر «ثيوجونية هيسودوس» Théogonie, 858.

(٤٩) بالمعنى الذي يعطيه مؤرخو الأديان للكلمة الإنجليزية *trickster*

(٥٠) كتابه «صيد السمك» Halieutiques, III, 9-28.

(٥١) F. Vian, o.c., p. 28 sq; P. Walcot, o.c., p. 14 sq.

(٥٢) انظر ما سبق ص ٣٤-٥٩.

(٥٣) أبوللودوروس I, 6, 1.

(٥٤) نفس المؤلف ID., I, 3, 6.

(٥٥) انظر «ثيوجونية هيسودوس» Théogonie, 459-497 et 888-900.

(٥٦) انظر «ثيوجونية هيسودوس» Ibid, 629-641.

(٥٧) انظر «ثيوجونية هيسودوس» Ibid, 641.

(٥٨) انظر «ثيوجونية هيسودوس» Ibid, 775-806.

(٥٩) Ibid, 796-797 انظر في هذا الموضوع رودهارت J. Rudhardt, Le Thème de l'eau pri-

mordiale dans la mythologie grecque, Berne, 1971, p. 94-97.

بوضوح: «العلاقة بين الأساطير الميثية الخاصة بالمياه الأولانية ستوكس وتلك الخاصة بطعام الآلهة الأمبروسيا».

(٦٠) Théogonie, 535 sq; Travaux, 42 sq; J.-P. Vernant, "Le Mythe prométhéen chez Hé- siode", dans Mythe et société en Grèce ancienne, Paris, 1974, p. 177 sq..

(٦١) انظر «ثيوجونية هيسودوس» Théogonie, 858.

(٦٢) انظر «ثيوجونية هيسودوس» Théogonie, 551.

القسم الثالث أصول العالم

الباب الخامس

الدهاء الميتيسي الأورفيوسي وحبّار ثيتيس

(١) O. Kern, "Metis bei Orpheus", Hermes, 1939, p. 207-208.

(٢) S. G. Kapsomenos, "Der Papyrus von Derveni. Ein Kommentar zur Orphischen Theogonie", Gnomon 35, 1963, p. 223 sq; S. G. Kapsomenos, Bulletin of the American Society of Papyrologists 2, 1964, p. 3 sq et Archaiologikon Deltion 19, 1964, p. 17-25; R. Merkelbach, "Der orphische Papyrus von Derveni", Zeitschrift für Papyrologie u. Epigraphie, 1967, p. 21-32; W. Burkert, "Orpheus und die Vorsokratiker", Antike und Abendland, 1968, 9. 93-114; La Genèse des choses et des mots. Le

papyrus de Derveni entre Anaxagore et Cratyle", Les Études Philosophiques, 1970 (4), p. 443-455.

(٣) انظر المجتثات الأورفيوسية، تحقيق أ. كيرن O. Kern, Orphicorum Fragmenta (O.F.), Ber- lin, 1963(1re éd. 1922), fr. 83, p. 157: «الإله العظيم ميتيس الذي يحمل نطفة الآلهة العظيمة والذي كان السعداء على قمة الأوليمبوس يسمونه فانيس = الباهر وپروتوجونوس أول المواليد».

Ibid., fr. 168, l. 9, p. 201 et fr. 169, l. 4, p. 207: Mètis, protos genétor; Mètis, prote (٤) genétis.

(٥) انظر المجتثات الأورفيوسية O.F., fr. 87, l. 1, p. 159.

(٦) Ibid., fr 167 a, p. 199: «آنذاك، عندما ابتلع جوهر إيريكيبايوس پروتوجونوس-Erikepaïos Pro-togonos كان يضم في جوفه جوهر كل الكائنات ومزج في أعضائه هو قوة الرب وشدته. ولهذا فمع الرب تجمعت الأشياء كلها من جديد في داخل زيوس.» انظر النص نفسه O.F., fr. 167 b, 168, : 169.

(٧) انظر المجتثات الأورفيوسية O.F., fr.168, l. 31-32, p. 202 «وبعد أن وارى زيوس كل شيء، لفي داخله، كان عليه أن يخرج من قلبه لينتج في الضوء المانع البهجة بعمل إعجازي.»

(٨) انظر المجتثات الأورفيوسية O.F., fr. 168, l. 1-2, p. 201.

(٩) انظر المجتثات الأورفيوسية O.F., fr. 168, l. 3: «كان زيوس ذكراً، زيوس كانت باقية وتزوجت في شبابها numphe.»

(١٠) أفلاطون Platon, Philèbe, 66 c.

(١١) في موضوع هوية ديونيسوس وفانيس ميتيس انظر المجتثات الأورفيوسية O.F.m fr. 170 «ميتيس ذلك الذي يسمى دائماً ديونيسوس وفانيس وإيريكيبايوس.»

(١٢) نفس المرجع: في «شخص» ميتيس-فانيس Mètis-Phanès كان «بروميوس» Bromios > أي ديونيسوس، العظيم وزيوس الذي يرى كل شيء، موجودين من قبل.»

(١٣) مثل زيوس، ابتداءً من قلبه apò kradies، كان يخرج إلى النور كل ما أخفاه عندما ابتلع فانيس ميتي Phanès-Mètis.

(١٤) انظر كتاب أرسطوطاليس عن الحيوان De la génération des animaux, 733 b 20. في كوسموغرافيا فيريكوده Phérécyde نجد زيوس ينسج غلالة phâros مزركشة لكي يقدمها في اليوم الثالث لزفافه إلى قرينته لكي تتشع بها فتتغطى بكل الأشكال المكونة للعالم المنظم مطرزة على ثوبها. ويمكننا أن نقارن هذا المعنى بما أورده پورفوريوس Porphyre, Antre des Nymphes, 14 :

« هكذا يعرض علينا في شخص أورقيوس كوري Core نائية كل الكائنات ذوات النطف وهي تنسج. ولقد كان الأقدمون يسمون السماء الغلالة التي تحيط بالآلهة السماوية. » عن استخدام الأورقيوسيين كلمتي chitón (ثوب) و humén (غشاء) بمعنى كوسموجوني انظر. O. F., fr. 60 = FVS, 7. éd. Nonnos, Dio- I, 1 B 12, p. 11, 1. 13-14 et 21. nysiaca, 41, 257 sq. وهذا هو المعنى الذي ينبغي الأخذ به عند تفسير التناظر الذي وضعه الأورقيوسيون بين كلمة spérma نطفة (حيث وصفت ميتيس بأنها spérma klutòn theon نطفة الآلهة الجليظة) وكلمة اللحمة mitos. وهناك على قشقة من زهرة ذات صور سوداء عشر عليها في كايرون ثيبة لحمة مرتبطة بالقوة Krateia بجانب طفل صغير يدعى بروتولاوس Protolaos (الشعب الأول، الإنسانية الأولى؛ انظر. Ath, Mitt. 13, pl. IX.

(١٥) R. Merkelbach, o.c., p. 25

(١٦) O.F., fr. 189, p. 126.

(١٧) O.F., fr. 91, p. 161.

(١٨) توفر على نشر النص إ. لوبيل E. Lobel, Oxyrrhyncus Papyri, XXXIV, 1957, n 23-24 fr. 2, et D. L.fr. Page, Poetate Melici Graeci, fr. 5, p. 23-24 وهناك دراسات تحليلية متعددة تناولت هذا النص على المستوى اللغوي وعلى مستوى التفسير، انظر E. Lobel, l.c.; Page, l.c. et Class. Rev. n.s. 9, 1959, p. 20-21; W. S. Barrett, "The Oxyrrhyncus Papyri, part. 24", Gnomon 33, 1961, p. 689; H. Fraenkel, Dichtung und Philosophie, 2. Aufl., 1962, p. 183 sq et 290; C. M. Bowra, Greek Lyric Poetry, 2. ed., p. 24 sq; Max Treu, "Licht und Leuchtendes in der archaischen griechischen Poesie", Studium generale 18, 2, p. 84-87; H. Schwabl, R.-E., Suppl. IX, c. 1467; A. Garzya, Studi sulla lirica Greca. Da Alcmane al primo impero, 1963, p. 20-25; Idee cosmogoniche et morale in Alcmane, Le parole et le Idee, 1963, p. 247-254; M. L. West, "Three Pre-ocratic Cosmologies", Class. Quart. n. s. 17, 1967, p. 1-14; C. O. Pavese, "Alcmane, il Partenio del Louvre", Quaderni Urbinati di cultura classica 4, 1967, p. 116-120.

(١٩) L. 9-10: tèn húlen pán[ton teta]ragménen kai apóeton هولي «مادة» كل شيء في حالة اختلاط وعدم اكتمال؛ الهولي «المادة» عندما كانت مختلطة غير متميزة ١، ٢٣-٢٤.

éti adiákr[t]on...[t]en húlen

(٢٠) عن مراجع النص الإغريقي أرجع إلى J.-P. Vernant, "Thétis et le poème cosmogonique d'Alcman", Hommages à Marie Delcourt, Bruxelles 1970, p. 39.

(٢١) L.17-19: من ناحية كان لكل شيء طبيعة شبيهة بمادة البرونز، ومن ناحية أخرى ثيتيس شبيهة بالصانع (*toû technitou*).

(٢٢) Eustathe, ad Il., 1154,25; D. L., Page, o.c., fr. 61, p. 53.

(٢٣) Hésiode, Théogonie, 722; انظر أيضاً موضوع السندالين المثبتين في قدمي هيرا عندما علقها زيوس بين السماء والأرض، وقد ورد في الإلياذة Iliade, XV, 18-20.

(٢٤) انظر الإلياذة Iliade, XVIII, 395 sq.؛ وارجع إلى W. Burkert, Gnomon 35 35, 1963, p. 827-828. في بعض المصورات التي تمثل عودة هيفايستوس، تبدو ثيتيس حاضرة في المركب الذي يحمل الإله عائداً في الاتجاه الآخر إلى قمة الأوليمبوس (انظر H. Metzger, Revue des Études Grecques 81, 1968, p. 161). على زهرة فرانسوا François يظهر نيربوس بين الأشخاص الذين يشاركون تحت قيادة ديونيسوس في صعود الإله الحداد نحو السماء التي كان قد قُذِف منها من قبل.

(٢٥) Diodore de Sicile, V, 55; Strabon, X, 3, 7; XIV, 2, 7; Callimaque, Hymne a Délos, 31; Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, p. 168-170.

(٢٦) Hésychius, s. v. Pyrrhaie; Delcourt, Pyrrhos et Pyrrha, Paris, 1965, p. 36. ثيتيس التي لاحقها هيفايستوس للاقتران بها وإصابته إياها بجرح في قدمها (ونحن نعرف أن سحر «صناعة» التعدين كثيراً ما يواكب عيباً في القدم أو الساقين) انظر الحاشيتين: Scholie à Ly-cophon, Alexandra 175, p. 84-85 Scheer et Scholie à Pindare, Néméennes, IV, 81 Drachmann - الرواية الثانية لقذف هيفايستوس تلقي الضوء أيضاً على التوافقات بين التعدين والريات البحرية. وهيفايستوس يسقط في ليمنوس عند السينيتيين، ويقترب باهنة پروتيوس - كابيرو Cabeirô - لينجب الكابيريات Cabires. وتحمل أم كابيرو - وهي زوجة پروتيوس له دلالة وهو أنخينو Anchinoë (Strabon, X, 3, 21; Stéphane de Byzance, s. v. kabeiria). وصفة الأجخينويا agchinoia صفة ذهنية تقترب من الدهاء الميتيسي (انظر فيما بعد p. 297 sq.). وهكذا تكون الكابيريات الماهرات في التعدين من نسل هيفايستوس من ناحية الأب ومن ناحية الأم من نسل پروتيوس الذي اقترن بربة توشك أن تكون بديلة مطابقة للأوقيانيدية ميتيس التي سنبين علاقاتها بثيتيس.

(٢٧) "Alcman and Pythagoras", Class. Quart.n.s. 17, 1967, p. 4-5.

(٢٨) Pausanus, III, 14, 4.

(٢٩) Scholie à Lycophon, 22, p.23 Scheer

(٣٠) Ch. Kérényi, Mythologie des Grecs, 1952, p. 20, 43, 221.

(٣١) Mythographi Vaticani, I, 204.

G. S. Kirk and J. E. Raven, *The Presocratic Philosophers*, 1960, p. 65-70. (٣٢)

Apollonius de Rhodes, *Argonautiques*, I, 503; Nonnos, *Dionysiaca*, II, 573; VIII, (٣٣)
158; Tzetzes, *In Lycoph. Alex.*, 1191.

Pausanias, VIII, 61. (٣٤)

Iliade, I, 401-406. (٣٥)

A. B. Cook, *Zeus. A Study in Ancient Religion*, III, 1, p. 745. (٣٦)

(٣٧) تحورات ميتيس Apollodore, I, 3, 6; Sch. Hésiode, *Théogonie*, 886; تحورات ثيتيس

Pindare, *Néméennes*, IV, 62 (101); Apollodore, III, 13, 4-5; Pausanias, V, 18, 5; Sch.
Apollonius de Rhodes, I, 582; Sch. Lycophron, *Alexandra*, 175 et 178; *Etym. mag-*
num, s.v. *Sepiàs*; Photius, *Bibliothèque*, 149 b.

(٣٨) انظر ما سبق ملحوظة ٤.

Orphei Hymni, 23 (à Nérée); 25 (à Protée), p. 20-21 Quandt. (٣٩)

(٤٠) تتفق المصورات والنصوص الأدبية على تصوير هذه الضمة التي تنكل الإله المتحور في منْكَلة ذراعيه المتحلفتين حيث تلتحم البدان التحاماً وثيقاً. ومعنى منازلة الإله المتحور والانتصار عليه واضح: فالمقصود هو مباغته الغريم بمكر أو كمين أو تنكر، وهو الداهية، الحريص أشد الحريص، اليقظ أشد اليقظة؛ والاستمرار في تكبله بضمة الذراعين مهما حدث. ويتجود الوحش من قدرته السحرية نتيجة للوثاق الذي ضمه، ويكون عليه بعد أن أفرغ سلسلة التحورات المتاحة له من أولها إلى آخرها أن يعود إلى صورته الأولى وأن يستسلم للغالب. فإذا كان المطلوب أن يقدم إجابة عن سؤال، كان عليه أن يقدمها دون غموض أو موارد، وعلى نحو واضح صريح لا يحتمل إلا معنى واحداً. وهكذا يجد الداهية من هو أشد دهاء منه؛ ويجد الحذر من يباغته؛ ويجد معلم القيود من يقيده؛ ويجد من أفرغ دائرة التحورات المتاحة له من يكبله بحلقته الدائرية؛ ويعود صاحب التحورات العديدة إلى صورة واحدة؛ ويتضح اللفز سافراً جلياً.

(٤١) انظر: ج. شاربونو، «التحت الإغريقي العتيق» J. Charbonneaux, *La Sculpture grecque ar-*

chaïque, 1939, p. 23-24. ويتضح لنا من الجدول الذي صنعه نينك Ninck في كتابه Die Be-

deutung des Wassers in Kult und Leben der Alten, 1921, p. 161-163 : معنى الماء في

مناسك وحياة القدماء، وهو الجدول الذي انطلق فيه من الصياغات الأسطورية والمصورات المختلفة،

عن الأشكال التي اتخذتها الآلهة البحرية (بروتيس، نيريوس، التيلخينيون، أخيلوموس، ميتيس،

نيمبسيوس، ثيتيس) في مسار تحوراتها، أن النهر (الماء الجاري) والنار والماء هي الأكثر وروداً.

(٤٢) بروميشيوس sq. Prométhée ٧٥٨ الداهية الواسع الحيلة (Hés., *Théog.*, 511 et 546) قادر

على أن يجد مخرجاً حتى من المأزق المحيط كما جاء في پرومبثيوس لإسخيلوس heurein kàx
amechánon póron (Eschyle, Prométhé, 59)

Isthm., VIII, 14 (27). (٤٣)

(٤٤) أفلاطون ، الوليمة . Platon, Banquet, 203 b sq. التوازي بين ثيتيس/پوروس وبين ميتيس
پوروس تبينه أ. جازيا. A. Garzya, Studi ..., p. 24 et C. O. Pavese, p. 118 (o.c. supra n. 18)

(٤٥) پلوتارخوس Plutarche, Moralia, 374 d؛ انظر كذلك أفلوطين، التاسوعات، Plotin, Ennéades,
III, 5, 7. وهنا نرى "القفر" Penia مرتبطاً بما هو بغير تمييز، بغير سبب، بغير حد aóriston kai
álogon kai ápeiron مثل الهولي huile الأولى في قصيدة ألقمان.

(٤٦) يصف أفلاطون وضع القفر penia بأنه وضع من يكون مجرداً، مقفراً، endeés (204 a; cf. éndeia,
203 d) ومعزلاً. áporos (204 b; cf. 203b et 203 e).

O. F. 66 et 67 Kern. (٤٧)

Orphei Hymni, 23, p. 20 Quandt. (٤٨)

(٤٩) مسرحية "الطيور" لأريستوفانيس Oiseaux, 36 sq.

Orphei Hymni, 6, p.6 Quandt. (٥٠)

Hés., Théog., 887 et 900. (٥١)

(٥٢) انظر ألقمان: پارثينيون في طبعة پيج Alcman, Partheneion, I, 13-15, p. 2. مع الحاشية في
الكتاب المذكور ص ٦؛ وانظر بردية أوكسورهنوكوس papyrus oxyrhyncus حيث ترتبط كلمة
présbus صراحة بپوروس Póros. وكما أن هناك إيروس قديم أرخائي archaios Éros، كذلك
نيريوس يوصف بالشيخ géron والعجوز العتيق (Hésiodfe, Théogonie, 233-4), presbúatos،
وهناك پوروس العجوز présbus Póros، وهو أقدم الآلهة geraitatos، أي أنه ينتمي إلى طبقة الآلهة
الأولانية. -- فيما يختص بقيمة پوروس Póros مشاركاً لأيسا فنحن نفضل على رأي د. ل. پيج D.
M. L. West (Cl. Qu. n.s. 17, ويست، L. Page (Alcman. The Partheneion, 1951) أو م. ل. ويست،
I, p. 7 sq) الرأي الذي ذهب إليه فرينكل H. Fraenkel في كتابه المشار إليه من قبل ص ١٨٣،
(انظر الملاحظة الهامشية رقم ١٨ أعلاه) والذي يتلخص في أن المبدأين يعارض أحدهما الآخر، مثل
المخرج (وينضوي على المبادرة والحرية النسبية) الذي يعارض القدر (وينضوي على إجبار كامل) -
راجع التقريب إلى أويربيديس ومسرحيته ميديا . والرأي عند پافييه C. O. Pavese في كتابه
السالف الذكر، ص ١١٨-١١٩ (انظر الملاحظة الهامشية رقم ١٨ وقد سبقت)، وپوروس Póros
مشاركاً أيسا Aisa، مشاركة «الطريق» لـ «القدر». والقول بأن «القدر» و«الطريق» هما أقدم

الآلهة، بعني الإقرار بأن «القدر» له سبله وأنه يجد دائماً الطريق والوسيلة ليتحقق، انظر في هذه الموضوعات ماسبق الملاحظة الهامشية رقم ٥ ص ١٠٥.

(٥٣) انظر Parménide, fr. 13 وانظر كذلك ملحوظات م. أوتترشتاينر - M. Untersteiner, Parménide. Testmonianze e frammenti, 1958, p. 70.

(٥٤) عن أبواب البحر Póroi halós انظر Apollonius de Rhodes, Argonautiques, IV, 1556; enálíoi póroi: Eschylle, Perses, 453. تطفو وتفوح في البحر انظر: Hésiode, Travaux, 566, 616, 620' Iliade, VII, 422. ولنذكر أن كالبماخوس في معرض الإشادة بجزيرة ديلوس عندما لم تكن قد مدت جذورها عميقة بعد، بل كانت جزيرة جارية، طافية فوق مياه البحر الماتجة السريعة، كتب موجهاً الكلام إلى الجزيرة: «حرة طليقة كنت تطفين فوق الأمواج. كان اسمك آنذاك أستريا Asteria <النجمية>؛ ولكي تهربي من عرس زيوس، كنت تفوحين من أعالي السماء إلى الهاوية السحيقة مثل النجم astéri ise. انظر:

Hymne à Délos, 35-38

(٥٥) انظر أثينايس: Stésichore, fr. 6,1-4 Diehl: óphra di' Okeanoio: Athénée, XI, 469 f; perásas: póros Okeanoû cf, Eschyle, Prométhée, 531; Hésiode, Théogonie, 292.

(٥٦) انظر ديودوروس الصقلي: Diodore de Sicile, I, 98, 3.

(٥٧) Ps. Orphée, Argonautiques, 781.

(٥٨) Ibid., 37

(٥٩) Ibid., 207.

(٦٠) Aratos, Phénomènes, 257.

(٦١) انظر أثينايس: Athénée, XI, 489 e. ويمكننا أن نقرأ هنا عن كل التطور الخاص بالليباديس حتى ٤٩٢؛ ولنا نقارن بين Aratos, Phénomènes, 254-263 وبين Od., XII, 61 sq. - وكان أناكسيماندروس Anaximandros يرى أن هناك اتبعات ekpnoai تحدث في السماء من خلال فتحات، أبواب póroi، يمكن مقارنتها بفوهات متفاخ أو صفارة ekpnoàs d'hupárchai pórous. ومن خلال هذه الأبواب póroi تبدو لنا نار السماء في شكل نجوم. وهكذا يبدو القمر في ازدياد ونقصان بحسب ما إذا كانت هذه الأبواب السماوية póroi تنفتح أو تنغلق (انظر Anaximandre, A 11 = Hipp., Réf., I, 6, 4-5). أما في رأي أرسطوطاليس فإن الاتبعات يمثل العملية التي ترتفع بها الرطوبة من المياه على شكل بخار ثم تسقط على شكل مطر، وتتجه دائماً إلى أعلى نحو السماء ثم تعود إلى أسفل بعد ذلك. وتصور أرسطوطاليس هذه الدورة كمجرى نهر يضم على هيئة الدائرة الأعلى والأسفل، وتساؤل عما إذا كان هذا المجرى هو ما كان

٥. القدماء يسمونه إوقيانوس بأبوابه póroi الدائرية (Météorologiques, 347 a 1-10).

(٦٢) انظر الأوديسا Od., XII, 62.

(٦٣) انظر بينداروس Pindare, Ol., VII, 45 (82) - سحابة النسيان المظلمة، المجردة من كل إشارة láthas atékmarta néphos، والتي تنشأ من العقل الطريق المستقيم ortàn hodón. والمكان البحري - شبيه بالغمامة المظلمة - مجرد من الإشارة atékmartos، على الأقل طالما لم تغشه تيارات أو رياح منتظمة ترسم على صفحته «طرق البحر» póroi halós. انظر Oppien, Ha- lieutiques, I, 364: Poseidáonos atékmartoi periopai; (Orphée), Arg., 1150 نسمة الريح القوية keanoû kelarúzetai toud'atékmarton húdor وما هي من الأوقيانوس مياه مضطربة تنتشر صاخبة Nonnos, Dionys., 13, 537 في الأعماق الخفية للبحر الذي تجرد من كل علامة هادية atékmártoio انظر L. M. West, Cl. Qu. n.s. 17, p. 3, n. 3

(٦٤) انظر الإلياذة Il., XXIII, 316-317 الدهاء الميتيسي هو الذي يمكن الرجل القابض على الدفة من قيادة السفينة السريعة في البحر المخمور على الرغم من الريح، انظر فيما بعد ص ٢٠٥ وما بعدها.

(٦٥) انظر موسوعة "سودا" أي الحصن Souda, s.v. "ástrois tekmairesthai" وانظر هيسوخبيوس : Hésychius, s.v. "ástrois semeioûsthai"

(٦٦) انظر أبوللونيبوس الرودسي : Ap. Rh., Arg., IV, 1538-1540.

(٦٧) Excerpta Vaticana, XIII, ed. N. Festa, in Myth. Graec., III, 2, p. 94

(٦٨) انظر أبوللونيبوس الرودسي : Ap. Rh., Arg., I, 105 sq.

(٦٩) Od., X, 5 63.

(٧٠) انظر الأوديسا Od., V, 270 sq.

(٧١) انظر أوريبيديس، مسرحية هيكابي (Hekabê) بالفرنسية: Euripide, Hécube, 1273.

(٧٢) Ap. Rh., Arg., I, 499-500 عن قيمة الإشارة تيكمار tékmar مشتركة مع النجوم انظر إيسخيلوس، بروميشيوس، ٤٥٤ وما بعده : طالما لم يعلم بروميشيوس البشر مطالع النجوم ومغاريها، لم تكن لديهم إشارة أكيدة tékmar bébaion تبين فصول السنة المختلفة.

(٧٣) كما لاحظ ويست M. L. West كلمة póros < طريق > لم تستخدم قط للدلالة على طريق بري، بل كانت دائماً تعني الطرق البحرية أو النهرية. هذه القيمة التي تعني الطريق البحري أو على الأقل الطريق المائي تظهر على نحو أخاذ في ثوقيديدس Thucydide, I, 120, 2 حيث يقول : «أولئك الذين يسكنون الميسوجيا mesógeia <في قلب البر> ، ولا يكونون في en póroi <الطرق المائية> ...» ويقصد بالذين يسكنون في الطرق المائية en póroi الذين يكونون على مقربة من الساحل،

على دائرة الطرق البحرية، على عكس الذين يقطنون *mesógeia* المسوغيّا أي في الداخل، في قلب البر.

(٧٤) انظر إسخيلوس، بروميثيوس، ٤٥٤ وما بعده

(٧٥) قارن Od., IV, 373 et Il., II, 342; Od., XII, 392.

(٧٦) IV, 455.

(٧٧) Orphei Hymni, 25, p. 21 Quandt; Il., IV, 385-386.

(٧٨) الإلياذة، النشيد الرابع. Il., IV, 361 (علم وجود رياح)؛ الإلياذة، النشيد الرابع، البيتان ٣٨٠ و٤٦٨ (مينيلاوس «عرقلته» الآلهة التي «قيدت» طريقه)؛ الإلياذة، النشيد الرابع، الأبيات ٣٥٢، ٣٦٠، ٣٧٣، ٤٦٦ (مينيلاس أسيراً).

(٧٩) الإلياذة، النشيد الرابع، البيتان ٣٧٣ و٤٦٦. في شأن القيمة المزدوجة للفظ تيكمار «إشارة» التي تعني دليلاً (علامة) وخطة (وسيلة للخلاص من مأزق)، انظر فقرة مشروحة من أبولونيوس الرودسي (٤١١/٢-٤١٣)، فيما بعد ص ٢٧٦ وما بعدها.

(٨٠) الأوديسا، النشيد الرابع، ٣٩٧، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٥٥-٤٥٦، ٤٥٩.

(٨١) قارن الأوديسا، النشيد الرابع، ٤٦٥ و٤٨٦.

(٨٢) الأوديسا، النشيد الرابع، ٣٨٩، ٤٧٥-٤٨٠. قارن أيضاً في بردية ديرفيني دور القمر الذي يُظهر في عيون الناس وبخاصة الملاحين العلامة التي تتبع لهم أن يعرفوا حساب الفصول والرياح. انظر ما سبق ص ١٣٧-١٣٨.

(٨٣) الأوديسا، النشيد الثالث عشر، ٢٠.

(٨٤) الإلياذة، النشيد الأول، البيتان ٢٢٥ و٢٢٦.

(٨٥) Musée, fr. 7 in FVS 7, I, p. 23, 1. 11.

(٨٦) E. Bucholz, Die Homerischen Realien, I, 1971, p. 57 sq; A. Lesky, Gesammelte Schriften, 1966, p. 468-478; E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, 1966, p. 296-297.

(٨٧) عن بونتوس «الطريق» وقاع البحر انظر الأوديسا، النشيد الرابع، ٤٣٦؛ وانظر الأوديسا، النشيد الثاني عشر، ٢٥٣.

(٨٨) أفلاطون، Timée, 25 d.

(٨٩) السطر ٤٧٠.

- (٩٠) انظر الأوديسا، النشيد الثاني عشر، ٦٩؛ Hésiode, Théogonie, 256.
- (٩١) هيسودوس، ثيوغونية Hésiode, Théogonie, 720-725 et 740-744.
- (٩٢) نفس المرجع البيتان ٧٤٣-٧٤٤، مع الحاشية. عن قيمة التعبير éntha kai éntha انظر العبارة O. F., fr. 66 a, p. 147 "الجنازات الأورفية" Kern.
- (٩٣) في النص المأخوذ من هيسودوس يطلق الشاعر على التارتاروس méga chásma أي البلعوم الهائل (٧٤٠)، كذلك في "الفينيقيات" يذكر أوريبيديس «بلاعم التارتاروس العميقة» Tartárou... Plutarque, Mor. 167 a و O. F., l.c. انظر أيضاً ١٦٠٤-١٦٠٥؛
- (٩٤) الأوديسا، النشيد ١٤، البيت ٢٥٤: وحملتنا ربح بورياس جميلة وفيرة على خط مستقيم كأنه تيار نهر hos ei te katà rhóon... وفي البيت ٢٥٦: لم يكن علينا إلا أن نقعد ونسلم قيادتنا للريح والملاحين tàs d'ánemós te kubernetai t'ithunon
- (٩٥) الأوديسا، النشيد ٥، البيت ٣٨٢ وما بعده.
- (٩٦) هيرودوتوس، الكتاب السادس، ٤٤، ٢؛ Apollod., Ep., III, 19.
- (٩٧) هيسودوس، ثيوغونية، البيت ٨٦٩ وما بعده. ونقارن بالبيت ٨٧٢ وما بعده وبالبيت ٧٤٢: én- tha kai éntha... prò thúella thuéllai. وكذلك نجد عند هوميروس الرياح العاصفة تهب éntha kai éntha, prós alléleisin, állote... állote (انظر الأوديسا، النشيد الخامس، البيت ٣٢٩ وما بعده)
- (٩٨) هيسودوس، ثيوغونية، الأبيات ٣٧٩-٣٨٣
- (٩٩) أراتوس Aratos, Phénomènes, 785 sq; 905 sq; 926. عن العلاقات بين الرياح وحركة الشمس والنجوم والجهات الأصلية، انظر أرسطوطاليس Aristote, Météorol., II, 4-6, 359 b 25-365 a 12; Problèmes, XXVI.
- (١٠٠) انظر أورفيوس Orphée, Arg., 1049 sq وفيه: "ولقد لاحظت بالفعل أن ربح زيفوروس ازتعدت قويتولم يكن ماداً من المحيط غير واضح المعالم atékmarton هو الذي انهمر صاخباً على الضفاف".
- (١٠١) انظر الأوديسا، النشيد ١٢، البيت ٢٨٦: الرياح النكراء أبناء «الرياح في اللغة الإغريقية مذكرة» الليل ek nukton d'ánemoi chalepoi. عن العلاقات بين العواصف وعالم الليل انظر برنار مورو Bernard Moreux, "La Nuit, l'pmbre et la mort chez Homère", Phoenix 21, 1967, 4, p. 242 sq, et 259. ورنار مورو يشدد على أن العاصفة توصف بـ kelaine أي حالكة (الإلياذة، النشيد ١١، البيت ٧٤٧)، وتوصف بـ eremné أي بهيم (الإلياذة، النشيد ١٢، البيت ٣٧٥ والإلياذة، النشيد ٢٠، البيت ٥١)

(١٠٢) هيسودوس، ثيوغونية، الأبيات ٨٦٨-٨٧٠؛ وانظر Phérécyde, fr. 5 in FVS7, I, p. 49.

(١٠٣) انظر (Gaisford) Etym. Magnum, p. 772, 1. 51 وانظر Dionysophane في Sch. Apol. de Rh., I, 826 . كان هناك في تيتانيه Titané نصب للرياح يقدم عليه الكاهن مرة كل عام ضخية "ليلية" من نوع ثوسيا thusia. كذلك كان الكاهن يؤدي شعائر سرية على أربع حفرة bóthroi لكي يستميل الرياح «الفاشمة». ويمكننا أن نتصور أن هذه الحفرة الأربع تقابل جهات المكان الأربع. وكانت عملية دفع البلاء التي تستهدفها الشعائر تقام على شكل تنظيم الرياح بتمييز الجهات الأصلية وتحديد اتجاه المكان (Paus., II, 12, 1). في الموضع المسمى باثوس báthos أي الهوة (انظر التعبير báthiston bérethron الذي يعني الهوة العميقة جداً، في الإلياذة، النشيد الثامن، البيت ١٤، والتعبير الذي يعني هوة التارتاروس في مسرحية برومبثيوس لإسخيلوس، السطر ١٠٢٩).

كان الأركاديون يقدمون الأضحيات إلى البروق والرعد ورياح العاصفة thúellai انظر (Paus., VIII, 29, 1-2) هناك كانوا يحتفلون كل عامين بأسراريات الربات الكبيرات. وكان الاتصال بالعالم الجهنمي يتخذ شكل وجود ينبوع وشعلة بفوران من التربة جنباً إلى جنب. ونحن نعرف عند هيسودوس (ثيوغونية، البيتين ٧٢٨ و٧٣٨) أن هناك تجاوراً وتداخلاً وتشابكاً في قلب التارتاروس بين «أصول» و«ينابيع» و«أطراف» كل شيء سينتج عنه عند التمايز العالم المنظم: الأرض والبحر والسماء ذات النجوم والظلام الحالك وتخيّل هيسودوس كما يلاحظ ويست M. L. West في شرحه على الثيوغونية Hesiod, Theogony, 1966 (p. 361) أن التمييز الواضح بين الأرض والماء ونار السماء والظلام الحالك، يتلاشى تدريجياً في العالم تحت الأرض، حيث تتحد العناصر المتضادة فيما يكون أصلها المشترك. وتأسيساً على هذا المعنى فإن التارتاروس يمثل من الناحية المكانية ما يمثله خاوس من الناحية الزمانية: اللامحدد الأولائي الذي يستطيع العالم انطلاقاً منه أن ينتظم على هيئة مناطق وعناصر كونية متميزة. ومن هنا فإن كل شيء، يقوم على نحو أو آخر بتوحيد أو خلط عناصر فطرت لتظل منفصلة مفككة يقترب في بعض جوانبه من الخاوس الأولائي - سواء كانت ربات ذوات تحورات أو حيوانات برمائية، تمحو الحدود الفاصلة بين البحر والأرض والأجواء والجزر العائمة التي لا تضرب جذوراً في الأرض فتطفو تارة على شكل أراض، وتغرق تارة في البحر، والرياح العاصفة التي تؤدي «في الليل» إلى أن «العدوين اللذين كانا حتى ذلك الحين متناهين أشد التنائي وأعسر» - وهما البحر والنار - يتآلفان ويفصحان عن تحالفهما (إسخيلوس: أجاممنون، الأبيات ٦٥٠-٦٥٤). وحتى عند أفلاطون (Platon, Phédon, 113 a-b) وبلوتارخوس (Plutarque, Mor., 167 a) نجد أنهار ماء وأنهار نار تتجاور، بل وتتمازج أحياناً في التارتاروس: «أنهار من النار وانسيابات من نهر ستوكس Styx تختلط بعضها ببعض». وعلى النحو نفسه نجد رياح الاضطراب التي تولدت من جثة توفون والتي تفر على شكل عواصف من التارتاروس تتخذ سمة مزدوجة: فهي رياح رطبة و«حالكة» تحمل إلى أعالي البحر حلقة الليل.

انظر هيسودوس (ثيوغونية، الأبيات ٨٧٢-٨٧٧) وبخاصة التعبير es eeroeidéa pónon أي

نحو أعالي البحر حيث الغيوم الخالكة؛ الرياح الحارقة التي تجفف الأراضي وتهلك المحاصيل (نفس المرجع ٨٧٨-٨٨٠ وانظر بلوتارخوس (Plutarque, Mor., 364 a-b, 366 a, 367 d, 372 a). وأسطورة توفون تضعه في علاقة إما بظواهر مائية : مياه هائجة، أنهار ومستنقعات؛ وإما بظواهر أرضية أو نارية: أراض محروقة، براكين (انظر ف. فيان (F. Vian, "Le Mythe de Typhée", in: Éléments orientaux dans la religion grecque ancienne, Paris, 1960, p. 23

(١٠٤) هيرودوتوس، الكتاب الرابع، ٨٥: chásma pelágeos أي هوة البحر؛ انظر سوفوكليس، أنتيجوني، ٥٨٩: érebos húphalon غيابة تحت البحر. ونحن نعرف أن ثيوجونية هيسودوس جاء بها أن إيريبوس Erebos ابن خاوس Chaos (ثيوجونية، ١٢٥). والصفتان حالك eeróeis و eeroeidós غائم ينطبقان عادة على أعالي البحر وعلى التارتاروس.

(١٠٥) الأوديسا. النشيد الرابع عشر، ٣٠٠-٣٠٤ و ٣١٤؛ انظر أيضاً التعبير المسكوك - پوسايدون أو زيوس «لف تحت السحاب والأرض والبحر؛ كانت تلك ليلة سقطت من السماء - مع ملحوظات ب. مورو B. Moreux في المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٢.

(١٠٦) إسخيلوس، بروميشيوس، ١٠٤٨-١٠٥٠.

(١٠٧) المرجع السابق، ٣٢٠-٣٢٢: الصخور لا تضرب جذورها في قاع البحر؛ ولكنها تتلاحم مصطكة لكي لا تصنع منها أكثر من صخرة واحدة.

(١٠٨) المرجع السابق، الفصل الرابع، ٩٤٥-٩٤٧: كانت أحياناً تشبع القلائل العالية التي ربما وصلت إلى الهواء، وكانت في أحيان أخرى عميقة ترتكن صلبة على أبعد أعماق البحر؛ انظر كذلك فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, I, 580 sq.

(١٠٩) انظر الأوديسا. النشيد الأول، ٥٤؛ وإسخيلوس، بروميشيوس، ٣٤٩. وتلاحظ عند بينداروس أن عموداً من السماء kion ourania هو الذي يوثق جسم توفون تحت كتلته (Pind., Pythiques, I, 16 وانظر كذلك إسخيلوس، بروميشيوس، ٣٦٤ وما بعده).

(١١٠) الأوديسا، النشيد الثاني عشر، ٦٨؛ أبولونيوس الرودسي Ap. Rh., Arg., IV, 924 sq.

(١١١) انظر بينداروس Pindare, Pythiques, IV, 371-373. والصخور الرجراجة بحركتها الأفقية وحركتها الرأسية لا تكف عن خلط اتجاهات المكان، العالي والواطي، الشرق والغرب، ومن هنا فإنها تؤدي في منطق الفكر الميثي وظيفة مناظرة لوظيفة الرياح العاصفة. وعندما قامت سفينة أرجو بتثبيت أصولها في عمق البحر، وتجميدها إلى الأبد، فقد حددت هكذا اتجاه المكان البحري. وأيولوس Aiolos عند هوميروس (واللفظة تعني المتحرك وكذلك الداهية) وهو سيد الرياح ومدبر أمرها، الذي «أحكم وثاق الطرق» بأن حبسها في قرية askós صنعت من جلد ثور، كان يقيم في جزيرة عائمة أحاط بها مثل التارتاروس (ثيوجونية هيسودوس، ٧٢٦) سور من البرونز المنبع (الأوديسا، النشيد العاشر، ٤-٥ و ١٩-٢٠). وعند فاليريوس فلاكوس (I, Valerius Flaccus 570 sq) يقيم أيولوس أيضاً في جزيرة عائمة. وهناك كتلة من الصخر كانت مقر الزوابع والرياح

والعواصف. وكتلة أخرى كانت مقر الحدادين الريانيين. وكان على الحدادين المعدّنين بغية تحقيق النجاح لعملياتهم الصناعية أن يتحكموا في الرياح وأن يحبسوها في المنفاخ askós الذي يسمع لهم بصهر البرونز وتشكيله. (انظر هيرودوتس، الكتاب الأول، ٦٧-٦٨، الذي ساوى بين عبارة العراف: «ريحان يهبان تحت ضغط الضرورة؛ حيث الضرب والصد.» وبين حانوت الحدادة حيث يطرق الحداد الحديد. وليخاس Lichas صانع الأخوات اللاكيديموني الاسبرطي الذي يصوره هيرودوتس يكتشف «في منفاخي الحداد اللذين رأهما بعينه: الرياح؛ ويكتشف في المطرقة والسندان: الضرب والصد.» عند أبوللونيبوس الرودسي نقرأ أن ثيتيس كان عليها - بغية تمكين السفينة أرجو من عبور بحر الصخور الرجاجة - أن تنال مساندة أيولوس من أحية وهيفاستيوس من ناحية ثانية (Arg., IV, 515 sq)

(١١٢) فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Arg., I, 504 sq.

(١١٣) نفس المرجع. الفصل الرابع، ٥١٥ وما بعدها.

(١١٤) أبوللونيبوس الرودسي (Ap. Rh., Arg., IV, 1695 sq)؛ انظر سوفوكليس Sophocle, fr. 433 Pearson والملاحظة؛ فوتيوس Photius؛ أوستاخوس والحاشية ص ١٧٢٩، ٣٢؛ هيسوخوس Hesychius, s.v. katouládo, II, p. 449

(١١٥) أبوللونيبوس الرودسي (Ap. Rh., Arg., IV, 1696 sq)

شدد ر. رو R. Roux, Le Problème des Agronautes, 1949 على البعد الكوسموجوني لرحلة ملاحي السفينة أجرو، وهو يري فيها تعبيراً عن الصراعات التي خاضتها الشمس ضد الظلمات. وتلاحظ في هذا الصدد جزئية لها مغزاها. فقد كشف أرجوس للملاحين طريق العودة الذي تحتم أن يكون مختلفاً عن طريق العودة، ولقد عرف البطل أمر هذا الطريق من الكهنة المصريين. والحق أن المصريين كانوا قد فتحوا طرق العالم في الأزمان الأولانية «عندما لم تكن العلامات السماوية تدور دورتها الليلية بعد، ولم يكن هناك قمر ولم يكن الفيضان قد حدث. كان المصريون قد سجلوا على ألواح كل الطرق وكل الأطراف pásai hodoi kai peirata التي عبروها بحراً وبراً. وما كاد أرجو يتم كلمته حتى حدثت معجزة: فقد رسم ثلم شعاع مضيء على السماء على مسافة كبيرة أمام السفينة اتجاء الطريق الذي ينبغي على ملاحي سفينة أرجو أن يسلكوه لعبور البحر (IV, 257-297).

(١١٦) ثيوقريطس Théocrite, Idylles, XXII (Les Dioscures), 19-22.

(١١٧) أبوللونيبوس الرودسي (Ap. Rh., Arg., IV, 1701 sq)

(١١٨) انظر ما سبق ص ١٤٥

(١١٩) Bekker, Anecd., p. 354, 15.

(١٢٠) انظر ما سبق ص ٤٥.

(١٢١) J.H. Harrison, *Prolegomena to the Study of Greek Religion*, 1957 (1re éd. 1903), p. 644 حيث نجد النص المجهول المؤلف لـ *Philosophoumena* مشروحاً.

(١٢٢) الإلياذة، النشيد الأول، ٣٥٨؛ والنشيد الثامن عشر، ٣٦ و ٣٨ و ٤٩؛ أوريبيديس، مسرحية «أندروماخه» (أندروماك)، ١٢٢٤.

(١٢٣) الإلياذة، النشيد الأول، ٣٥٩. الأنشودة الابتهالية الأورقوسية إلى *Prôtogonos* تحيي في الرب الأولاتي الرب الذي بدد الغمامة الحالكة *homichlen skotóessan* (٦-٧)؛ في ثيوجونية هيرونيموس وهيللاتيكوس، في ترجمة كيرن الفرنسية (fr. 54 Kern)، ينجب كرونوس في أصل العالم إزيبوس الأغم *homichlodes*. عن استخدام النعوت في وصف البحر، وبخاصة من حيث هو بونتوس، الظلمة ارجع إلى كتاب ب. مورر السابق ذكره في الملحوظة ١٠١ وقد سبقت *Bernard Moreux, "La Nuit, l'Ombre et la mort chez Homère"*, Phoenix 21, 1967, وكما أن المياه الحالكة في الأعماق البحرية تظهر على صفحتها وعلى طول الشطآن البيضاء ذات الزبد، كذلك ثيتيس السوداء عندما تمشي على المياه تكون هي الربة ذات الأقدام الفضية. انظر الإلياذة، النشيد الأول، ٥٣٨؛ والإلياذة، النشيد الرابع والعشرين، ٧٩؛ والأوديسا النشيد الرابع والعشرين، ٩٢.

(١٢٤) الإلياذة، النشيد الرابع والعشرين، ٩٣-٩٥ مع الشرحين المختلفين اللذين وردا من قبل في الحواشي؛ انظر *Bernard Moreux, "La Nuit, l'ombre et la mort chez Homère"*, Phoenix 21, 1967، الملحوظتين رقم ١٠٥ و ١٤٥، وانظر كذلك ج. ليندسي *J. Lindsay, The Clashing Rocks*, 1975, p. 55-57.

(١٢٥) *Heroica*, XIX, 14 sq.

(١٢٦) أناشيد أورفيوس *Orphei Hymni*, 22, p. 20 Quandt؛ ونفس المرجع *Orphei Hymni*, 24, p. 21 Quandt

(١٢٧) *Etym. Magn.*, p. 561; *Hésychius*, s.v. *leukoû*

(١٢٨) *Ap., Arg.*, IV, 931 sq.

(١٢٩) انظر *Scholie à Lycophron*, Alex., II, 175, p. 84-85 Scheer: «ونخرج بما ذكره أوريبيديس بأن ثيتيس التي لاحقها بيليوس اتخذت مثل بروتوس كل أشكال التحورات فلما تحولت إلى سمكة حبار يمكن منها.»؛ ومن المرجع نفسه تحت رقم ١٧٩ نخرج بأن بيليوس اتبع نصائح خيرون وأمسك ثيتيس بينما كانت تتحول إلى أشكال عديدة، واتحد بها عندما كانت في صورة سمكة حبار. - في شأن هذه المأثورة وأصلها ارجع إلى أ. سيفرينس وفرنسيس جوان *A. Severyns, Le Cycle épique dans l'école d'Aristarque*, 1928, p. 92; Francis Jouan,

Euripide et les légendes des Chants Cypriens, 1966.

ويوافق فرنسيس جوان Francis Jouan على أن موضوع التحورات - الذي يرى البعض أنه ينتمي إلى صياغة قديمة "شعبية" للميثوس - تم تناوله من جديد في الأغاني القبرصية (ص ٧٢). ولكن من ناحية أخرى يرى أن أوربيديس استطاع أن ينسج نسجه على هذه الخيوط التي وجدها مخترعاً جزئية التحور إلى سمكة حبار (ص ٧٦ وص ٨٦). ونحن نلاحظ من ناحية أن هذا التحور قامت عليه شواهد مؤكدة - دون ما إشارة إلى أوربيديس في نصوص متعددة (نوه بها جوان ص ٦٩ ملحوظة رقم ٦) -، ونلاحظ من ناحية ثانية أن تكريس كاپ سيبباس «رأس الحبار» لثيتيس، وتحديد اتحادها بيبليوس في هذا المكان، التوافقات الوثيقة بين الحبارة - في خصائصها الفيزيائية وعاداتها وبين صفات وملكات الربة البحرية - هل هذا يبدو لنا أنه يشير إلى أن أوربيديس لم يكن عليه أن يخترع جزئية، لو لم تكن لها هذه الخلفية الميثية الماثورة، لبدت لمشاهدي المسرح الأثينيين غريبة نائية.

(١٣٠) بعد العاصفة التي حطمت أسطول الفرس في كاپ سيبباس «رأس الحبار» قدم الفرس الأضعحيات إلى ثيتيس والنيريدات : «ولقد قدموا الأضعحيات إلى ثيتيس لأنهم علموا من «اليونانيين» أهل يونيا أن هذا البلد هو البلد الذي خطفها فيه بيبليوس وأن هذا الرأس ملك لها وللنيريدات. » انظر: هيرودوتوس Hér., VII, 191-2 ; وانظر: Etym. Magn., s.v. Sepiás; Schol. Apol. Rh., I, 582 وفيه : «سيباس «الحبارة» = Sépias = رأس في يولكوس Iolcos وقد تسمت بهذا الاسم لأن ثيتيس التي لاحقها بيبليوس تحورت هناك إلى سمكة حبارة. » وانظر أثينا بوس Athénée الذي يذكر أن البحر في منطقة كاپ سيبباس «رأس الحبارة» يعج بأسماء الحبارة.

(١٣١) انظر (59) Aristote, H.A., IX, 37 وانظر Plutarque, Mor., 978 a-b وانظر Oppien, Ha., III, 168 وفيه نقراً : الكالامار (teuthis) يستخدم نفس الدهاء الميثيسي الذي تستخدمه الحبارة وانظر Oppien, Ha., II, 120 وفيه : sepie dolómetis وانظر Oppien, Ha., I, 312-313 ; وفيه : sepie dolóphron (cf. aussi III, 156) وانظر Oppien, Ha., IV, 160 وفيه : sepiar kerdaléai

(١٣٢) Questions de chronologie et d'ethnologie ibériques, I, 1913, p. 59, 256, 468-469.

(١٣٣) عن تحور الأخطبوط المتعدد انظر: Théognis, 215; Pindare fr. 43 Schroeder - Ad., 10, Puech; Aristote, H. A., IX, 37 (622 a 8); Oppien, Hal., II, 233; Athénée, 314 f, 317 Aristote, f, 513 d; Plutarque, Mor., 978 e, et 916 b-917. وفيه : «بعض الأشخاص يؤكدون أن الحبارة تغير لونها بحسب الأماكن التي تعيش فيها. » انظر فيما سبق ص ٤٧ وما بعدها.

(١٣٤) انظر Plutarque, Mor., 978 d وانظر Aristote, H.A., IX, 37, 622 a 1 وانظر Aristote,

Oppien, Hal., II, وانظر Aristote, H.A., IV, 6, 531 b 6 و H.A., IV, 1, 524 a 3
 233 . ونلاحظ أن أوبيانوس من منظور الصياد pienes en psamáthoisin يصور الحبارة بمدة
 على رمل الشواطئ. وكان القدماء يعتبرون الحبارة - وبصفة عامة كل الرخويات - كائنات برمائية
 يمكنها أن تعيش في أعماق البحار، ولكنها تستطيع أيضاً أن تعيش على الأرض اليابسة فتتغذى
 على الثمار وبخاصة الزيتون والتين (انظر Oppien, Hal., I, 307 sq و Plutarque, Mor., 916
 a و Athénée, VII, 371 b-c) فهذه الحيوانات مكانها إذن على الحدود بين الماء والأرض،
 فكأنها تصل بين هذين العنصرين. وعلى النحو نفسه تكون عجول البحر "أرضية وبحرية" في آن
 واحد Oppien, Hal., I, 406، فهي تختلف إلى الأعماق البحرية، ولكنها تأتي كذلك مثلما أتى
 بروتبوس وسط قطبعه المكون من كلاب البحر، لتنام على رمل الشطآن en psamáthoisin كلمة
 psammos بساموس بالإغريقية معناها رمل. وبسامائي اسم نيريدة، أخت ثيتيس. اتحدت
 بإياكوس أبي بيلبوس وأنجبت فوكوس Phokos، ولكنها كانت حاولت أن تهرب من الأب، كما
 حاولت ثيتيس أن تهرب من الإبن، متوسلة بتحوراتها العديدة. لم تتخذ بسامائي هيئة حبارة، بل
 عجل بحر. وكانت ثيتيس نفسها قد تحورت في أثناء رحلة عودة الإغريق من طروادة إلى عجل بحر
 (انظر Photius, Bibl., III, 149 b). بل إن الإغريق كانوا يعتقدون أن أسماك الكالامار - teu-
 thides كانت أيضاً تطير في الأجواء. ويتحدث أوبيانوس عنها فيقول إنها تستطيع أن تبحر الهواء
 وأن تتحد مع أمفبترية Amphitrite «ربة البحر» (Oppien, I, 423 et III, 166) ونظراً لأنها
 توحد عناصر حرص زيوس على تمييزها وفصلها وتفرقتها بعضها عن البعض الآخر - وهي : الأثير
 المدوي، الهواء، المائل المنساب، الأرض - فإن الكائنات البرمائية تمثل «جنساً مشتركاً» بالنسبة
 إلى كل العناصر. ومن خلال هذا الجنس نجد العناصر المتضادة أشد التضاد «تبادل فيما بينها
 التزامات متبادلة» (Oppien, Hal., I, 412 sq) هذه الوظيفة التي تقوم بها البرمائيات تضعها
 في ساحة القوى الأولانية المثلة لسلطة الخلق السابق على ظهور عالم متمايز قمايزاً واضحاً. إنها
 على نحو ما شبيهة بهذه «الأصول»، و«النباتات»، و«الأطراف» التي يتحدث عنها هيسودوس
 فيقول إنها تلتقي وتختلط في أعماق التارتاروس .

(١٣٥) Aristote, H.A., IV, I, 523 b 32; Oppien, Hal., II, 120 sq; Athénée, 323 d.

(١٣٦) Aristote, H.A., V, 6, 541 b 12, 544 a 1; Athénée, 323 e..

(١٣٧) Aristote, H.A., V, 6, 541 b.

(١٣٨) Aristote, H.A., V, 5, 489 b 35; IV, 1, 524 a 13. .

(١٣٩) اللون الأسود هو الذكر، الشجاع؛ اللون الأبيض هو المرأة أو هو الجبان أو المخنث. ومن أقوال
 أوستاخوس : leukoi hoi deiloi الجبان بيض. وتذكر لبونة سمك الحبارة ، والرخويات بصفة
 عامة tà malákia ، مثل بياض لونها برقة جسم الأنثى (انظر Plutarque, Mor., 916 a-c). عن

العلاقات بين الأبيض واللين والمؤنث انظر ج. تايلارد J. Taillardat, Les Images d'Aris-
 J. -P. Vernant, Mythe et pensée ثرنان tophane, 2. éd., 1965 (1. éd. 1962)
 M. chez les Grecs, 5. éd., 1974, t. I, p. 150-151 ومن ناحية أخرى دلنا لينتون همفري
 Linton Humphrey أن الكلمة التي تعني في كريت الحديثة سمكة الحبارة وهي كلمة soupiá
 سوبيا تدل أيضاً على جنس النساء. ويستشهد أثيناوس بديوقليس فيذكر أن الرخويات تستثير
 اللذة والمتع الجنسية (VII, 316 c). وتحمل عدة غانيات من العصر الانتيكلي اسم سيبيا Sèpia
 >الذي يعني سمكة الحبارة> (انظر Archippos, fr. 27, I, p. 802 Edmonds وانظر Antiphane,
 Bechtel, Die attischen Frauennamen. 1892, fr. 26, II, p. 172 Edmonds وانظر أيضاً
 (Index.

(١٤٠) الترجمة الفرنسية : Assemblée des Femmes, 126 sq.

(١٤١) J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, 2. éd., 1965 (1. éd. 1962), o.c., p. 61.

(١٤٢) Aristote, H.A., IX, 37 (57); Athénée, VII, 323

(١٤٣) Plutarque, Mor., 978 a

(١٤٤) Oppien, Hal., III, 156 sq.

(١٤٥) Athénée, 135c وفي Halieutiques لأوفيد إشارة إلى نوع من الحبارة Loligo teuthis يوصف
 بالعبارة nigrum niveo portans in corpore virus (انظر J. A. Richmond, 1967, v. 130, (p. 17 sq).

القسم الرابع
 العلوم الإلهية :
 أثينة .. هيفايستوس

الباب السادس

عين البرونز

(١) نكتفي بمثلين على الرغم من تفاوتهما في القيمة: R. Luyster, "Symbolic Elements in the
 Cult of Athena", History of Religion 5, 1965, p. 133-163 et W. Pötscher, "Athene",
 Gymnasium 70, 1963, p. 394-418; 527-544.

(٢) La Religion romaine archaïque, Paris, 1966, p. 179; 229. هذا التمييز بينه بشكل نموذجي
 تحليل جورج دوميزيل للإله مارس في روما ، في نفس الكتاب (ص ٢٠٨-٢٣٥). وقد اتخذ

دومبزيل خطأ مضاداً لكل أولئك الذين أفاضوا في الحديث عن مارس إلهاً زراعياً، وبين على نحو محكم كامل الإحكام أن مارس لم يكن قط قوة خصوبة حتى إذا تدخل في مجال الزراعة وتربية الحيوان: فهذه الأساليب التي عمل بها حتى في إطار زراعي تدل على أنه كان مناضلاً مستعداً دائماً لتحطيم العدو، أي أنه كان إلهاً ذا توجه حربي صارم.

(٣) U, Pestalozza, "Le Origini della Buphonia Ateniens", Rendiconti dell'Istituto Lombardo, Cl. Lettere, Scienze morali et storiche 89-90, 1956, p. 433-454.

(٤) Servius, In Verg. Aen., IV, 402, l, p. 536, Thilo.

(٥) عن موضوع ديميتير و الحراث Démèter et le labourage، انظر: Orph. Hymn. 40, 8 Quandt: وانظر النصوص التي استشهد بها دراخمان A. G. Drachmann، انظر تحت "Pflug", R. E. (1938), c, 1481. عن موضوع ديميتير والطحن Démèter et la mouture انظر: Polémon ap At- A. Delatte, "Le Cycéon, breuvage rituel des génées, 109 a mtstères d'Éleusis", Bull. Cl. Lettres Ac. Royale de Belgique, 5e série, 40, 1954, p. 698.

(٦) انظر Hésiode, Travaux, 430 sq, éd. P. Mazon, Paris, 1914, P. 106 sq من أجل التفسير. ومن الممكن وضع حجج أخرى. وصفة أثينة المزوجة في بوئيسا وثيساليا لجدها على نحو خاص، حيث تسمى Bouúdeia et Boarmia انظر Schol. in Lycophron, Alex. 359 et 520 Scheer. وليس من شك في أن تزيتزيس Tzetzés - في التشديد على نصيب phrònesis أي «الحرص» بالمعنى القديم الذي يدخل في فن الضبط والربط - على حق في مواجهة بيستالوتسا الذي يضع هذه الشواهد في ملف أثينة «البحرمتوسطية» انظر (art. cit., p. 444).

(٧) انظر الإلياذة Il., V, 260 وانظر الأوديسا Od., XVI, 282. في الأوديسا Od., XVIII, 298-299 تذكر أثينة أوليسيس أنها الوحيدة بين الآلهة التي يعجب الجميع بدهائها الميتيسي وحيلها kérde

(٨) Hymnes orphiques, 32, 10.

(٩) Hésiode, Fr. 343 Merkelbach-West (= Chrysippe, F. 908, SVF, II, 256 von Arnim).

انظر S. Kauer, Die Geburt der Athena im altgriechischen Epos, Würzburg, 1959.

(١٠) F. 343, 19-20 وإذا نحن صدقنا بعض علماء الآثار فإن البيثوس البارز pithos à relief الذي

وجد في تينوس Ténos (والمصور في المجلد الجماعي Archiloque, Entretiens sur l'Antiquité

classique {Fondation Hardt}, X, Vandoeuvres, 1963, pl. IV) يمثل الربة ميتيس وهي تلد

أثينة بدلاً من زيوس، وفي مكانه. انظر: F. Brommer, "Die Geburt der Athena", Jahrbuch

des röm. germanischen Zentralmuseums Mainz 8, 1961, p. 72-73 suivi par P. Walcot, Hesiod and the Near East, Cardiff, 1966, 113-114. Contra, Kl. Fittschen, Untersuchungen zum Beginn der Sagendarstellungen bei den Griechen, Berlin, 1969, p. 129-131.

G. Dickins, "The P. Ox. 1808, 54 (XV, 1922, p. 158, éd. Grenfell and Hunt). (١١)
Hieron of Athena Chalkioikos", ABSA 13, 1906-1907, p. 137-154.

(١٢) انظر أرسطوفانيس Aristophane, Lysistrata, 1320.

(١٣) انظر R. Martin, Manuel d'architecture grecque, I, Paris, 1965, p. 156.

(١٤) انظر هيسودوس، «الأعمال» Hésiode, Travaux, 150.

(١٥) من منظور دوميزيل المنصب على ما اقترحه ف. ثيان F. Vivian من قراءة وظيفية لبعض الميثاث الإغريقية، انظر "La Fonction guerrière dans la mythologie grecque", dans: Problèmes de la guerre en Grèce ancienne, éd. J.-P. Vernant, Paris, Mouton, 1968, p. 53-68.

(١٦) انظر J.-P. Vernant مقدمة الكتاب المذكور في الملحوظة الهامشية السابقة، ص ١٥.

(١٧) تتطلب سعة المسائل المطروحة دراسات أطول. وسنكتفي بالإشارة إلى بضع نقاط دون أن ننشغل في هذه المرة بسبر أغوارها.

(١٨) Il., XIII, 275 وكلمة Ióchos تدل على الامتحان الأعلى الذي يبين فيه المحاربون شجاعتهم. وهو امتحان شجاعة وذكاء.

(١٩) انظر Xénophon, Cyropédie, I, 6, 27 وانظر Mémoires, III, 1, 6.

(٢٠) كما حدث في الحملة الليلية التي قادها أوليسيس وديوميديس وانتصرا فيها على دولون Dolon الداهية الذي تخفي في جلد ذئب، انظر Il., X, 272-264.

(٢١) انظر O.F., 174 Kern انظر Pindare, Olymp., VII, 35-38 انظر Hymne hom. Athéna (1), 4-16.

(٢٢) انظر Il., XVIII, 200-229.

(٢٣) هذه الأسلحة التي صنعها هيفايستوس وصفت بأنها أكثر استعاراً من النار، انظر Il., XVIII, 610.

(٢٤) «النفير» أو آلة النفخ المسماة بالفرنسية «ترومبيت trompette» والتي كان الإغريق يسمونها سالبيكس آلة حادة الصوت oxúphonos يقولون إن أثينة هي التي ابتدعت استخدامها في المعارك، أثينة التي سماها الأرجيون «ذات النظرة الحادة oxuderkes» وكذلك «ذات النفير الحربي Sálpinx» انظر Paus., II, 21, 3 (مزار ذات النفير الحربي المطل على الساحة الكبرى). انظر Etym. Magn.

Anthol. Palat., VI, 708, 2 et Schol. Lycophr., 915 Scheer (اختراع أثينة النفير)؛ انظر، Anthol. Palat., VI, 46, 3 و ١٥١ و ١٥٩ و ١٩٤ (إهداء الآلة إلى أثينة)؛ عن قارورة الليكوثوس ذات الرسوم الحمراء في النصف الأول من القرن الخامس انظر BCH, 1966, p. 741 والرسم رقم ١ يمثل أثينة ذات نفير.

(٢٥) انظر الإلياذة II., XVIII, 222

(٢٦) انظر الإلياذة II., XVIII, 227

(٢٧) F. Vian, La Guerre des Géants, Paris, 1952, p. 57, 271, 274 انظر كذلك Dümmler, A. Severyns, Les Dieux d'Homère, Paris, s.v. "Athena", R.E. (1896), c. 1997 1966, p. 70-73.

(٢٨) انظر الإلياذة II., V, 738-742

(٢٩) انظر الإلياذة II., XV, 309

(٣٠) Hésiode, F. 343, 18.

(٣١) انظر الإلياذة II., XXI, 401

(٣٢) Il., VIII, 349 (هكتور: «في عينيه لمعت نظرة الجورجون»؛ انظر كذلك XI, 36 (درع أجاممنون).

(٣٣) Démocrite, FVS 7, II, 127, 13, sq; J. Lydus, De Mens., IV, 54; Aristote, Hist. anim., IX, 2, 609 a 15; Élien, Nat. anim., I, 29. اللون الأزرق الفاتح، بريق منير (ملف في- Glaûkos et mycéni- glaukós التي تعبر عنها لفظة وهي: P. Chantraine, "Grec glaukós, Glaûkos et mycéni- en Karaubo" في Mélanges F. Carcopino, Paris, 1966, p. 193-203 قيم تدعم تفسيراً اقترحه قديماً ف. ف. أوتو W. F. Otto, Gli dei della Grecia, 1. éd., Firenze, 1955, p. 68-69 ، وقد سبق إليه جيسين L. Jessen (s.v, Glaukopis, R.-E. {1901}, c. 1404 sq. انظر كذلك L. Lacroix, "La Chouette et le croissant sur les monnaies d'Athènes La Chouette d'Athéna (Rev. Études Anciennes على النقود الأثينية) . في دراسة حديثة Claude Meillier أن يبين أن البومة = بومة أثينة» ، أراد كلود ميبه 72, 1970, p. 5-30 مستعارة من أثينة إرجانه Athéna Ergáne. ربة الغزالات، وأنها جاءت في القرن السادس لتنضم إلى صفات أثينة الحربية والأرستقراطية في الأكروبوليس. وكان المؤلف يسعى إلى ربط هذا التحول (ص ٣٠) بالصراع الطبقي، وصعود الشعب demos. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن النسيج وشغل الصوف أدخلوا كذلك الدهاء المبتيسي لأثينة: وهذا التوضيح الذي لا يصعب القول به سيؤدي بل شك إلى صياغة مختلفة للمشكلة التي عرفها كلود ميبه Claude Meillier وإلى إعادة صياغتها بالمقولات التي استخدمها الإغريق في تفكيرهم في النشاط التقني.

II., XI, 16, 44-46; XVII, 591-596 etc. (٣٤)

(٣٥) أثينة توصف بالصفات التالية: glaukopis, gorgopis, oxuderkés, optillétis, ophthalmitis, narkaia . وقد جعلوا في أرجوس شعائر لأثينة التي شبهوها بالنفير oxúphonos ووصفوها بأنها ذات النظرة الحادة oxuderkés وأنها المتضامنة مع ديوميديس، وعملياته الحربية ودرعه.

(٣٦) هذه السمات المختلفة الخلافة للحرب هي سمات أرخائية عتيقة ستردها ممارسة التزال الهوپليتيكي منذ القرن السابع إلى ماض بطولي، ولكنها ستظل عناصر خطاب إيديولوجي للمدينة وبخاصة عناصر الخطاب الذي ستطوره التراجيديا.

(٣٧) انظر ما يلي ص ٢٤٦ وما بعدها

(٣٨) انظر ه. جانماير H. Jeanmaire, Courroi et Courètes, Lille, 1939, p. 115-119.

الباب السابع

الشكيمة اليقظة

(١) انظر القائمة التي أعدها إ. فيل Éd, Will, Korinthiska, Paris, 1955, p. 135-136, n. 4.

(٢) انظر باوسانياس Paus., II, 4, 1. éd. G. Roux

(٣) انظر Pind., Olymp., XIII, 63-87. وانظر H. Jeanmaire, La Naissance d'Athéna et la roy-

auté magique de Zeus, Rev. Archéologique 48, 1956, p. 25-27, وقد قدم جانماير في هذه

المقالة «مولد أثينة ومملكة زيوس السحرية» بعض التوجيهات التي لم ننسها.

(٤) انظر Pind., Olymp., XIII, 18-22 وكلمة Sôphisma أي اختراجه من معجم الدهاء الميئسي،

والاختراجه هي مثلاً الوسيلة الماكرة التي مكنت بروميثيوس من الخروج من مأزقه العسير

(اسخيلوس: بروميثيوس (Esch., Prom., 470)؛ ومن قبيل الاختراجات الاختراعات التي تفتق

عنها دهاء بروميثيوس الميئسي (Esch., Prom., 459)؛ والتعبير sôphisma mechanâsthai

(HDT., III, 85) يعني الحيلة التي ابتدعها أوتباريس Oibarès لكي ينصب داريوس ملكاً على

الفرس. ويذكر النص نفسه أن أوتباريس أريب sophós، وأنه يمتلك أشربة وعقاقير.

(٥) انظر Pind., Olymp., XIII, 49-51

(٦) انظر Pind., Olymp., XIII, 52-54 ويوصف سيسيفوس بأنه puknótatos palámais كما يوصف

بأنه ذو دهاء محرج (Hés., fr. 10, 2 Merkelbach-West), aiolómetis، اشتهر بمغامراته مع

ميسترا، أوتولوكوس والموت. انظر J. Schwartz, Pseudo-Hesiodica, Thèse, Paris, 1960, p. 276 sq, 309 sq, 442 sq, 559 sq

A. Severyns, Le Cycle épique dans ذلك

l'école d'Aristarque, Liège-Paris, 1928, p.391-393.

(٧) انظر Pind., Olymp., XIII, 55-62

(٨) انظر أوزنر H. Usener, Götternamen, 1895 (3e éd. 1948), p. 160 sq وقد بين أوزنر في كتابه هذا («أسماء الآلهة») العلاقة بين ميديا بالشقراء أجاميد Agamède وبيرميديد Périmède وبوليميد Polymède وغيرها من الأسماء الشبيهة. في أنشودات پنداروس البيثية Pyth., IV, 233 توصف ميديا بأنها العليمة بالعقاقير pamphármakos

(٩) انظر الأوديسا Od., IV, 227

(١٠) انظر هيسودوس «ثيوجونية»

Hés., Théog., 280-283 (éd. M. L. West; Comm. p. 247

(١١) انظر شاخرماير F. Schachermeyr, Poseidon und die Entstehung des griechischen Götterglaubens, München, 1950, p. 31-32 Éd. Will, Korinthiska, Paris, قبل 1955, p. 145 sq et p. 4.7 sq.

(١٢) المعطيات الخاصة بالرقائع مجمعة في كتاب ب. ك. ديتريش B. C. Dietrich, Death, Fate and the Gods, University of London, 1965, p. 124 sq (= الموت والقدر والآلهة) وتفسيرات ديتريش كثيراً ما تحمل الشك (انظر نقد الكتاب بقلم أحدنا في مجلة Rev. Ét. Gr., 1967, p. 579-583). انظر ر. شتيجليتز R. Stiglitz, Die grossen (ربات أركاديا الكبيرات) Göttinnen Arkadiens. Der Kulname "Melainai Theai" und seine Grundlagen, Oesterr. Archäol. Inst., Sonderschr. 15, Wien, 1967.

(١٣) علينا أن نضيف إلى كتاب شاخرماير F. Schachermeyr تحليلات إ. قبل في الكتاب المذكور سابقاً Éd. Will, Korinthiska, Paris, 1955, ص ٢٠٤ وما بعدها والمخلص الذي نشره في مجلة كلية الآداب، ستراسبورج، "Points de vue corinthiens sur la préhistoire du culte de Poséidon", Bull. Fac. Lettres de Strasbourg, 1954-1955, p. 326.

(١٤) هذه المشكلة عاد إلى تناولها مؤخراً خ. م. بلاسكوث J. M. Blasquez, "El Caballo en las Creencias griegas y las de otros pueblos circummediterraneos", Rev. Belge de Philol. Hist., 45, 1967, p. 48-80

(١٥) پنداروس، الأنشودات الأوليمبية Pind., Ol., XIII, 63 وفيها: پجاسوس ابن جورجونه المتوجة بالشعابين.

(١٦) كتب چانير H. Jeanmaire في كتابه "ديونيسوس" (Dionysos (Paris, 1951, p. 281-285 عن رمزية الحصان بضعة صفحات تستحق تعليقات أخرى غير تلك التي ذكرناها في هذا السياق.

X, 17 Delebecque . (١٧)

Pollux, I, 192 Bethe. (١٨)

P. Chantraine, Dictionnaire étymologique de la langue grecque, Paris, 1968, p. 233 (١٩)

انظر كلمة gorgós

(٢٠) أوريبيديس، أندروماخوس. Eur., Andromaque, 458.

(٢١) L. Robert, Collection Froehner. I. Inscriptions grecques, Paris, 1936, n 4 وانظر له

Noms indigènes dans l'Asie mineure gréco-romaine, I, Paris, 1962, p. 159 et n, أيضاً

6.

(٢٢) أوريبيديس، هيبولوتوس. Eur., Suppl., 328.

XL, 13. (٢٣)

Dionysos, p. 284 (٢٤)

(٢٥) أوريبيديس، الضارعات. Eur., Hippol., 237-238.

(٢٦) أكسينوفون، الوليمة. Xénophon, Banquet, I, 10. على هذا النحو ينبغي فهم gorgóteron.

و.ب. شانترين (P. Chantraine (Dict. étymol., p. 234) أوضع أن Gorgo تأتي بعد الصفة

gorgós. وعلى العكس يكتب ل. روبر في كتابه أن أصل كلمة يتضمن معنى المرونة والقوة

النشطة السريعة.

(٢٧) إسكيلوس، خونيفوريس. Eschyle, Choéphores, 1022-1023

(٢٨) انظر إ. ثيل. Éd. Will, Korinthiska, Paris, 1956, p. 136; 138 sq; 189; 191. ويذكر

البعض أن هناك وثيقتين مصورتين يظهر فيهما تاراكسيوس. الوثيقة الأولى نشرها ك. ف.

يوهانسين K. F. Johansen, Acta Archaeologica 6, 3, 1935, p. 167-213 وتبين شقفة من

تابوت كلازومينيس شخصاً صغيراً شيطانياً يقف فوق على قصة عربة. أما ش. بيكار Ch. Picard,

Rev. arch., 1937, p. 245-247 فقد ذهب إلى أن الشخص المرسوم ليس «مرعب الخيل» بل

Zeúxippos, القائم على الخيل المكذبة. والوثيقة الثانية قام إ. بيرنيس E. Pernice بتحليلها في

دراسة بعنوان "Ein korinthischer Pinax" نشرت في Festschrift O. Benndorf, 1898, p. 78

sq وينتهي إلى أن الوثيقة المصورة هي لوحة بينتيسكوفيا Penteskouphia تمثل جنياً منتصب الذكر

منحنياً على ذيل حصان. أما إ. ثيل فقد رفض في كتابه أن تكون الصورة لتاراكسيوس Ta-

axippos محتجاً بأن تاراكسيوس له ملامح بوسايدونية باللغة الواضح تحول دون أن يظهر في مثل

هذا المظهر المتواضع. والمتوارثات التي جمعها باوسانياس حول تاراكسيوس تعطي على الأرجح الحق

لـ بيرنيس E. Pernice في تفسيره للوحة الكورينثية.

- (٢٩) انظر پاوسانياس Paus., VI, 20, 15-19.
- (٣٠) Tzetzes, Sch. in Lycopher. Alex. 42, p. 34, 1 sq ويذكر شير Scheer موروثاً قريب الشبه، ويذهب إلى أنه من المرجح أن تكون شجرة غار مزروعة على قبر وأن تكون أوراقها بما تحدثه من حفيف وما تلقبه من ظل، سبباً في إصابة الخيول بالرعب.
- (٣١) إ. قبل في الكتاب المذكور سابقاً Éd. Will, Korinthiaka, ص ١٨٨ وما بعدها
- (٣٢) إسخيلوس Eschyle, fr. 439 sq Mette والنصوص التي أوردها فيكر Weicker ، انظر تحت كلمة (9) Glaukos في R.E. (1910), c. 1412-1413
- (٣٣) Eitrem, s.v. "Hippomanes" (3), R. E. (1913), c. 1888
- (٣٤) أرسطوطاليس Aristote, Hist. Anim., 571 b 10 sq القيم السحرية لهيپومانيس hippomanes حللها ستادلر Stadler انظر كلمة Hippomanes في R. E. (1913), c. 1879-1882
- (٣٥) Élien, H. A., XV, 25; Apollodore, II, 5, 8 (مع ملحوظات فريزر Frazer في طبعته) انظر. أ. جرويه O. Gruppe تحت كلمة Herakles في R. E., Suppl. B. III (1918), c. 1053. عن صورة الحصان من حيث قوة تخريبية، بلا كمامة، متهيء للعض، يمكن أن ننظر إلى ملحوظات ج. بايه J. Bayet على النقود الصقلية اليونانية في Mélanges de littérature latine, Rome, 1967, p. 255-280.
- (٣٦) أوربيديس Euripide, Héraklès, 382 وانظر كذلك Alceste, 492 sq. هذه الخيول التي لم تشكم هي عكس الجياد الطبيعة للجام philénioi التي يذكرها إسخيل Esch., Prom., 465
- (٣٧) انظر L.Gernet, Anthropologie de la Grèce antique, Paris, 1968. p. 131-132 وقد اعتمد على دراسة أوستهوف Osthoff, "Etymologische Beiträge zur Mythologie und Religionsgeschichte, 2. pélor und téras", Archiv für Religionswissenschaft, 1905, p. 52 sq.
- (٣٨) أوربيديس Euripide, Hippolyte, 1222-1223
- (٣٩) انظر اسخيلوس Eschyle, Sept, 203 sq وانظر سوفوكليس Sophocle, Oedipe à Colone, 1067 : الشكيمة تبث بروقاً (astráptei chalinós) مثل المجن والدرع.
- (٤٠) Eschyle, Sept, 206. áüpnos احتمال يدافع عنه د. فان نيس D. Van Nes, Die maritime Bildersprache des Aischylos, Groningen. 1963, p. 105-108
- (٤١) على نفس النحو الذي سمي فيه العقال ديسموس desmós في الإلياذة II., VI, 507; XV, 264. يضاف إلى ذلك أن تعبير epistomizein "يشكم الحصان" يمكن "يفهم الغريم" ، انظر ج. تاياردا J.

Taillardat, *Les Images d'Aristophane*, 2. éd, Paris, 1965, p. 279/

(٤٢) پوسايدون يوصف بأنه Damásippos مروض الخيل مثل أثينة (Schol. Arist. Nuées, 967)

(٤٣) انظر ملحوظات ن. يالوريس ، "أثينة سيدة الخيل" N, Yalouris, "Athena als Herrin der Pferde", *Museum Helveticum* 7, 1950, p. 30-46.

(٤٤) Sophocle, dipe à Colone, 714 مع ملحوظات جيب Jepp في طبعته التي صدرت في عام ١٨٩٩، وأعيد طبعها في أمستردام في عام ١٩٦٥، ص ١٢١.

(٤٥) P. Chantraine, *Dictionnaire étymologique de la langue grecque*, Paris, 1968, p. 49 انظر كلمة ákos

(٤٦) كاتب الحاشية الذي كتب شرحاً على مسرحية Oedipe à Colone أوديبيوس في كولونوس، البيت ٧١٤، شرح كلمة akesterá بكلمة sophronistes وذكر أن الشكيمة تعمل عملها مثل الأدوية التي تهدئ اضطرابات الجنون manimádes nósoi .

(٤٧) فرجيليوس: قصيدة جيورجيكا Virgile, *Géorg.*, III, 115 (et Servius, ad. loc.); Lucain, *VI*, 396 sq; Hygin, *Fab.*, 274, 2 Rose; Val.-Flaccus, *Argon.*, VII, 603-604. وارجع إلى J. Krischan, s. v. "Pelethronios", *R. E.*(1937), c. 270-271.

(٤٨) Homeri opera, éd. Thomas W. Allen, t. V, 1912, p. 212. ونقلت القصيدة في طبعة ثيست ميركلباخ West-Merkelbach, *Fragmenta hesiodea*, Oxford, 1967, p. 302.

(٤٩) هناك ملحوظتان تفرضان نفسيهما بشأن أثينة التي تبسط يدها فوق الفرن. الملحوظة الأولى عن هذه اليد الحرفية. وأثينة صاحبة التقنية ليست مجرد عاملة بسيطة bánausos بل نراها دائماً على هيئة المعلم cheironax، وهو العامل المحترف الذي يمتلك درجة تمكن المعلم. وإذا أراد مادح أن يمدح ذكاء أثينة ومهارتها التقنيين، فإنه يمدح يدها (Anthol. Pal., V, 70, 3; 94, 1). هذه اليد التي تبسطها فوق الفرن، علامة على التمكن والسيطرة التي تمارسها على الفرصة السانحة kairós، على زمن الفرصة التي تهتل: على الخزاف الجيد أن يعرف اللحظة التي تكون فيها قطع الخزف قد نضجت تماماً، لا أقل ولا أكثر مما ينبغي. والملحوظة الثانية تنطبق على تدخل أثينة في شغل الخزف. وهناك وثيقة أثرية ينبغي أن نقر بها من هذه الأبيات في أغنية الخزاف، هذه الوثيقة عبارة عن لوحة بنيسكوفيا التي نشرها إ. بيرنيس E. Pernice بعنوان "Ein korinthischer Pinax" نشرت في Festschrift O. Benndorf, 1898, p. 75-80 هذه اللوحة تمثل من ناحية بومة ضخمة تحط على فرن للخزف متقد، ومن ناحية ثانية جنياً يمسك بيده عضوه ناحية رجل هو على الأرجح الخزاف. ولا يقتصر أمر الشكلين على أنهما شكلان مختلفان من السحر، بل هما يمثلان تصوير التعارض الذي ترسم علاماته أغنية الخزاف، التعارض بين أثينة حامية الفرن، والبومة ترمز إليها ، وشباطين الخزف يمثلها

القزم الجنى ذو العين الشريرة.

٥٠. شدت القصيدة مؤخرًا اهتمام أحد مؤرخي تقنية الخزاف والفخاراني هو جوزيف نوبل Joseph

Vaech Noble, The Techniques of painted Attic Pottery, London-New-York, 1965,

Appendix, III, p. 102-113 ، وقد نشر لها ترجمة وشرحاً.

(٥١) البيت ١٣

(٥٢) الأبيات ١٥-٢٠

(٥٣) إيسخيلوس، السبعة Eschyle, Sept, 121-122

(٥٤) إيسخيلوس، السبعة Eschyle, Sept, 203-208

(٥٥) بينداروس، الأناشيد الأولمبية Pindar, Olymp., XIII, 84

(٥٦) بينداروس، الأناشيد الأولمبية Pindar, Olymp., XIII, 86

(٥٧) انظر سيشان، الرقص الإغريقي الأتيكي

L. Séchan, La Danse grecque antique, Paris, 1930, p. 90-95 وانظر ثيان، حرب العمالقة F.

Vian, La Guerre des Géants, Paris, 1952, p.249-250.

(٥٨) Wilamowitz, Pindaros, Berlin, 1922, p. 372, n. 4

(٥٩) ن. بالوريس ، "أثينة سيدة الخيل" Museum N, Yalouris, "Athena als Herrin der Pferde",

Helveticum 7, 1950, p. 19-101.

(٦٠) انظر إ. قبل Éd. Will, o. c., p. 316-319 (وبخاصة ص ٣١٧، الملاحظة رقم ٢) هناك ثلاثة كتب

J. K. Anderson, Ancient Greek: حديثه تتبع لنا طرح مشكلات الخيل في مجموعها، وهي

Horsemanship, Berkeley, 1961; P. Vigneron, Le Cheval dsans l'antiquité gréco-

romaine, I et II, Nancy, 1968; J. Wiesner, "Fahren und Reiten", dans Archaeologia

Homerica (I, F), Göttingen, 1968.

(٦١) Valerius Flaccus, Arg., III, 13-14; V, 513-514.

(٦٢) Plutarque, Cimon, 5, 1.

(٦٣) انظر الإلياذة، النشيد ٢٣، البيت ٣٠٧. والمقصود على وجه الدقة زيوس وپوسايدون.

(٦٤) E. Delebecque, Le Cheval dans l'Iliade, Paris, 1951, p. 66-68

(٦٥) انظر الإلياذة، النشيد ٢٣، الأبيات ٥٨١ - ٥٨٤.

(٦٦) Paus., VIII, 7, 2. عن پوسايدون والعربة انظر F. Schachermeyr. o.c., p. 50-60, et passim.

W. Koppers, "Pferdeopfer und Pferddekult der Indogermanen", عن التضحية بالخيول انظر،

Wiener Beiträge, 4, 1936, p. 279-409.

J. Wiesner, "Fahren und Reiten", dans *Archaeologia Homerica* (I, F), Göttingen, (٦٧
1968, p.110-135.

(٦٨) في دراسة بعنوان "Homophonies radicales en Indo-Européen", Bull. Soc. Ling. 51, 1955, 9. 22-28
بين إ. بنفنيست E. Benveniste أن ظهور معنى ثان في المعجم الهوميروسي
لكلمة *damáo* «=بروض حيواناً» ، هذا المعنى المشتق من المعنى الأول للجذر نفسه في الهندوأوروبية
«=يخضع قهراً» ، يسمع على الأرجح بتحديد نشأة ترويض الحصان وبداية ركوب الخيل. على
مستوى البحث الأثري ينبغي أن نفتح مكاناً هاماً لهذه المصورات التي تصور رجلاً موضوعاً بين
حصانين يسكهما باللجام أو يلمسهما بيده . ارجع مثلاً إلى P. Courbin, *La Céramique géo-
métrique de l'Argolide*, Paris, 1966, p. 485 sq et 492 sq.

(٦٩) ونلاحظ أن ديلبيك E. Delebecque, *Le Cheval dans l'Iliade*, Paris, 1951, p. 62 لم يذكر
إلا إشارة واحدة إلى الشكبة في الإلياذة، في النشيد ١٩ ، البيت ٣٩٣.

(٧٠) النشيد الهوميروسي إلى أبوللون، الأبيات ٢٢٩-٢٣٨. والترجمة التي نقرحها تعتمد كلية على
تفسيرات ج. رو. G. Roux, "Sur deux passages de l'Hymne homérique à Apollon", Rev. Ét. Gr. 77, 1964, p. 6-22
ولكننا في ترجمة البيت ٢٣٧ وفي تحديد مفهوم *hosie* ، أخذنا
بالمعنى الذي قال به بنفنيست E. Benveniste, , *Le Vocabulaire des institutions indo-
européennes*, II, Paris, 1969, p. 202 sq.

(٧١) انظر G. Roux ج. رو. المرجع المذكور، ص ١٥.

(٧٢) *Geoponica*, XVI, 1, 10.

(٧٣) انظر G. Roux ج. رو. المرجع المذكور، ص ١٨. وقد اقترح رو تصحيح كلمة *phulássei* إلى
phulássen وهي صورة الفعل غير المصرف والخاضع لكلمة *moira*.

(٧٤) انظر G. Roux ج. رو. المرجع المذكور، ص ٢١. ويلاحظ رو فيما يتصل بپوسايدون هيبپيوس
وتاراكسيپوس : «له القدرة على أن ينشر بينها <الخيل> الرعب، ولكنه له أيضاً القدرة على حمايتها
من الرعب.»

(٧٥) انظر پاوسانوس Paus., VIII, 25, 4-10 وانظر كذلك ديتريش B. C. Dietrich, *Death, Fate
and the Gods*, London, 1965, p. 108 sq, 126 sq.

(٧٦) *Antimaque de Colophon*, fr. 32, 5 Wyss وقد ذكره پاوسانياس Paus., VIII, 25,9.

(٧٧) انظر ليجرا L. Legras, *Les Légendes thébaines dans l'épopée et la tragédie grecques*,
Paris, 1905, p. 79-80.

J. Wiesner, "Fahren und Reiten", dans *Archaeologia Homerica* (I, F), Göttingen, (٧٩)
1968.p. 111 et 113

(٨٠) (انظر Fr. 32 Wyss وقد ذكره پاوسانياس Paus., VIII, 25,9.

(٨١) انظر فيما سبق ص ٢٢ وما بعدها

(٨٢) بيندروس، الأنشودات الإيسثمية، الأنشودة ٧، البيت ٩، وفيه : يولاوس وهو أشهر من قاد عربة
يوصف بأنه صاحب دهاء ميثيسي في شئون الخيل.

(٨٣) انظر "Hippia" Etymologicum Magnum, s. v. وانظر Anecdota graeca, éd Bekker, I, p.
Paus., I, 30, 4. 350, 24, s.v. "Athená Hippia" وانظر

(٨٤) انظر Fr. 40 في Müller, F. H. G., III, p. 156

(٨٥) بيندروس، الأنشودات الإيسثمية، الأنشودة ١، البيت ٥٤.

(٨٦) Hésych., s. v. "impsas".

(٨٧) Nonnos, Dions., XXXVII, 310 Keydell.

(٨٨) Nonnos, Dions., XXXVII, 311-312 Keydell. في الأبيات ٣٢٠ وما بعدها توصف خيول
إيريكسيوس المكدة إلى العربة بأنها «خيل سباق ماراثون» بما يوحي بأنها تشير إلى منسك قديم
لأثينا في ماراثون Marathon. انظر ن. يالوريس، المرجع المذكور من قبل، ص ٦٢، وانظر إ. قيل.
المرجع المذكور من قبل ص ١٣٥ وما بعدها.

(٨٩) البيت ٦٢٢

(٩٠) البيت ٣١٦. ونلاحظ أن المناورة - بل قصة السباق كلها - مستلهمة مباشرة من النشيد ٢٣ من
الإلياذة. والقصة من منظورنا لا يمكن إلا أن يكون لها مزيد من الأهمية: ما نراه من التضاد الصريح
في الإلياذة بين الحصان أريون وخيل أنطيلوخوس المكدة يقابله التضاد بين المجموعتين من الخيول
المكدة، تلك التي تنتمي إلى پوسايدون والأخرى التي تنتمي إلى أثينة.

(٩١) الأبيات ٢٢١-٢٢٢

(٩٢) هناك نص يبدو أنه يحمل في طياته تكذيباً شديداً للتفسير الذي عرضناه لتونا، هذا النص هو
كورس مسرحية «أوديپوس في كولونوس» Oedipe à Colone لسوفوكليس حيث نرى الأبيات من
٦٦٩ إلى ٧١٤-٧١٥ تضع في مواجهة أثينة حامية شجرة الزيتون، پوسايدون مخترع شكيمة
الخيل. وهناك سببان يسمحان بتصوير أبعاد هذا «الوضع الشاذ» وبيان السبب في أن أثينه لمي هذا

السياق لم توضع في علاقة ما بشكيمة الخيل. السبب الأول هو أن هذا الجزء من كورس مسرحية «أوديبوس في كولونوس» لسوفوكليس جرت صياغته اعتماداً على النموذج المبني لأصول مدينة أثينا. فنجد المبتهلين هنا يتהלون إلى أثينة وبوسايدون من حيث هما قوتان مؤسستان لمدينة أثينا تتواجهان في سياق تعرفه لا على أساس النصوص فقط، بل أيضاً على أساس وثائق مصورة، منها على سبيل المثال : أ) الحبة الشهيرة في «متحف» الإرميتاج (Ermitage و ب) الهيليكة في پوليكورو Policoro. في الوثيقة المصورة الأولى نرى أثينة وبوسايدون يقفان موقف المواجهة، ويعرض كل منهما بدوره دلائل قدرته: بوسايدون يُخرج من الأرض أول حصان، وأثينة تخرج من الأرض أول شجرة زيتون (انظر H. Metzger, Les Représentations dans la céramique attique du IV^e siècle, Paris 1951, p. 324-326). الوثيقة الثانية عشر عليها في حفائر هرقلية القديمة (انظر N. Degrassi, "Meisterwerke frühitaliotischer Vasenmalerei aus einem Grab in Herakleia", ed. B. Neutsch, Mitt. d. Arch. Ist. Röm. Abt., في Policoro" Ergänzungsheft, XI, Heidelberg, 1967, p. 217-221, tabl. 66 et 67) في هذه الوثيقة الثانية نرى القوتين الإلهيتين معاً في أماكن المعركة: ويظهر بوسايدون راكباً حصاناً؛ وقد تسليح بغطاف مثلث وبجانبه هيرميس على هيئة فارس. وتقف أثينة على عربة تجرها أربعة جياد؛ وهي تلبس الدرع وترافقها الربة إيريس Iris التي تخدمها كسائق عربة. وعلى مستوى منخفض قليلاً يمكننا أن نرى بجانب أثينة غرس زيتون. في هذا الإطار المبني يرتسم التضاد بين أثينة التي تخلق شجرة الزيتون وحياة الزراعة وبين بوسايدون الذي يمثل قوة الخيل كما يمثل القوة فوق البحر. والحصان هنا بالنسبة إلى أثينة هو أولاً حيوان بوسايدون. هذا النموذج المبني الذي يصور أصول مدينة أثينا يدفع الربة أثينة بكل ثقله إلى جانب شجرة الزيتون.

والسبب الثاني الذي يمكن أن نسوقه لتبرير هذا اللون من التقسيم هو أنه كان من المحال نسبة اختراع الشكيمة إلى الأثينيين، بنسبتها إلى الربة أثينة، كان وجود أثينة خالينيتيس - أثينة ربة الشكيمة - في التراث الكورنثي يضطر الأثينيين إلى إبراز ربه بوسايدون الذي كان أعلى قدراً حتى يواجهوا طموحات الكورنثيين.

ومن الضروري أن نضيف أن هذا الكورس بمسرحية «أوديبوس في كولونوس» لا يمكن فصله عن الأبيات التي تليه، وبخاصة البيتين ١٠٦٧-١٠٦٨ اللذين يذكران فرسان أثينا : «من كل صوب وحذب تلالاً شكائم الخيول، ومن كل ناحية سما حمل الفوارس الذين راخوا يمجدون أثينة هيبياء» ربة الخيل» ويمجدون رب البحر، مله الأرض، ابن ريا العزيزة. «هكذا نرى فرسان أثينة يعودون مرة أخرى تحت سيادة أثينة ربة الخيل. وكأنما نرى أثينة التي ما كادت تنفصل عن شجرة الزيتون حتى استعادت مكانها سيدة للخيل بجانب بوسايدون.

والمخالصة أن بوسايدون يمكنه أن ينعم بركض الخيل وصهيلها (وهو هكنا على لوحات النذور التي وجدت في بنتيسكوفيا Penteskouphia بالقرب من كورينثيا القديمة والتي يظهر فيها على هيئة رب الخيل، واقفاً في العربة التي يقودها بنفسه: (راجع جيجان H. A. Geagan, "Mythological Themes on the Plaques from Penteskouphia") ولكنه عندنا يصطنع لنفسه هيئة مبدع الشكيمة أو مبدع فن ركوب الخيل، فإنه «ينسب لنفسه ما ليس له» ويمارس الهيمنة الشاملة "الإمبريالية" كما تفعل كل القوى الكبرى في مجمع الآلهة اليونانيون.

(٩٣) في كتابه «بوسايدون Poséidon»، ص ١٥٢-١٥٣، وجد ف. شاخرماير F. Schachermeyr بحق أن أثينة هيبيّا «ربة الخيل» لا يمكن أن تخلط برب كيوسايدون هيبيوس «رب الخيل»، وبين بايجاز ولكن بكفاءة أن نصيب أثينة في مجال الخيل هو الصنعة البارعة والمبدأ التقني.

(٩٤) بيندروس، الأنشودات الأولمبية، ١٣، ٦٨ وما بعده.

(٩٥) تفرض المقارنة نفسها هنا، فعلى أن نقارن بتضحية بنفس النية، في مجال مواز، مجال الملاحظة، حيث يتدخل بوسايدون وأثينة معاً: ونعني التضحية المقدمة من ياسون إلى بوسايدون رب البحر، في اللحظة التي كانت السفينة الأولى التي صنعتها أثينة، أو التي ساعدت على صنعها، تتأهب لشق طريق على البحر. (انظر فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Argon., I, 196-198)، وانظر كذلك فيما يلي ص ٢٢٦ وما بعدها.

الباب الثامن

زائفة البحر

(١) انظر پاوسانياس Paus., I, 5, 3.

(٢) انظر كتاب م. پ. نيلسون M. P. Nilsson, Cults, Myths, Oracles and Politics in Ancient Greece, Lund, 1951, p. 56 sq.

(٣) انظر هيسوخوس Hésychius, no 2748 Latte

(٤) انظر مثلاً أ. كيلر O. Keller, Die antike Tierwelt, II, Leipzig, 1913, 9. 243؛ وانظر

شتاير Steier تحت كلمة Möwe (ومعناها طائر النورس) R. E.(1932), c. 2412-2418؛ وانظر

دارسي و. ثومبسون D'Arcy W. Thompson, A Glossary of Greek Birds, 1936, p.27-29

«طبعة معادة 1966 [Réimpression, Hildesheim, 1966]؛ وللمؤلف نفسه: "Was ist 'aithuia'" - ما

معنى "أيثويا" في دورية Sudhoffs Archiv für Geschichte der Medizin und der Na-

turwissenschaften 30, 1938, p. 335-339.

(٥) الخلط نفسه يصادفنا فيما يتعلق بكلمة mergus باللاتينية.

انظر (ج. أندريه، أسماء الطيور باللاتينية) : J. André, Les Noms d'oiseaux en latin, Paris, 1967, p. 101-103.

(٦) انظر Schol. in Od., V, 66 (انظر كذلك Schol. in Od., I, 441) وانظر هيسوخوس Hé- sychius, no 1894 Latte وربما ينبغي علينا أن نعتبر «زاغة البحر» هي puffin yelkouan وهو الرأي الذي أخذ به ج. أندريه، انظر كتابه السابق ذكره ص ٦١، وهو في ذلك ينبع أرسى و. ثومبسون.

(٧) هذه النصوص التراثية يذكرها ديونيسيوس Dionysios, Ixeutikon, II, 5, p. 26, 15 sq Garzya (Bibl. Teubner) ، فيما يتعلق بكلمة láros ولكن كلمة láros وكلمة aithuia كثيراً ما تتداخل وتختلط بحيث يجري استخدام الكلمة بدلاً من الأخرى بلا صعوبة. Steier, s.v. "Möwe", R. E. (1932), c. 2414 sq.

(٨) انظر أراتوس Aratos, Phainomena, 296 sq Martin. وانظر Callimaque, fr. 178, 32-34 Pfeif- fer كالباخوس ، وانظر Ep., 58, 4, t. II, p. 97 Pfeiffer.

(٩) انظر Artémidore, V, 74, p. 319, 6-15 Pack.

(١٠) انظر Lycophron, Alex., 230

(١١) انظر Cyranides, III (Oiseaux), II Peri aithuias (Ruelle, t. II, Paris, 1898, p. 86)

(١٢) انظر Théophraste, De signis, II, 28; Aratos, Phainomena, 950; Schol. Arat., Phai- nom., 918, p. 511, l. 10 sq Maass.

(١٣) انظر الأوديسا Od., V, 285-464

(١٤) انظر الأوديسا، نفس المرجع السابق ٣٣٧ et 353

(١٥) Schol. Apoll. Rhod., I, 917.

(١٦) Schol. in Od., V, 22. Eust., p. 1385, 64.

(١٧) Schol. in Lycophron, 359 Scheer.

(١٨) هناك دراستان خصصتا لتعريف أثينة أيثويا Athena Aithuia. الأولى جمعت مجموعة من العناصر المرتبطة بالوقائع، وهي التي كتبها أ. كيوك، A. Kiok, Athena Aithuia, ARW 18, 1915, p. 127-133. والثانية كتبها ك. أنتي، C. Anti, Athena maina e alata, Monum. ant. R. Accad. Lincei 25, 1920, p. 270-318. وقد شدد الانتباه إلى عدة مصورات يمكن أن تتصل بأثينة بحرية، سواء لبست بيبيلوس موشى بالنجوم (راجع phosphóros) أو يرافقها طائر بحري. ولكن ليس بين الدراستين واحدة أدركت دور الدهاء الميثيسي في هذه المصورات التي تمثل أثينة بحرية

- (١٩) الأوديسا Od., II, 262-433 . راجع D. Wachsmuth, POMPIMOS O DAIMON, Untersuchung zu den antiken Sakralhandlungen bei Seereisen, Berlin, 1967, p. 72 sq.
- (٢٠) انظر أبوللودوروس الرودسي Apoll. Rhod., I, 105-110; Valerius Flaccus, Arg., II, 48 sq.
- (٢١) انظر فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Arg., II, 598 sq (٢٢) انظر فاليريوس فلاكوس Va-lerius Flaccus, Arg., II, 549.
- (٢٣) أورفيوس، الأرجونوتية (Orphée), Argonautiques, 695 sq.
- (٢٤) الإلياذة Il., X, 274 وانظر D'Arcy W. Thompson, A Glossary of Greek Birds, o.c., p. 102-104..
- (٢٥) Elien, H. A., VII, 7. و Arat., Phainom., 913 sq
- (٢٦) طائر eroidios هو بلا شك في هذا السياق نوع من البشون - بالفرنسية héron - ، ربما Ar-dea Nucticorax .
- (٢٧) "وأوليسيس معي يتبع خطاي، وكأنا كنا كلاتا خارجين من جمر متأجج، لأنه يعرف أحسن من كل من عداه كيف يكون آراء " (بالإغريقية noesai) ، انظر الإلياذة Il., X, 246-247
- (٢٨) انظر أبوللودوروس الرودسي Apoll. Rhod., II, 328 sq.
- (٢٩) انظر أبوللودوروس الرودسي Apoll. Rhod., II, 598 sq.
- (٣٠) انظر أبوللودوروس الرودسي Apoll. Rhod., II, 601-602 . هناك تواز مؤكد بين ياسون الذي فقد أحد نعليه أو المنفرد النعل كما يسمونه monokrepis والسفينة التي تجردت من جزء من مؤخرها. بينما فقد ياسون في أثناء اجتيازه مخاضة - طريقاً póros بحرياً - نعلًا من نعليه، وتأهل هكذا لخوض اختبار الجزة الذهبية ، كذلك السفينة - مثلها مثل الطائر الذي سبقها في عبور هذا الممر الضيق - أي هذا الطريق البحري - انطبعت على النحر نفسه وفي الموضع نفسه بطابع اختبار لم يستطع أحد وبحق أن يبرز سمته التمهيدية. انظر ج. رو ، مشكلة الأرجونوتية G. Roux, Le Problème des Argonautes ، مواضع مختلفة من الكتاب، وبخاصة ص ٩٢-٩٣.
- (٣١) انظر هـ. أوزينر، أساطير الطوفان H. Usener, Die Sintfluthsagen, Bonn, 1899, p. 254; وانظر أ. هـ. كراپه، الآلهة أصحاب الغراب عند الكلتيين A. H. Krappe, Les Dieux au corbeau chez les Celtes, Rev. Hist. Rel. 94, 1936, p. 245-246; J. Hornell, The Role of Birds in Early Navigation, Antiquity 20, 1946, p. 142 sq; R. D. Barnett, Early Shipping in the Near East, Antiquity 32, 1958, p. 230 sq; M. David, Le Récit du Déluge et l'épopée de Gilgamesh, dans Gilgamesh et sa légende. Études recueillies par P. Garelli, Paris, 1960, p. 153-160' وانظر D. Wachsmuth, POMPIMOS

O DAIMON, Untersuchung zu den antiken Sakralhandlungen bei Seereisen, Berlin, 1967, p. 189 sq.

(٢٢) انظر بلينيوس Plin., H.N., VI, 22, 83; Charon de Lampasque, FGrHist, 262 F 3; Asclépiade de Tragilos, FGrHist, 12 F 2 B; Schol. in A.R., II, 328 A; etc

(٢٣) انظر Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Paris, 1966, p. 296-298.

(٢٤) انظر سوفوكليس «أنتيجوني» Soph., Antigone, 590; Pind., Pyth., IV, 209; Isthm., III, 18

(٢٥) بالنسبة إلى التعبير áno kai káto راجع J. Verdenius, Mnemosyne, 1964, p. 387 وبالنسبة إلى التعبير énthai kai énthai انظر الأوديسا Od., V, 327 وانظر كذلك II., XXIII, 320 فيما يتعلق باستعمال استعاري مطبق على سباق قام به سائق عربة تجرد من كل دهاء ميثيسي (ارجع إلى ما سبق ص ٢٢ و ٢٣).

(٢٦) Pind., Pyth., III, 104-105; Isthm., IV, 5-6; Olymp., VII, 95.

(٢٧) Euripide, Ion, 1506; Arist., Paix, 944; Plat., Rép., 408 d. الفكر الإغريقي، نجد إشارات مختلفة، منها ما جاء في ص ٢٠٢ وما بعدها من كتاب فاكسموت D. Wachsmoth السابق الإشارة إليه.

(٢٨) انظر Poetae melici graeci, Alcman, 5, fr. 2, col. II Page. وانظر ما سبق ص ١٣٤.

(٢٩) انظر صفحات مختلفة من كتاب J. Lindsay, The Clashing Rocks, London, 1965

(٤٠) انظر H. Stroh, Zur Sciksalauffassung bei Pindar und den frühgriechischen Dichtern, Stuttgart, 1944.

(٤١) انظر «ثيوجونية» هيسودوس Hésiode, Théogonie, 360. الانطلاق في البحر بحسب رأي أفلاطون Platon, Axiohcos, لا يعني فقط أن تصبح برمائياً، بل تصبح بفضك وقضيضك فريسة توخي tuché (المصادفة).

(٤٢) إيسخيلوس، «الضارعات» Esch., Suppl., 523: توخي tuché للفعالة praktérios مرتبطة Peitho

(٤٣) انظر ملحوظات P. Janni في Studi Urbinati, 1965, p. 106 sq.

(٤٤) انظر ألتمان Alcman, fr. 64 Page. وانظر V. Ehrenberg, "Eunomia" Polis und Imperium, Zürich und Stuttgart, 1965, p. 139-158.

(٤٥) هناك صفحة في كتاب «القوانين» تبين ذلك على نحو ممتاز. في الفصل يعلن الأثيني إن الإنسان

سيجد نفسه يميل راضياً إلى القول بأن "تقريباً كل الأفعال البشرية من شأن المصادفة *tuché*". ولكنه يضيف: «إذا كان كل ذلك الذي نقوله - عندما نتكلم عن الملاحاة، عن قيادة السفن، عن الطب، عن الفن العسكري - يمكن أن يعتبر بمثابة الحق الواقع الذي ينبغي أن يقوله الإنسان، إلا أن هناك على الرغم من ذلك حق واقع أيضاً، من قبيل ما نقوله عن الحق الواقع الذي ينبغي أن يكون، فيقول الإنسان عن هذه الموضوعات ... إن الإله. أو إن المصادفة والحظ *Tuché & Kairos* يعون من الإله يحكمان كل شئون البشر كاملة؛ وإن هذين المعينين اللذين يعاونان الإله لا بد أن يتبعهما معين ثالث، وهو من شأننا «نحن البشر»، ألا وهو الحيلة *Téchné*. وسنتفق على أن امتلاك فن قيادة السفن، بدلاً من عدم امتلاكه، هو عون لنا عندما تهب عاصفة ...».

(٤٦) فيما يتعلق بمفهوم الكائيروس *kairós* انظر P. Kucharski, "Sur la notion pythagoricienne de 'kairós'", Rev. Philos., 1963, p. 95-105.

(٤٧) هذه الوثائق ذات النقوش كانت موضوع دراسة M. Guarducci "Divinità Fauste nell'antica Velia", La Parola del Passato 21, 21. 1966, p. 279-284 وهي دراسة أنكرت أن يكون هذا هو معنى كائيروس، اعتماداً على سبين. من ناحية لأنها أهملت التمييز بين اللوحة رقم ١، لوحة بوسايدون المظلمين *Aspháleios* - التي أرختها بالنصف الأول من القرن الرابع - وبين اللوحات الثلاث الأخريات المؤرخة بالقرن الخامس والتي وجدت كلها في المنطقة المقدسة الصغيرة ذاتها *témenos*. ومن ناحية ثانية لأنها ترجمت النعت *Olúmpios* الذي نعت به كائيروس *Kairós* بدلاً من *d'Olympie*، حيث إن كائيروس هو «أصغر أولاد زيوس» (Ion de Cios, in Paus., V, 14, 9). وكان تفسيرنا يلحق بتفسير آخر اقترحه في التاريخ نفسه بوجليز كاراتيللي G. Pugliese-Carratelli, "Olúmpios Kairós", La Parola del Passato 25, 1970, p. 260 sq. وهناك رد من ج. جواردوتشي G. Guarducci, "Dall'Olympios Kairos al principe degli Apostoli", Archeologia Classica 23, 1970, p. 124-141 حددته مقالة G. Carratelli, "Fraintendimenti ed Errori", La Parola del Passato 26, 1971, p. 347-350.

(٤٨) A. B. Cook, Zeus, III, 1, 1940, p. 140 sq.

(٤٩) Pomp. Mela, I, 101.

(٥٠) Arrien, Peripl. Pont.-Eux., 37, in Geographi graeci minores, I, 401, Müller, et Mar-cianus Heracleensis, Epit. peripl. Menipp., 7 sq, ibid., I, 568 sq Müller, cités par A. B. Cook, ibid., p. 142.

(٥١) *Póntos Áxeinos* البحر الضنين، وهذه العبارة هي أقدم صيغة للاسم الذي أعطاه الإغريق للبحر الأسود، وكلمة *xeinos* هي الكتابة الإغريقية لكلمة اسكيشيكية إيرانية هي *axsaena* ومعناها: معتم. وقد تغيرت كلمة *Áxeinos* على سبيل التلطيف إلى *Eúxeinos*. ارجع إلى Chr. M. Dan-

فأقسمت D. Wachsmuth في الكتاب المذكور ص ٢١٦. off, s.v., "Pontos Euxenos", R. E. (1962), suppl. IX, c. 951 sq إلى ملحوظات

٥٢ (Sophocle, Philoctète, 855 في سياق تبرز فيه أهمية كائيروس في العمل مرتين، في ٨٣٥ و ٨٠٢. انظر. Esch., Choéph., 814; Hymn. Hom. Dionys., 26.

٥٣ (Esch., Suppl., 594-595 وهنا نلاحظ أن زيوس أوريموس Zeus Oúrios يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم mechar القريب من مفهوم mechané.

٥٤ (انظر أرسطوطاليس Aristote, Eth. Eud., VIII, 2, 1247 a 5-7; Eth. Nicom., III, 5, 1112 b 4-7.

٥٥ (Alcée, fr. 249 Lobel-Page = P. Ox., 2298, fr. 1, 1. 6 sq مع الشرح الممتاز بقلم بارنر W. Barner, "Neuere Alkaïos-Papyri aus Oxyrhynchos", Coll. Spudasmata, Bd. 14, Hildesheim, 1967, p. 113-126.

٥٦ (يقول بينداروس (Ném., VII, 17): "الحكماء يتنبأون بالريح التي ستهب بعد يومين tritaion ánemon. ولكن في «أوليس» عندما بدأت الريح الذي مكنت الإغريق من الانطلاق «بالأسطول لحرب طروادة»، فوجئ الرجال فضحى كل واحد إلى أرتميس Artemis بما وقعت عليه يده». انظر Callimaque, fr. 200 B Pfeiffer و Paus., IX, 19, 7

٥٧ (الإلياذة II., XXIII, 316-317.

٥٨ (انظر «أنيجوني» لسوفوكليس Sophocle, Antigone, 360 وفيها: «الإنسان هو الكائن الذي يعرف أن يجتاز البحر الرمادي في الوقت الذي تهب فيه رياح الجنوب وتثور العواصف، وأن يسلك طريقه وسط الغياهب». (٣٣٨-٣٣٤).

٥٩ (انظر بينداروس Pind., Isthm., IV, 73-74.

٦٠ (انظر بينداروس Pind., Olymp., VII, 94. انظر له كذلك

Pyth., III, 104 انظر له أيضاً Isthm., IV, 5.

٦١ (انظر أراتوس Aratos, Phainom., 758 sq حيث يقول: «ومزايا هذا الحرص Yepiphrosúne يحصنها العد بالنسبة إلى الملاح الذي يظل يقظاً متنبهاً»

٦٢ (Epinomis, 976 a-b

٦٣ (هكذا أوليسيس الداهية polúmetis وقد قاد سفينته رئيساً جالساً بجوار الدفة. انظر الأوديسا Od., V, 270sq. وانظر إيسخيلوس Esch., Sept, 2-3 حيث يقول: «والرئيس يعكف

على عمله كليل» يمسك دفة المدينة، ولا يدع النوم يتسرب إلى مآقيه» (مع ملحوظات فان نيس

(D. Van Nes, Die maritime Bildersprache des Aischylos, Groningue, 1963, p. 122-128).

(٦٤) أفلاطون، الجمهورية Rép., 488 d. 489

(٦٥) Esch., Suppl., 176-179; 970.

(٦٦) انظر إيسخيلوس، «الضارعات» Esch., Suppl., 13.

(٦٧) Áxeinos tekmairesthai أو semeioûsthai «التنجيم»، وهو تعبير سائر ينطبق على أولئك الذي

يقومون برحلة ملاحية طويلة، انظر Hésychius, no 7911 Latte ; انظر Souda, s.v., t.I, p. 393، وانظر

Eust., p. 1535, 59. وانظر Diogen., II, 66 وAdler 1. 5-7

(٦٨) Tékmor تعني في آن واحد نقطة الاهتداء والخطئة التي يدبرها عن تأمل الكائن الذكي الذي عرف

أن يدرك نقطة الاهتداء هذه في الفضاء. انظر p. 145 sq, 270 sq. فيما يتعلق بمرود كلمة

ithúnein في مفردات الملاحه نجد النصوص الشاهدة تمتد من العصر الهومييري إلى نهاية العصور

الأتينية، انظر Il., XXIII, 317. وانظر Aratos, Phainom., 44 وApoll., Rh., I, 592

(٦٩) ذكاء الريان هو أيضاً من نط احتمالي Max. Tyr, Diss. 30, 2, p. 352, 14 sq Hobein

(٧٠) انظر H. Siska, De Mercurio ceterisque deis ad artem gymnica pertinentibus, Diss.

Halis Saxonum, 1933, p. 3 sq.

(٧١) انظر Paus., III, 12, 4 sq et III, 13, 6.

(٧٢) مثل هيرميس Hermès hodaïos أو pompaïos ومثل أرتميس Artémis hegemone . ارجع

إلى ز. ثيوده S. Wide, Lakonische Kulte, Leipzig, 1893, p. 61 وهو يرى في أثينة

كيليوثيا Athéna Keleútheia «حامية الطريق»، بينما نجد فارنل L. R. Farnell, Cults of the

Greek States, I, 1896, p. 311 أكثر حساسية لاسم المكان الذي تمجد فيه أثينة كيليوثيا Athéna

Keleútheia ويذهب إلى أنها «البادئة الإلهية للجنس». انظر أيضاً O. Gruppe, Griechische

Mythologie, II, 1906, p. 1216, n. 3.

(٧٣) انظر المحاولات اللغوية التي حصرها المؤلفون وآخرهم هـ. فريشك H. Frisk, Griechisches

etymologisches Wörterbuch, I, Heidelberg, 1960, s.v. "kéleuthos" وقد خص پيزاني V.

Pisani هذه الكلمة kéleuthos بدراستين من ناحية "Miscellanea Etimologica no 39" انظر

Rendic. Accad. Lincei 6 (5), p. 9 ومن الناحية الأخرى "Glottica parerga no 15" انظر

.Rendic. Ist. Lombardo, Lett. Scienze Morali e Istoriche 77, 1943-1944, p. 552 sq.

ولكن لا التفسير على أساس *ke-*leuth ولا التفسير على أساس *kelo-*leuthos مقنعان.

- E. Norman Gardiner, Greek athletic Sports and Festivals, (ارجع إلى diaulos المزودج London, 1910, 1910, p. 51; 280; 283) وهي المباراة التي سمحت لكاليماخوس بإشرافها مع الديوسكوريين، اللذين ذكر نص تراثي أنهما كانا الفائزين في أول سباق أوليمبي (انظر Paus., V, 8, 4). راجع تفسير إ. كاهن- E. Cahen, Les Hymnes de Callimaque. Commentaire explicatif et critique, Paris, 1930, p. 225.
- (٧٥) انظر الأوديسا Od., XIII, 221 sq.
- (٧٦) انظر الأوديسا Od., XIII, 255.
- (٧٧) انظر الأوديسا Od., XIII, 291-299.
- (٧٨) Stanford, The Ulysses home, Oxford, 1954, p. 25-42.
- (٧٩) انظر Kaibel, Epigr. gr., 795 وهذه الإيبيجرامات كثيرة ما يتقاربون بينها وبين إيبيجرامات فيلوكسينوس (Anth. Philoxenos (fr. 15, t.III, 1882, p. 615 Bergk) الواردة في المنتخبات (Palat., IX, 319). وهنا نرى هيرميس «إله» «الانطلاق» يشجع الأبطال قائلاً: «هيا، شدوا أعصابكم! اطرّدوا من ركبكم الفئور المانع»
- (٨٠) في خليج ماجنيسيا Magnesia كان هناك مكان يسمونه Aphétai وكان هو الموضع الذي تهبأ فيه ملاحو سفينة أرجو - الأرجونوتية - للانطلاق إلى أعالي البحر بعد أن تزودوا بالماء. انظر هيرودوتوس (Hér., VII, 193).
- (٨١) انظر پاوسانياس Paus., III, 14, 6.
- (٨٢) انظر J. Delorme, Gymnasion. Étude sur les monuments consacrés à l'éducation en Grèce, Paris, 1960, p. 74.
- (٨٣) انظر پاوسانياس Paus., III, 14, 6 وكانت هناك غير بعيد هياكل لتمجيد زيوس أمبووليوس Zeus Amboúlios، وأثينة أمبووليا Amboúlia، والديوسكوريين الأمبوولين Amboúlioi
- (٨٤) الانطلاق والوصول - من حيث هما «بدايتان» - يعتبران من اللحظات الخطيرة. راجع على سبيل المثال شعائر ركوب السفينة والنزول منها في العالم الإغريقي، أو راجع أضحى الانطلاق (مثلاً H. Popp, Die Einwirkung von Vorzeichen, Opfern und Festen auf die Kriegsführung der Griechen im 5. und 4. Jahrhundert v. Chr., Diss. Erlangen, 1958, p. 63 sq).
- (٨٥) انظر پاوسانياس Paus., III, 12, 4: hidrúsato dè tes Keleutheias hierà arithmoi tria dies- tekóta ap'allelon.
- (٨٦) انظر ما سبق ص ١٨٥ وما بعدها.

(٨٧) في الأوديسا، النشيد الثامن، البيت ١٩٣ تدل الكلمة على العلامة، على النقطة التي يصل إليها القرص: وكان أوليسيس قد رمى القرص لتوه، فجرت أثينة لتسجل النهاية "التيرما" térma. أما في الألعاب الواردة في الإلياذة فكلمة térma "تيرما" تعني علامة الدوران.

(٨٨) على الرغم من النقد الذي وجهه البعض، مثل ريدر A. de Ridder, "L'Athéna mélancolique" BCH 36, 1912, p. 523-528 الذي ذهب إلى أنها أثينة حامية القوانين، «الوصية العظمى على المدينة» boulaia, polioûchos التي ثبتت عينيها على النقش المحفور بلا شك في اللوحة.

(٨٩) Ch. Picard, Manuel d'archéologie grecque. La sculpture, II, 1 Paris, 1939, p. 39- 40. وهو تفسير تناوله المؤلف من جديد وزاده تدقيقاً في مقال مرجز نشره في مجله Rev. Archéol., 1958, 1, p. 95-98.

(٩٠) انظر ف. شامو F. Chamoux, "L'Athéna mélancolique", BCH 81, 1957, p. 143- 159 والرأي الذاهب إلى أنها أثينة التي تترأس ألعاب المباريات العامة رأي دافع عنه فيربانكس A. Fairbanks, "On the Mourning Athena-Relief", Amer. Journ. of Archeology 6, 1902, p. 410-416.

(٩١) J. J. Maffei, "L'Athéna au terma", Rev. Archéol., 1972, p. 263-266 وانظر كذلك ج.ج. مافر J. J. Maffei, "Deux pelikai attiques de Thasos", BCH 96, 1972, p. 349

(٩٢) وهو بالقدر نفسه يعترف بأهمية كايروس Kairos في المقال المذكور من قبل ص ١٦٦. ونلاحظ أن شامو Fr. Chamoux يجعل للدهاء المتبسي المكان الذي يناسبه ليفسر علاقة أثينة بالألعاب المباريات في الساحة الرياضية العامة.

(٩٣) انظر Alcée, fr. 249 Lobel et Page وانظر ما سبق ص ٢١٦ والملاحظة رقم ٥٥.

(٩٤) F. Schachermeyr, Poseidon und die Entstehung des griechischen Götterglaubens, München, 1950, p. 158 sq, 164 sq.

(٩٥) Hymne homérique à Poséidon, 5.

(٩٦) O. Rayet et M. Collignon, Histoire de la céramique grecque, Paris, 1888, p. 143-

152. وهناك شرح أوفى قام به فورثفينجلر A. Furtwängler, Beschreibung der Vasensammlung im Antiquarium, I, Berlin, 1885, no 347 (وصفحات أخرى مختلفة).

(٩٧) وكما بين أيلوس أريستيديس Aelius Aristide (37, 20 Keil) شاركت أثينة مشاركة مزدوجة في أعمال بوسايدون التي قام بها من حيث هو رب الخيل hippios ورب البحر pónlios.

(٩٨) السفن هي خيول البحر (انظر Artémidore, I, 56, p. 64, 17 Od., IV, 707-709; XIII, 81 sq; Pack). وكما أن الحصان يوصف بأنه pherézugos كما نجد في (Ibycos, fr. 287, 6 Page)

كذلك السفينة يصفها ألكايوس Alkaios بنفس الصفة pherézugos. ثم إن لفظة kéles تدل على الحصان كما تدل على سفينة السباق، كذلك نلاحظ أخيراً أن عبارة «تكون له السيطرة على البحر» يمكن أن يقابلها بالإغريقية hippokratein «السيطرة على الخيل» Thus. VI, 71, 2. Cf. J. Gardiner, "Terms for Thalassocracy in Thucydides", Rh. Mus. 113, 1969, p. 20.

(٩٩) والدفة كانوا يسمونها أحياناً شكيمة chalínós خالينوس Eur., IGm II 2, 1610, 11, 14; Héc., 539' Pind., Pyth., III, 26; Oppien, Hal., I, 299) ومن الممكن بالمقابل أن تستخدم كلمة الدفة للدلالة على الشكيمة واللجام (Esch., Sept, 206 sq; Eur., Hippol., 1219-1226). ونحن نجد الدفة والشكيمة في العديد من المواضع مترادفتين (Soph., fr. 869, t. III, p. 69 Pearson [Cambridge, 1917]; Plut., De Iside, p. 369 a).

(١٠٠) انظر بينداروس Pind., Ol., XIII, 68 sq.

(١٠١) انظر بينداروس Pind., Pyth., IV, 203-209.

(١٠٢) أبوللونايوس الرودي Apollod., I, 9, 27.

(١٠٣) انظر فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Argon., I, 188-198.

(١٠٤) أبوللونايوس الرودي A. R., II, 1187-1189

(١٠٥) أبوللونايوس الرودي A. R., II, 1187-1188

(١٠٦) أبوللونايوس الرودي A. R., II, 723 وانظر P. Chantraine, Rev. Philol., 1962, p. 258-259.

(١٠٧) أبوللونايوس الرودي A. R., I, 724

(١٠٨) أبوللونايوس الرودي Apollod., II, 1, 4; Hygin, Fab., 277; Eust., p. 37, 25 sq. وارجع إلى Waser, s.v. "Danaos", R.E.(1901), c. 2094-2098.

(١٠٩) Hés., Travaux, 430, 430; Diod., Hymne homérique à Aphrodite (1), 12-14. وانظر Anth. Pal., 204, 205. V, 73'

(١١٠) أبوللونايوس الرودي A. R., II, 612-614; gómphoisin sunárasse...

(١١١) حاشية لوكوفرون, Aithuia dè (Athenâ), Schol. in Lycophr., 359, p. 139, 27-30 Scheer. *hóti kai ploîa he phrónesis kateskeúasa kai diken aithuias ediaxe tous anthrópous nautillesthai ep'auton diaperainoménous ten thálassan.*

(١١٢) الإلياذة Il., V, 59 sq

(١١٣) الإلياذة Il., XV, 410-412.

- (١١٤) هيسودوس «الأعمال» . Hés., Travaux, 430 .
- (١١٥) V. Chapot, s.v. "Tignarius", Daremberg-Saglio-Pottier, t. V, انظر Il., XXIII, 315. p. 332 sq.
- (١١٦) الإلياذة . Hés., Trav., 807- الأعمال ، وانظر هيسودوس Il., XII, 390-391; XVI, 483-484. 808
- (١١٧) عن xéo أي بَرَدًا، قشط، سنفر، صقل انظر النصوص الواردة في: V. Chapot, s.v. "Tignarius", Daremberg-Saglio-Pottier, t. V, p. 334 sq. A. K. Orlandos, Les matériaux de construction... des anciens Grecs (tr. fr.), I, Paris, 1966, p. 42-43.
- (١١٨) Cypria, fr. III Allen (Homeri opera, t. V, p. 118-119)
- (١١٩) Harmózein, arariskein, gomphoûn, pegnúein.
- (١٢٠) J. Taillardat, "La Trière athénienne et la guerre sur mer" راجع العرض الذي قدمه ج. تايلارد في Problèmes de la guerre en Grèce, publié sous la direction de J.-P. Vernant, Paris-La-Haye, 1968, p. 185-186 L. Casson, Ships and Seamanship in Ancient World, Princeton, 1971, p. 201-223.
- (١٢١) أبولونيوس الرودي A. R., II, 613-614
- (١٢٢) الأوديسا Od., V, 234-257. L. Casson, "Odes- عن أساليب البناء وغط السفن ارجع إلى seus'Boat", American Journal of Philology 85, 1964, p. 61-64 Ships and Seamanship in Ancient World, Princeton, 1971, p. 201-223.
- (١٢٣) الأوديسا Od., V, 270-274.
- (١٢٤) إيسخيلوس «الضارعات» Esch., Suppl., 770.
- (١٢٥) H. Blümner, Technologie und Terminologie der Gewebe und Künste, II, Leipzig, 1879 [Réimpression, Hildesheim, 1969]. p. 234-235
- (١٢٦) الأوديسا Od., XVII, 344; XXIII, 197; Soph., fr. 433, 4-5 N 2.
- (١٢٧) الأوديسا Od., V, 245; Il., XV, 410
- (١٢٨) الصورة التي استخدمها ثيوغنيس Theognis, 945: eimi parà státhmen orthèn hodón, ou- مدلول هذه الأبيات انظر A. B. Van Groningen, Théognis, Amsterdam, 1966, p. 325. والمقارنة بين الخيط وبين الاستقامة ترد مرة أخرى في الأبيات ٥٤٦-٥٤٢ و ٨١٢-٨٠٦ في نفس النص.

١٢٩) الإلياذة Il., XV, 410-412

١٣٠) الإلياذة Il., XXIII, 316-317; Ap. Rhod., I, 562, etc

١٣١) Il., VIII, 110; XI, 528; XXXIV, 149; 178; 362; [Hés.], Bouclier, 324; Eur., Hip-
pol., 1219-1226 وفي نص أوريبيديس هذا مقارنة بين العربة وبين السفينة.

١٣٢) انظر ما سبق ص ٥٦-٥٧.

١٣٣) الإلياذة Il., X, 19, et V, 62

١٣٤) Od., VIII, 493-494 وارجع إلى N. Yalouris, "Athena, als Herrin der Pferde", Mu-
seum Helveticum 7, 1950, p. 67 وانظر كذلك: F.Schachermeyr الكتاب المذكور سابقاً،
ص ١٨٩ وما بعدها.

١٣٥) Anth. Palat., VI, 342.

١٣٦) الأوديسا Od., VI, 266 sq.

١٣٧) الأوديسا Od., VI, 277-271.

١٣٨) الأوديسا Od., VI, 268-269.

١٣٩) استغلطنا هنا ترجمة V. Bérard

١٤٠) الأوديسا Od., VII, 202 sq.

١٤١) الأوديسا Od., VI, 266.

١٤٢) الأوديسا Od., VII, 108-111.

١٤٣) الأوديسا Od., II, 116-118.

١٤٤) وهذا هو التفسير الذي أخذ به مثلاً -59, c. 1944, R. E. (1896), s.v. "Athena", Dümmmler,
60' O. Gruppe, Gr. Mythologie, t.II, München, 1906, p. 1215, n.7' M.P. Nilsson,
Gesch. der gr. Religion, I, éd. 2, München, 1955, p. 439.

١٤٥) الأوديسا Od., V, 382-387 ويتحدث باوسانياس 8, 35, IV, Paus., عن أثينة أنيموتيس
Athena anemotis تدخلت بناء على طلب من ديوميديس فوضعت حداً لعنف الرياح التي هبت على
ميثوني Méthoné.

١٤٦) الأوديسا Od., VI, 329-331

١٤٧) الأوديسا Od., VII, 78 - 81

١٤٨) الأوديسا Od., VI, 191.

- Od., XIII, 86-87. الأوديسا (١٤٩)
- Od., VII, 35. الأوديسا (١٥٠)
- Od., VIII, 559-563. الأوديسا (١٥١)
- Od., VIII, 557-558. الأوديسا (١٥٢)
- (Od., XIII, 76-78) المقصود لا ithúnein : السفينة تدفعها سواعد المجدفين (١٥٣)
- (١٥٤) هذا هو المصير الذي صارت إليه السفينة بعد أن حملت أوليسيس إلى إيثاقا. انظر الأوديسا:
Od., XIII, 162-164
- E. Kirsten und W. Kraiker, Griechenlandkunde, I, éd. 5, Heidelberg, 1967, p. 193- (١٥٥)
165. وأقرب الظن أن احتفالا تتسابق فيه القوارب كان يقام كل خمس سنوات على شرف
پوسايدون. L. Deubner, Attische Feste, 1932 [Réimpression, 1956], p. 215, n. 2.
- Od., III, 27 8 sq. (١٥٦)
- Ch. Picard, "L'Hérôn de Phrontis au Sounion", Rev. Arch., 1940, I, p. 5-28. (١٥٧)
- Od., III, 282-283. (١٥٨) واسم فرونتيس Phrontis دلالة مثل اسم الملاح نوئيمون Noëmôn، ابن
فرونيسوس Phronios، الذي استعارت منه أثينة سفينة لرحلة تيلبماخوس علي نحو ما جاء في
الأوديسا، النشيد الثاني، ٣٨٦.
- Od., III, 81 وكلمة Phrázesthai تنتمي إلى مفردات الدهاء المبتيسي. انظر الأوديسا Od.,
III, 128-129; IX, 423; IX, 423; XI, 510.
- Od., IV, 380. الأوديسا (١٦٠)
- A. Severyns, Les Dieux d'Homère, Paris, 1966, 9. 119. (١٦١)
- Paus., I, 1, 1. انظر أويربيديس Eur., Cyclope, 293-294 (١٦٢)
- Paus., X, 25, 2. كما وصفه پاوسانياس (١٦٣)
- Schol. in Arat. Phainom. 351, p. 411, 19 sq Maas; Geminus, Elem. Astron., c. 2; (١٦٤)
Rehm, s,v, وانظر Eust., in Dion. Per., 11 in Geographi gr. monores, t. II, p. 219.
Roeder, s,v. "Kanobus" (2), R. H. و "Kanopos", R. E. (1919), c. 1881-1883
(1919), c. 1870-1873.
- XII, 1. 73-77. p. 165- ٢. (Chr. Blinkenberg, Lindos, II, Inscriptions, 1, 1941, n (١٦٥)
166.

(١٦٦) انظر ما سبق ص ٢٠١.

(١٦٧) هذا التضاد أبرزه بل وتهكم عليه H. de La Ville de Mirmont, "Le Navire Argo", Rev. intern. enseign. 30, 1895, p. 280 sq.

(١٦٨) أبوللونيويس الرودسي A. R., I, 188; II, 867.

(١٦٩) أبوللونيويس الرودسي A. R., I, 106- 108; انظر فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Ar-gon., I, 481 sq; II, 71 sq.

(١٧٠) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 381 sq.

(١٧١) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., I, 522 sq; 1274 sq.

(١٧٢) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., I, 559-562.

(١٧٣) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 173 sq.

(١٧٤) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 557 sq.

(١٧٥) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 584-585.

(١٧٦) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 610-637.

(١٧٧) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 854-860.

(١٧٨) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 894-895.

(١٧٩) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., II, 1260 sq.

(١٨٠) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 254 sq.

(١٨١) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 294 sq.

(١٨٢) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 588 sq.

(١٨٣) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 640 sq.

(١٨٤) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 930 sq.

(١٨٥) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 1259 sq.

(١٨٦) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 1588-1619.

(١٨٧) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 1718-1994.

(١٨٨) فاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon., IV, 588 sq et 640.

(١٨٩) Hymne homérique aux Dioscures, I, 11 sq. وانظر كذلك A. B. Cook, Zeus, I, p. 760.

(١٩٠) نفس المرجع ٩-١١.

(١٩١) أرسطوفانيس Aristoph., Gren., 847

(١٩٢) بلوتارخوس Plut., De def. orac., 426 c.

(١٩٣) عن طريق نفس التضاد اللوني بين الأسود والأبيض، تظهر قوة إلهية بحرية أخرى تلعب في اجتياز الصخور الرجاجة Plagktai، في النشيد الرابع من «الأرجونوتية» Argonautiques. دوراً مشابهاً لدور أثينة في النشيد الثانية من نفس النص، تلك هي ثيتيس. وثيتيس قوة إلهية بحرية مثل الربة ميتيس، تظهر في القصيدة الكوسموجونية لألقمان Alcman على هيئة ربة أولانية كبيرة أدى بزوغها في قلب عالم خاموسي لبلي دامس إلى مولد نور النهار وسنا النجوم. وهي ربة المياه الأولانية، ومن هنا فإن قوتها - التي هي أقدم من قوة بوسايدون - تغطي جزئياً قوى هذا الإله في بعض أجزاء العالم الإغريقي. ففي رأس سيبياس Sépias، عندما انقضت عاصفة عارمة على أسطول الفرس، حاول المجوس أن ينهوها بتقديم الأضاحي إلى ثيتيس والبرثيدات، بالإضافة إلى قرابين من الضحايا والابتهالات المرفوعة بصيحات صارخة إلى الرياح العاضبة (Hdt., VII, 189). ولكن الفصل الوارد في «الأرجونوتية» Argonautiques يرينا ثيتيس تتدخل بنفس الطريقة التي تتدخل بها أثينة. فقد تقدمت ثيتيس، تصحبها البرثيدات - التي يشبهها الشاعر صراحة بزيغان البحر (A.R., IV, 966-967)، فأمسكت السفينة من دفتها ودفعتها إلى أمام دفعة قوية. وفعلت ثيتيس مثلما فعلت أثينة من قبل ففتحت السبيل أمام سفينة الأرجونوتية ورسمت لها طريقاً مستقيماً بين الصخور الملتوية (Thétis d'ithune kéleuthon: IV, 938)، وعلى الرغم من التشابه الكبير الذي لاحظناه بين القوتين الإلهيتين، فإننا لا نستطيع الاستمرار في المقارنة، على الأقل على المستوى الذي اخترناه، مستوى التحليل البنائي للقوتين المنتميتين إلى الأوليمپوس. وثيتيس ربة ذات دهاء ميتيسي مثل أثينة، وهي لا تنتمي إلى الجيل الإلهي الذي تنتمي إليه أثينة وبوسايدون أو الديوسكوريان. ولكن ثيتيس بما هي قوة إلهية أولانية مزودة بالدهاء الميتيسي، شأنها شأن ميتيس، فهي تعلو ترانسندالياً بأساليب الدهاء الميتيسي وأشكاله المتخصصة التي يارسها الأوليمپيون - على نحو ما تظهر من خلال وسائل العمل التي يستخدمها كل من أثينة وهيرميس وأفروديتي وهيفايستوس وزئوس. وهكذا فإن ثيتيس يمكنها أن تسمح لنفسها بالتدخل على طريقة أثينة. وفي استطاعتها كذلك أن تظهر على هيئة الصانع الذي يبني السفينج لأن دهاها الميتيسي متشعب في قيمه إلى أبعد الحدود (انظر ما سبق ص ١٤٠ وما بعدها).

الباب التاسع

قدما هيفايستوس

(١) جمع هـ. هيرتر مادة توثيقية هامة عن هذه القوى. انظر: H. Herter, s. v. "Telchinen", R.-E. (1934), c. 197-224.

(٢) انظر Suétone, Des Termes injurieux. Des Jeux grecs, éd. Taillardat, Paris, Les Belles Lettres, 1967, p. 54 (texte) et p. 133-136 (pour le commentaire).

(٣) بالنسبة إلى هذه النقطة اتبعنا ترجمة أوستات Eustathe التي تمتاز بالبساطة (انظر Suétone, o. c., p. 99) بينما الصياغة التي أعاد تايلاردا J. Taillardat ترتيبها تطرح العديد من المشكلات.

(٤) من حقنا أن نختار بين كلمة megalóphrues ومعناها كثيف الحاجبين (M, L) التي أخذ بها تايلاردا وكلمة melanóphrues ومعناها أسود الحاجبين وهي التي ارتضاها أوستات Eustathe. والحواجب عنصر من عناصر النظرة البراقة، وسمة من سمات العين التي تفتن وتخيف: حاجبا هيرميس توصفان بالمخاتلة polúmetis (انظر Hymne hom. Hermès, 278-280)، وحواجب الكوكلوپيس Cyclopes (انظر Callim., Hymne à Artémis, 52) وحاجبا هارپالوكوس Harpalykos (انظر Théocrite, Héraclès Enfant [XXIV], 115-117). أما اللون الغامق فهناك تراث هوميري كامل (انظر Il., I, 528; XV, 102; XVII, 209) يدعونا إلى اعتبار هذا اللون الغامق اللون الأكثر انسجاماً مع الرهبة التي تثيرها نظرة خلافة.

(٥) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 515 b 24 et Part. anim., 695 b 5.

(٦) Henry Hayman: The Udysey of Homer, London, 1866, Appendix C: 7, p. XCIII; O. Keller, Die Antike: Tierwelt, I, Leipzig, 1909, p. 407-408; V. Bérard, Les Phéniciens et l'Odyssée, I, Paris, 1927, p. 440-441; Les Navigations d'Ulysse, II, Paris, 1928, p. 434-435; J. Meirat, Marines antiques de la Méditerranée, Paris, 1964, p. 31-32.

(٧) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 566 b 28 sq.

(٨) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 697 b sq.

(٩) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 567 a 5 sq; Plin., H. N., IX, Élien, Hist. anim., IX, 9.

[Plut.], De soll. anim., 982 d. (١٠.

Od., IV, 400 sq. الأوديسا (١١

Od., IV, 449. الأوديسا (١٢

Pind., Ném., V, 13. (١٣

Callimaque, Hymn. Délos, 243-244. (١٤

A. B. Cook, Zeus, III, 2, 1940, p.975 sq; J. Lindsay, The Clashing Rocks, London, (١٥
1965.

Aristote, Hist. anim., 567 a 3 et 13. انظر أرسطوطاليس (١٦

Agatharchide in Müller, Geographi graeci minores, t. I, p. 136. (١٧
النص ورد مع نصوص أخرى في استشهادات ث. بيرار V. Bérard, Les Navigations d'Ulysse, II, Paris, 1928, p. 434-435

Élien, Hist. anim., IV, 56. (١٨
إذا رغبتنا في تصوير حب هذا الحيوان الشدي السمي الشكل في صورة سوية، فلا بد بلا شك أن نبين بدقة - كما ذكرنا ج. تريهو J. Tréheux - أن عجل البحر في اللغة الإغريقية مؤنث.

Cyranides, I, in: Les Lapidaires (grecs), éd. Mély et Ruelle, t. II, 1, 1898, p. 39, 1. (١٩
25.

Aristote, Part. anim., 498 a 32. انظر أرسطوطاليس (٢٠

Thévenot, Voyage au Levant, Paris, 1664, II, C. XXVI; V. Bérard, Les Navigations (٢١
d'Ulysse, II, Paris, 1928, p. 435

Pline, H. N., XXXII, 144. (٢٢

هناك تراث فولكلوري متكامل عن عجول البحر من حيث هي من نسل «شعب فرعون» الذي ابتلع البحر. (٢٣
انظر R. Goossens, "Un Conte égyptien: Pharaon, roi des Phoques", in Mélanges البحر. F. Cumont, t. II, Bruxelles, 1936, p. 715-722 (= جوسانس، حكاية مصرية: فرعون ملك عجول البحر)

Plut., De ser. num. vind., 552 f-553 a. (٢٤

Od., IV, 406: 442: 445-446: Aristophane, Paix, 758. الأوديسا (٢٥

Élien, Hist. anim., III, 19.; Ant., Hist. mir., 20, 2 in Paradoxogr. gr., p. 42 Gian- (٢٦
nini; Ps.-Arist., mirab. Ausc., 77 in Paradoxogr. gr., p. 253 Giannini; Pline, H. N.,

VIII, 111; XXXII, 112; Plut., De ser. num. vind., 552 f-553 a.

Élien, Hist. anim., III, 19. (٢٧)

Plut., Quaest. conviv., 664 c; Cyranides, II, in: Les Lapidaires (grecs), éd. Mély et Ruelle, t. II, 1, 1898, p. 24-77, 1. 22; Cyranides, IV, in o. c. , p. 120, 1. 26-121, 1. 20; Geoponica, I, 14, 3 et 5, p. 29, 2 sq Beckh; V, 33, 7, p. 155, 14 sq Beckh.

Pline, H. N., IX, 42. (٢٩)

(٣٠) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 567 a 7 sq.

(٣١) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 497 b 24.

(٣٢) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 695 b 2.

(٣٣) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 498 a 31 -b 4.

(٣٤) انظر ما سبق الملاحظة الهامشية رقم (١).

Hésych. s.v. Kábeiroi. (٣٥)

A.B. Cook, Zeus, II, 1, p. 665-667; Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, p. 182. (٣٦)

(٣٧) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 684 a 4-5.

Anth. Palat., VI, 196. (٣٨)

(٣٩) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 490 b 5 sq..

(٤٠) انظر أرسطوطاليس Aristote, De Inc. anim., 712 b 13 sq, 713 b 24 sq.

Aristophane, Paix, 1083' Ésope, Fab. 151 éd. Chambry; Athén., XV, 695 a = (٤١)
Bergk, P. L. G. 4, III, p. 648.

(٤٢) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 683 b 33 sq.

(٤٣) الإلياذة II., XXI, 355; 367 (polúphron)

II., XVIII, 371; Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, chap.v: "Le Magicien infirme" (p. 110-136). (٤٤)

Traité des Articulaions, 53, t. IV, p. 232-234 Littré. (٤٥)

Aristophane, Cavaliers, 1080' Oiseaux, 1379. (٤٦)

Antiphane, 55 Kock. (٤٧)

Il., II, 217. الإلياذة (٤٨)

Platon, Lois, 794 c. أفلاطون (٤٩)

(٥٠) هذا هو التعبير الذي استخدمته أنتيجوني. Antigone, Hist. Mirab., 45 in Paradox. gr., p. 54-55 Giannini لتحديد معنى amphiguééis. وهذا المعنى تؤكد العديد من الحواشي التفسيرية.

Apoll., I, 3, 5. أبوللودوروس (٥١)

(٥٢) H. Vos, s. v. "amphiguos", in Lex. Frühgr. Epos, p. 674; L. Derpy, "Amphiguééis", Rev. Hist. Rel. 150, 1956, p. 129 sq.

Marie Delcourt, o. c., p. 91-99. (٥٣)

(٥٤) E. Buschor, "Meermänner", Sitz. d. Bayer. Akad. d. Wiss., Ph. -hist. Abt., 1941, t. II, p. 27, fig. 17.

(٥٥) يبدو أن العقرب يلعب نفس الدور الذي تلعبه الكابوريا. وحز «أرسلان داش» Arslan-Dash الفينيقي الذي عرّف به أ. كاكور. دي مينيل دي بويسون A. Caquot et R. du Mesnil du Buisson: "La seconde tablette ou petite amulette d'Arslan-Dash" Syria, 1971, p. 391-406 يثل «وحشاً» قزماً جنياً كبير الرأس له تقاطيع الكلب وعين ضخمة وجاحظة. هذا الوحش يلتهم جسماً بشرياً، ولكن بينما يلتفت رأسه إلى اليسار، ينتهي طرفاه السفليان اللذان يتجهان اتجاهها غامضاً بعقريين كبيرين. أما العبارة المنقوشة والتي شرحها الناشرون، فيبدو أنها تدل على هذا المفريت ذا العين الشريرة المسمى ألاسيت Alasiote أو القبرصي وتوحي باعتبار هذا الشخص الوحشي قاطن جزيرة المعدنين واحداً من الأقرباء المقربين من التلخينيين الذين يوطّنهم تراث الإغريق في قبرص وفي جزيرة رودس على السواء (ص ٤٠٢).

Marie Delcourt, o. c., p. 110-136. (٥٦)

(٥٧) Traité des Articulaions, 53, t. IV, p. 232-234 Littré وثيقة من الوثائق النادرة الإغريقية الأصل التي يبدو أنها تفسر في اتجاه رأي ماري ديلكور Marie Delcourt. وليس هذا الرأي سديداً، فعلى هذا المستوى المبني الذي يعكس المذكر والمؤنث، لمجد مجرد نقل للتضاد الكلاسيكي بين المعاربين والفنيين.

تحفظه في سباته.

(١٥) ٣٦١، -٣٥٦

(١٦) 278-280; 415.٣٨٧

(١٧) Antonius Liberalis, *Métamorphoses*, 41-10.

(١٨) الأوديسا Od., VIII, 266-366.

(١٩) Paroemioiographi graeci, II, 452, 4, Leutsch et Schneidewin. في Apostolios, 8, 76

وانظر كذلك M. Delcourt, *Héphaistos*, p. 63.

(٢٠) الأوديسا Od., VIII, 274-281.

(٢١) ٢٩٩، -٢٩٦

(٢٢) ٣٢٧،

(٢٣) ٣٣٢، -٣٢٩ في رأي أوستات Eustathe, p. 1599, 36 التعبير kichaánei toi bradùs

okún مأخوذة من مثل سائر. انظر Bilinski, *L'Agonistica sportiva nella Grecia antica*,

Roma, 1961, p. 21-23.

(٢٤) Aristote, *Histoire des animaux*, 620 b 25 sq.

(٢٥) انظر ما سبق ص ١١٦ والملاحظة رقم ٢٩.

(٢٦) انظر إيسخيلوس «الضارعات» Eschyle, *Supplantes*, 1037. وانظر الإلياذة II., III, 416

(metisomai) وانظر. Hymne hom. Aphr., 249 (óaroí kai métiis), etc.

(٢٧) سافو Sappho, I, 2 Lobel-Page.

(٢٨) انظر II., XIV, 214 sq. وانظر. Hymne hom. Aphr., 7.

(٢٩) Hymne hom. Aphr., 34-44; 249-251.

(٣٠) في حديث مع غانية اسمها ثيودوت شرح لها سقراط الطريقة التي نصيد بها الرجال، وبأي

اللاعيب، وبأي الفخاخ، وبأي الشباك تنال صيدها (أكسينوفون Xénophon, *Mémoires*, III,

11, 5 sq

(٣١) الأوديسا Od., VIII, 335-337.

(٣٢) هيسودوس، «الأعمال» Hésiode, *Travaux*, 800 (avec le commentaire de Proclus)

وانظر كذلك Jessen, s.v. "Hermaphrodites", R. -E. (1912), c. 718.

(٣٣) Les Maîtres de vérité dans la grèce archaïque 2, Paris, 1973, p. 64066.

Od., VIII, 340-342: desmoi mèn tris tóssoi apeirones amphis échoien ... الأوديسا (٣٤)

Porphyre, Commentaire in Il. XIV, 200, p. 191, 9- 192, 12 Schrader. (٣٥) پورفوريوس

وجدير بالذكر أن مقالة قصيرة ولكنها حافزة للتفكير هي التي حفزتنا على فحص الحقل الدلالي

لـ peirar-apeiron هذه المقالة هي B. Gentili, Sul testo del fr. 287 P. di Ibico, Quaderni

Orbinati 2, 1966, p. 124-127.

M. Bréal, Pour mieux connaître Homère, Paris, 1906, p. 99 sq et 283 sq; W. (٣٦)

Krause, Die Ausdrücke für das Schicksal bei Homer, Glotta 21, 1936, p. 148; Björck,

"Peirar", Mélanges E. Boisacq, I, Bruxelles, 1937, p. 143-148; R. B. Onians, The Or-

igin of European Thought 2, Cambridge, 1954, p. 310-342; Ch. H. Kahn, Anax-

imander and the Origin of Greek Cosmology, New York, 1960, p. 230-239' P. Selig-

man, The Apeiron of Anaximander, London 1962; H. B. Gottschalk, "

Anaximander's Apeiron", Phronesis 10, 1965, p. 51-54' M. Kaplan, "Apeiros" and

the Circularity, Greek-Roman and Byzantine Studies, 16, 1975, 125-140.

(٣٧) انظر أرسطوطاليس Rhétorique, I, 1357 b 9.

(٣٨) انظر ما سبق ص ١٣٨ وما بعدها

(٣٩) انظر أبوللودوروس الرودسي Apollonius de Rhodes, Argonautiques, I, 413-414.

I, 361. (٤٠)

II, 411-412. (٤١)

(٤٢) ٤١٣، -٤١٢

(٤٣) ٥٤٩،

(٤٤) الأوديسا Od., XII, 50-54.

(٤٥) Hymne homérique à Apollon, 129. بغض النظر عن التعبير العادي «أغلال الموت» oléth-

Od., XXII, 33; 41; Il., VII, 402; XII, 79. الروميروسية rou peirata الذي يرد في الملحمة

(٤٦) Galien, Opera omnia, t. 18, 2, p. 248 Kühn ورد الاستشهاد في Björck, "Peirar", Mé-

langes E. Boisacq, I, Bruxelles, 1937, p. 147

(٤٧) E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Paris, 1966, p. 292-293.

(٤٨) Björck, "Peirar", Mélanges E. Boisacq, I, Bruxelles, 1937.

(٤٩) e. 326 Plutarque, De Alexandri magni fortuna aut vertute, I, 1, 326 e. وانظر L. Robert,

Documents de l'Asie Mineure méridionale, Paris, 1966, p. 40-44.

«الضارعات» لإيسخيلوس Eschyle, Supplantes, البيت ١٠٤٩-١٠٥٠، يوصف عقل زيوس به apératos الذي لا يمكن اختراقه، ويوصف به parbatós الذي لا يمكن عبوره. أما في البيت ٤٧٠ فنجد تنويها بالتعاسة التي يذكر بروميثيوس Proméythée (في البيت ١٠٧٨) شبكتها ويصفها بأنها «التي لا يمكن اختراقها» apérantos، ويصور التعاسة على هيئة بحر لا قاع له mál'eúporon.

Hérodote, VII, 36. (٥٠)

Eschyle, Perses, 71-72 : zugòn amphibalòn auchéni póntou (٥١)

٧٤٥-٧٥٠ (٥٢)

Hérodote, VII, 36 هيرودوتوس (٥٣)

VII, 34-35. (٥٤)

Od., XXII, 175. الأوديسا (٥٥)

Aistophane, fr. 250 Kock; IG, II, 709, 5, 11 (2). (٥٦)

Aistote, Physique, III, 6, 207 a 2. (٥٧) وانظر Pollux, VII, 179 والخاتم لا فص له álithos، ونحن نصفه بالصفة ápeiros.

(٥٨) انظر ما سبق ص ١٥٤ وما بعدها

Hésiode, Théogonie, 720-725; 740-744. هيسودوس «ثيوجونية» (٥٩)

O. F., 66 a et b Kern الجذاذات الأورفيوسية (٦٠)

Eschyle, Prométhée, 153. إيسخيلوس «بروميثيوس» (٦١)

(٦٢) نفس المرجع ١٥٤.

Hymne homérique à Hermès, 157. (٦٣)

(٦٤) نفس المرجع ٢٥٦-٢٥٧.

Hésiode, Théogonie, 718-730. هيسودوس «ثيوجونية» (٦٥)

O.C. 622; 652-653' 658-659. (٦٦)

(٦٧) هاديس Hadès يكبل ضيوفه ويمسكهم بأشد القيود متانة (أفلاطون (Platon, Cratyle 403 c-d).

جاء في جذاذة منسوبة إلى بيندار أن وزن التارتاروس الخفي هو وزن السلاسل التي صنعت بمطرفة

الحداد. وقد بينت تحليلات هـ. شريكنبيرج H. Schrekenberg, Ananke. Untersuchungen zur

Geschichte des Wortgebrauchs, München, 1964 بتوسع العلاقات بين مفهوم «الضرورة»

وضفوط النير وقيد العبيد.

(٦٨) هيسودوس «ثيوجونية» و«الأعمال» Hésiode, Théogonie, 501-502; Travaux, 83.

(٦٩) انظر ما سبق ص ٣٤-٥٩.

(٧٠) انظر Ibycos, fr, 287, 2 Page مع تصحيح ápeira إلى apeiron وهو ما استصوبه ب. جينتيلي.

.B. Gentili, "Sul testo del fr. 287 P. di Ibico", Quaderni Urbinati 2, 1966, p. 124-127.

في كتابه Sappho und Simonides, Berlin, 1913, p. 125. Wilamowitz أن

نري في وصف شبكة إيروس بالنعت ápeiron إشارة إلى حَجَرَة péras وهي الحَجَرَة التي

تشكل الشبكة، هذا المعنى الخاص لحجرة péras غير معروف لدينا، وشرح «الشبكة التي لا حدود

لها» مقبول، على الأقل في التسلسل الذي حاولنا أن نقيمه في أعقاب ب. جينتيلي. ارجع إلى

F. Lsasserre, La Figure d'Érôs dans la poésie grecque, Lausanne, 1946، ملحوظات لاسير،

p. 57, n. 2.

(٧١) هيسودوس «الأعمال» Hésiode, Travaux, 83.

(٧٢) سوفوكليس «أنتيجوني» Sophocle, Antigone, 799-900.

(٧٣) R. Pfeiffer, "Gottheit und Individuum in der Lyrik", Philologus 84, 1929, p. 137-

152 (repris dans: Ausgewählte Schriften, München, 1960, p. 42-54); B. Snell, Die

Entdeckung des Geistes 3, Hamburg, 1955, p. 106.

(٧٤) «عناي لا تعشيان، وأذناي تطنان، والعرق يقطر من جسدي، ورعدة تملكني؛ وأصبح خضراء أشد

خضرة من الكلأ...»: (من سايفو Sappho, fr. 31 Lobel-Page). انظر Plutarque, Eroticos,

763 a (Illigos). فيما يتصل بالدوار الذي يصاحب انعدام الطريق في المناقشات بيت بين سقراط

وأعدائه: Platon, Lysis, 216 c; Protag., 339 e' Euthydème, 303 a' وهو دوار يتحول إلى

تبلد يحدثه سقراط على طريقة السمك الرعاد: Ménon, 80 a-c; 84 b-c; etc.

(٧٥) Plutarque, De sollertia anim., 978; Oppien, Hal., II, 72 (Amechanieisi pedetheis);

84-85 (toien guiopéden technázetai ichthúsi nárke).

(٧٦) إيسخيلوس: أجاممنون. Eschyle, Agamemnon, 355-361. وانظر كذلك D. Van Nes. Die mar-

itime Bildersprache des Aischylos, Groningen, 1963, p. 159-161.

(٧٧) كان ساربيدون يخشى على الطرواديين «الشبكة التي تجمع كل شيء» linon páragron

(Il.V,487)

(٧٨) كانت كلوتاينسترا هي صاحبة الحيلة : واعترف بذلك إيجيشتوس (Eschyle, Agamemnon,)

1936) وفعل ذلك عن رغبة وبخاصة لأن كلوتاينسترا كانت تحتل في الثاني الإجرامي مكان

الرجل. كان الرجل الإغريقي - إذا كان الموضوع موضوع حيلة، أو لعبة مكر أو مناورة لثيمة - يميل بسهولة إلى تصور أن المدير امرأة (انظر، Apollonius de Rhodes, Argon., Hérodote, VI, 77; Euripide, fr. 288 et 464 Nauck 2; III, 557 sq فراء الثعلب في فراء الأسد.

(٧٩) إيسخيلوس: أجاثون. Eschyle, Agamemnon, 1383 وانظر عن هذا اللفظ من مصطلح الصيد J. Dumortier, Les Images dans la poésie d'Eschyle, Paris, Thèse, p. 86, n. 1.

(٨٠) إيسخيلوس: أجاثون. Eschyle, Agamemnon, 1382.

(٨١) [Hésiode], Bouclier, 215.

(٨٢) Hérodote, I, 141.

(٨٣) إيسخيلوس «حاملات القرايين» Eschyle, Choéphores, 981-982. وهنا نجد اللفظين كليهما mechánema et desmós

(٨٤) Prométhée, 81. «بروميثيوس»

(٨٥) نفس المرجع ٧٤.

(٨٦) نفس المرجع ١٥٢-١٥٨.

(٨٧) E. Vermeule, "The Boston Oresteia Krater", Amer. Journal of Arch. 70, 1966, 9. 1-

22. وارجع كذلك إلى M. I. Davies, Thoughts on the Oresteia before Aischylos, Bull. de

Corr. hell. 93, 1969, p. 214-260 وإلى ملحوظات P. Vidal-Naquet في

J. -P. Vernant et P. Vidal-Naquet, Mythe et tragédie en Grèce ancienne, Paris, 1972,

p. 147, n. 69.

(٨٨) Euripide, Oreste, 25 والفعل المستخدم هو : peribállein

(٨٩) Sophocle, Trachiniennes, 1051-1052: huphantòn amphiblestron; 1057 ; 831-832: phnnia nephéla .

(٩٠) J. Taillardat, Les Aristote, Hist. des animaux, IV, 8, 533 b 15 sq. ارجع إلى تايلارد

Images d'Aristophane, Paris, 1965, p. 224 الذي يذكر كذلك أن kuklein(oûn) تعني يحيط

، يحاصر في اللغة العسكرية. وهو يستشهد بهيرودوتوس Hérodote, III, 157. أو ثوقيديدس

Thuc., IV, 32 ولكن في مسرحية إيسخيلوس Eschyle, Sept, 120 sq، تتعرض ثيمة لهجوم

الأرجيين وثيمة مدينة مفخخة في دائرة تشبه الأسود التي يحيط بها الصيادون. (في الأوديسا, Od.,

(IV, 791-792: dólion... kúklon).

G. Smets et A. Dorsingfang-Smets, "La Bataille de Salamine. Les sources", Mélanges Henri Grégoire, IV (Annuaire de l'Inst. Et. Byzant. 12), Bruxelles, 1952, p. 409-426 والمؤلفان ينطلقان من مبدأ ممتاز وهو أن حدثاً من هذا الحجم لا يمكن أن تتناوله إلا صياغات متنافسة، وروايات متوازية ولكن مختلفة.

Apollonius de Rhodes, Thynnorum captura quanti fuerit apud veteres momenti, انظر, Jahrbücher für class. Philologie 18, Suppl. 1892, p. 42 sq.

P. Vidal-Naquet, La Guerre tragique, انظر Eschyle, l'Eschyle, 353-428; 975-977. إيسخيلوس, Paris, 1936, p. 61-62.

La Grande Encyclopédie, art. "madrage". (٩٤)

Hérodote, VIII, 16. (٩٥) هيرودوتوس

Élien, Nat. anim., XV, 5. (٩٦)

Oppien, Hal., III, 41-43. (٩٧)

J. Taillardat, "La Trière athénienne et la guerre sur mer au Ve et IVe siècles", 204; (٩٨)
Y. Garlan, La Guerre dans l'Antiquité, Paris, 1972, p. 151.

Thucydide, II, 84. (٩٩) ثوقيديديس

Hérodote, IV, 179. (١٠٠) هيرودوتوس

J. Taillardat, (١٠١) قصة سوسيلوس (FGrl list 176 F 1 Jacoby) انظر, art. cit. المقال المشار إليه من قبل، ونحن نتمتع ترجمته.

J. Taillardat, art. cit., 204, n. 119. (١٠٢) وهو يطرح عدة أسئلة معينة على المؤرخين، انظر.

Hérodote, V, 121: hegemon tou lôchou. (١٠٣) هيرودوتوس

Xénophon, L'Art de la chasse, 9, 11-16, éd. tr. E. Delebecque (١٠٤) انظر الشكل ٥، ص (١٢٢)

Hippocrate, Du Régime, I, 19. (١٠٥)

III., XVIII, 395-403. (١٠٦) ليس هناك شيء يثبت أن هيفايستوس استقى من ثيتيس معرفته كحداد، وهو ما نبهنا جي بيرثيوم Guy Berthiaume إلى ملاحظته، حتى إذا كانت قصيدة القمان الكوسموجونية تطرح مشكلة نشاط تعديني مارسته ثيتيس (انظر ما سبق ص ١٣٩-١٤٠).

Marie Delcourt, Héphaïstos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, p. 49. (١٠٧)
Il., XVIII, 401. راجع كذلك

Plin., H. N., VIII, 85. إيسخيلوس: أجاممنون 1233 Eschyle, Agamemnon, 1233 ويصف بلينيوس
حيوان amphibaina بأنه مزدوج الرأس، أي أن له رأسين، أحدهما في مكان الذيل، كما لو
كان قليلاً عليه قلة مفرطة أن يكون له فم واحد يصب منه السم. وهو كذلك يسمى «ذا الرأسين» an-
phikárenos (Nicandre, Theriaca, 372-373) و«ذا الفمين» (Nonnos, Dionys., distomos
V, 146)

(١٠٨) انظر ما سبق ص ٢٤٦-٢٦٢.

Hymne homérique à Hermès, 76. (١١٠)

(١١١) ٧٧-٧٩.

٧. Yalouris, Hermès Boukleps, Archaiologike Ephemeris, 1953-54 (1958), p. 162-184. (١١٢)
بالنسبة إلى الملف التصويري انظر

Sophocle, Limiers, 112-116. (١١٣)

Xénophon, L'Art de la chasse, VI, 21 Delebecque (p. 76, n. 1). (١١٤)

Hymne homérique à Hermès, 79-81. (١١٥) النشيد الهوميروسي إلى هيرميس

(١١٦) الأرجح أن الأبيات ٣٤٦-٣٤٩ تتكلم عن الدهاء الميتيسي، في الإشارة إلى الآثار المدهشة التي
خلفها نعل هيرميس.

(١١٧) ٣٤٦

(١١٨) ١٥٧

(١١٩) ٢٥٧

(١٢٠) ٤٠٩-٤٢٥.

P. Aubenque, "Sur la notion aristotélicienne d'aporie", dans: Aristote et les problèmes de méthode, Louvain-Paris, 1967, p. 6. (١٢١)

K. Ohlert, Rätsel und Gesellschaftsspiele der alten Griechen, Berlin, 1886. (١٢٢)

(١٢٣) انظر ما سبق ص ٥٢، الملاحظة رقم ١١١.

Plutarque, Bruta animalia ratione uti, 988 a. (١٢٤)

Sophocle, OEdipe-Roi, 130. (١٢٥) سوفوكليس

H. Jeanmarie, Couroi et وانظر [Apollodore], Bibliothèque, III, 1 Frazer. (١٢٦)
Courètes, Lille, 1939, p. 444 sq; R. F. Wilets, Cretan Cults and Festivals, London,
1962, p. 60-69; P. Faure, "Les Minerais de la Crète antique", Revue Archéologique,
1966, p. 75-76.

Platon, République, 497 a-480 a (avec les scholies). أفلاطون، الجمهورية. (١٢٧)

M. Detienne, Les Maîtres de vérité dans la Grèce archaïque 2, Paris, 1973, p. 114-(١٢٨
115.

Platon, ibid. الجمهورية. (١٢٩)

Ménandre, fr. 525 Kock. (١٣٠) والإشارة إلى الكابوريا و كاركينوس karkinos ترتبط باسم واحد
أو عديد من المؤلفين التراجيدين، كاركينوس Karkinos، وقد عرف من خلال تلمبحات مختلفة من
المؤلفين الكوميديين (ارجع إلى) (1951-1954), c, [1919], R. E., s.v. "karkinos". Diehl.

K. Ohlert, Rätsel und Gesellschaftsspiele der alten Griechen, Berlin, انظر (١٣١)
1886.; Wilamowitz, "Lese Früchte 30", Hermes 34, 1899, p. 219-222 (Kleine Schrif-
ten, IV, Berlin, 1962, p. 60-63); J. Defradas, Plutarque. Le Banquet des Sept Sages,
Paris, 1954, p. 26.

Plutarque, Banquet des Sept Sages, 148 c-d. (١٣٢)

Od., XIII, 291-332. الأوديسا. (١٣٣)

Il., II, 169; 407; 636; X, 137; Od., XIII, 89. الأوديسا. (١٣٤)

Il., XXIII, 315-318.. الإلياذة. (١٣٥)

Platon, Sophiste, 233 a. (١٣٦)

R. Blanché, "Le Detour et le Raccourci", dans: Psychologie comparative et Art (١٣٧)
(Hommage à I. Meyerson), Paris, 1972, p. 247-254.

Définit. platon., 412 (Oxútes noû); Epinomis, 976 b-c. انظر 160 a (١٣٨)

Seconds Analytiques, I, 34, 89 b 10-15. (١٣٩)

J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Eustathe, p. 821, 51 (١٤٠) ارجع إلى تايلاردا
Paris, 1965, p. 125-126.

Aristote, Hist. des animaux, VII, 9 587 a 9 sq. أرسطوطاليس. (١٤١)

(١٤٢) 587 a 22-23.

(١٤٣) Étienne de Byzance, s. v. "Kabeiria".

(١٤٤) انظر ما سبق ص ٢٨٦-٢٨٧. والألمعية agchinoia خصلة من خصال المخطط العسكري (Énée Pollux, I, 40: oxús et agchinous والملك Tacticien, Poiorcétique, XI, 10; XXXIV, 11) . والرأي عند بوليبيوس Plybios أن الألمعية نوع من الذكاء يكون ثاقباً إلى الحد الذي يجعله يدرك النتائج الخفية للأعمال والقرارات . انظر, P. Pédech, La Méthode historique de Polybe, Paris, 1964, p. 211.

(١٤٥) eustochia و agchinoia يواكب بعضهما بعضاً في التحليل الأرسطوطاليسي للحرص: أرسطو، الأخلاق النيقوماخية R. A. Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 10, 1142 b 2-6. انظر. Gauthier et J. Y. Jolif, Commentaire, II, 2, Louvain-Paris, 1970, p. 511-512; P. Aubenque, "La Prudence chez Aristote, Paris, 1963, p. 149-150.

(١٤٦) Platon, Euthydème, 277 b; Aristote, De la Devination dans le sommeil, 464; Aristoxène, fr. 41 Wehrli. .

(١٤٧) Callimaque, Hymne à Artémis, 217. eustochia انظر Platon, Lois, 706 a; 934 b.

(١٤٨) Pollux, V, 24. وانظر: Diodore, IV, 12, 1.

(١٤٩) أرسطوفانيس Aristophane, Assemblée des femmes, 1-2.

(١٥٠) Maxime de Tyr, 30, 2, éd. Hobein, p. 352, 14 sq: eustochos kubernétes. من بين شفاف الابتهالات التي كان الملاحون يضمنونها امتنانهم والتي وجدت في كهف بورشينا (Grotta Porcinara au cap de S. Maria die Leuca (Salento) وجهة واحدة إلى الربة إينو Inô يشكرها على قيادتها السفينة إلى الميناء الصحيح، والفعل المستخدم هو tucházesthai وهو مرادف للفعل stocházesthai (راجع: Hésychius, s.v. "tucházesthai" ، انظر: C. Pagliara, "La Grotta Porcinara al Capo die S. Maria die Leuca, I., Le iscrizioni", Annal dell' Università di Lecce: Facoltà di Lettere e Filosofia, VI, 1971-1973, p. 20-21.

(١٥١) أفلاطون، القوانين Platon, Lois, 961 e-962 a..

(١٥٢) 962 . d.

(١٥٣) انظر ما سبق ص ١٤٧-١٥١.

(١٥٤) انظر موسوعة «سودا» «الحصن» Souda, s.v. "tekmairómenos"

(١٥٥) Alcmeón, fr. 1 dans Pitagorici, I, p. 147-148 éd. M. Timpanaro Cardini انظر

H. Diller, *Hermes* 67, 1922, p. 14-42.

A. J. Festugière, *Hippocrate. L'Ancienne Médecine*, Introduction, traduction et ^{١٥٦} *commentaire*, Paris, 1948, p. 44, n. 42.

Anc. Médecine, 9. ^{١٥٧}

Régime des maladies aiguës [Appendice au traité 9] (Litré, II, 434, 16). ^{١٥٨}

Épidémies, I, 10 (Litré, II, 668-670). ^{١٥٩}

^{١٦٠} polutropie و مؤلف كتاب: Régime des maladies aiguës (Litré, II, 434, 16) يتحدث عن
و عن poluschie عندما يذكر تمهيداً للنقد جهود أبناء «مدينة» كنيديوس Knidos في تصنيف
الأمراض وتقسيم المجموعات الأكبر إلى مجموعات أصغر.

Des lieux de l'homme, 44 (Litré, VI, 338) ^{١٦١}

Traité des Maladies, I, 5 (Litré, VI, 146-150) ^{١٦٢}

L. Bourgery, *Observation et expérience chez les médecins de la collection hip-* ^{١٦٣}
pocratique, Paris, 1953, p. 237; 243-244, et P. Kucharski, "Sur la notion py-
thagoricienne de kairós", *Revue Philosophique*, 1963, p. 141-169.

epikratein. ^{١٦٤} Le Traité de l'Art, 8 (Litré, VI, 14, 1-3) وفيها كلام عن.

L. Bourgery, o. c., p. 220.: ^{١٦٥} Le Traité de l'Art, 7 (Litré, VI, 23-26) وانظر:

^{١٦٦} بهذه الصفة وصف بيندروس أركيسيلاس القريني، بعد أن امتدح قبل أبيات سبقت (٢٦٢) ما
عبر عنه بالعبارة (Pythiques, IV, 270) orthóboulos metis

Tekmairesthai toîsi xúmpasi semeioisin: Promostic, 24 et 25 (Litré, II, 188, 2-3; ^{١٦٧}
9).

Anc. Médecine, 9. ^{١٦٨}

Traité de l'Art, 5 (Litré, VI, 8, 19-20) ^{١٦٩}

^{١٧٠} أفلاطون، الجمهورية 360 e-361 a. Platon, *République*,

Epinomis, 976 a. ^{١٧١}

Ibid. ^{١٧٢}

^{١٧٣} Aristote, *Éthique à Nicomaque*, VI, 7, 1141 a 25, 27; و 5 تشير إلى الاستخدام
السوقي لـ phronesis في نظرية الحرص عند أرسطوطاليس؛ وبأوبينك شدد بحق على هذا المعنى. P.

Aubenque, o. c., p. 23-24.

W. Nestle, "Gab es eine ionische Sophistik?", *Philologus* 70, 1911, p. 258 انظر (١٧٤ sq; J. S. Morrison, "An Introductory Chapter in the History of Greek Education", *Durnham University Journal* 41, 1949, p. 55-63; G. B. Kerferd, "The First Greek Sophists, *Classical Review* 64, 1950, p. 8-10; J. Bollack, *Les Sophistes dans "Athènes au temps de Périclès"*, coll. *Âges d'or et Réalités*, Paris, 1963, p. 310-229.

Plutarque, *Thémistocle*, II, 6. (١٧٥) پلوتارخوس

R. Lattimore, "The Wise Adviser in Herodotus", *Hérodote*, VIII, 57-58 انظر (١٧٦ *Classical Philology* 34, 1939, p. 24-35.

Eschyle, *Perses*, 361-362. (١٧٧) إيسخيلوس، الفرس

Plutarque, *De Herodoti Malignitate*, 869 f. انظر (١٧٨) وكان الاسبرطيون يعجبون بما لدى
ثيموبيستوقليس *Thémistocle* من حكمة وفطنة.

Sophocle, *Philoctète*, 1049. (١٧٩) سوفوكليس

Diogène Laërce, II, 66. (١٨٠)

Thucydide, I, 138, 3. (١٨١) ثوقيديديس

A. Rivier, *Un Emploi archaïque de l'analogie chez Héraclite et Thucydide*, *Lausanne*, 1952, p. 41 a 11-14. (١٨٢)

Aristote, *Rhétorique*, III, 1412 a 11-14. (١٨٣) أرسطوطاليس، الخطابة

Il., III, 108-110 انظر أيضاً (١٨٤) Il., I, 343; XVIII, 250; Od., XXIV, 452.. (انظر ما سبق ص ٢٥-٢٧)

Euripide, fr. 973 Nauck 2; *Hélène*, 757; Antphon, in FVS7, II. p. 337, 18-20. (١٨٥) في
الموسوعة المنسوبة إلى أبوللودوروس [Apollodore] *Biblioth.*, III, 3 نجد العبارة نفسها *árista*
eikásai تدل على المعرفة الخاصة بالعراف.

A. Rivier, o. c., p. 47 n. 17; De Romilly, "L'Utilité de l'histoire selon Thucydide", (١٨٦
dans *L'Histoire et les Historiens*, *Vandoeuvres-Genève*, 1956, p. 41-66; F. Chatelet, "Le Temps de l'histoire et l'évolution de la fonction historienne", *Journal de Psychologie*, 1956, p. 355-378.

G. Cambiano, *Platone e* (١٨٧) 4, 4a عن تحليل شامل لمشكلات التقنية عند أفلاطون ارجع إلى

le technique, Torino, 1971.

A. J. Festugière, Hippocrate. L'Ancienne **ملعوظات فيستوجير** ٥٥ e sq (١٨٨
Médecine, Paris, 1948, p. 41-43.

56 b-e (١٨٩

J. Bollack, in: Revue des Études **وانظر** Il., XV, 409-411.; Archiloque, fr. 44 Diehl. (١٩٠
Grecques, 1968, 550-554.

L'Ancienne Médecine, 4. (١٩١

P. Aubenque, "La Prudence chez Aristote ", Paris, 1963, P. 23-24; 40-41; 101-102; (١٩٢
etc **وانظر** R. A. Gauthier dans: Revue des Études Grecques, 1963, 265-268 **واجابة**
أوبينك .P. Aubenque, "La Prudence aristotélienne porte-t-elle sur la fin ou sur les **أوبينك**
moyens?", ibid., 1965, p. 40-51.

P. Aubenque, "La Prudence chez Aristote ", Paris, p.23-24. (١٩٣

P. Aubenque, art. cit., Revue des Études Grecques, 1965, p. 48. (١٩٤

Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 13, 1144 a 24-25. (١٩٥

Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 7, 1141 a 27-28. (١٩٦

(١٩٧ هل الحيوانات ذكية أم لا؟ يمكن أن تكون لها قدرة معينة على التفكير، أن يكون لها شكل معين
من أشكال الذكاء؟ ذلك سؤال مفتوح طال الجدل حوله في المدارس الفلسفية بين الرواقيين
والإبيقوريين ومثلي الأكاديمية. ونجد في رسالة **پورفوروس** Porphyre عن الاجتناب **Traité de**
Absténence لصدى هذه المجادلات في الكتاب الثالث، **حيال عالم الحيوان** . **انظر**, Urs Dierauer,
Tier und Mensch im Denken der Antike, Verlag Grüner, Amsterdam, 1977.

P. Aubenque, "Science, culture et dialectique chez Aristote", in: Actes du Congrès (١٩٨
de l'Association Guillaume Budé (Lyon, 8-12 sept. 1958), Paris, 1960, p. 145. .

(١٩٩ **أرسطوطاليس** Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 3, 1139 b 22-24.

المحتويات

صفحة

٣ مقدمة المترجم
٩ مقدمة المؤلفين

القسم الأول ألاعيب الدهاء

الباب الأول

١٩ سباق أنطيلوخوس
----	----------------------

باب الثاني

٣١ الثعلب والأخطبوط
----	------------------------

القسم الثاني الاستيلاء على السلطة

باب الثالث

٥٣ معارك زيوس
----	------------------

باب الرابع

 الاقتران بميتيس
٨٥ ومملكة السماء

القسم الثالث أصول العالم

باب الخامس

١٠٥ الدهاء الميتيسي الأورفيوسي وحبار ثيتيس
-----	----------------------------------------------

القسم الرابع
العلوم الإلهية :
أثينة .. هيفايستوس

الباب السادس

عين البرونز ١٣٥

الباب السابع

الشكبة اليقظة ١٤١

الباب الثامن

زاغة البحر

الباب التاسع

قدما هيفايستوس ١٩١

القسم الخامس

الخلاصة

الباب العاشر

الدائرة والقيّد ٢٠٧

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٣٩٠٠

التقييم الدولي X-029-322-977

دار روتاهريت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



مارسيل ديتيين
جان بيير قرنان



حيل الذكاء دهاء الإغريق المينيسر

ترجمة: دكتور مصطفى ماهر



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

Bibliotheca Alexandrina



02933382